



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة زيان عاشور - الجلفة -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية



القسم: التاريخ وعلم الآثار

الشعبة: تاريخ

ركب الحج المغاربي

خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراة في الطور الثالث (ل.م.د)

تخصص: تاريخ بلاد المغرب الحديث

إشراف:

أ.د: مصطفى عبيد

إعداد الطالب:

إبراهيم خالدي

لجنة المناقشة:

الصفة	مؤسسة الانتماء	الرتبة	الأستاذ
رئيسا	جامعة زيان عاشور - الجلفة -	أستاذ التعليم العالي	أ.د/مقيدش علجية
مشرفا ومقررا	جامعة المسيلة	أستاذ التعليم العالي	أ.د/عبيد مصطفى
ممتحنا	جامعة زيان عاشور الجلفة	أستاذ محاضر أ	د/يوسف الطيب
ممتحنا	المركز الجامعي آفلو	أستاذ التعليم العالي	أ.د/كمال مايدي
ممتحنا	جامعة المسيلة	أستاذ التعليم العالي	أ.د/قاصري محمد السعيد

الموسم الجامعي: 1446-1447هـ/2025-2026م



الإهداء

إلى والدي الكريمين متعهما الله بالصحة والعافية ، وإلى كل أفراد عائلتي الكريمة
إخوة وأخوات ، وإلى رفيقة الدرب أم محمد التي حملت معي همّ الطريق وفرح
الوصول ، وإلى ابني الصغير محمد ريان وكل من ساهم في هذا العمل من قريب أو
بعيد .

كلمة شكر

أتقدم في هذا المقام بالشكر لله سبحانه وتعالى على تيسيره وتوفيقه لنا في انجاز هذه الدراسة، والشكر ثانيا للأستاذ الدكتور: مصطفى عبيد الذي ساهم مساهمة كريمة في مختلف مراحل هذه الدراسة، دون أن أنسى جميع الأساتذة والإخوة الذين ساعدوني وأفادوني.

-كلّ في ميدانه-

جزى الله الجميع خير الجزاء.

قائمة المختصرات الواردة في الدراسة باللغة العربية:

الرمز	المعنى
ص	صفحة
ص ص	صفحات عديدة متلاحقة
ط	طبعة
ج	جزء
ب-ت	بدون تاريخ
مج	مجلد
غ.م	غير منشور

قائمة المختصرات الواردة في الدراسة باللغة الفرنسية:

n	numéro
p	page
pp	Pages continues
r.o.m.m	Revue de l'occident musulman et de la méditerranée
r.f	Revue africaine
t	tom
s.d	Sans date
edt	édition

مقدمة

من المعلوم أن أهل البلاد المغاربية، عبر تاريخهم الإسلامي - عُرِفُوا بحرصهم الكبير على أداء فريضة الحج، باعتبارها ركنا من أركان الإسلام -لمن استطاع إليه سبيلا - أولا، ثم لما يتوافر لهم في هذه المناسبة من فرص اللقاء والتواصل مع إخوانهم المسلمين، من جميع أنحاء المعمورة، في إطار الإخوة الإسلامية، وصلة رحم العقيدة، بالإضافة إلى أن رحلة الحج ذهابا وإيابا تتخللها لقاءات مع طلبة العلم وشيوخه، فتتحقق الاستفادة والإفادة، ويتحقق التواصل الديني والثقافي والحضاري بكل مستوياته، عبر عملية الأخذ والعطاء.

لذا فإن فريضة الحج في الإسلام، تعتبر كما ذكرنا، من أهم الدوافع الأساسية التي دفعت آلاف الحجاج من هذه الأقطار للسفر كل سنة إلى الديار الحجازية لإقامة هذا الركن. وبالتالي فلرحلة الحجازية أهمية بالغة في الرصيد التراثي للمغاربة عموما، فقد كانت دأب الفقراء والعلماء والأدباء والأمراء والعامة منهم، والذين كانوا يشدون الرحال إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج وزيارة البقاع المقدسة ضمن قافلة تسمى "ركب الحجيج".

وعليه يسعى هذا البحث إلى استبيان الملامح العامة لقافلة الحج وأثارها على حواضر المغرب العربي، وبالرغم من أهمية المصادر التي خلفها علماء هذه البلدان من مؤلفات عديدة شملت ميادين المعرفة، فإن "ركب الحج" بالنسبة لهذه المنطقة لايزال بحاجة إلى دراسات رصينة تقدم نظرة علمية حول تاريخه ومساراته، وآليات تنظيمه، وأثاره الاقتصادية والثقافية على المجتمع المغربي. فلقد كان أهل المغرب العربي أنموذجا حيا في الصبر وتجرع الويلات في سبيل أداء هذا الركن، حيث اعتبروا الحج غرضا ساميا ونبيلًا، مع كونه فريضة فرضها الله سبحانه وتعالى على المسلمين، فشُغِفُوا به وارتحلوا إليه.

غير أن هذا الارتحال المنتظم لم يعرف نشاطا كبيرا إلى مع القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، حيث ازدادا عدد الملتحقين به، وتم انتظامه سنويا رغم قلة الوسائل وبُعد

الشُّقة، وأمام شح المعلومات المتعلقة بتاريخ الحج عموما خاصة في بلاد تونس وطرابلس الغرب وشنقيط خلال هذه الفترة. فإننا ارتأينا أن نتناول هذا الموضوع من خلال أبعاد ثلاثة:

أولاً: البعد التاريخي للحج بالنسبة لبلاد المغرب عموماً.

ثانياً: رحلات الحجية المغربية وانتظامها إلى مكة خلال الفترة المدروسة.

ثالثاً: رحلة ركب الحج وتأثيراتها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد المغرب العربي خلال الفترة المدروسة.

وبهذا فإن بعض أعلام الركب ومادونوه في رحلاتهم الحجازية يعتبر خزاناً معرفياً ومصدراً هاماً لاستجلاء الكثير من الأمور الغامضة، لاسيما المعالم الجغرافية، وتاريخ الجماعات البشرية التي يمر بها الركب ذهاباً وأوبة، مما يسهم في سد كثير من الفراغات العلمية التي تعترض الباحث في دراسة التاريخ الديني والاقتصادي والاجتماعي والثقافي لتلك الجماعات، فمادة نص الرحلات غزيرة متفردة. إذ تسلط الضوء على شتى مناحي الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لسكان مسار الركب؛ بل وتزخر أحياناً كثيرة بمعلومات فقهية وشرعية تكون على شكل محاورات ومراجعات علمية بين العلماء ومستقبليهم من علماء أو غيرهم.

أهمية البحث وأهداف الدراسة: لم يُشَنَّ أهل المغرب العربي عن الحج بعد المشقة و لا عِظُم المشقة، متجشمين عناء السفر الطويل، ومخاطر الطريق، وتقلبات الأحوال، مفارقة الأهل والخلان والأوطان. فكان الاهتمام إلى لَم شمل الحجاج ورواحلهم ضمن قافلة كبرى موسمية، تحاكي مجتمعا منظما، شكلت ما يعرف بـ: "ركب الحج" ذلك الإطار المنظم هو موضوع هذه الدراسة أي "ركب الحج بالمغرب العربي خلال القرنين الـ17 والـ18 الميلاديين".

وتكمن أهمية الموضوع في كونه يرصد ظاهرة دينية في منطلقها (الحج إلى بيت الله الحرام)، لكنها في الحقيقة تأخذ أبعاداً تاريخية واجتماعية وثقافية وتجارية وحتى إنسانية. كما أن

الحج إلى بيت الله الحرام اعتبر لقرون خلّت الوسيلة الهامة في تدعيم التقارب الحضاري والاجتماعي بين الأفراد والجماعات الإسلامية.

ومن المَرَجُو كذلك أن يُعْطى هذا الموضوع فترة زمنية هامة من تاريخ بلدان المغرب العربي في العصر الحديث. ألا وهي فترة ارتباط أغلب بلدانه ما عدا المغرب الأقصى وشنقيط بالخلافة العثمانية، فيُجَلِّي النظرة الرسمية للسلطة العثمانية المحلية حيّال ركب الحج خاصة في إيالة الجزائر، ويبرز مدى مساهمتها في الاعداد أو التنظيم أو التوجيه له.

02- دوافع اختيار الموضوع: لقد اخترت هذا الموضوع للدراسة لعدة أسباب ودواعٍ، أذكر منها دوافع شخصية ذاتية وأخرى علمية موضوعية نذكر منها:

01 - الأسباب الشخصية: والتي نسردها كالتالي:

- أن الأستاذ الدكتور "مصطفى عبيد" بصفته المشرف على عملي هو أول من لَقَّنت انتباهي نحو أدب الرحلة ومسارات الركب ببلاد المغرب العربي، خصوصا الرحلة الحجازية، حيث كلفني بانجاز هذه الدراسة والتي تتمحور حول: "ركب الحج المغاربي إمارته وتنظيمه وأدواره"، ومن هنا بدأت ملامح رؤيتي للموضوع تتضح أكثر بعدما تصفحت فهارس بعض الكتب والمراجع التي حصلت عليها، وتكونت لدي فكرة عن هذا الموضوع.

- بَعْد اختيار الإطار الجغرافي الذي سأخوض فيه بحثي، بدأت بالتفكير في الفترة الزمنية التي تمثل مرحلة هامة من تاريخ المغرب العربي الحديث من جهة، ومن جهة ثانية توفر لي المادة العلمية من مصادر ومراجع، ما دفعني إلى تحديد الإطار الزمني لهذه الدراسة بالقرنين ال17 وال18 الميلاديين حتى تتواءم مع طبيعة المجال الجغرافي محل الدراسة.

- قلة الدراسات والأبحاث التي تناولت الموضوع على الأقل من خلال البحث الذي قمت به في بعض فهارس الرسائل الجامعية.

ب- الأسباب العلمية -الموضوعية - : إن سبب اختياري لموضوع ركب الحج راجع لما يحظى به من -جمالية في مجال الكتابة السردية والأدبية على حد سواء، وكذا لجمال خطابه المشوق النابع من الواقع والبعيد عن الخيال، حيث يجمع بين العلم والفقه والمعرفة والفن والإبداع.

ومما زادني تحفيزا في الاشتغال بهذا الموضوع: كون - الجزئيات التي اخترناها للدراسة من كتب الرحلات الحجازية المغاربية، والتي تعد من مصادر التاريخ والاجتماع وحتى الفقه والآثار، وكونها تضيف الكثير من المعلومات عن الأحداث، وتقدم وصفا للأماكن والشخصيات.

ولأن كاتب الرحلة يستقي هذه المعلومات والحقائق من المشاهد الحية والتوصيف المباشر؛ مما يجعل قراءتها ممتعة ومسلية في آن واحد، والاشتغال بها مفيد وغني.

-إشكالية البحث: بعد أن تبلورت لدي فكرة البحث، بدأت في صياغة الموضوع وفق المادة التي قمت بتجميعها، وقد حملني هذا على طرح جملة من التساؤلات تتمثل في:

- إلى أي حد مثل ركب الحج المغاربي، في تنظيمه البنيوي وتأثيره الثقافي والاقتصادي، تجسيدا لسيادة الدولة، وتأكيدا للهوية في فضاء جغرافي مضطرب؟

وتفرعت عنها إشكاليات ثانوية جاءت على النحو الآتي :

- كيف شكل ركب الحج تجسيدا حيا للوحدة الدينية لبلدان المغرب العربي في ظل التشرذم السياسي الذي عرفته خلال الفترة الحديثة؟

- هل استطاع الركب أن يكون جسرا ثقافيا يعيد ربط المغاربة بمراكز العلم بالشرق خاصة بالأزهر والحرمين الشريفين؟

- كيف أستخدم ركب الحج كأداة لترسيخ الشرعية السياسية لدول المغرب العربي، وما هو تأثير الصراعات والتحالفات على أمن وسلامة حجاج هذه البلدان؟

الدراسات السابقة:

- محمد المنوني. ركب الحجاج المغربي، مطبعة المخزن، تطوان، المغرب الأقصى، 1953م

- أحمد بوسعيد. ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أحمد دراية، أدرار، الجزائر، 1438-1439/2017-2018

- المنهج المتبع في البحث: أما منهجنا في هذا العمل فهو: منهج ينطلق من الجمع والتحقيق ليشفعهما بالمقاربة والتأويل معتمدا الوصف التحليلي، قارئاً لبعض النصوص التاريخية.

فالمنهج التاريخي الوصفي يلاءم طبيعة الموضوع المعتمد على وصف وسرد مجريات وظروف رحلة ركب الحج، و ما يحيط بها من أحداث ومستجدات، وإحصاء مكونات الركب ومحطاته واستعراض التأثيرات الاجتماعية والثقافية ضمن الركب وخارجه، واستقراء المواقف المختلفة الجماعية والفردية لحجيج بلدان المغرب العربي من الأحداث المتزامنة مع رحلة حجهم؛ أما الأسلوب التحليلي فقد وظفته في دراسة المادة العلمية التي تتركز بها المصادر التاريخية المتمثلة في الرحلات الحجية المدونة، ومن ثم تحليلها ونقدها بحثا عن حقيقة التطور التاريخي لركب الحج المغربي خلال الفترة الحديثة، والوقوف على أهمية هذه المناسبة في تعزيز عرى التعاون والتضامن بين ساكنة المغرب العربي، واستنتاج الأفعال وردود الأفعال اتجاه الظروف المحيطة برحلة الحج من بدايتها إلى نهايتها.

ويقوم منهجي عموماً في هذه الدراسة على ثلاث مراحل كبرى:

المرحلة الأولى: جمع المادة العلمية ؛ بحيث استقرت جُملة من الكتابات السابق في هذا المجال، لتحديد المتون التي ساعتمدها أساساً لدراسة، والتعرف إلى الأبحاث والدراسات السابقة، وقد تبين لي بعد البحث والتنقيب أن اشتغل على عدد لا بأس به من الرحلات الحجية المتنوعة، بحيث أن كل رحلة تمثل الإقليم الذي ينتمي إليه مؤلفها ومنها: الجزائرية والمغربية و الشنقيطية، ومما يؤسف له أنه لا توجد رحلات تونسية وطرابلية (ليبية) مدونة تغطي الفترة المدروسة، مادفعني إلى الإستعانة ببعض الرحلات المدونة القريبة من المجال الزمني للدراسة.

وهي كالاتي: - رحلة الحسين الورثيلاني وعبد الرحمن المجاجي من الجزائر ورحلات أبوسالم العياشي وأحمد بن ناصر الدرعي ومحمد بن عابد السلام، وابن الطيب الفاسي من المغرب الأقصى بالإضافة إلى رحلة الحاج محمد البشير البرتلي من بلاد شنقيط.

وقد جَمَعْتُ من هذه الرحلات، كل المعطيات والإشارات التي تمكنني من القيام بدراسة كل رحلة على حدة، دراسة تمكنني من أن أستثمر ما ورد في متونها في موضوع بحثي.

المرحلة الثانية: التصنيف والترتيب: وبعد جمع متون الرحلات الأنف ذكرها قمت بترتيبها ودراستها باحترام الترتيبية الزمنية، كما قمت في الآن ذاته بتصنيف ما استخرجته من الإشارات والمعطيات تصنيفاً موضوعياً أتناول فيه ما يتعلق بمظهر التواصل الديني والفكري والثقافي والاجتماعي والسياسي.

المرحلة الثالثة: الدراسة والتحليل: وهذه المرحلة أخذت مني وقتاً وجهداً مضاعفين، قمت فيها باستنتاج النصوص ومقارنتها من أجل رسم صورة عن المجتمع الإسلامي في تلك المرحلة من الناحية الدينية والاجتماعية والسياسية والعلمية والفكرية والثقافية وحتى العمرانية والسكانية...بحيث أجمع ما كتب في الموضوع الواحد في الرحلات كلها إن أمكن، وأقارنها

بما ورد في غير هذه المتون، سواء في مصادر التاريخ العام، أو مصادر أخرى ككتب التراجم والنوازل والفقهاء وغيرها... وقد افادني كثيرا في كل هذا كتابات من سبقني إلى هذا الموضوع.

خطة البحث: لقد آثرت تبعا لهذا الاختيار أن أجعل من هذا العمل موضوعا مقسما إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: يتناول الشرح المفاهيمي لحدود التقاطع بين مصطلح الركب والرحلة مروراً إلى الرحلة الحجازية في منظورهم العام والاصطلاحي، كما حاولت الإلمام بمفهوم الرحلة عموماً والرحلة الحجازية بشكل خاص، وتحديد المصطلحات الأساسية التي تلامس موضوع الدراسة. حيث تضمن الفصل الأول ثلاثة مباحث: استعرضت في المبحث الأول: شرح مفاهيمي لهذه المصطلحات.

ثم تناولت في المبحث الثاني الظروف السياسية والاجتماعية ملمحاً لبعض الأمور الحضارية لبلدان المغرب العربي، وذلك بوضع لمحة عن الأنظمة السياسية لهذه البلدان، مُعرجاً على الملمح الاجتماعي والاقتصادي لشعوبها خلال الفترة المدروسة؛ أما المبحث الثالث: فتعرضت فيه لأشهر البيوتات العلمية التي ساهمت في تكوين بنية الركب من خلال تولي تسيير الإمارة، وأضفت لها إبراز مدى تعلق شعوب المغرب العربي بالحج والمخاطرة من أجل أدائه.

الفصل الثاني: جاء تحت عنوان " ركب الحج المغاربي - البنية والتنظيم -

فالمبحث الأول: كان عملي فيه منصبا على: تحديد تنظيم الركب مُركزا على ظروف النشأة والتطور، وآليات التنظيم والتجهيز والمكونات الهيكلية للقافلة الحجية .

وفي المبحث الثاني: عرجت على الطرق والدروب التي كان يسلكها الركب الحجى باختلاف منطلقاته، وركزت على إدراج أنواع وأصناف هذا الركب حسب كل دولة ينتمي إليها، مستشهدا ببعض الرحلات الحجية المدونة على اختلاف أصنافها برية أو بحرية.

أما المبحث الثالث: فتناولت فيه إمارة الركب من حيث شروط التولي وأهم أمراء الركب ودورها في ضبط وتنظيم وإنجاح الرحلة الحجية.

الفصل الثالث: جاء تحت عنوان "الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه". استهلته بالمبحث الأول: الذي أوردت فيه مختلف المنشآت والمرافق الخدماتية التي كانت تسهر مختلف السُلط المركزية في بلدان المغرب العربي ومصر والحجاز بتوفيرها لركب الحج ؛ أما في المبحث الثاني: فقامت بتحديد الموارد المالية التي تدعم الركب، حيث قسمتها إلى قسمين: موارد رسمية وغير رسمية وهي الأساس مثل (مؤسسة الحرمين الشريفين، صرة الحرمين، تبرعات مؤسسات الزوايا والمريدين).

والمبحث الثالث: ذكرت فيه ميادين تأثر الركب من خلال الوقوف على تجليات التواصل وميادينه المتنوعة وذلك من خلال تحديد آليات ومضامين التواصل بين الركب ومحيطه.

الفصل الرابع والأخير والمعنون ب: ركب الحج "الآثار والمعوقات" فإنني نبهت في المبحث الأول على المعوقات المتنوعة والكثيرة التي كانت تحول دون السير العادي للركب الحجى، حيث قسمت هذه المعوقات والصعوبات إلى: طبيعية وأمنية ووبائية (الأمراض والأوبئة)، وفي المبحث الثاني عرضت الجهود الرسمية المبذولة لتنظيم وإدارة وحماية ركب الحج، مركزا على موقف الحكومات المغاربية (السلطة المحلية) من الصعوبات التي تعترض سبيل الركب، ما دفعني بالاستشهاد في المبحث الثاني: بجهود العثمانيين بصفتهم السلطة العليا للإيالات المغاربية العثمانية وإيالة مصر وشرافة الحجاز، وإبراز دروهم في إدارة وتنظيم شؤون الركب وذلك بتأمين المسالك وتسهيل عبور الحجاج.

أما في المبحث الثالث: فركزت على إقامة الركب ومن خلاله الحجيج بالحرمين الشريفين، وذلك بتحدي بعض أنشطتهم الرئيسية خلال مدتهم هناك، مركزا على النشاط الرئيسي المتمثل في النشاط العلمي من خلال ما يعرف "بالملازمة والمجاورة"؛ كما عرجت بعدها على ظروف ومشاعر فراق الحرمين الشريفين بعد الانتهاء من تأدية الركن، مستشهدا ببعض ماورد في متون الرحلات الحبية المدونة التي وصفت مشاعر الحجيج وهم يفارقون الديار الحجازية المقدسة آييون لأوطانهم الأصلية.

صعوبات البحث:

- ضرورة الإلمام بأحوال وأخبار بلدان متعددة خاصة (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب، مصر، الحجاز)، خلال فترة الحكم العثماني الواسعة، لأنها كانت محطات عبور رئيسية لركب الحج المغاربي، والتي قد يمكث بها لفترات طويلة، وذلك من خلال جمع أخبار حجيج بلدان المغرب العربي، ومقارنتها بما دونه بعض أعلامهم في رحلاتهم الحجازية، وهذا ما يتطلب جهدا مضاعفا.

- عدم التمكن من التوصل إلى جميع مصنفات الرحلات الحجازية خاصة المغربية والتونسية، ما هو متوفر لا يفي بالغرض.

- ندرة المادة التاريخية التوثيقية ذات الصلة بركب الحج، مثل مراسيم تعيين أمراء الركب وتجديد العهد لهم، أو رسائل التوصية من طرف الحكام، أو وثائق الجرد المتعلقة بمعدات ولوازم الركب.

- وأكبر عارض عطل بحثنا هو تزامن الانطلاقة مع فترة الجائحة، والتي فرض معها الحجر الصحي، والذي أدى على منع التنقل وغلق المكتبات ومراكز البحث مما أعاق وعطل انطلاقتنا.

الفصل الأول: ركب الحج المغاربي " رحلة النشأة و مسارات التطور "

الفصل الأول: ركب الحج المغاربي " رحلة النشأة و مسارات التطور ":

المبحث الأول: التقاطع المفاهيمي بين الركب والرحلة الحجية:

أ- مدخل مفاهيمي لشرح حدود التقاطع بين الركب والرحلة الحجية:

01- "الركب": (من المنظور اللغوي): الركب - لغة: رَكِبَ الدَّابَّةَ يَرْكَبُ رُكُوبًا: عَلَا عَلَيْهَا، والاسم الرَّكْبَةُ، بالكسر، والرَّكْبَةُ مرة واحدة. وكل ما علا فقد ركب وارتكب، والرَّكْبَةُ، بالكسر: ضرب من الرُّكُوب، يقال هو حسن الرَّكْبَةِ.

وقال بعضهم: الراكبُ للبعير خاصة، والجمع رُكَّابٌ، وركبانٌ، وركوب.

قال ابن السكيت وغيره: تقول: مرَّ بنا رَاكِبٌ، إذا كان على بعير خاصة، فإذا كان الراكبُ على حافِرٍ فَرَسٍ أو حمار أو بغل. قلت: مرَّ بنا فارس على حمار، ومرَّ بنا فارس على بغل¹.

وقال عمار: لا أقول لصاحب الحمار فارس، ولكن أقول حَمَارٌ.

قال ابن بري: قول ابن السكيت: مرَّ بنا راکب، إذا كان على بعير خاصة، إنما يريد إذا لم تضفه، فإن أضفته، جاز أن يكون للبعير والحمار والفرس والبغل، ونحو ذلك؛ فتقول: هذا راكب جمل، وراكب فرسٍ، وراكب حمارٍ، فإن أتيت بجمع يختص بالإبل، لم تُضَفِ، كقولك ركب وركبان، لا تقل: ركب ابل ولا ركب ابل، لأن الركب والركبان لا يكون إلا لركاب الإبل.

¹ - جمال الدين محمد ابن منظور ،لسان العرب المحيط ،إعداد وتصنيف يوسف خياط ، دراسات لسان العرب ، بيروت ، لبنان ، د.ط، ص :1212.

الفصل الأول: ركب الحج المغاربي " رحلة النشأة و مسارات التطور "

غيره: وأما الركاب فيجوز إضافته إلى الخيل والإبل وغيرهما، كقولك: هؤلاء ركاب خيل، وركاب إبل، بخلاف الركب والركبان.

قال: والركبُ رُكبانُ الإبلِ، اسم للجمع ؛ قال: وليس بتكسير ركب. والركبُ: أصحاب الإبل في السفر دون الدواب؛ وقال الأخفش: هو جمع وهم العشرة فما فوقهم، وأرى أن الركب قد يكون للخيول وللإبل. قال السليكن بن السلَكة، وكان فرسه قد عطب أو عقر:

وما يُدريك ما فقري إليه ، إذا ما الركبُ، في نهب أغاروا.

وفي التنزيل العزيز: "... والركب أسفل منكم...". فقد يجوز أن يكونوا ركب خيلٍ ، وأن يكونوا ركب إبلٍ ، وقد يجوز أن يكون الجيشُ منهما جميعاً.¹

وفي الحديث: بشّر ركب السعاة، بقطع من جهنم مثل قور حسمى.

والركيب: تصغير ركبٍ؛ والركبُ: اسم من أسماء الجمع كنفر ورهط؛ قال ولهذا صغره على لفظه ؛ وقيل: هو جمع ركبٍ، كصاحبٍ وص؛ قال: ولو كان كذلك لقال: في تصغيره رُويكبُون، كما يقال صُويكبُون.

قال: والركبُ في الأصلِ، هو ركبُ الإبل خاصة، ثم اتسع، فأطلق على من ركب دابة. وقول علي رضي الله تعالى عنه: ما كان معنا يومئذ فرس إلا فرسٌ عليه المقداد بن السود، يصححُ أن الركب ههنا ركبُ، الإبل، والجمع أركبٌ وركوب.

والركاب: الإبل التي يُسارُ عليها، واجدتها راحلةً، ولا واحدة لها لفظها، وجمعها رُكبٌ، بضم الكاف، مثل كُتِبَ. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "...إذا سافرتم في الخصبِ فأعطوا الركابَ أسننتها. أي أمكنوها من المرعى ؛ وأورد الأزهري هذا الحديث: "فأعطوا الركب أسننتها".

¹ - نفسه ، ص 1213.

الفصل الأول: ركب الحج المغاربي " رحلة النشأة و مسارات التطور "

قال أبو عبيد: الرُّكْبُ جمع الرِّكَابِ، ثم يُجْمَع الرِّكَابُ رُكْبًا؛ وقال غيره: بغير رُكُوبٍ وجمعه رُكْبٌ، ويُجمع الرِّكَابُ رَكَائِبٌ.

ويذكر ابن الأثير: الرُّكْبُ جمع رِكَابٍ، وهي من الرُّوَّاحِل من الإبل؛ وقيل: جمع رُكُوبٍ، وهو ما يركب من كل دابة، فعول بمعنى مفعول. قال: والرُّكُوبَةُ اخص منه.

والرِّكَابُ: الإبل التي تحمل القومَ، وهي رِكَابُ القومِ إذا حَمَلَتْ أو أريد الحَمْلُ عليها، سميت رِكَابًا، وهو اسم جماعة.¹

الركب: رُكبان الإبل اسم جمع، أو جمع، وهم العشرة فصاعداً، أو قد يكون للخيول

جمعها: اِرْكَبٌ وِرْكُوبٌ والأرْكُوبُ بالضم أكثر من الرِّكْبِ، والرَّكْبَةُ محرّكة أقلُّ، والرِّكَابُ ككتاب الإبل واحدها راحلة.²

02- **الركب: من المنظور الاصطلاحي:** اختلفت المصطلحات التي أطلقها المغاربة على "الرحلة الجماعية" إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. فهناك من استعمل مصطلح "ركب الحج" كان ركب الحج (أو الركب المحمدي أو الركب الإلهي³، أو "ركب الحاج" أو "ركب الحجيج"، ويذكر المؤرخ المغربي محمد المنوني أنه وجد من المؤرخين من استعمل مصطلح "الركب النبوي" وفي مقدمتهم المؤرخان محمد بن أحمد أكنسوس في "الجيش العرمرم" وأبو القاسم الزياني في "البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف"، وهناك من استعمل مصطلحا ربطه بالجهة التي يمثلها⁴.

¹ - نفسه ، ص :1213.

² - مجد الدين الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، المجلد الأول ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، د.ط.، ص:75.

³ - هذان تعبيران أوردهما الهشتوكي: أحمد الهشتوكي، رحلة الهشتوكي، المملكة المغربية، مخطوط المكتبة الوطنية رقم 147ق، ص 25 .

⁴ - محمد المنوني . ركب الحاج المغربي، مطبعة المخزن ، تطوان، المغرب الأقصى ، 1953م، ص ص :07-08.

نستنتج مما سبق ذكره أن المعنى الموائم لمصطلح "الركب"، وذلك من خلال الإشارات الواردة في كتب الرحلات والأسانيد الفقهية المغاربية، واعتمادا على بعض نصوص الفقهاء والرحالة يمكن أن نقول. إجمالاً أن الركب¹ هو: القافلة الجامعة لأشخاص (رُكبان) الراحلين برواحلهم (رُكاب) ومستلزماتهم، السائرة لأداء غرض معين. وهذا ماهو مكرر في مجمل لرحلات.

وهناك مثال آخر لتأكيد العلاقة بين الركب والقافلة، فقد تحدث الرحالة الجزائري الحسين الورثيلاني في رحلته الحجازية عن أحد أشياخه الصالحين وجّولاته ببعض المدن قائلا "...وذات ليلة ذهب لزيارة بجاية، وذهب معه رُكبٌ كبير...".²

أما المقصود بالركب هنا بالذات في موضوع البحث - من حيث معناه الاصطلاحي- فهو: جماعة الحجاج الذاهبين إلى مكة المكرمة، وبالضرورة العائدين منها لاحقين، أو قافلة الحجاج من راكبي الإبل وغيرها من الدواب، الذين يحملون معهم زادهم وأمتعتهم³.

وكانت خدمة الحجيج من أوكد الأمور عندهم، وعلى هذا الأساس ظهرت ركائب الحجيج، والتي أخذت شكل قوافل منظمة. أو هو مسير قافلة الحجاج أو الحجيج، القاصدين بلاد الحرمين الشريفين "مكة والمدينة" من أجل أداء وإتمام مناسك الحج المقررة والمعهود⁴.

¹ - أحمد بوسعيد ، ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني ، أطروحة دكتوراة في التاريخ الحديث والمعاصر ، جامعة أحمد دراية ، أدرار ، الجزائر ، 2017-2018/1439-1438م، ص23.

² - الحسين بن محمد الورثيلاني ، نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب ، مطبعة ببيير فونتانا الشرقية ، الجزائر ، ص418.

³ - دوزي رينهارت ، تكلمة المعاجم العربية ، ترجمة:محمد سليم النعيمي ، دار الرشيد للنشر ، د.ط ، بغداد ، 1980، ج05، ص218.

⁴ - أحمد بوسعيد ، المرجع السابق ، ص24.

وهناك من يرى بأن الركب يحمل كذلك معنى الموكب المتكون رأساً من مجموعة قوافل الحجاج المنطلقة من وطن (إقليم) معين، وكذا المنظمة إليها أثناء السير، والتي تقصد في سفرها الوصول إلى مكة المكرمة لأداء الحج، والتي لها منزلة متميزة¹.

والركب في نظر رحالة آخرين هو "الحملة" المنظمة التي تتكون من مجموعة "قطر"، والقطر جمع قطار، وهو مجموعة من الإبل تُربط ببعضها البعض، مع مراعاة وضع أربعة جمال في المقدمة ويسير كل قطار وراء قطار آخر، حتى أنه يمكن عد المئات منها، بمجموع قد يصل إلى آلاف الإبل. فمن ميزات الركب الترابط والانسجام، كأنه وحدة غير قابلة للتجزئة، لذلك نجد مثلاً الرحالة الورثياني -مثلاً- تأسف لتشتت حال الركب الجزائري في إحدى محطات الطريق بسبب الظروف الطبيعية القاسية التي واجهته².

كما أن صعود الركب (ارتحاله) أو نزوله (توقفه للإستراحة) يعني أن القافلة بحجمها الكبير وبزخم مكوناتها قد ارتحلت أو قد نزلت، بمن فيها وبما فيها³. يقول أحد الشعراء الرّحالين وقد عاين نزول الركب الذي ضمه:

نزل الركب بوادي المنصرف وعلى لقياه كم من مال صرف

نحمد الله الذي جننا له وجميع الهم عنا منصرف.

فالحج باعتباره قيمة ثمينة وسمّة مميزة للمجتمع المغاربي خصوصاً والمجتمع المسلم

عموماً.

¹ - عبد الرحمن عزي ، التواصل القيمي في الرحلة الورثيانية ، المؤتمر الدولي "ثقافة التواصل"، جامعة فيلادلفيا، عمان ، 2009، ص06.

² - الحسين بن محمد الورثياني ، المصدر السابق ، ص423.

³ - أحمد بوسعيد ، المرجع السابق ، ص26.

تحدث فيها مكة بمكانتها و قدسيتها عن قرون من العطاء والتحضر و الريادة، قرون كانت مثوى للعابرين والقاطنين والمجاورين، من العلماء والطلاب والتجار والرحالة...قرون مدت فيها مكة جسور التواصل بين المشرق والمغرب، فسطرت من ذلك سفر خلود لا تنفذ صفحاته ولا تتآكل.

إذا ليس ترفا المسير إليها وإن طال السفر، وليس إطنابا تدبج القصائد في ذكرها، تماما كشقيقتها المدينة المنورة التي شكلت ظهرا وثرأ حمل هويتنا العربية الإسلامية عبر التاريخ.

03: ازدهار الرحلة الحجية المغاربية:

01-03--الرحلة:(من المنظور اللغوي):سنحاول هنا الوقوف على أصل هذه الكلمة ودلالاتها في المعاجم القديمة لنعرف تطورها والمراحل التي مرت عبرها، فقد ورد في لسان العرب لابن منظور: مادة رحلما يلي: "ورحل الرجل إذا سار، و أرحلته أنا، ورجل رحول، وقوم رحل أي مرتحلون كثيرا، ورجل رحال عالم بذلك مجيد له¹، ويفهم من كلام ابن منظور أن الرحلة في الأصل كانت للبعير ثم امتدت مجالاتها وتوسعت لتشمل الإنسان وغيره "فارتحل البعير رحلة سار و مضى ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارتحل القوم عن المكان ارتحالا، ورجل عن المكان يرحل فهو راحل، من قوم رحل انتقل"²، ويسترسل صاحب اللسان في اشتقاق هذه الكلمة ومعانيها قائلا: "والترحل والارتحال الانتقال وهو الرحلة يقال دنت رحلتنا ورجل فلان ارتحل وترحل بمعنى"³ ويستعرض صاحب القاموس اشتقاق هذه الكلمة محاولا التفريق بين الرحلة بالكسر والرحلة بالضم يقول: "الرحلة بالكسر الارتحال للمسير ومنه قوله تعالى: رحلة الشتاء والصيف والرحلة بالضم الوجه الذي تقصده، يقال مكة

13-ابن منظور، مصدر سابق، ج11، ص278.

2- محمد بن أحمد بن المحبوبي، أدب الرحلة في بلاد شنيق خلال القرنين الثالث والرابع عشر الهجري (19-20)-مقاربة

وتنظير-، مطبعة المنار، نواقشوط، 2012، ص11.

3- الفيروز أبادي، مصدر سابق، (مادة رحل)، ص76.

رحلتي أي وجهي الذي أريد أن أرتحل إليه¹، وتتعرز هذه المعاني مع أصحاب المعجم الوسيط الذين اتبعوا سبيل المعجمية العربية القديمة مضيفين معنى جديداً وهو أن "الرحلة" أيضاً تطلق على كتاب يصف فيه الرحالة ما جرى والرحالة الكثير الرحلة والتاء للمبالغة²، فهذه المادة اللغوية إذن تسبح في فلك الانتقال والظعن والضرب في الأرض والانتشار فهي متسعة الوحدات متعددة الاشتقاقات (رحل، ارتحل، ترحل، استرحل) مما قد يكشف عن تعاضد أدب الرحلة عند العرب؛ ذلك أن زيادة الوحدات اللغوية والمعجمية في حقل معين غالباً ما تصحبه زيادة في السيولة والتداول فالأمر تشتق من الوحدات اللغوية عادة على قدر ما تستهلك.

02-03- الرحلة في المنظور الاصطلاحي: أمّا في الاصطلاح فإنّ أدب الرحلة. قد عرفه الإمام أبو حامد الغزالي بأنهما: نوع حركة ومخالطة أو نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة، وأوضح أن القواعد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب، وأن الإنسان لا يسافر إلا في غرض أو لعرض هو المحرك، والرحلة كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده و ما عاشه مازجا بذلك انطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم.³

وقد ترجم المعنى للمصطلح الفرنسي⁴ « **littérature de voyage** »، ويقصد به غالباً ذلك المنتج الفني الذي يروم التنظير للخطاب المتعلق بالرحلات الأدبية، ذلك الخطاب الذي يجوب البلاد ويقطع المسافات ويضرب في الأرض عبدة واستبصاراً أو حفاً واعتماراً وربما نزهة واستطلاعاً، أو طلباً للعلم واكتساباً لعروض التجارة واقتناء للبضائع والدراهم، فأدب الرحلة من هذا المنظور يعتبر: "صياغة أدبية يعبر الأديب من خلالها عن ما أحس

¹ - محمد بن أحمد بن المحبوبي، المرجع السابق، ص 13.

² - إبراهيم أنيس وجماعته، المعجم الوسيط، ج 01، دار الفكر، د. ط، ص 335.

³ - أبي حامد أحمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 02، دار الكتب العلمية، ط 01، بيروت، 1986، ص 27.

⁴ - SANAE EL OUARDHI ET SORAYA SBIHI . littérature de voyage ou voyage de littérature ; revue languées ,cultures et sociétés , vol04,numéro 01 ;Maroc ; juin 2018,p58.

به وهو يجوب الآفاق مكتشفا ومتعلما مزاجا بين الشعر والنثر¹، ولا بد من التنبيه في هذا المقام إلى أن مفهوم الرحلة مفهوم متشعب متداخل الدلالات والمعاني "فقد يعني مجرد الانتقال من إقليم إلى آخر وقد يعني لونا أدبيا يقوم على علاقة زمنية مكانية تعتمد التقليد الأمين وعرض الخواطر بدقة"².

فالرحلة أصبحت اليوم فنا من الفنون الشائعة المتداولة في مختلف بلاد العالم³، وقد ساعد على ازدهارها اختلاط الشعوب وحب الاطلاع فتضاعف الاهتمام بها واتسعت دائرتها لتشمل الأدب والتاريخ والفلسفة والجغرافيا؛ مما دعا بعض الدارسين إلى القول إن التأليف في الرحلة يقتضي ثقافة واسعة ودقة في الملاحظة⁴.

وبذلك تتجلى الرحلة في أبهى معانيها وأبدع صورها آخذة بالألباب لائذة بالقلوب عبر تلك الإشارات المتأنية من الوصف الطريف للوقائع والسرود الفني للمغامرة الإنسانية.

واعتمادا على ما سبق يمكن القول إنّ الرحلة الأدبية تعتبر ملتقى للفنون والمعارف ومعرضا لكل أنواع العلوم إذ تتصل بمعارف كانت من صميم الجغرافيا كعلم السكان والتجارة والاقتصاد دون أن تهمل ميدان السياسة و الاجتماع والتربية واللسانيات وغيرها فهي كثيرا ما تهتم بالعادات والتقاليد وتعنى بتحديد الفروقات بين الشعوب والمجتمعات مشيرة إلى الاختلاف في أنماط الحكم والعلاقات بين الحاكم والمحكوم⁵، فالرحلة بهذا المعنى صلة وصل بين الثقافات المختلفة "إنها وسيلة من وسائل التقدم والتطور وأداة تفاعل حضاري كما تؤكد رحلات الطهطهاوي والتونسي "والشدياق"⁶.

¹ - الحسن الشاهدي، أدب الرحلة في المغرب العصر المريني، منشورات دار عكاظ، 1990، ص: 41.

² - حوليات الجامعة التونسية، العدد 10، 1973، ص 83

³ - COLLES LUC ,littérature comparée et reconnaissance interculturel, Bruxelles ,deboeck- dculot,1994.p :65.

⁴ - عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ص 191.

⁵ - مجلة الفكر العربي. عدد خاص بالرحلات العربية والرحلات، يونيو 1988، العدد 51، ص 06.

⁶ - محمد بن احمد بن المحبوبي . المرجع السابق، ص 13.

وزيادة على ذلك تبدو الرحلة ميدانا معرفيا غنيا بالدلالات والرموز ومجالا خصبا يشي بقصة جهود الإنسان وجهاده، ساعيا إلى اكتشاف مجاهل الكوكب الأرضي مرتادا آفاقا جديدة رغبة في إدراك بعض أسرار الكون وأملا في الاطلاع على سلوك البشر وطرائق عيشهم، فالسفر درس تجريبي ومدرسة تعلم الناس وترشدهم إلى الصواب، ولعل ذلك ما حمل الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون على القول: "إن السفر تعليم للصغير وخبرة للكبير"¹ كما دفع الشيخ حسين العطار الأزهري إلى التأكيد على أن الرحلة مصدر العجائب وأنموذج البدائع والتجارب؛ فهي في نظره: "مرآة الأعاجيب وقسطاس التجارب"²، وأكثر من ذلك يذهب أحد الأدباء الفرنسيين إلى القول إن الرحلات تشكل أكثر المدارس تثقيفا للإنسان"³، فالارتحال إذا عماد التلاقي والاتصال وأساس المعرفة والاطلاع وبذلك يساعد على تنمية المعارف وتطويرها ويساهم في تهذيب النفوس وتقويم الطباع وتنظيم الحياة، وذلك ما أبان عنه الأستاذ صلاح الشامي الذي اتخذ من عبارة الرحلة عين الجغرافيا المبصرة" عنوانا لكتابه مشيرا إلى أن الرحلة ليست وسيلة اكتشاف فحسب بل هي أيضا جزء أصيل من حركة الحياة على الأرض، إذ تعتبر بحق رباط الاتصال وجسر اللقاء بين الأمم والشعوب وعامل التلاحم والتلاحم بين الحضارات، إذ تعزز أواصر القرابة وتنمي وشائج الرحم مجسدة المفاهيم التي أغرت البشر بالألفة والاتحاد مفجرة في الإنسان استشعار المصالح المشتركة التي وثقت عرى وحدته على الأرض"⁴، حتى يمكننا القول إنه بانعدام الرحلة تنفصم الجماعة و تختل وحدتها وينفطر عقد اتصالها وتتضرر حركة الحياة والمصير المشترك، وإلى هذا المنحى ذهب بعضهما إلى اعتبار الرحلة قطاعا ثقافيا متميزا ورباطا حضاريا وثيقا

¹ - حسين محمد فهيم أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت، 1989، ص92.

² - محمد بن احمد بن المحبوبي، المرجع السابق، 14.

³ - نفسه، ص16.

⁴ - علي صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف، ط02، الاسكندرية، مصر، 1999، ص02.

يروم الوحدة بين الأمم والشعوب ويسعى إلى أغناء التجارب البشرية بفعل التبادل والتحاور، فالرحلة بمثابة شجرة المعرفة وقناة العبور بين الحضارات وهي مذكرات الرحالين تلقي الضوء على الأوضاع المختلفة للبلاد التي زاروا¹

03-03-الرحلة عبر التراث الإسلامي: لقد سلكت الرحلة مع ظهور الإسلام مسارا جديدا هدفه الجهاد والتفقه في الدين والموعظة والعبرة فنزلت آيات تعتب على المؤمنين مشيرة إلى تقصيرهم في النفر ولقاء العدو، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾².

كما وردت آيات تحض على الخروج طلبا للعلم وتفقها في الدين قال تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾³، ونقرأ آيات أخرى تندب إلى المشي في مناكب الأرض والأكل من رزق الله، قال الله تعالى: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾⁴، ونصادف آيات تنادي بضرورة الانتشار في الأرض أملا في الخير والتماسا لفضل الله، قال تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾⁵، وثمة آيات عديدة ترشد إلى التأمل في الوجود وتدعو إلى النظر في ملكوت السماوات والاعتبار بمن في الأرض لنعلم كيف كان عاقبة الذي خلوا من قبل، قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾⁶ وقال جل من قائل: ﴿قد خلت من قبلكم سنن

¹ - محمد بن أحمد بن المحبوبي، المرجع السابق، ص 16

² - سورة التوبة، الآية 38.

³ - سورة التوبة، الآية 122.

⁴ - سورة الملك، الآية 15.

⁵ - سورة الجمعة الآية 10.

⁶ - سورة العنكبوت الآية 18.

فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين¹، وقال أيضا: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها²﴾، وقال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين³﴾، وقال أيضا: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها⁴﴾، إلى غير ذلك من الآيات البينات التي تحض على السفر والمسير، وقد ناقش الشيخ محمد الخضر حسين الأزهري هذا الموضوع مشيرا إلى أن الإسلام لم يترك جانبا من جوانب التقدم والرقى إلا نبه عليها وندب إلى العمل بها، وهذا شأنه في الرحلة فقد دعا إليها راميا إلى أغراض سامية منها طلب العلم والتفقه في الدين والمعرفة بأحوال الأمم الحاضرة⁵.

ويبدو أن التربية النموذجية فعلت فعلها في الرعيل الأول من الصحابة والتابعين أيام تأسيس الدولة الإسلامية الأولى فكان القوم يكثر من السفر والرحيل ليروا آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم والسفر في المنظور الإسلامي سفرا يرى الإمام الغزالي الذي يقول: "السَّفَرُ سَفَرَانِ سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحاري والفلوات وسفر يسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السماوات وأشرف السفيرين السفر الباطن، فالواقف على الحالة التي نشأ عليها عقب الولادة الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد لازم

¹ - سورة آل عمران، الآية 137

² - سورة الروم، الآية 8.

³ - سورة الروم، الآية 42.

⁴ - سورة محمد، الآية 11.

⁵ - حسين محمد فهمي، المرجع السابق، ص 92.

درجة القصور وقائع بمرتبة النقص ومستبدل بمتسع _فضاء جنة عرضها السماوات والأرض -
ظلمة السجن وضيق "الحبس"¹

ونجد الرحالة محمد السنوسي يستفتح كتابه الرحلة الحجازية بما أسماه أنموذج السفر وأورد فيه جملة من الآيات القرآنية مؤكدا فضيلة السفر، مرغبا فيه، مفسرا الحكمة الإلهية من ذلك، يقول: "قاله جلت حكمته لم يجمع منافع الدنيا في أرض واحدة، بل فرق المنافع والجهات وأحوج بعضها إلى بعض، ولذلك كانت الأسفار مما يزيدنا علما بقدرة الله وحكمته ويدعونا إلى شكر نعمته والمسافر يجمع العجائب ويكسب التجارب ويجذب "المكاسب"²

ويذهب صلاح الشامي إلى أن الإسلام قد نظر للرحلة تنظيرا كاملا جعل للمسلمين يتمسكون بزمام الرحلة: "إذ تحمسوا لها في إطار اهتمام رشيد مطمئن وتحولات تبشر بحياة أفضل وحصاد وفير"³.

04- تقاليد الرحلة وآداب السفر: إن للسفر في التقاليد الإسلامية آدابا يلتزم بها المسافر

من أول خروجه حتى يوم عودته، ومن أبرزها المباشرة بالمسير والانطلاق مع الفجر، فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه قائلا: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»⁴، وعند التأهب للمسير لا بد من رد المظالم وإرجاع الودائع وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزم نفقته وتجهيز الزاد، ولا يأخذ له إلا الحلال الطيب وليأخذ قدرا يوسع به على رفاقه⁵، وثمة توصيات هامة تجعل المسافر يقوى أمام خطوب الأيام وحادثات الليالي ويمكن تلخيصها في إسباغ الوضوء وإقامة ركعتين قبل الانطلاق وتكرار الأدعية الماثورة في ذلك.

¹ - الإمام أبو حامد الغزالي، مصدر سابق ، ج 02، ص 296.

² - حسين محمد فهميم، المرجع السابق، ص 91.

³ - محمد بن أحمد بن المحبوبي ، المرجع السابق ، ص 19.

⁴ - أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري المالكي الفاسي ، المدخل لابن الحاج، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ج 04، د.ط، ص 50.

⁵ - أبو حامد الغزالي، مصدر سابق ، ج 02، ص 245.

01-04- الرحلة الحجازية: هي الرحلة المكتوبة التي استهدفت تسجيل مراحل السفر إلى الحجاز، والحديث عن معالم الحج وتأدية مناسكه.¹

والرحلة الحجازية وإن تباعدت أشكالها، وتنوعت أحجامها ونصوصها، تبقى رهينة مجموعة من الثوابت لتعطيها صفة الانتماء إلى صنف الرحلة الحجازية، بمميزاته وخصوصيته، ولتتمثل بها تلك القواسم المشتركة التي تلتقي بها هذه الرحلة مع مثيلاتها في الصنف، رغم تباعد زمنها، وتباين اهتمامات الكتاب لها، وتفاوت طريقة الكتابة والقدرة على الصياغة الأدبية فيها.

وهكذا كانت كل رحلة حجازية مكتوبة عند المغاربة على اختلاف أزممنتها- تقوم ضرورة على تمثل هذه الثوابت، ولو في أدنى مستوياتها، وهي:²

أ- أنها تقوم على هدف أساسي، هو الذهاب إلى الحجاز، والرحلة إليه، بقصد تأدية مناسك الحج، والقيام بزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وبذلك أخذت تسميتها بالرحلة الحجازية أو الحجية، وتعيين صنفها المميز لها.

ب- أنها تحمل أوصاف رحلة يمثلها الحديث على مجموعة من المراحل، يحدث بينها التنقل والسفر، وتتولد فيها ومعها مختلف المصاعب والمشاكل التي تصادف الراحلين عادة، في البر أو في البحر، وتنطلق من المغرب إلى الحجاز ذهاباً، ومن الحجاز إلى المغرب إياباً، مهما اختلفت الطريق، وتنوعت وسائل السفر، ومهما تباينت المراحل التي تتمثل فيها مسالك هذه الرحلة ووحداتها. أن الحديث عن المناسك وطريقة تأديتها، يكاد يكون متشابهاً بين مختلف نصوص الرحلات الحجازية³، لأن الإحرام والوقوف بعرفات والطواف والسعي بين الصفا والمروة، هي الأركان التي قام عليها الحج منذ شرعه الله تعالى للناس.

¹، الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ج1، ص108

²- مصطفى سالم عبد الله حبلوص، أدب الرحلات عند العرب، نشأته وتطوره ابن بطوطة أنموذجاً، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية سلسلة الدراسات التاريخية (95)، ط01، 2009م، الجماهيرية العربية الليبية، ص217.

³- الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ص86

وزيادة على هذا، فإن فترة الحديث عن المناسك، وكيفية تأديتها، تصبح من الضروريات الجارية في كل الرحلات الحجازية، مما يجعلها عملاً ثابتاً تشترك فيه أعمال هذه الرحلات بما فيها الرحلات المختصرة أيضاً، ومميزاً به وبخصوصيته.

ورغم ما يبدو من تفاوت في العرض الحديثي والفقهي بين هذه الرحلة أو تلك، مما يكون الأمر فيه مرتبطاً بخصوصية الكاتب العلمية، ومدى تحصيله الفقهي والحديثي. إنها تحاول أن تسجل ما ينتاب الحاج من شوق وحنين إلى الحج، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يحمله من تسرع في تحقيق رغبة الوصول، وتطلع إلى مواجهة معالم الحج، والزيارة المقدسة.¹

وتحتفظ في الأغلب - رغم تفاوت قدرات كتابتها - برصد آثار المواجهة الأولى لهذه المعالم عند الحاج، وما تحدثه انفعال في نفسه، وهو يشاهد المعالم أول مرة في واقعيتها، بعد أن ظل وجودها لديه ذهنياً، تحمل صورته أحداث السيرة النبوية، وتنقله نصوص الأحاديث النبوية، وتعرف به مقروءاته في الفقه، ومطالعته في المناسك، فيحدث لديه من الأثر في صدمته الأولى أمامها، ما يحول الموقف إلى موقف خشوع وتبتل وعبادة ورهبة وسكينة، ويفجر لديه من الأحاسيس والانفعال، ما تعكسه تلك الآداب والأعمال الشعرية التي ينشدها قصائد من إنتاجه، أو من مقطعات غيره، تعبيراً عن هول هذه الصدمة في المواجهة، وكشفاً عن مخلفاتها في نفسه، وإثارة لما يحمله من وقع هذه المعالم، وقديسياتها في وجدانه ووعيه.

والتعبير عن هذا الموقف، هو أمر لا تكاد تخلو مواد رحلة من الرحلات الحجازية، مما يجعله الثابت المشتركة في عمل الرحلة الحجازية التي أنتجها المغاربة، غير أن نسبته تبقى قائمة، لتفاوت القدرات الأدبية عند أصحاب هذه الرحلات، وطوعية العمل الشعري عند هذا دون ذاك، مما يجعل أمر التعبير عن هذه الآثار والمواقف يتباين بين إيجازها وتوسعتها.

¹ عبد الله حبلوص . المرجع السابق ، ص 219.

ج.أنها تقوم على الوصف وتسجيل ما يجري من أحداث الرحلة، وإن تفاوتت قدرات الوصف أصحابها، وتباعدت قوة الملاحظة والتسجيل بين كتابها، وغالبا ما ينصرف هذا الوصف إلى إبراز بعض الأحداث الأساسية التي يقوم عمل الرحلة بها، ويتركز عليها باعتبارها تشكّل مجموعة من الثوابت تتركب منها هذه الأحداث، وتعطيها صفة التميز على أنها أحداث رحلة ووقائعها، وتبدأ عملية الوصف بأخذ هذه الأحداث في أشكالها التالية:¹

وصف الاستعداد للرحيل، بما فيه وصف حالة الشوق للذهاب إلى الحج، وإلحاحه في قرار الرحيل والحسم فيه، ثم تيسير أسباب الرحيل من تهئى الزاد والعدة للسفر وتوديع الأهل والأصحاب.

وصف مراحل الرحلة وذكر مميزاتها، ويقوم فيها الحديث إن كان السفر في البر، بذكر المسالك ووعورتها، والطريق وأحوالها، وأماكن النزول والمبيت ومميزاتها، ومظان الحاجة من الماء والأزواد وخصوصيتها... إن كان السفر في البحر، يذكر المراسي التي يتم النزول بها، والظروف التي تهيأت للوصول إليها أو الإقلاع منها، والبحث عن المراكب التي هي مهياة للسفر، وكيفية الركوب بها، والمعاملة التي يلقاها الراكب فيها.

-وصف حالة الراحلين أثناء السفر، وما يتميز به الركب المغربي سواء كان بمفرده، أو بصحبة الركب المصري الذي يترافق معه دائما في الطريق من مصر إلى الحجاز ذهابا، ومن الحجاز إلى مصر إيابا.

وصف الحوادث الجارية أثناء الطريق من مرض أو موت أو تيه، وغير ذلك مما يمكن أن تحمله الظروف الطارئة من مطر، واعتراض قطاع الطرق، وسرقة متاع أو نفاذه، وغير ذلك من العوائق التي يصعب معها سير الرحلة.

وصف المجتمعات التي يتم المرور بها، ومسالك طرقها من حاضرة أو بادية، وخلالها يتم التعرف على القرى والشعور والحوضر، ووصف عمارتها وحصانيتها.

إن ما يميز الرحلة المغربية الحجازية، هو تلك الحفاوة التي كان يُستقبل بها العائدون من الحجاز، بل لقد تحول هؤلاء العائدون في كثير من الأحيان إلى مصدر للعلم، يأخذ

¹ - حسين محمد نصار. أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، ط01، مصر، 1999، ص19.

عنهم العالم والطالب، وتشد إليهم الرحال للسمع عنهم واستجازتهم.. وللتبرك بهم والتماس الدعاء منهم، وتنشق عبير الأرض المقدسة في ثيابهم ومحمولاتهم.¹

ح. أنها تركز على ما يمثل التواصل العلمي والاجتماعي بين بلدان المغرب العربي وبقية المجتمعات التي يتم الاتصال بها، وبخاصة الأماكن التي تمتد بها إقامة الحجاج الراحلين، فيكون فيها متسع من الوقت للتعرف على نشاط أهلها الاجتماعي والعلمي، ويكون لأهل هذه المناطق أيضاً مجال أكثر لمعرفة من بركب الحج المار بها، من الشخصيات التي تستحق التعرف عليها، والاستفادة منها، إما في وضعها العلمي المتميز، وإما في وضعها باعتبار ما تحمله من ملامح الولاية والصلاح، فيتبرك بها ويُغتتم دعاؤها.²

ويتمثل عنصر التواصل العلمي الواجهة الأكثر إثارة في أعمال الرحلات الحجازية، فتشترك فيها جميعاً دون استثناء، مع اعتبار نسبة التفاوت بينها.

وتتنوع واجهة التواصل بين المغرب، وبين ما يقع في مشرقه من الحواضر التي يمر بها الراحل إلى الحجاز في طريقه.

وأخيراً كانت عوامل الالتقاء هاته في صنف الرحلة الحجازية، التي أنجزها المغاربة الراحلون، مهما تباعدت فيما بينها، زماناً ومكاناً، ومستوى ثقافياً وأدبياً كثيرة تجعل من نصوصها، رغم كثرتها وتباين أزمنتها وأصحابها أعمالاً ضمن جنس أدبي واحد.

05: تعلق المغاربة بالحج (الرحلة الحبية):

05-01 - النشأة والمسار: حثّ الإسلام على الارتحال ودعا إلى السفر والسياحة في

الأرض طلباً للعلم والمعرفة، والتفقه في الدين، مما جعل السفر تراثاً يتصل بالتاريخ الإسلامي لدى جميع الشعوب الإسلامية، فقد انتشر الإسلام في ربوع الأرض وازدهرت

¹ - الحسن الشاهدي ، المرجع السابق ، ص 62.

² - محمد الحجوي ، الأهداف الدينية والعلمية لرحلة علماء الغرب الإسلامي إلى المشرق ، مجلة المناهل ، العدد 85، المغرب الأقصى ، 2008، ص 207.

الرحلات في عصرنا بعد الفتوحات الإسلامية، ونشطت باتساع رقعة العالم الإسلامي وتنوع منابع المعرفة.¹

لقد حثّ الإسلام على العلم وأصبح العلم في عرف المسلمين فريضة، وطلبه عبادة، والبحث عنه جهادا، وقد اتسع مفهوم العلم عند المسلمين ليشمل نواحي الحياة كلها، فإن المسلمين كفوا بالسعي إليه والرحلة في طلبه، وتبعوا لنوعية الغاية التي يرتحل من أجلها المسلم ((فقد أصبحت الرحلة أمرا واجبا)).²

والرحلة في طلب العلم ظاهرة قديمة، نشأت نشأة الحضارات الكبيرة التي تفاعلت سلما وحربا، وتبادلت فيما بينها عوامل التأثير والتأثر، فكل حضارة لاحقة تأخذ من أصول وروافد حضارة سابقة.

وكثيرا ما كان القيام بفريضة الحج نقطة انطلاق للرحالة الحاج يندفع بعدها إلى السفر في البلاد المختلفة وتفقد عادات أهلها واستقصاء أحوالهم، وبالإضافة إلى نشر الإسلام وأداء فريضة الحج كانت هناك عوامل مساعدة على الرحلة كالتجارة ونقل البريد وجباية الخراج وما إلى ذلك.³

02-05- الرحلات الحجية نحو المشرق: "الدوافع والأهداف"

أ- الدوافع الدينية: تنوعت دوافع الرحلة المغربية إلى سياسية وثقافية وتجارية وعلمية ودينية...، وأما الرحلات التي قام بها المغاربة في اتجاه الشرق، فالباعث الذي يجمع بينها يبقى هو الرغبة في أداء مناسك الحج، وزيارة قبر الرسول والأماكن المقدسة، ويرتبط بهذا

6- عبد الله بن عثمان الياقوت ، أدب الرحلة الحجازية عند الأندلسيين من القرن السادس حتى سقوط غرناطة ، أطروحة مقدمة لنيل الدكتوراة في الأدب العربي ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية، 1422هـ/2001م، ص23.

² - نفسه ، ص24.

³ - عبد الله بن عثمان الياقوت ، المرجع السابق ، ص 25.

الدافع الديني دافع آخر هو الرغبة في تحصيل العلم وملاقة العلماء والشيخوخ والأخذ عنهم، وقد كان المغاربة ينتهزون فرصة الحج لطلب العلم الإجازة.

شكلت الرحلة بالنسبة للمغاربة منذ فجر الدعوة الإسلامية وإشراق شمسها، هاجسا دائم الحضور ومطلبا قوي الإلحاح، ورغبة دفينة للقيام بالركن الخامس من أركان الإسلام. حيث حرص الحجاج عامة، وجل العلماء من المغاربة خاصة على تسجيل رحلاتهم، ووصف مشاهداتهم، وذكر من التقوا بهم من علماء المشرق، ومن في طريق درب الحجاز، وشيوخه، وتدوين ما صادفهم من أحداث، وما تعرضوا له من حوادث ومواقف.

لقد عرف المغاربة من قديم بأنهم متفوقون في أدب الرحلة وموفقون كذلك «ومن المعلوم أن علماء المغرب تفوقوا على المشاركة في هذا المجال، وأن هناك عشرات من المؤلفات عن الرحلات لأولئك العلماء لا تزال مخطوطة، وأن مكتبات المغرب العامة والخاصة تحفل بكثير منها»¹، كما يدل على هذا ما تركوه من بصمات لهم في مختلف كتب التراث العربي، ولعل الموقع الجغرافي هو الذي ساعدهم على ذلك السفر و الترحال، حيث كان المغرب في أقاصي بلاد الإسلام، ويمكن أن نميز بين دافعين أساسيين للرحلات الحجازية عند المغاربة، ويُعتبر الحج أساسه لدى المغاربة عامة، لأنه ركن بارز من أركان الإسلام، ثم لأنهم كانوا أبعد الناس عن الحجاز من جهة الغرب، فكان شوقهم لأداء الفرائض وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من غيرهم، وكانوا يتحملون في سبيل ذلك مشاق السفر، «وهكذا يكون العامل الأول تحقيق الأمل في زيارة تلك البقاع التي تشدنا إليها شداً.... ومن هنا ندرك السر في توجه المغربي نحو الشرق، نحو مهد الحضارة ومهبط الوحي»². ولما كانت رحلة الحج غير متاحة للجميع، فإن هؤلاء العلماء الذين أتيحت لهم فرصة التنقل إلى تلك البقاع، كانوا يشعرون بضرورة التعريف بها، وبمن تضمهم من رجال، أحياء وأموات، بالإضافة إلى وصف المراحل التي منها منذ خروجه من بلده حتى عودته إليها، «ومن ثمة كان بعض من يقصد البلاد الحجازية الفقهاء والعلماء والأدباء لأداء

1 - حمد الجاسر ، رحلات حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1400هـ / 1980م، المملكة العربية السعودية، ص90.

2 ابن بطوطة ،المصدر السابق، ص141.

فريضة الحج يشعر بأن عليه ديناً يجب أن يؤديه لإخوته من الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالالتحاق بتلك الديار، والذين كانوا يقنعون بوصف تلك المعالم وما مر من تحتضنه من عوالم»¹.

وغالباً ما يبعث الزائرين للبقاع المقدسة إلى التدوين شعورهم بوجوب اطلاع مواطنيهم على أخبار تلك البقاع الشريفة البعيدة»² التي شعر الجميع بالحنين إليها، والتي كانت زيارتها لا تتم إلا في ظروف قاسية، ولا تتحقق إلا بجهد ومشقة كبيرين، لهذا الغرض نجد التأليف في الرحلات الحجازية الشيء الكثير، وفيه من التراكم الكيفي والكمي، بحيث يعد الصنف الأول من حيث الكتابة، فكان الحج من أهم العوامل التي دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل ضامر الرحلة والتنقل، فالحج كان ولا يزال، رحلة يتشوق إلى أدائها كافة الناس، وليس علماءهم أو فقهاءهم فقط.

«إن الدافع ديني قبل كل شيء، وإن الرغبة الملحة التي كانت تساور النفوس هي مغادرة الأوطان تأدية لفريضة الحج... يطمئن له بال ولا يخلص له ضمير إلا إذا أدى هذا الواجب. فلا السياحة إذن ولا التجارة ولا المغامرة كانت غاية لهذه الرحلات التي خلفتها لنا البيئة المغربية... نعم قد تظهر أغراض أخرى في محتوى هذه الرحلات، لكنها قد تأتي عفوية...»³، وهذا الهدف الديني الذي استقطب أغلب الرحلات، فالرحلة إلى المشرق كانت تعني الحج في الأساس، إذ المتعارف عند المغاربة، إلى الآن، أنهم يقولون ذهب إلى الشرق، ويعنون تأدية فريضة الحج، فالهدف الأول من الذهاب إلى الشرق هو الحج وزيارة البقاع المقدسة.

ب-دوافع علمية أو تعليمية: كانت الرحلة -وماتزال - وسيلة للتعرف على عادات وتقاليده وأخلاق الشعوب، وكذلك على تراثها وأنماط علومها ومعارفها قديمة كانت أو حديثة.

1 - نفس المصدر ، ص ص141-142.

185-حمد بن عثمان المكناسي ، الإكسير في فكاك الأسير ، تحقيق محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965م، الرباط، مقدمة المحقق، ص.ب.

³ - محمد بن أحمد بن شقرون، -مظاهر الثقافة المغربية (دراسة في الأدب المغربي)، دار الثقافة، 1406هـ/1985م، الدار البيضاء، المملكة المغربية ، ص117.

كما تتحقق بواسطة الرحلة أهداف علمية ومعرفية لا يمكن التوصل إليهما عن طريق الكتب والوثائق فقط، مثل الاكتشافات الجغرافية والتاريخية والحياة الاجتماعية والاقتصادية للشعوب. ولذلك تجد في كل زمان ومكان رجالاً أشداء يتركون الأهل والوطن وحياة الدعة والاستقرار من أجل تحقيق هدف علمي أو رغبة ذاتية بواسطة الرحلة فردية كانت أو جماعية، غير مباليين بالمشاق والأهوال التي يعانون في رحلاتهم. والأهداف التي يحققونها في رحلاتهم سواء كانت دينية أو علمية أو اجتماعية تنعكس آثارها على تقدم شعوبهم وازدهار المعرفة في مختلف ميادين العلم.

والمسلمون منذ أن أتم الله عليهم نعمة الإسلام اندفعوا بتوجيه من كتاب الله العزيز وبقوة إيمانهم، في آفاق الأرض لتحرير الإنسان من العبودية¹.

إن الهدف العلمي لأداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام لم تكن لتتفصل عن الهدف العلمي الذي يسعى كل عالم لتحقيقه أينما حل وارتحل. ولذلك تجد العلماء - وهم في وجهتهم للديار المقدسة - يَمرون على الأماكن التي برز فيها عالم في الفقه أو القراءات أو الحديث أو اللغة والنحو والأدب، وكم تكون الطريق ملتوية، أو مخوفة بالمخاطر، ولكنهم يأبون إلا أن يعرجوا على مواطن هؤلاء العلماء الثقات الذين يهون كل شيء في سبيل لقائهم والاستماع إليهم².

تعتبر الرحلة من شروط اكتمال المعارف، ووسيلة للقاء الشيوخ، بشد الرحال إليهم، ويؤكد على هذا قول ابن خلدون: « إن للرحلة في طلب العلم لاكتساب الفوائد ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم، والفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال »³.

وصارت مكانة العالم تقاس باتساع رحلته وكثرة الشيوخ الذين يرتحلون منه واليه.

¹ - محمد الحجوي . المرجع السابق ، ص 207.

² - نفسه ، ص 213.

³ - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1993م، بيروت، ص 476.

ولما كان المغرب معروفا منذ القديم بتعدد المدارس وكثرة الخريجين، فقد كان الكثير منهم يطمحون لاستكمال دراستهم بالمعاهد العلمية الكبرى بحواضر الغرب الإسلامي في الأندلس وأفريقية والحواضر المشرقية بمصر والحجاز والشام والعراق، وقد استقر بعضهم بتلك البلاد، ولم يعودوا إلى أوطانهم، وتحفل كتب التراجم بأسمائهم. ولهذا السبب نجد «رحلة المغاربة إلى المشرق كانت، على وجه العموم، أكثر من رحلة المشاركة إلى المغرب، فمركز الحج في المشرق، ومدن العلم الأولى فيه، فكان من الطبيعي أن يزور المغاربة الشرق أكثر من زيارة المشاركة لبلادهم»¹.

من هذا المنطلق، يمكننا القول إن هذا النوع من الرحلات نابع بالأساس بكل عناصره الدينية والعلمية من شعور المغاربة بالبعد المكاني عن المناطق المقدسة، ومن ثمة لم يكتف معظم الحجاج المغاربة بقضاء مناسك الحج مرة واحدة، بل بمجرد الرجوع إلى بلادهم « يسرعون إلى العودة من جديد... ولشدة التعلق بالحجاز خاصة هو أن البعض من المغاربة، كان يطيل مقامه هناك، فيستقر لفترة طويلة بمكة أو المدينة أو بهما معا، حتى يشبع رغبته ويروي ظمأه»².

وبسبب ما ذكرت المصادر والمراجع اهتم المغاربة بالرحلات وأبدعوا في الكتابة والوصف والتسجيل، وليس الغرض هنا هو تتبع هذا الإسهام الكثير، وإنما قصدي أن أجتزئ منه طرفا متعلقا بالرحلة الحجازية، التي احتفى بها المغاربة، لارتباطها بقضاء شعائر الحج وزيارة الروضة النبوية الشريفة، وما لها من مكانة سامية في أنفسهم. ولما كان المغاربة قديما أبعد المسلمين مسافة من جهة الغرب عن الديار الحجازية، فقد كان لهم شوق كبير وعاطفة جياشة لزيارتها، وتجلى

ذلك في ما كانوا يعبرون عنه من احترام عظيم واحتفاء كبير بالحجاج خلال الرحلة أو عند عودتهم لديارهم سالمين غانمين.

وقد عرفت هذه الرحلات التي كان أصحابها يقصدون الحرمين الشريفين للحج بالرحلات الحجازية، نسبة إلى بلاد الحجاز، وهي كثيرة جدا عند المغاربة، وغنية بالفوائد والنكت

¹ - نقولا زيادة ، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، 1987، بيروت، ص167.

² -الحسن الشاهدي، المرجع السابق ، ص49.

والطرائف، وما لبثت أن تأصلت هذه الرحلات في المغاربة لتصبح فنا قائما بذاته، «من حيث تدوينه بأسلوب مميز في سفر يشمل تاريخ الخروج والوصول إلى كل مدينة، مع إعطاء لمحة وافية عنها وقائمة بأسماء مراحل السفر، ومراكز الماء إلى الحجاز، كما تشمل وصفا مفصلا لمكة المكرمة والمدينة المنورة في جميع النواحي، ومناسك الحج والعلماء المأخوذ عنهم، وعقب أداء الفريضة يتابعون طريقهم إلى المراكز العلمية المعروفة لتلقي المزيد من العلم فيها، مع إعطاء وصف شامل لها»¹

ج- موضوع الرحلة الحجازية المغربية: الرحلة المغربية متنوعة المواضيع مختلفة الأنماط باختلاف أسباب ودواعي الرحلة نفسها، لكن الخصوصية الأدبية تبقى طابعها الأصيل، لأن هذه الخصوصية هي التي تدفع الرحالة إلى تقييد خطوات رحلته، وتسجيل أحداثها، فهم يشعر أنها أمر جدير بأن يسجل ويوصف، وهذا شأن الرحالة الحق، يتجشم أخطار الأسفار ومتاعبها ليرى ويتعلم وينفعل بما يرى، وهذا ما جعل للرحلة المغربية يلك القيمة العلمية والأدبية الكبرى.

وتحتل الرحلة الحجازية المرتبة الأولى من حيث الكم ضمن تصنيف الرحلات المغربية، فكتابة رحلة الحج بعد العودة من أداء الفريضة، تعتبر بالنسبة للكثيرين تخليداً لفترة غالية من حياته الدينية والعلمية والإنسانية.

د- أهمية الرحلة الحجازية المغربية: تحتل الرحلة الحجازية أهمية بالغة في الرصيد التراثي لأهل المغرب، فقد كانت دأب الفقهاء والعلماء والأدباء والأمراء والعامة منهم، والذين كانوا يشدون الرحال إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج وزيارة المشاعر المقدسة ضمن قافلة كبيرة تسمى "ركب الحجيج"²، وكان هؤلاء يدونون مشاهداتهم عبر ذلك الطريق الطويل الوعر الشاق. وقد مثلت هذه المدونات التي تصنف معرفيا ضمن "أدب الرحلة" خزانا معرفيا ومصدرا لاستجلاء الكثير من الأمور الغامضة، لاسيما المعالم الجغرافية، وتاريخ

¹ - عبد الله حبلوص. المرجع السابق ، ص71.

² - الحاج محمد البشير بن أبي بكر البرتلي الولاتي ، الرحلة إلى الحرمين الشريفين (1204-1206هـ/1789-1791م) أقدم رحلة شنقيطية مدونة "الرحلة المباركة"، تحقيق ودراسة عمرو عبد العزيز منير ، دار بربيل للنشر ، ليدن ، ص:17.

الجماعات البشرية التي يمر بها الحاج في طريقه ذهاباً إلى بلاد الحرمين وإياباً منها، مما يسهم في سد كثير من الفراغات المعرفية التي تعترض الباحث في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لتلك الجماعات، فمادة نص الرحلات غزيرة متفردة، إذ تسلط الضوء على شتى مناحي الحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية لسكان طريق الركب، بل وتزخر أحياناً كثيرة بمعلومات فقهية وشرعية تكون على شكل محاورات ومراجعات علمية بين العلماء الحاج ومستقبليهم من علماء وعامة المحطات التي يحل بها الركب، هذا فضلاً عن نصوص الإجازات التي تعد ذات قيمة علمية عالية، ومقياساً للنهضة العلمية التي عرفها عصر الرحلة، وعلامة على التواصل الثقافي¹. لقد اعمل أعلام مغاربة عديون الرحلة، وسجلوا مشاهداتهم بدقة، غير أن رحلاتهم لم تسلم من الضياع، وبعضهم دونوا مشاهداتهم في رحلات قاموا بها من غير أن تكون الرحلة السبب في تأليف الكتاب أصلاً، كأن السبب اجتماعياً، أو لطلب العلم و لاضطهاد مذهبي². ومن بين الرحالة المغاربة الذين دونوا رحلاتهم الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي قام بأول رحلة شاملة دامت ثمانية وعشرين عاماً شملت الحج وغيره، وزار خلالها العديد من البلدان، ودون فيها الكثير من مشاهداته حول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان التي زارها³.

¹ - نفسه ، ص:19.

² - محمد التونسي، المعجم المفصل في الأدب ، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1993، ص 113.

³ - محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المشهور "بابن بطوطة " ، ولد بطنجة سنة 703 هـ الموافق 1304م ونشأ فيها ، طاف بلاد المغرب، ومصر، والشام، والحجاز، والعراق، وفارس، واليمن، وتركستان، وماوراء النهرين ، و الهند، والصين، وبلاد التتار، وأواسط إفريقيا ، استغرقت رحلاته مدة 39 عاماً من (1304م إلى 1377م) ، توفي في مراكش سنة 779 هـ الموافق 1377م . للمزيد ينظر : محمد بن عبد الله بن محمد بن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تحقيق محمد عبد الرحيم ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - مؤسسة الكتب الثقافية ط01، بيروت ، لبنان ، د.ط، ص04.

ومن أشهر الرحلات الجزائرية في طلب العلم: رحلة عاشور بن موسى القسنطيني، المعروف بالفكيرين المتوفى سنة 1074م، و إن كانت غير مكتوبة، أو منشورة بعينها¹، ومنها أيضا رحلة عبد الرزاق ابن حمادوش²، وتتعدد كذلك الرحلات العلمية المنطلقة من اتوات جنوب الجزائر، حيث قام الشيخ عبد الكريم بن احمد التمنيطي رحلة علمية خصها بتأليف قائم بذاته، ومنها الشيخ عبد الرحمن بن عمر التتيلاني المتوفى 1189هـ إلى سجلماسة وبلاد التكرور، دونها في كتابه الضخم الموسوعي المعروف بـ"فهرسة عبد الرحمن التتيلاني"³.

أما رحلات الحج أو الرحلة الحجازية المغربية المدونة فتبقى هي الأشهر، حيث أهتم المغاربة عموما بدءا من القرن الرابع الهجري بتدوين رحلاتهم إلى الحجاز، لتبلغ أوجها في القرن التاسع. ومن أشهر تلك الرحلات: كما ذكرنا سابقا - رحلة ابن بطوطة - " المعروفة برحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"⁴، ثم تتراجع بعد ذلك حركة التدوين فترة نتيجة للظروف الأمنية والقلقل السياسية⁵، لتعود إلى الظهور خلال القرن الحادي عشر الهجري بوتيرة أكثر انتظاما. ويحفظ لنا تراث تلك الحقبة نماذج رائدة في أدب الرحلة، من بينها رحلة "ماء الموائد" للعايشي المغربي (1090هـ/1676م) التي تعد من أهم ما ألف في أدب الرحلة في هذه الفترة، وكانت كما أرادها المؤلف "ديوان علم لا كتاب سمر

¹ - ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ص383

² - هو عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري ولد سنة 1107هـ/1665م، وتوفي بعد حوالي 90 سنة للمزيد ينظر ابن حمادوش الجزائري، رحلته، تحقيق أبو القاسم سعد الله، طبعة وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م، ص09.

³ - هو أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن معروف بن يوسف التواتي، ولد سنة 1121هـ/1709م بتتلان، للمزيد ينظر: عبد الرحمن بن عمر التتيلاني التواتي، فهرسته، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بعثمان، مذكرة مقدمة لنيل درجة ماجستير، معهد الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة بشار، الجزائر، 2008/1429م، ص- ص83-82.

⁴ - محمد بن عبد الله بن محمد بن بطوطة، مصدر سابق، ص ص 03-04.

⁵ - الحاج البشير البرتلي، المصدر السابق، 19.

وفكاهاة "، ودونها في كتاب مستقل هو الرحلة الصغرى، غير أن رحلته الأخرى "الرحلة العياشية الكبرى " تعد من أجل ما صنف في هذا الفن، خاصة وأن المؤلف سجل فيها الكثير من الموضوعات المختلفة من تأريخ للأحداث وتراجم للرجال ووصف لطريق الحج ومنازله، وضمنها أيضا وصفا دقيقا للعادات الاجتماعية لسكان

المناطق التي على طريق الحج، إضافة إلى العديد من القضايا الفقهية والأدبية مما أكسبها أهمية بالغة في حقل الدراسات التاريخية والجغرافية¹. وبعدها تعاقبت الرحلات وبكثرة.

ومن رحلات المغاربة إلى الحج أيضا، رحلة محمد بن احمد بن عبد العزيز بن محمد القيسي المراكشي الشهير بالسراج، والملقب بابن مليح سنة 1040هـ المسماة "انس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب " التي سلك صاحبها طريق الصحراء مخترقا بلاد درعة و اتوات و تيدكلت مرورا ببلاد فزان والبلاد الطرابلسية وصولا إلى مصر فالحجاز.

ومن تلك الرحلات أيضا، رحلة أبي العباس أحمد بن عبد الله بن ناصر الدرعي صاحب "الرحلة الناصرية " التي ألفها إثر حجه عام 1121هـ/1709م، وأورد فيها الكثير من المعلومات التاريخية التي عاصرها كحصار الإسبان لمدينة طرابلس سنة 1096هـ/1684م. إضافة إلى كم هائل من التراجم والنوازل الفقهية التي عرضت على علماء ركبته من خلال الرحلة، كما حوت معلومات جزيلة عن أحداث الربع الأول من القرن الثاني عشر الهجري.

¹ - عبد الله بن محمد العياشي ، ماء الموائد ، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي ، دار السويدي ، ط01 ، الجزء الأول ، أبوظبي ، 2006م، ص13.

وتعد رحلة الحسن الورتيلاني من اجل ما ألفه الجزائريون في فن الرحلة وهي المسماة "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار"، ووصفها بنها رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي، وأنها تزهو بمحاسنها على كثير من كتب الأخبار، مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة، والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية...¹.

ومن أشهر رحلات علماء المغرب المتأخرين: الرحلة الحجازية للعلامة اليوسي، ومن الرسميين لدينا رحلة الوزير أبي محمد الشرقي بن محمد الاسحاقي²، وجاء بعده خلق كثير واصلوا تدوين رحلاتهم الحجازية أشهرهم أبي عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي التي قام بها سنة 1152هـ/1739م، وجمع فيها بين طلب العلم وأداء فريضة الحج، معرفا بشيوخه الذين مر على مجالسهم في طريقه إلى الحجاز، وما تلقاه عنهم من فوائد، وقد تحدث فيها الحضيكي كذلك عن الطريق التي يسلكها الركب الفاسي والتلمساني في رحلتها الموحدة إلى مصر ثم الحجاز³.

ومن الرحلات الحجازية الجزائرية كذلك رحلة الشيخ عبد الرحمن بن ادريس بن عمر بن عبد القادر التتيلاني إلى الحج سنة 1189هـ/1175م، ورحلة المجاجي ورحلة ابو راس الناصري.

¹ - الحسين الورتيلاني ، مصدر سابق ، ص14

² - أبو محمد الشرقي بن محمد الاسحاقي ، رحلة الوزير الاسحاقي الحجازية ، دراسة وتحقيق محمد الأندلسي ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1438هـ/2017م، ص43.

³ - أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي ، الرحلة الحجازية ، تحقيق وضبط عبد العالي لمدير ، ، الرابطة المحمدية للعلماء ، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث ، ط01، الرباط ، المغرب الأقصى ، 2011م. ص89

أما الرحلات الحجية المدونة للتونسيين فلم يصلنا منها إلا نزر قليل لعل أشهرها: رحلة أبو محمد عبد الله بن أحمد التجاني¹، وأما الرحلات الحجازية المدونة فهي كذلك نادرة لعل أهمها : رحلة محمد الجودي (مفتي القيروان) إلى الحج²، وبعض الرحلات الأخرى.

وبخصوص الرحلات الحجية الشنقيطية المدونة والتي جاءت متأخرة نسبيا فأقدمها هي: رحلة الحاج محمد البشير بن أبي بكر البرتلي الولاتي إلى الحرمين الشريفين سنة 1204هـ/1789م³، مع أن أهل البلاد عبروا عن تعلقهم بالديار المقدسة منذ مئات السنين، بشد الرحال كل سنة إليها لتأدية هذه الفريضة متحدين كل المصاعب والأخطار عبر مسالك الصحراء الوعرة، وتوجد إشارات لدى المؤرخين تفيد بأن تقليد الحج كان شائعا لدى سكان البلاد الصنهاجيين قبل قيام دولة المرابطين، فقد وصف الأمير اللمتوني أبي عبد الله محمد بن تيفات المعروف "بتاريشتا" (توفي نحو 425هـ/1034م)، بأنه من أهل الفضل والدين والحج والجهاد، وأصبح القيام بأداء فريضة الحج في مستهل القرن الخامس الهجري سلوكا قارا وتقليدا مترسقا لدى شيوخ وزعماء صنهاجة، غير أن أقدم رحلة توثقها المصادر هي رحلة الأمير يحيى ابن إبراهيم الجدالي، الذي قصد المشرق لأداء فريضة الحج عام (427هـ/1036م)، ولقي شيخ المالكية بالقيروان أبا عمران الفاسي (توفي سنة 430هـ/1039م)، وتذكر المصادر التاريخية العربية حوارا دار بينهما شكا فيه للأمير الصنهاجي للفقيه القيرواني جهل قومه وحاجتهم لمن يفقههم في الدين ويوقفهم عند حدود الشريعة، فهم قوم يحبون الخير ويرغبون فيه، وطلب منه أن يوفد معه من يعلم صنهاجة

¹ - أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني ، رحلة التجاني ، تقديم حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا وتونس ، 1981، ص05.

² - محمد بن محمد صالح الجودي ، رحلة محمد الجودي (مفتي القيروان) إلى الحج-1362هـ/1934م- ، تحقيق المهدي عيد الرواضية ، ط01، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، مركز دراسة المخطوطات الإسلامية ، ، تونس ، 1441هـ/2021م، ص17

³ - الحاج البشير لبرتلي ، مصدر سابق ، ص05.

ويفقهها في الدين، فكتب ابو عمران رسالة إلى تلميذه وجاج بن زلو اللمطي شيخ رباط نفيس يطلب منه أن يوفد مع يحي من يثق فيدينه وحسن تدبيره، فانتدب له من تلاميذه عبد الله بن ياسين لمرافقته إلى الصحراء، لتبدأ بعد فترة قصيرة دولة المرابطين، ولتكون حجة يحي بن ابراهيم تلك فاتحة خير لأهل الصحراء، حيث ترسخ الإسلام وامتد إلى مناطق بلاد السودان المجاورة التي حرص ملوكها أيضا على تادية فريضة الحج، ومن أشهر رحلاتهم رحلة ملك مالي "المنسا موسى " لأداء فريضة الحج سنة 725هـ/1325م، ورحلة ملك السونغاوي السكيا الحاج محمد سنة 902هـ/1496م، ويبدو ان هذا التقليد ظل راسخا لدى أهل الصحراء، وخصوصا أهل ولاتة التي اصبحت منذ القرن 11هـ /17م مركزا لتجمع حجاج المناطق القريبة منها غربا وجنوبا¹، ولم يزل إعمال الرحلة إلى الحج ديدن علماء البلاد الذين كانوا يحرصون دائما على ملاقاتة العلماء في الحجاز ومصر، ومحاورتهم والحصول على الإجازات منهم كما ورد في كتب تراجم العلماء، لاسيما " نيل الإبتهاج بتطريز الديباج " لأحمد بابا التنبكتي، وكتابا فتح الشكور للبرتلي الولاتي²، و منح الرب الغفور للمحجوبي الولاتي³، إلا أن هذا الارتحال عرف نشاطا كبيرا ابتداء من القرنين ال12-13هـ/18-19 الميلاديين، حيث ازداد عدد الحجاج كما، وكيفا وانتظاما، حتى قدر عدد الملتحقين به سنويا انطلاقا من مدينة شنقيط بما يقارب من خمسة آلاف حاج لم يثتم بعد المشقة، ولا مخاطر الطريق من عطش، وغرات وعمليات سطو، وغن كانت تحتم عليهم أحيانا تغيير

¹ - أحمد ابن الأمين الشنقيطي . الوسيط في تراجم ادباء شنقيط ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1989م ، ص69.

² - الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البُزْلي . فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1401هـ / 1981م ، ص73.

³ - أبوبكر بن أحمد المصطفى .منح الرب الغفور فيما أهمله صاحب فتح الشكور ، تحقيق محمد الأمين بن حمادي ، المدرسة العليا للأساتذة ، ليون ، فرنسا ، 2010، ص19.

الفصل الأول: ركب الحج المغاربي " رحلة النشأة و مسارات التطور "

الطريق، والاختيار بين عدة مسالك، تعددت بتعدد الركاب التي اندمجت بعد استقلالها عن الركاب السودانية في ركبين رئيسيين هما الركب الولاتي والركب الشنقيطي.¹

المبحث الثاني بلدان المغرب العربي الحديث بين التحديات والتحويلات "صراعات القوى ومسارات البقاء":

01- وضع بلدان المغرب العربي خلال القرنين ال17 وال18 الميلاديين (لمحة عن الأنظمة السياسية و الأوضاع الاقتصادية والثقافية):

أ- النظم السياسية في الإيالات العثمانية المغاربية خلال القرنين ال17 وال18 الميلاديين:

من أهم دعائم فلسفة الحكم عند العثمانيين، اعتبار السلطان الرئيس الأعلى للهيئات السياسية والعسكرية والدينية في الدولة، ولتكريس هذه الفكرة في جميع المقاطعات؛ اتبع نظام إداري محكم في تسييرها. وكان أول ما يَعتَمِد عليه هذا النظام هو ربط التقسيمات الإدارية بعضها ببعض على شكل سلسلة متصلة الحلقات. ابتداء من حكام اصغر الوحدات في الدولة، مروراً بحكام الولايات التي تتبعها تلك الوحدات، وانتهاء بالسلطة المركزية في اسطنبول حيث يقيم السلطان العثماني، ولهذا كانت الإدارة في الولايات العثمانية تشكل أحد الجوانب المهمة في العلاقات بين تلك الولايات والباب العالي.² ويستثنى من هذا الكلام المغرب الأقصى الذي شهد مراحل شد وجذب انتهت بسقوط السعديين وبروز الأسرة العلوية التي شكلت مساراً جديداً من تاريخ المغرب الأقصى خلال الفترة الحديثة

01- أوضاع إيالة الجزائر خلال هذه الفترة:

¹ - الخليل النحوي . المرجع السابق ، ص88.

² - خليفة ابراهيم حمّاش ، العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي من سنة 1798 إلى 1830م، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، قسم التاريخ والآثار -كلية الآداب-، جامعة الإسكندرية ، مصر ، 1408/1988م، ص37.

أ- مرحلة البيلربايات: (1519-1587): كان حكام الجزائر في بداية العهد العثماني من رجال البحرية، الذين عُرفوا بطائفة رياس البحر، وكان خير الدين أول حاكم حمل لقب " البيلرباي " منذ عام 926هـ/1519م.¹ كما أن الحكام في ذلك العهد كانوا يتولون رئاسة التنظيم الإداري بمساعدة بعض الرياس والضباط، و كانوا يستشيرون أعيان وعلماء البلاد في المسائل الداخلية.²

وما كان يميز هذه المرحلة عموماً، هو أن البيلربايات كانوا يقودون الجيوش البرية والأساطيل البحرية بأنفسهم، فدفع دورهم الجهادي هذا سكان البلاد إلى الالتفاف حولهم، مما ساعدهم في تثبيت حكمهم في الجزائر، ولا سيما في المناطق الساحلية التي كانت عرضة للهجمات الأوربية.³ وهكذا تكونت باسم العقيدة الإسلامية والولاء للسلطان دخل الجزائريون في الرابطة العثمانية.⁴ وبالتالي طغت في هذه المرحلة فكرة "مقاومة الاحتلال الإسباني"، سواء على الأرض الجزائرية أو في البحر الأبيض المتوسط، كما نميز أنه خلال هذه الفترة حكم حوالي 20 حاكماً عاد عدد منهم إلى الحكم مرتين أو أكثر.⁵ تمت ترقية عدد منهم إلى مناصب أعلى، حتى وصلوا إلى حمل لقب "بايلرباي" كحسن بن خير الدين، صالح رايس، علج علي، في حين كان آخرون عبارة عن خلفاء للبيلربايات ينوبون عنهم في الحكم عندما يستدعون من قبل السلطان.⁶

تميز الرجال الذين كانوا يعينون على رأس الولاية أو (الباشوية) بالشجاعة والذكاء وحسن التسيير، ويبدو أن السلطان كان يعينهم اعتباراً لشهرتهم في مقاتلة الأعداء كخير

¹-p. Boyer :introduction à une histoire intérieure de la régence d'Alger in r.h.n.478.puf1966.p.301.

²-ibid.p.301.

³- أرزقي شويتم . المجتمع الجزائري وفعالياته 1519-1830م ، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر ، الجزائر ، 2006/2005م، ص28.

⁴- سعد الله أبو القاسم . تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الأول ، المرجع السابق ، ص140.

⁵- عائشة غطاس . الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها ، المرجع السابق ، ص44.

⁶-MOULUD GAID: l'algerie sous les turcs , edition mimouni, alger , p91.

الدين بربروس، وحسن آغا بعد رده لحملة شرلكان، أو لشهرة آبائهم كحسن بن خير الدين ومحمد بن صالح رايس، أو لثقتهم الكبيرة فيهم كصالح رايس الذي كان قائدا للسفينة السلطانية قبل تعيينه في منصب بيلرباي¹، ولم يكن هؤلاء الحكام من أصل تركي أو محلي ؛ بل كانوا من أصول متعددة إذ نجد منهم "العلاج: كحسن آغا وحسن قورصو، والتركي: كقائد صفا ومحمد باشا تكلري، والعربي: كصالح رايس وعرب أحمد، وفيهم حتى الكرغلي: كحسن بن خير الدين.²

وتميزت هذه الفترة بحكم رياس البحر كما ذكرناه سابق، رغم وجود "الأوجاق" المشكك من الانكشارية القادمين من -القضاء العثماني، وكان هؤلاء الوجل يتكون من عثمانيين، وهو بهذه الصفة كان يضم أجناسا مختلفة اللسان والعرق والجغرافية، ولكنها جميعا تتفق في الولاء للإسلام والسلطان، ذلك أن الوجل كان فيهم أناسا من أناضوليا ومن روميليا ومن الأقاليم العربية ومن البلقان ومن بقية أجزاء أوربا، من ذوي الأصول التركية والعربية والصقلية واللاتينية والإغريقية وهلم جرا.³ فقد تميز أفراد هذه الطائفة خلال هذه الفترة بالانصياع لأوامر السلطان وعدم معارضة الشخص الذي يقلده إمرة الجزائر، كما كانوا لا يعملون لحسابهم الخاص أو لحساب طائفتهم ضد منافسيهم ؛ بل وصل بهم الأمر إلى حد الانضمام إلى مرشح السلطان محمد تكلري ضد الانكشارية. رغم عدم كونه من طائفة الرياس، والسبب في مساعدته للوصول إلى السلطة وتثبيتته عليها هو وفائهم للسلطان الذي تربطهم به وحدة المصير في الصراع الإسلامي - المسيحي الذي شهدته القرن السادس عشر، وحتى لاتراود البيلربايات فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية التي أصابها الضعف بعد الهزيمة

¹ - عائشة غطاس . الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها ، المرجع السابق ، ص 44.

² - عائشة غطاس ، الدولة الجزائرية الحديثة ، المرجع السابق ، ص 44.

³ - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، المرجع السابق ، ص 140.

التي مني بها أسطولها في معركة -ليبانت- Lepante عام 1571م/979هـ، حيث قرر السلطان إلغاء نظام البيلربايات ليستبدله بنظام الباشوات يكون أكثر ارتباطا به.¹

ب-مرحلة الباشوات: تم إلغاء نظام البيلربايات واستبداله بنظام الباشوات بقرار من السلطان العثماني - مراد الثالث-، وذلك مباشرة بعد وفاة العلي علي² في شهر جوان من سنة 1587، والذي كان يحتفظ به رغم تركه الجزائر وتعيينه أميرا للأسطول العثماني في 1571.³

-أسباب إلغاء نظام البيلربايات في اية الجزائر: يبدو أن الأسباب متعددة ولعل من أهمها خوف السلطة العثمانية في الباب العالي من تحول اية الجزائر نحو الاستقلالية، خصوصا بعد أن عقدت الدولة العثمانية معاهدة مع عدوتها ومنافستها في البحر الأبيض المتوسط اسبانيا في 1580. وبالتالي تحول مجال سياستها نحو المشرق، وهذا ما غذى فكرة محاولة استقلال الإيالات المغاربية عن الباب العالي.⁴

كما لعب السفراء الغربيون دورا كبيرا في تغذية مخاوف السلطان من استقلالية الايالات المغاربية، والسبب هو خشيتهم من وقوع وحدة سياسية في الضفة الجنوبية للمتوسط.⁵

كان الباشا يعين من طرف السلطان (الباب العالي) لمدة ثلاث سنوات مع امكانية التجديد، وقد قلصت الامتيازات التي كانت سابقا للبيلربايات، وحصرت مهمته في جمع

¹ - P.BOYER : des pachas triennaux a la révolution d'ali khodja 1587-1571 ; in r.h.n.495 ; puf ; p.104.

² - عائشة غطاس . الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها ، المرجع السابق ، ص48.

³ - عين قبودان باشا للأسطول العثماني ليصبح الشخص الثالث في الدولة العثمانية بعد كل من السلطان والصدر الأعظم، ومكث في منصبه هذا الى غاية وفاته عام 1587، للمزيد أنظر : محمد سي يوسف . قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، جامعة القاهرة ، مصر ، 1988م، ص 73 .

⁴ - boyer ,introduction ,op,cit,p.304

⁵ - ibid p.304

الفصل الأول: ركب الحج المغاربي " رحلة النشأة و مسارات التطور "

الضرائب والمحافظة على الأمن وتنفيذ تعليمات السلطان، وتجنيد الجيش أثناء الأزمات، والجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية.¹

دامت فترة الباشوات مايقارب 72 سنة، تعاقب خلالها على الحكم حوالي 27 باشا، عاد بعضهم الى الحكم أربع مرات.²

وإذا كانت فترة البايلبايات قد عرفت تنوعا في انتماءات الحكام من: أتراك وعرب وأعلاج وكراغلة، فإن فترة الباشوات قد اقتصررت على العنصر التركي العثماني³، ويمكن استنباط ذلك من خلال اسمائهم، مثل: استانكويلى أحمد باشا، بورصالى محمد اشا، سليمان باشا كاتانيالى.⁴

سادت فترة الباشوات فوضى كبيرة وعدم استقرار، فالباشوات المعينين لمدة ثلاث سنوات تمكن قليل منهم من اتمام عهده، فقد كانوا أحيانا يضطرون للهروب بعد صراعات مع الأوجاق أو طائفة الرياس.⁵

وميز بعض المؤرخين وجود تناوب 02 الى 03 باشاوات على السلطة في نفس السنة، مثل ما حدث عام 1594 بتولية مصطفى باي وخضر باشا، وفي عام 1617 تولى كوسه مصطفى باشا، سليمان باشا والشيخ حسين باشا، وحسب رأيهم فإن هذا يدل على عدم الاستقرار الذي ميز هذه الفترة.⁶

¹ - عزيز سامح إتر . الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1989 ، ص772

² - عائشة غطاس . الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها ، المرجع السابق ، ص49.

³ - نفسه ، ص49.

⁴ -

⁵ -BOYER ; des pachas trinniaux à la révolte d'ali khoja dey 1571-1817 , revue histourique , juillet , septembre , 1970 ; p 102.

⁶ منهم الدكتورة عائشة غطاس . للمزيد أنظر : عائشة غطاس . الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها ، المرجع السابق ، ص49.

أسباب الفوضى وعدم الاستقرار السياسي خلال فترة الباشوات: لقد تسبب تغيير قمة هرم النظام السياسي للأليالة وتحديد مدة ولاية الباشوات في أزمة مفتوحة، بحكم أن هؤلاء الباشوات كانوا لا يملكون السلطة وهمهم جمع الأموال.¹

كما أن التنافس زاد من الشرخ ووسع هوة الصراع، فأفراد الأوجاق حاولوا الاستيلاء على السلطة الفعلية وانتزاعها من أيدي الباشوات، ومن نتائج هذا الصراع تقلص صلاحيات الباشا حتى صارت محصورة في: دفع أجور الانكشارية، وإذا عجز عن ذلك يثور ضده هؤلاء ويرمى في السجن.² وإذا عين باشا متسلط فإن الانكشارية تقيله من منصبه كما حصل في 1633 عندما سجن الشيخ حسين، واستلم الديوان زمام السلطة، مما اضطر الباب العالي لإرسال باشا آخر خلفا له.³

وقد استمر الأوجاق في القضاء على صلاحيات الباشا بالتدريج حتى نزعته منه مهمة دفع أجور الانكشارية التي منحت لرئيس طائفة الرياس في تلك الفترة وهو: علي بتشين، وقد خشي الباب العالي من توسع سلطة هذا الأخير فأرسل له من يقتله، وعندما علم الأهالي بالأمر ثاروا. مما اضطر علي بتشين إلى تهدئة الوضع، وأمام هذا الموقف ولته السلطة العثمانية إمرة الأسطول، غير أنه مات قبل استلامه هذه المهام السامية.⁴

لم يقتصر عهد الباشوات على الصراع على السلطة بين الأوجاق و-الباشا- وإنما تجاوز ذلك إلى التأثيرات على الجوانب الاجتماعية، فالباشا الذي لا يمكنه في اليالة سوى

¹-BOYER .P ALGER EN 16645 DOPRES LES NOTES DU R.P HERAULT . revue de l'occident musulman et de la méditerranée . 01 septembre 1974.p19.

²- ibid .p20.

³- أحمد توفيق المدني . الداوي محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، سيرته ، حروبه ، أعماله ، نظام الدولة والحياة العامة في عهده ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986، ص38.

⁴-boyer ,alger en 1645 ,op , cit , p21.

ثلاث سنوات لتكفيه هذه المدة لفهم تعقيدات الحياة السياسية والقضايا المطروحة في
الايالة.¹

وبمجرد أن تشح أموال الخزينة كان الباشوات يلجأون إلى فرض الضرائب على المدن
والأرياف، مثلما حدث في سنة 1634 في عهد يوسف باشا²، مما يفتح المجال أمام
التمردات التي تكاثرت في عهد الباشوات.³

ج- مرحلة الآغوات: في عام 1659، قرر الجند حسم الصراع القائم بينهم وبين الولاية
العثمانية أي -الباشوات- حيث قرر الديوان إلغاء منصب الباشا وإسناد السلطة إلى
الأوجاق.⁴

وقد كانت سياسة الباشا إبراهيم سببا مباشرا في ذلك وبمثابة الفتيل الذي أضرم نار
الجند، وذلك بسبب امتناعه عن تسديد أجور الجنود واقتطاع مبلغ من المكافآت الموجهة
لطائفة الرياس من قبل السلطان، جعل المؤسسة العسكرية بشقيها تتور عليه وتقرر إلغاء
منصب الباشوية.⁵

ويمكن القول أن الجزائر منذئذ دخلت مرحلة حاسمة - مرحلة سيطر فيها الجند على
السلطة، ويعد هذا الحدث منعرجا حاسما في تاريخ العلاقات بين الدولة العثمانية والمركز. إذ
كان تمردا واضحا على السلطان العثماني، والذي أرسل الباشا علي -ليستلم مهامه عقب
الزج بالباشا إبراهيم في السجن من قبل الجند، لكن هذا الأخير المعين وجد وضعاً سياسياً

¹ - ولف ج.ب. الجزائر وأوروبا 1500-1830م، ترجمة أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،
1986م ، ص34.

² - boyer .p, alger en 145,op.cit,p21

³ - عائشة غطاس .الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها ، المرجع السابق ، ص 49.

⁴ - عزيز سامح إلتز ، المرجع السابق ، ص ص 356، 367.

⁵ - وليام سبنسر . الجزائر في عهد راييس البحر ، تعريب وتعليق عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،
الجزائر ، 1980، ص73.

صعبا جعله عاجزا أمام العصيان الصريح للجند لأي تبعية للسلطان العثماني. ماجعلهم يلقون القبض على الباشا المعين ومرافقوه ويعيدونهم في سفينة من حيث أتوا.¹ مادفع بالصدر الأعظم -محمد كوبرلوا باشا- الى إصدار أمر بقتل -الباشا علي- إخفاقه في فرض هيبة السلطان، وأتبع ذلك بإصدار فرمانا شديد اللهجة إلى الجزائريين ليعدلوا عن تصرفاتهم.²

وعلى المستوى المحلي كان -الآغا خليل- الذي حمل لواء الثورة فشل في البقاء في سدة الحكم بعد سنة من توليه حيث تم اغتياله سنة 1660، وخلفه -الآغا رمضان- الذي بادر إلى إعادة العلاقات مع الباب العالي إلى وضعها الطبيعي، لكن الجند اشترطوا قبول الباشا بتجريدته من جل الصلاحيات التي كان يتمتع بها.³ مما جعل النظام السياسي منذئذ يتميز بالازدواجية من الناحية النظرية -أما في الواقع فكانت السلطة الفعلية بيد الآغاوات.⁴ ولم ينجح الآغا رمضان هو الآخر في الاستمرار في السلطة إذ لقي حتفه على يد الجند عام 1661؟، وفي أعقاب تولي السلطة -الآغا شعبان- الذي يظهر انه استطاع أن يفرض نفوذه بمساعدة الجماعة -الأوضاباشية -⁵، وأن يمدد في عهده حيث حكم نحو أربع سنوات رغم الأوضاع العصيبة التي كانت تمر بها البلاد سيما تأزم العلاقات الخارجية مع فرنسا، لكن نهايته كانت الاغتيال على يد الجند عام 1665.⁶ وخلفه -الحاج علي آغا- الذي كان يهدف إلى وضع حد للفوضى ولعصيان الجند، وقد نجح في فرض كلمته على

¹ - عزيز سامح إلتز ، المرجع السابق ، ص ص 200-201.

² - نفسه ، ص 201.

³ - boyer , la révolution ,op.cit.p164

⁴ -ibid ,p164

⁵ - قاد الجزائر في النصف الثاني من القرن السابع عشر بطلان قل ماجاد بهما الدهر : شعبان آغا (1661-1665) الذي تصدى للحملة الفرنسية على جيجل سنة 1664، وألحق بالمغيرين اشنع الهزائم وأفدح الخسائر ، والثاني شعبان داي ، والذي خلف حسين باشا بعد نكبته في جانفي 1689، وبقي على رأس الإيالة الى صيف 1659. للمزيد ينظر : مولاي بلحميسي ، إرشاد الحيران في أمر الداوي شعبان . المرجع لسابق ، ص:54.

⁶ -GRAMMONT ,HENRI DE : histoire d'alger sous la domination turque 1515-830, presentation de lemnouar mereouche , eds, bouchéne ,paris, 2002.

الجند وممثل السلطان على حد سواء مما سمح له بالبقاء في السلطة نحو ست سنوات
1665-1671.¹

وتشكل وفاة الحاج علي آغا منعرجا خطيرا في الحياة السياسية إذ شهد " قصر
الجنينة " حالة من الفوضى والاضطراب لم يعرف نظيرا لها مما جعل الآغوات يمتنعون عن
ترشيح أنفسهم لسدة الحكم.²

04- مرحلة الدايات: حكم الجزائر عدد كبير من الدايات ففيهم من طال عهده، وفيهم من
قصر وفيهم من وُفق وفيهم من خاب. حتى تداولت على البلاد أيام السعد وأيام النحس.³

كان الدايات في بداية عهدهم ينتخبون من طائفة الرياس التي استرجعت نفوذها بعد إلغاء
نظام الآغوات، ورغم هذا الانقلاب الذي حدث في نظام الحكم فإن السلطان العثماني استمر
في تعيين الباشوات إلا أن وجودهم في الجزائر كان شرفيا فقط إذ جردوا من جميع
السلطات.⁴

وكان منصب الداى تتولاها في الغالب إحدى الشخصيات البارزة في الدولة وهي:
الخنزاجي والآغا وخوجة الخيل، إلا أن هذه القاعدة لم تكن ثابتة إذ كان بإمكان أي فرد أن
يصل إلى منصب الداى، وكانت هذه الحالة تحدث في وقت الاضطراب والفوضى.⁵

كان الدايات الأربعة الأوائل من رجال البحرية، وفي عهدهم تعرضت السواحل
الجزائرية إلى عدة غارات فرنسية ألحقت أضرارا بالغة بالبحرية الجزائرية. مما أدى إلى ضعف

¹- DELPHIN georges : histoire des pachats d'alger de 1515-1745, journal asiatique , serie n 19,1922, p

²- عائشة غطاس . الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها ، المرجع السابق ، ص53.

³- مولاي بلحميسي . ارشاد الحيران في أمر الداى شعبان ، المرجع السابق ، ص:39.

⁴-WATBLED . PACHAS DEY.R.A.N 101.1873. P.144.

⁵-VENTUR DE PARADIS . P.204.

مركز طائفة الرياس، وكان هذا الوضع في صالح الانكشاريين الذين تمكنوا من استرجاع نفوذهم ومكانتهم، ومنذ عام 1689، أصبح الدايات ينتخبون من الانكشارية مدى الحياة.

وقد مرَّ عهد الدايات بمرحلتين متميزتين هما:

أ- **مرحلة القوة والاستقرار 1082-1220هـ/1671-1805م:** تمكن الحكام خلالها من تحقيق عدة انجازات مثل: تحرير وهران الأول من الإسبان في 1120هـ/1708¹، والتحرير الثاني عام 1207هـ/1792م²، والتصدي للحملة الأوربية، وعرفت البلاد استقرارا نسبيا، تمكن الحكام من السيطرة على الأوضاع، والانفراد بالسلطة. فلم تعد الدواوين تعقد جلساتها كما هو الحال في العهود الأولى³، فتم تعويضها بمجلس خاص يتكون من خمسة أعضاء أساسيين هم: الخزانجي، وآغا العرب، وخوجة الخيل، ووكيل الحرج، وبيت المالجي⁴.

ب- **مرحلة بداية نهاية الحكم العثماني وسقوط الكيان السياسي:** منذ أن وصل الدايات إلى السلطة عملوا على القضاء على ازدواجية الحكم من خلال الغاء منصب الباشا ممثل السلطان، وتعد محاولة الداوي الحاج حسين ميزومورتو⁵ من المحاولات الأولى التي كانت تهدف إلى تأسيس حكم محلي بمنأى عن نفوذ السلطان. ففي عام 1688 عارض هذا الخير

¹ - محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم الجزائري ، ش، و، ن، ت، الجزائر ، 1981، ص: 203.

² - محمد بن يوسف الزياتي ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي ، ش، و، ن، ت، الجزائر ، 1979، ص: 164.

³ - وليام شالر ، المصدر السابق ، ص: 43.

⁴ - VENTURE DE PARDIS .OP.CIT.P.204.

⁵ - الداوي الحاج الحسين ميزومورتو : إحدى الشخصيات البارزة ومن رياس البحر المتميزين .بدأ يبرز في النشاط البحري ابتداء من عام 1670، نظرا لما حققه من انتصارات دافع صيته. ارتقى إلى منصب الداوي في ظروف غير عادية ، ففي غضون القصف الفرنسي الذي تعرضت له مدينة الجزائر في صائفة 1683، وبينما كان أحد رهائن المفاوضات ، نجح بفضل حنكته في اقناع قائد الحملة الفرنسية "دوكين" بالإفراج عنه ، وإثر ذلك سارع إلى الإطاحة بالداوي بابا حسن الذي نزل عند الشروط الفرنسية ، وقد حكم الداوي ميزومورتو في الفترة الممتدة من : 1683-1689. للمزيد أنظر : عائشة غطاس ، الدولة الجزائرية الحديثة ، المرجع السابق ، ص 60.

بكل قوة قدوم الوالي العثماني الباشا إسماعيل، الذي عاد من حيث أتى، ونجح فعلا الحاج حسين ميزومورتو في الانفراد بالسلطة، وجمع بين سلطة الداى وسلطة الباشا في آن واحد، غير أن هذه التجربة لم تعمر طويلا ورجعت الجزائر إلى نظام الازدواجية.¹

وفي عام 1720 حينما ارتقى الداى علي شاوش السلطة بادر إلى إلغاء منصب الباشا ممثل السلطان حتى يضع حدا نهائيا لازدواجية السلطة، ونجح فعلا في إقناع السلطان- أحمد الثالث - بوجهة نظره. خاصة بعد فشل مبعوثه إلى الجزائر في فرض هيبة السلطان²، ومنذئذ أقر السلطان الأمر الواقع وأضحى حكام الجزائر يجمعون بين منصب أمير الأمراء والداى بشخصهم.³ وقد كتب أسير الداى كاثكارت أن: " الداى حسن باشا كان يعيش دوما في خوف ورعب من الاغتيال "⁴، وزاد هذا الأخير في وصف مبالغة الداى وفرعه من كل حركة مريبة يراها أو يسمعها حتى وصل به الأمر إلى المشي ليلا فرعا⁵، وهذه الحالة يمكن سحبها وإسقاطها على معظم الدايات.

-ومرحلة بداية أفول نظام الدايات تبدأ تقريبا من عهد الداى مصطفى باشا (1789-1805) الذي أطاح به الجند بعد ثلاث محاولات فاشلة، ومنذئذ لم ينفك الجند عن التدخل الواضح في الحياة السياسية.

وكانت نهايات معظم الحكام الاغتيال على يد الجند، فالداى الوحيد الذي كانت وفاته طبيعية هو -الداى علي باشا- وقد يعود السبب في ذلك إلى تغييره لمقر السلطة من قصر الجنيانة إلى القصبة، وعمله على اضطهاد الجند وفرض الصرامة عليهم، والسيطرة على

¹-DELPHIN, histoire des pachat , op.cit.p205.

²-عزيز سامح إلتز ، المرجع السابق ، ص 463.

³-عزيز سامح إلتز ، المرجع السابق ، ص 463.

⁴-جيمس ليندر كاثكارت مذكرات أسير الداى كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982م ، ص29.

⁵- نفسه . ص ص 30-31.

الأتراك بإسناده لجميع الوظائف إلى عدد هام من الكراغلة والحضر، حيث حاول من خلال ذلك إلى إزاحة العنصر التركي من الحياة السياسية والاستناد إلى قوة محلية.¹

ورغم حالة عم الاستقرار التي ميزت هذه الحقبة بوجه عام فقد نجح الدايات الأقوياء في أن يعيدوا السلطة مظهرها القوي وهيبتها، وذليل ذلك ماشهدته البلاد في عهد الدايات الأخير من استقرار سياسي إذ دامت مدة ولايته اثنتا عشرة سنة.²

خلال هذه المدة انصبت جهوده على تنظيم أمور الدولة وتحقيق الأمن والاستقرار حيث قضى على التمردات والثورات الداخلية خاصة ثورة التيجانية .

لكن الضغوط الخارجية التي جسدتها قرارات مؤتمر آكس لاشابيل القاضية بإلغاء ممارسة الاسترقاق والتوقف عن ممارسة الغزو البحري، والجملة الانجليزية عام 1824، ثم الحصار الفرنسي.كلها عوامل عجلت بالقضاء على الكيان السياسي للجزائر.³

02-أوضاع تونس خلال هذه الفترة:

02-01 - الأوضاع السياسية والعسكرية:

¹ - عائشة غطاس ، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها ، المرجع السابق ، ص 61 .

² - الدايات حسين : آخر دايات الجزائر 1818-1830م، ولد بقرية "فورلا" الواقعة على الشاطئ الجنوبي لأزمير .التحق بالجزائر وتولى عدة مناصب إدارية إلى أن أصبح وزيرا ثالثا أي خوجة الخيل في عهد الدايات عمر 1814-1817م، ثم في عهد الدايات علي خوجة ، وفي أعقاب وفاة هذا الأخير تولى الحكم .وفي أعقاب الحملة الفرنسية توجه إلى فرنسا ليشتكو مارنكبه الفرنسيون من جرائم ، ثم انتقل إلى إيطاليا ، واستقر في الأخير في الإسكندرية التي توفي بها عام 1838م. للمزيد أنظر : عائشة غطاس ، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها ، المرجع السابق ، ص 62.

³ - نفسه، المرجع السابق ، ص 58.

أ- عهد الدايات: يعرف عهد الدايات بالفترة التي حكم فيها الدايات الأربعة الأوائل الذين سيطروا فعلا على الحياة السياسية بالبلاد التونسية، وهم: عثمان داي (1598-1610)، ويوسف داي (1610-1637)، و أسطا مراد داي الجنوازي (1637-1640)، وأحمد خوجة داي (1640-1647)، وكانت مؤسسة الداي في عهدهم صاحبة السيادة الحقيقية. أما الدايات الذين سيأتون لاحقا فهم في أغلب الحالات تحت سيطرة البايات المراديين ثم الحسينيين. ولم تنقرض المؤسسة إلا في منتصف القرن التاسع عشر. أما مؤسسة الديوان التي بقيت سائدة لمدة زمنية بعد واقعة البلوكباشية فكان نفوذها في تقلص متواصل خلال القرن السابع عشر. ويشير الوزير السراج في الحل السندسية إلى أن أحمد داي فكر في إلغاء هذه المؤسسة نهائيا مما يدل على المكانة الثانوية التي أصبحت عليها. وسيتقلص نفوذها أكثر فأكثر بداية من عهد الباي حسين بن علي (1705-1735) مؤسس الحكم العائلي الحسيني في البلاد التونسية¹. وكان وراء بروز مؤسسة الداي، كأعلى منصب سياسي في البلاد، وجود فئة حاكمة جديدة تميزت بسلوكياتها السياسية الداخلية والخارجية وقاعدتها المادية القائمة.

02-02- عناصر الفئة الحاكمة في عهد الدايات: بقيت الفئة الحاكمة خلال هذا العهد متكونة أساسا من عناصر اجنبية ونظرا لطبيعة القاعدة المادية التي يقوم عليها نفوذها كانت عناصرها من أولئك الذين كان لهم دور بارز في تدعيم الجهاد البحري وتنشيطه. فنجد أولا الأتراك الذين قدموا الى البلاد خاصة ابتداء من سنة 1574. ومهمتهم الرسمية حماية البلاد من الخطر المسيحي الاسباني. ونشاطهم في البحر إنما هو امتداد للمهمة التي وجدوا من أجلها، وكانوا يبررون شرعية سيادتهم على الايالة بهذه المهمة الدفاعية، ويبررون عدم دفع الإتاوة للباب العالي بهذا الدور أطلائعي الذي يقومون به لمواجهة الخطر المسيحي. وكانوا متفوقين على بقية العناصر الأهلية بتقنياتهم العسكرية وبتنظيماتهم الإدارية والسياسية.

¹ - عبد الحميد هنية ، تونس العثمانية - بناء الدولة والمجال - ، منشورات تير الزمان ، تونس ، 2012، ص109

وكانوا يتمييزون على بقية أفراد المجتمع، وحتى على المدنيين منهم.بلغتهم ومذهبهم ولباسهم¹.

ونجد أيضا الأعلاج وهم النصارى الذين أسلموا وأدمجوا في صلب الطائفة التركية.لذلك كانوا ينسبون أنفسهم إلى الأتراك، فتنوهم وعاشوا في ظلهم. وإدماج هؤلاء الأعلاج في صلب الفئة الحاكمة يرجع بالدرجة الأولى للدور الهام الذي كانوا يؤديونه في تأمين أهم مورد من موارد الفئة الحاكمة وهو الجهاد البحري. وتجسمت مساهمتهم الكبيرة لتدعيم هذا النشاط في استقدام التقنيات الأوروبية الحديثة، الحربية والمالية الاقتصادية، وأصبح للأعلاج مكانة هامة خاصة في فترة أوج النشاط القرصني في البلاد التونسية أي خلال الثلث الأول من القرن السابع عشر.

وتدعم الحضور السياسي للأعلاج الى أن وصل أحدهم (أسطا مراد الجنوازي) إلى أعلى مرتبة سياسية في ذلك التاريخ (أي منصب الداى).وفيما يتعلق بأصولهم، كان بعضهم من المغامرين الذين جاؤوا الى البلاد التونسية واعتنقوا الاسلام وأصبحوا يتعاطون القرصنة، وهناك من التجأ الى ذلك بدافع النعمة أو بدافع الهرب من السلط في مسقط رأسه².

أما العناصر الأهلية فهي قليلة الحضور والوزن في صلب الفئة الحاكمة وقد يعود ذلك على انها لا تقوم بدور ملحوظ في تدعيم القطاع القرصني وتنشيطه، لكن الفئة الحاكمة الأجنبية الأصل والمسيطرة ماديا وعسكريا وتقنيا تلقى مساندة كاملة من المجتمع المدني الذي غنم هو الآخر³.من ازدهر نشاط القرصنة.بل كان المجتمع المدني يشكل القاعدة الاجتماعية لنفوذ الفئة الحاكمة. فكان يكسبها الشرعية الضرورية لنفوذها، وكان العلماء

¹ - عبد الحميد هنية ، المرجع السابق ، ص110.

² - أحمد السعداوي . تونس في القرن السابع عشر ، كلية الآداب والفنون و الانسانيات ، منوبة ، تونس ، 2011، ص

11.

³ - نفسه :ص:13.

الذين يمثلون الإسلام المديني يقدمون إليها الدعم الفكري، وكانت الفئة الحاكمة في حاجة إليه خاصة منذ ان ابتعدت مع نهاية القرن السادس عشر عن الباب العالي وسلكت سياسة استقلالية ازاءه.

02-03- البايات المراديون: 1629-1702م: اقترن ظهور مؤسسة الباي على يد حمودة باشا المرادي في منتصف القرن السابع عشر، بقيادة "المحلة". وفي البداية كانت مهمة قيادة المحلة وقتية ولا تختص بها مؤسسة سياسية معينة. وعموما يلقب بالقائد كل من توكل له مهمة أمر المحلة. وأول من انحصرت في يده هذه المهمة هو رمضان باي، وقد أسندت القيادة من بعده إلى أحد مماليكه، القائد مراد كورسو الذي احتكر المهمة إلى سنة 1631 تاريخ وفاته¹.

أ-بناء الحكم لدى البايات المراديين: بعد السيطرة على دواخل البلاد أدخل المراديون جملة من التغييرات والتنظيمات الجديدة، العسكرية والإدارية والجبائية والفكرية. فعلى المستوى العسكري، أنشأوا جيشا خاصا بهم يعتمد على عناصر أهلية مثل: عسكر زاوية من منطقة القبائل البربرية بالجزائر، وفرسان الصبايحية من القبائل المخزنية. فخلقوا بذلك قاعدة عسكرية لنفوذهم الخاص بينما يرجع الجيش الانكشاري التركي بالنظر أساسا الى الداى².

أما على مستوى الموارد المادية التي يقوم عليها حكمهم، فقد أعاد المراديون تنظيم الجباية لتأمين أكبر قسط من منتج الأرياف وأدخلوا ترتيبات جديدة أمنت تحقيق الاحتكار في مجال الجباية على الأقل بنسبة كبيرة في المرحلة الأولى ؛ علما وأن الاحتكار الكلي في

¹ - عبد الحميد هنية . المرجع السابق ، ص 133.

² - نفسه ، ص 146

هذا المجال لم يتحقق فعليا إلا مع الإصلاحات الجبائية التي وضعتها السلطة المركزية في منتصف القرن التاسع عشر¹.

ب- الصراع العائلي المرادي من أجل احتكار النفوذ: بعد أن تواصلت سيطرة البايات المراديين بدون مشاكل عرفت البلاد التونسية أزمة حادة ابتداء من سنة 1673، في شكل حرب أهلية تواصلت إلى سنة 1686، حيث عرفت تونس في نهاية القرن السابع عشر عدة اضطرابات، بسبب تنافس الأمراء المراديين على كرسي العرش. ففي سنة 1110/198م، قام "مراد باي" بسجن عمه "مراد باي" الذي كان بايا على تونس، ثم قتله واعتلى عرش تونس. وتمت بيعته في 08 رمضان 1110هـ².

ولم تنته الاضطرابات الداخلية تماما إلا بعد نهاية المراديين سنة 1702 على يد إبراهيم الشريف (1702-1705) وبالتحديد عند اعتلاء حسين بن علي الحكم بداية من سنة 1705.

ج- مظاهر الأزمة: كانت ابرز علامات هذه الأزمة الحرب السلالية التي تقابل فيها أعضاء العائلة المرادية والصراع الذي قاده الدايات ضد حكم البايات المراديين وانتهاز العسكر التركي بالإيالة الجزائرية فرصة هذه الصراعات لكي يتدخل تارة لصالح هذا الشق، وتارة لصالح الشق الآخر، همه الوحيد الاستفادة من الغزو والحصول على الغنائم³.

اندلعت الأزمة خاصة عندما حاول الشق المتصلب من الأتراك بقيادة الداوي الحاج علي اللاز في سنة 1673 إلغاء الحكم العائلي المرادي واسترجاع مؤسسة الداوي مافقدته من

¹ - التليلي العجيلي ، أوقاف بلاد الحرمين الشريفين ببلاد التونسية ، منشورات مجمع الأطرش للكتاب المختص ، تونس ، 2015، ص:13.

² - THOMAS MAGGIL . NOUVEAU VOYAGE A TUNIS ,EDITEUR DE DICTIONNAIRE DES SCIENCES MEDICALE ,PARIS ,1815 ,P10.

³ - عبد الحميد هنية ، المرجع السابق ، ص15.

نفوذ وسيطرة لصالح مؤسسة الباي ¹. فقمعت الانتفاضة بشدة، وتضررت على إثرها الطائفة التركية. وتوسعت دائرة الأزمة على اثر وفاة مراد الثاني سنة 1675 بسبب تنافس محمد وعلي ابني مراد الثاني وعمهما محمد الحفصي على الحكم. إذ لم يكن في ذلك التاريخ نظام خلافي واضح ومتفق عليه. بل كان هناك تردد بين الخلافة لفائدة الأكبر سنا من أبناء الباي الراحل أو لفائدة أكبر المراديين من ذرية مراد مؤسس العائلة ². لهذا نشب الصراع بين محمد باي أكبر أبناء الباي الراحل مراد الثاني، وعمه محمد الحفصي. حيث تذكر المصادر التاريخية ومن ضمنها، صاحب المؤنس أنه: "لما توفي مراد باي في أواخر جمادى الأولى 1086هـ/1675م، اتفق أهل الحل والعقد على تولية الأخوين معا، لكن سرعان ما طلب محمد باي الانفراد بالسلطة على حساب أخيه بحكم كبر سنه ³. أما صاحب الإتحاف فيذكر أن " محمد الحفصي حَسَدَ محمد باي، وأغرى علي على طلب المشاركة مع أخيه في سفر المحال ⁴.

أما الوزير محمد السراج فيذكر أن: "تقديم الأخ الأكبر محمد باي أثار ضغينة عمه محمد الحفصي الذي ألب عليه أخاه عليا، واستعان في ذلك بالداي محمد مامي، وقد استجاب هذا الأخير لطلبهما، رغبة منه في استعادة السلطة من جديد ⁵.

وانحاز علي باي إلى صف عمه بحكم تبنيه له ⁶. فاحتكم الجميع أمام الديوان، وكان الحكم لصالح محمد الحفصي في 15 أكتوبر 1675، آنذاك استعد محمد باي للحرب

¹ -توفيق البشروش .جمهورية الدايات في تونس 1591-1675، مجموعة أيام الناس ، تونس ، د.ط، ص65.

² - التليلي العجيلي ، المرجع السابق ، ص:14..

³ - محمد ابن ابي دينار بن ابي القاسم الرعيني القيرواني . المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، دار المسيرة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ط3، 1993، ص273

⁴ - أحمد ابن أبي الضياف . اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ج2 ، تح: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ، والدار التونسية للنشر ، 1977، ص:61.

⁵ - الوزير محمد السراج ، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تح : محمد الحبيب الهللة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ص452..

⁶ - أحمد ابن أبي الضياف . المصدر السابق ، ص61.

وأجبر عمه على التخلي عن منصبه ومغادرة البلاد الى اسطنبول¹، واستعاد مقاليد السلطة في 16 ديسمبر 1675، واحتفى علي باي بالجزائر حيث صاهر شيخ قبيلة الحانشة على ابنته، ورجع في أوائل 1676. ودخل في صراع مع أخيه محمد باي إلى أن هزمه في واقعة القيروان في 13 فيفري 1677م. فاعترف به الديوان وتلقى البيعة منه.

وفي 06 أكتوبر 1678 عاد محمد الحفصي إلى تونس بعد أن تحصل على الخطة الباشوية من اسطنبول، وكان متحالفا مع علي باي، فطالب بحقه. فعادت المعارك الى أن اتفق المتصارعون في 10 ديسمبر 1679 على: احتفاظ علي باي بخطة الباي ومحمد الحفصي بمنصب الباشا، وحصل محمد باي على ولاية القيروان، وحاول محمد الحفصي أن يحصل على منصب الداوي، فجرد من أملاكه وأطرد من البلاد، وحاول الدايات مرة أخرى استرداد مكانتهم السابقة على يد الداوي أحمد شلبي، وحدثت معارك انتصر فيها هذا الأخير، مادفع بمحمد باي وعلي باي إعانة اترك الجزائر، وتواصل الحصار من سبتمبر 1685 إلى جوان 1686، والذي انتهى بمقتل علي باي، وانفراد محمد باي بالحكم من سنة 1686 إلى 1694. إلى أن قام عليه كاهيته محمد بن شكر الذي أغرى الجزائريين، فعادت الحرب مع اترك الجزائر في أبريل 1694 إلى أن انتهت بهزيمة محمد باي في أوت 1694².

وبعد وفاة محمد باي في 14 أكتوبر 1696 خلفه أخوه رمضان. فثار عليه ابن أخيه علي باي مراد الثالث في مارس 1699.

بعدما تمت بيعته في 08 رمضان 1110هـ، وبعد استتباب الأمن له في تونس ؛ خرج في حرب ضد الجزائر انتهت بهزيمته في 29 ربيع الأول 1112هـ/1701، وأعاد الكرة ثانية بعد إرساله "ابراهيم الشريف" إلى الباب العالي لطلب العون، هذا الأخير صادف هناك

¹ - عبد الحميد هنية . المرجع السابق ، ص150.

² - أحمد السعداوي ، المرجع السابق ، ص11.

مبعوثين جزائريين لدى السلطان العثماني¹. الذي عقد الصلح بين "إبراهيم الشريف" ومبعوثي الجزائر، ثم رجع "إبراهيم الشريف" ومعه الصلح. إلا أن مراد باي الذي لم يعترف بهذا القرار أصر على خوض الحرب ضد الجزائر، مادفع بإبراهيم الشريف إلى قتله أثناء خروجه إلى الحرب قرب منطقة باجة في سنة 1113هـ/1702م².

ومن باجة توجه إبراهيم الشريف نحو تونس، وتبعه من تواطئوا معه في قتل مراد باي، وتبعهم الحاضرون، وتمت له البيعة في شهر محرم 1114هـ/09 جوان 1702³.

وربما كان قتل "مراد باي" بايعاز من الباب العالي في اسطنبول. وبقتله تنتهي التجربة المرادية والسلالة كذلك⁴.

باشير إبراهيم الشريف جمع السلط بين يديه فاسند مهام الداي لنفسه في أكتوبر 1702، وتحصل على لقب الباشا بعد ذلك من اسطنبول⁵. وبعد أن تمكن من الحكم بدأ في الجور وظلم الناس، وخاصة العرب لكرهه الشديد لهم. مما أثار غضب الأهالي، وآل به الأمر إلى إعلان الحرب ضد إيالة طرابلس الغرب. فانتصر على عسكرها في 09 ديسمبر 1704. إلا أن انتشار الطاعون في جنده حمله على الرجوع، فتفشي الطاعون في البلاد

¹ - هو السلطان مصطفى الثاني ، ولد سنة 1074هـ، وجلس على كرسي الحكم سنة 1106هـ وعمره 32 سنة ، من أبرز أعماله ومنجزاته حربه ضد النمسا ، توفي سنة 1115هـ. انظر حضرت عزتو ويوسف بك اصاف :تاريخ سلاطين بني عثمان من اول نشأتهم حتى الان، كلمات عربية للترجمة والنشر ، القاهرة، 2011، ص98.

² - بمقتل "مراد باي" سقطت دولة بني مراد بتونس .أنظر محمد الباجي المسعودي : الخلاصة النقية في أمراء افريقية ، ط02، مطبعة بيكار ، تونس ، 1323هـ، ص113.

³ - محمود مقديش . نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق على الزاوي ومحمد محفوظ، ج02، ط01، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1988، ص148.

⁴ - عبد الحميد هنية ، المرجع السابق ، ص151.

⁵ - أحمد السعداوي ، المرجع السابق ، ص: 16 .

الفصل الأول: ركب الحج المغاربي " رحلة النشأة و مسارات التطور "

واستفحل الوضع الداخلي. وحارب داي الجزائر الذي أرسل حملة الى تونس للقضاء عليه في جويلية 1705، والتي انتهت بأسره وحمله إلى الجزائر¹.

ولما بلغ الخبر أهل تونس اجتمع أهل الحل والعقد وأكابر العسكر ؛ فنصبوا ديوانا لتولية من يصلح بأمر وشؤون أهالي تونس، وفي 20 ربيع الأول 1117هـ/12 جويلية 1705م. تمت البيعة " للحسين بن علي التركي "² المعروف بحزمه وحكمته في تسيير شؤون الأهالي.

وبهذا دخلت تونس فترة جديدة في تاريخها، وذلك بوصول الأسرة الحسينية إلى الحكم في ظروف صعبة، لكن مؤسس الدولة "حسين بن علي التركي"، استطاع أن يضمن له ولأبنائه من بعده شرعية ووراثية العرش في تونس. وهذا ما أطل في عمر الدولة الحسينية التي استمرت الى غاية 1957³.

03- الحسينيون وتحقيق احتكار مارسة النفوذ: 1705-1814م: تمثل الفترة الأولى من العهد الحسيني (1705-1814) أوج الطبقة الحاكمة خلال العهد الحديث في تونس. اذ استطاعت خلالها أن تحافظ على قوتها وتوازنها بفضل تكيفها مع المعطيات الداخلية والخارجية. وكان تأسيس الحكم العائلي الحسيني الذي تواصل نفوذه الى سنة 1956 يمثل رمز ذلك التكيف. ويعتبر ماحققته الطبقة الحاكمة في العهد الحسيني من بناء مؤسساتي (أي تحقيق احتكار النفوذ الكلي لصالح مؤسسة الباي على حساب مؤسسة الداوي في مرحلة أولى ثم لصالح العائلة الحسينية في مرحلة ثانية) ترسيخا للتوجه الذي رسمته الطبقة

¹- محمود الباجي المسعودي ، المصدر السابق ، ص114.

²- ولد سنة 1086هـ/1675م، قدم والده من بلاد الروم وأصله من جزيرة كندية ، والتي كان ابوه قائدا ها ، نشأ ابنه حسين في خدمة محمد باي ومن بعده اخاه رمضان باه ، ومن بعده مراد باي ، ثم ابراهيم الشريف .أنظر محمود مقيدش ، المصدر نفسه ، مج 02، ص155.

³- شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، تعريب محمد مزايين والبشير بوسلامة ، ج02، ط03، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1978، ص:382.

الحاكمة لنفسها منذ منتصف القرن السابع عشر بقيادة المراديين. فوجدت له أسسا متينة أمنت له الصمود والتواصل لمدة طويلة.

إن الفترة الممتدة بين 1705 تاريخ اعتلاء حسين بن علي السلطة، و1762 تاريخ اخلاء جبل وولات نهائيا من سكانه هي التي عملت خلالها الطبقة الحاكمة على تدعيم نفوذها الذي يمثل أحسن تمثيل النظام الحسيني.

مر النظام الحسيني بأطوار ثلاثة أساسية:

أ- تميزت الطبقة الحاكمة خلال الطور الأول: بالتحالف (الضمني) مع القوى المحلية بشتى أنواعها، وهو الطور الذي يمثل عموما الفترة الأولى من عهد حسين بن علي (1705-1728) إلى الأزمة الباشية الحسينية.

لقد اتبع حسين بن علي بعد مبايعته سياسة اضعاف المؤسسات الموازية له فقام بالتخلص من الداوي محمد خوجة الأصفر، وعين مكانه قارة مصطفى، وحتى يضمن ولاءه وتبعيته أكثر قام بمصاهرته، وذلك بتزويج ابنه محمد من ابنته هذا الأخير¹.

كما منع الداوي من الحكم بالاعدام أو تنفيذه دون استشارته. وبأشر بعض المهام بنفسه كترأسه للمحكمة وقيادته "للمحلة" التي عن طريقها يعيد تجديد الولاء لشخصه دخل البلاد، ويتفقد احوال رعيته ويقضي بين الناس².

أما مؤسسة الديوان فقد جردها من أي نفوذ، ولكن ابقى على وجودها الشكلي³، أما بخصوص "مجلس الشرع"، والذي كان يمثل أكبر هيئة قضائية شرعية. فقد اغدق عليهم

¹ - peyssoneel et desfontaines : voyages dans la régence de tunis et d'alger (1783-1786). presentations et note de lucette valensi . paris , publication centre national de lettre , 1987,p59.

² - هنية عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص: 164.

³ - Peyssonnel et desfontaines ;op ;cit ;p60

النعم والألقاب الشرفية. فظلوا خاضعين لإرادته. كما أجبر المجلس بالمثول أمامه مرة في الأسبوع للنظر في أمهات القضايا المطروحة عليه¹. وبهذا صار القضاء تحت تصرفه مباشرة.

وبما أن الباي حسين بن علي كان كرغليا فقد كان يحظى بمساندة الأعيان من الأهالي، كما نجح في التوفيق بين العناصر الأهلية والعناصر التركية المكونة للطبقة الحاكمة آنذاك. ماجعله ينجح في السيطرة على دواخل البلاد وبمساندة العنصر التركي².

ب- تميز الطور الثاني: بالاضطراب وبسياسة القوة والتسلط وذلك سواء في العلاقات مع الخارج أو مع الداخل. ويبدأ هذا الطور مع الأزمة الباشية الحسينية ويتواصل في عهد علي باشا (1735-1756)

04-الأزمة الباشية الحسينية: كانت الفترة جد مضطربة سياسيا، لأسباب ظاهرة ومباشرة وأخرى عميقة وخفية. ومن العلامات البارزة لهذه الأزمة الباشية الحسينية ما تذكره عادة الذاكرة الرسمية و تتداوله كتب المؤرخين الخلاف الذي جرى بين حسين بن علي وابن أخيه علي، وسببه أن حسين بن علي الذي لم يكن له حينئذ أبناء عين في أول الأمر ابن أخيه علي وليا للعهد (أي باي الأمحال). وضمن استراتيجية بناء حكم عائلي، كانت قيادة المحلة تقيد في العرف السياسي المحلي آنذاك التأهب للتمتع بالخلافة. لكن حسين بن علي رزق من بعد أولادا، ففضل تقديم أكبر أبنائه سنا وهو محمد المولود ي 1711. وفكر في إبعاد ابن أخيه، محاولا إرضائه بلقب الباشا الذي تحصل له عليه من الباب العالي في سنة

¹ - محمد الهادي الشريف ، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ الى الاستقلال ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ، ط3، دار سيراك للنشر ، تونس ، 1993، ص:82.

² - عبد الحميد هنية ، المرجع السابق ، صص:164-165.

¹1725. لكن ذلك التصرف أغضب علي باشا. وإن تحصل على منصب الباشا فإزاحته من الخلافة جعلته يفكر في القيام على عمه².

وراجت الشائعات حول وشك الكارثة في ظرف يبدو أن التذمر قد كثر فيه من سياسة الباي الداخلية، فاغتنم علي باشا الفرصة وثار على عمه في فيفري 1728، وكانت نقطة الانطلاق من جبل وسلات شمال غربي القيروان، وكان الجبل يعرف بنزعته الاستقلالية وبماضيه الانتفاضي. وقد اتبعه كل الناقمين وخاصة القبائل والقوى الداخلية التي أنقل الباي كاهلها، فشكل هؤلاء الشق الباشي مقابل الحسينية، أولئك الذين انضموا إلى صفوف الباي حسين بن علي³. ولم تتوصل الوساطات إلى إصلاح ذات البين. بل اتسعت رقعة الانتفاضة بين ماي 728 وأفريل 1729. وانهزم حسين بن علي في هجومه على جبل وسلات، وكانت تعرف بواقعة بورحال (مارس 1728).

شملت الانتفاضة مدينة الكاف التي شقت عصا الطاعة في ماي -جوان 1728، في حين حافظت تونس والقيروان وسوسة ومنستير وصفاقس على ولائها لحسين بن علي. وكذلك الأتراك وعسكر زواوة. وبصفة عامة فإن علي باشا قد اعتمد على الكاف وأولاد جوين من قبيلة دريد، وأولاد يعقوب وأولاد منصور من الحنانشة وأولاد سعيد والسواسي والمثاليث وجبل وسلات وماجر وورتان⁴.

لقد بدأت الانتفاضة في اوائل 1728، وانتهت في اواخر السنة الموالية بانتصار حسين بن علي. فاحتفى علي باشا بالجزائر وبها استقر الى حدود 1735. في هذه السنة حصل علي باشا على مناصرة عسكر الأتراك بالجزائر. فاستطاع ان ينتصر على عمه

¹- نفسه، ص: 178.

²- عبد الحميد هنية ، المرجع السابق ، ص: 178.

³- التليلي العجيلي ، المرجع السابق ، ص: 17.

⁴- عبد الحميد هنية ، المرجع السابق ، ص: 178.

ويدخل مدينة تونس. وبتمكنه من مدينة تونس أصبح علي باشا صاحب النفوذ الفعلي. فالتجأ حسين بن علي الى القيروان حيث انصاره الكثيرون. وتلقى علي باشا البيعة في العاصمة واصبح باي تونس بداية من سنة 1735. وتواصلت مقاومة حسين بن علي لابن أخيه الى سنة 1740. عاشت البلاد التونسية خلال هذه السنوات الخمس حربا أهلية مضمّنة انتهت بهزيمة حسين بن علي الذي قطع راسه يونس بن علي باشا في شهر ماي 1740¹. وفر أبناء حسين بن علي إلى الجزائر حيث استقبلوا الاستقبال الحسن لكي يشكلوا عند الضرورة وسيلة ضغط على علي باشا.

تلك هي إذن العلامات البارزة لهذه الأزمة السياسية التي تجسّمت خاصة في انقسام البلاد إلى شقين متناحرين (الحسينية) وتذكر المصادر من بينهم القيروان وصفاقس وسوسة والمنستير والمهدية والقلعة الكبرى وقرى أخرى من الساحل، وقبائل جلاص وبني رزق وأغلب عروش دريد وأولاد عون وأولاد سعيد والهمامة و((الباشية))، ومن بينهم، مساكن، وجمال، والقلعة الصغرى، وأكودة، وزاوية سوسة، وجبل وسلات، وعدد من القبائل مثل: ماجر، والفراشيش، وأولاد عيار وورتنان. أما الأسباب العميقة التي تكمن وراء هذه الحرب الأهلية فتتمثل أولا في ظرفية محلية وعالمية غير ملائمة، وثانيا في العلاقات الاستغلالية التي فرضتها الدولة خاصة قبيل الأحداث على المجموعات الداخلية².

أما الطور الثالث: فتميز بسياسة تمزج بين الحذر والصرامة لإرساء نفوذ الطبقة الحاكمة بشكل نهائي وبدون مشاكل. ويبدأ مع وصول أبناء حسين بن علي إلى الحكم سنة 1756 وينتهي مع أحداث اخلاء جبل وسلات سنة 1762.

¹ - التليلي العجيلي ، المرجع السابق ، ص ص : 178-179.

² - أحمد السعداوي ، المرجع السابق ، ص: 179.

03- أوضاع المغرب بعد وفاة السلطان المولى إسماعيل: من الأزمة إلى

الانفراج السياسي: تتميز الفترة التي أردنا تناول الإشكال فيها بالطول: فهي تمتد طيلة القرن السابع عشر وإلى نهاية القرن الثامن عشر الميلاديين، وهي فترة تاريخية مديدة تميزت بكثافة الأحداث السياسية وسرعتها، فقد شهد المغرب خلالها أزمة سياسية خانقة، ساهمت في تأجيج جذوتها النزاعات العسكرية الضاربة بين أبناء السلطان أحمد المنصور، وظهور زعامات سياسية محلية منفصلة عن السلطة السعدية بالمنطقة الشمالية، أبرزها زعامة المجاهد محمد العياشي ببلاد الغرب ومصب أبي الرقراق وصولاً إلى سواحل المنطقة الشمالية، وزعامة أولاد النقسيس بتطوان، والخضر غيلان ببلاد الهبط والمناطق الشمالية.

ثم تولت الأسرة العلوية شؤون الحكم بالمغرب الأقصى وبسطت نفوذها على المنطقة الشمالية وقد تمكنت من تحرير واسترجاع بعض الثغور الشمالية المحتلة خاصة خلال فترة السلطان إسماعيل التي امتدت من 1672 إلى 1727م.

وتنتهي هذه الفترة بوفاة السلطان إسماعيل حيث عمت بالمغرب سلسلة من الاضطرابات السياسية، دامت ثلاثة عقود.

وقد كان لهذا الانقسام الداخلي الذي عرفه المغرب الأقصى أثارا سلبية على الدولة والمجتمع على حد سواء، بحيث كثرت الفتن والأهوال، وعمت الأزمة والخراب سائر القواعد والهياكل التي كان يرتكز عليها المغرب، هذا في الوقت الذي قوي فيه خطر الاحتلال الأجنبي للسواحل المغربية على أمن سكان المناطق المجاورة له بفعل أعمال القرصنة التي كانت نشيطة في عرض البحر خلال هذه الفترة¹

بالإضافة إلى الصراعات السياسية، عرفت البلاد تعاقب سنوات الجفاف والمجاعات والأوبئة، وقد أدت هذه الكوارث والمجاعات لتوسع من دائرته ورقعته، فقد ذكر الناصري أنه في: "سنة أربعة عشر وألف كان الغلاء العظيم بفاس، وفي سنة خمسة عشر وألف... جاء

¹ - أحمد العمراني ، العلاقات المغربية الهولندية خلال القرن السابع عشر (1603-1668م) ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ ، كلية العلوم الإنسانية ، الرباط ، 2006/2007م، ص03.

بفاس سيل عظيم حتى غمر دور عمل الفخارين، وذهب ببعض أنادر الزرع، وحمل أمة من باب الفتوح فماتت ¹.

كل هذا أدى الى نقص سكاني كبير، وهو ماكان له انعكاس كبير على اليد العاملة المنشغلة في الميدان الفلاحي.²

الا أن بسبب ظروف الحرب التي عرفتها البلاد قضت على جل الموارد الاقتصادية التي كانت تعتمد عليها الدولة.³

يظهر أن الوضع الاجتماعي خلال هذه الفترة وخصوصا في القرن الحادي عشر السابع عشر الميلادي، قد كان هو الآخر متدهورا، ولأسيما أن الكوارث الطبية والأمراض الفتاكة التي ذكرنا سابق قد جاءت لتوسع من دائرته ورقعته، الى جانب الحالة السياسية المزرية التي انعكست على الحياة الاجتماعية فطبعها بطابع الفساد والاضطراب والخوف.⁴

وقد زادت شدة وطئتها بسبب طول مدة الحرب التي فسحت المجال لكل الحماقات والطموحات والمغامرات، فقويت النزاعات المحلية وضعفت أو انهارت المؤسسات المركزية، فتعددت مراكز القرار بالبلاد؛ بل وقع التشتت داخل القبيلة الواحدة ومس الحواضر أحيانا.فوقعت التجاوزات وأهينت الكرامات، فعم الهرج وكثرت الفتن، وانتشر الخوف بين الناس.⁵وقد عبر الافراني في كتابه نزهة الحادي..عن الحالة المزرية التي وصلت اليها البلاد بقوله:"هذه مصيبة عظيمة نزلت بغربنا فافترق ملاؤهم، وقتلت سراتهم، وانتهبت

¹ - أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا ،المصدر السابق ، ج06، ص49.

² - عبد المجيد القدوري ، ابن ابي محلي الفقيه الثائر ورحلته الاصلية الخريت ، منشورات عكاظ ، ط01، 1991م، الرباط ، صص22-23.

³ - عبد اللطيف الشاذلي ، المرجع السابق ، ص50

⁴ - عبد المجيد القدوري ، المغرب وأوربا ، المرجع السابق ، ص273.

⁵ - نفسه، ص275.

⁵ - محمد بن الطيب القادري ، نثر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر ، تحقيق محمد حجي وأحمد توفيق ، مكتبة الطالب ، ج02، ط1982، 01، الرباط ، ص67.

06- عبد المجيد القدوري ، المغرب وأوربا ، المرجع السابق ، ص275.

أموالهم، وهتكت حرمااتهم، ومزقت أعراضهم، وفسدت أديانهم، وأختلت وبعدت عن التوفيق أراؤهم، وكادت تطمع ؛بل طمعت فيهم أعداؤهم...¹.

لقد كانت هذه الحروب والكوارث وبلا على المغرب لأن آثار هذه الوضعية لم تقف عند حد التسبب في هلاك عدد من الأفراد العاديين أو أفراد الرعية البسطاء ؛بل تعدت ذلك إلى التسبب في ضياع الكثير من الشخصيات العسكرية والمدنية التي تعتبر دون شك من الأطر التي كانت مسؤولة عن تدبير هياكل الدولة السياسية والثقافية والاجتماعية وتسييرها.²

انفتح القرن الثامن عشر والمغرب الأقصى ينعم في ظل حكم السلطان إسماعيل (1672-1721)، بحالة من الاستقرار كان قد حُرم منها منذ وقت طويل. على أن هذا الاستقرار لم يتم بسهولة ويُسر. فقد قضى السلطان حوالي ربع قرن متنقلا بين جنابات البلاد لتدعيم سلطته وإحكام سيطرته. فبفضل حركة متواصلة من السعي الداعم، وبفضل إعادة تنظيم الجيش وإيجاد الموارد الكافية لتمويله، تمكن من كسر شوكة القبائل المتمردة والقوى المعارضة. كما تمكن في الوقت نفسه من إيجاد حل لمشكل آخر، عانى منه المغرب الأقصى كثيرا في القرن الماضي، وهو مشكل "الزوايا"، إذ أنه أضعف من نفوذها السياسي وسد كل المنافذ أمام احتمال عودة ظهورها على مسرح الأحداث، كما تجلّى ذلك في توليه بنفسه مهمة استرجاع الثغور المحتلة (استرجاع طنجة من يد الانجليز، والعرائش والمعمورة من يد الإسبان). وما أن حلت سنة 1700 حتى كانت سلطته قد بلغت ذروتها، فساد الأمن والرخاء، وتفرغ السلطان للعناية بالمنشآت بعاصمته مكناس.³

بيد أنه إذا كانت الأوضاع قد استقرت في الداخل، فإن استقرارها هذا لم يخل من جوانب قاتمة ومواطن ضعف، ظهرت آثارها فيما بعد.

¹ - محمد بن الطيب القادري ، المصدر السابق ، ص 67.

² - عبد المجيد القدوري ، المغرب وأوربا ، المرجع السابق ، ص 276.

³ - محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات في المغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الرباط ، المملكة المغربية ، 1992، ص ص 19-20.

فالرخاء الذي عاشه المغرب مع مطلع القرن الـ18 الميلادي لم يكن متواصلا، إذ تخللته فترة ممتدة من لغلاء المفرط، تواصلت زهاء أربع سنوات، من 1721 إلى 1721، اشتد فيها القحط وتسبب في وقوع مجاعة رهيبة.

أما المسألة الأخرى، ولعلها أخطر، فتتعلق بطبيعة الأسس التي ارتكزت عليها سلطة المولى اسماعيل. قامت هذه السلطة على أساس إعادة تنظيم الجيش باستحداث وحدة جديدة بجانب الوحدات التقليدية، وهي "جيش عبيد البخاري"، ولإيجاد الموارد الكافية لتمويل هذا الجيش، تبنى السلطان ضريبة قاسية ألقت عبئا ثقيلا على السكان، وتسببت في معارضة قوية كما يدل على ذلك موقف الفاسيين. وإذا كان السلطان قد تمكن من قمع كل بادرة تمرد، فإنه لم يستطع اقتلاع جذور الاستياء الذي انفجر من جديد مع ضعف الدولة بعد اختفائه.¹

01-03: الأوضاع السياسية والعسكرية: من الصراع على العرش إلى عودة الاستقرار

النسبي (1727 م - 1757 م): بحكم أن دراستنا محصورة في القرنين الـ17 والـ18 الميلاديين فإننا نبدأها بالتاريخ المعلمي المميز بالنسبة للدولة العلوية في المغرب الأقصى خلال هذه الفترة والذي يبتدأ بـ "عهد إسماعيل العلوي"، حيث تُجمَعُ المصادر والدراسات التاريخية المغربية على أن عهد السلطان المولى إسماعيل كان عهد توطيد لسلطة الدولة الفتية² وبناء لصرح هياكلها، حيث تمكن من توحيد المغرب تحت سلطانه، وبث الأمن في جميع نواحيه وأركانه³، غير أن الحلول التي وضعها المولى إسماعيل والتدابير التي اتخذها كانت لها انعكاسات سلبية، أثرت بعمق في أوضاع البلاد وتركت بصماتها على تطورات القرن الثامن عشر بأكمله⁴، فعَهِدُ هذا السلطان لم يخل من مشاكل، كما كان يحمل في طياته جذورا لأزمة اندلعت مباشرة بعد وفاته. فطيلة مدة حكمه الطويلة والتي تزيد عن سبع وخمسين سنة، كان المغرب الأقصى ينعم بالأمن والاستقرار، ولكن

¹ - محمد الأمين البزاز ، المرجع السابق ، ص20.

² - يقصد بها الدولة العلوية

³ - محمد داود : تاريخ تطوان، مطبوعات معهد مولاي الحسن بتطوان ، دار كريماس للطباعة ، المجلد 02، المملكة المغربية، 1963 ص200.

⁴ - محمد بوكبوت : جوانب من تاريخ المغرب في القرن الثامن عشر : أزمة عبيد البخاري - أزمة المخزن والمجتمع (1727 - 1757م)، المجلة التاريخية المغربية، السنة 19، العدد 65 - 66، 1992، ص 33.

بمجرد ذبوع خبر وفاته بين الناس، بعدما تم إخفاؤه عنهم لمدة شهرين تقريبا بأمر أوصى به قبل مماته¹ حصل رد الفعل، وكانت فوضى لم يعرف الناس لها مثيلا، وصار العرش المغربي، ألعبوبة في يد العبيد فكانوا يُؤْلُون ويعزلون من يشاءون من أبناء السلطان، وربما ولّوا وعزلوا في العام الواحد ونحوه عدة مرات، وقد قامت في المملكة بسبب تلك الاضطرابات فتنا وأهوالاً².

يبدو واضحا من خلال هذا الوصف الذي يقدّمه المؤرخ التطواني، أنه يفسر أسباب الأزمة السياسية والعسكرية التي عرفها المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل، بتدخل جيش (عبيد البخاري) في شؤون الحكم، وهو التدخل الذي جعل الدارسين والباحثين يصطلحون على تسمية تلك الأزمة "بأزمة عبيد البخاري"، وواقع الأمر أنها أزمة متشعبة خيوطها، تدخلت فيها عدّة أطراف إلى جانب جيش العبيد الذي كان بطلها، كالقبائل المتذمرة من السياسة الجبائية للدولة، وحريم السلطان اللواتي كن يسعين إلى تثبيت أحد أبنائهن على عرش والدهم المتوفى. هكذا تميزت هذه الفترة "بغزارة التقلبات وتغير الولاءات، وتعدد الحركات سواء ضمن الفرق العسكرية، أو جموع القبائل أو حتى العائلات الحضرية³.

وأزمة العرش هذه ليست بجديدة في التاريخ السياسي المغربي، بقدر ما هي أزمة بنيوية تتكرر في جل فترات انتقال السلطة، ولعل هذا ما جعل الكثير من المؤرخين والدارسين الأجانب يشبهون حالة المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل بحالته بالأمس القريب بعد وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي سنة 1603م، وما تليها من صراع وحروب أهلية بين أبنائه المتنافسين على الحكم⁴. لقد كانت قضية المشروعية في الحكم ومسألة ولاية العهد

¹ - حول ملابسات وفاة السلطان المولى إسماعيل وسبب الوفاة يرجع إلى :

Braithwaite.J: Histoire des révolutions dans l'empire du Maroc depuis la mort du dernier empereur - Muleylsmael, pierre mortier Amsterdam, 1731, pp 5 - 7

² - محمد داود : المرجع السابق ، ص200.

³ - عبد الرحمان المودن : البوادي المغربية قبل الاستعمار : قبائل إيناون والمخزن بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب بالرباط، المملكة المغربية ، 1995، ص97.

⁴ - بخصوص هذه المسألة راجع :

وراء الأزمات السياسية التي هزت المغرب الأقصى الحديث وحالت دون إقلاعه ومنعته من مسaire تحولات عصره¹.

ويمكن حصر أسباب أزمة الثلاثين سنة في ثلاثة عوامل رئيسة تتمثل في: ديكتاتورية الجيش واستبداده خاصة في العاصمة مكناس، وتحركات القبائل العربية والأمازيغية نحو السهول الغربية من أجل الاستحواذ عليها بعدما أخلى الجنود مواقعهم في القصبات والحاميات العسكرية، واتجهوا نحو العاصمة ليستفيدوا من أعطيات ومنح الأمراء المتنافسين على السلطة²، واشتغلوا بنهب المدن والبوادي. بالإضافة إلى غياب قانون شرعي نظم ولاية العهد وكيفية انتقال السلطة والحكم بسلاسة ودون حدوث اضطرابات.

فإذا كانت بعض المصادر المغربية والأجنبية تشير إلى أن السلطان المولى إسماعيل قد عهد بالأمر من بعده - قبيل وفاته - إلى ابنه المولى أحمد الذهبي الذي كان خليفته على منطقة تادلا³، فإن المؤرخ أكنسوس ينفي ذلك جملة وتفصيلا بقوله: "وليس كذلك، فإنه ما عهد لأحد كما أخبرنا بذلك السلطان العادل العلامة الحافظ أبو الربيع مولانا سليمان مرارا.... وأما قول الزياتي إن مولاي أحمد ولي العهد فليس كذلك..⁴"، ويفسر أكنسوس سبب استبعاد لمولى أحمد من ولاية العهد برد القائد الرئيس أبي مروان عبد الملك الحاجي على أحد طلبته الذي سألته عن هذه القضية، فأجاب "هذا غير صحيح، يعني العهد لمولاي أحمد قال: إن مولاي أحمد من يوم مات والده وقدمه العبيد ما أفاق من سكرته إلى سكرات الموت"⁵ وما يؤكد أن المولى إسماعيل ترك أمر خلافته مفتوحا ولم يعين أحدا من أبنائه،

LuganBernard : Histoire du Maroc des origines a nos jours , Criterion, Paris, 1992, p.180Abitbol .Michel Histoire du Maroc, éditions perrin, Paris 2009, p 253

¹ - عبد المجيد القدوري ، المرجع السابق ، ص ص: 264-265.

² -Brignon Jean et les autres. Histoire du Maroc, Hatier, Casablanca, 1967, p 257

³ - أبا القاسم الزياتي : البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية -الريصاني- ، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ، ج 01 ، 1992 ، ص 213 Braithwaite op. cit.p5

⁴ - محمد بن أحمد الكنسوسي : الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي ، تقديم وتحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، د. ت ، ج 01 ، ص 157.

⁵ - نفسه، ص 158.

هو استشارته لكبراء دولته - في فترة مرضه واحتضاره - عن الأصلح من أبنائه للقيام بهذا الأمر بعد وفاته، فأجابه الوزير والكاتب أبي العباس اليعمدي بقوله: يا مولانا، لقد كلفتني أمرا عظيما وأنا أقول الحق: أنه لا ولد لك تقلده أمر المسلمين، كان لك ثلاثة: المولى محرز والمولى المأمون والمولى محمد، فقبضهم الله إليه"، فقال له السلطان: "جزاك الله خير"¹. ولكن بمجرد نعي السلطان المولى إسماعيل يوم السبت 28 رجب 1139 هـ / 21 مارس 1727 م، وفي نفس اليوم، بويع المولى أحمد الذهبي أحمد الذهبي الإبن البكر للسلطان الراحل "بابعه وصفان سيدي البخاري مع أعيان المدينة من أشرافها وعلمائها، ووفدت عليه أعيان أهل فاس علمائها وأشرافها"²، فتميزت فترة حكمه الأولى هذه بأن مع فرق الأموال وأهمل الرعية والعمال وضع الحزم والتدبير وفوض الأمور المهمة للخديم والوزير وانحجب في القسبة عن الناس، واشتغل باللذة والكأس"³ فساهم بذلك في إضعاف المخزن بسبب شخصيته الضعيفة⁴.

فلما وصلت أخباره إلى أخيه المولى عبد الملك الذي كان خليفة لأبيه على منطقة سوس، دعا لنفسه بالخلافة، فتمت مبايعته بمدينة تارودنت وأعمالها، فكانت الحروب سجالا بين الأخوين الطامعين في كرسي الحكم، وصارت الدولة دولتين، وافترق الناس فرقتين، فكان ذلك سبب محو دولتهم وذهاب مجدهم على أيديهم" هذه الفترة تميزت - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - بصراع سبعة من أبناء السلطان الراحل المولى إسماعيل وتنافسهم على العرش⁵، فالمصادر التاريخية المغربية قد أشارت بالحديث عن تلك التطورات السياسية والعسكرية، وأسهب في ذكر تفاصيلها، لذلك سنكتفي بالتركيز على فترات حكم السلطان المولى عبد الله

¹ - الكنسوسي . المصدر نفسه ، ص: 159. و أحمد بن خالد الناصري ، الإستقصا ، المصدر السابق ، ج 07، ص 100

² - عبد الكريم بن موسى الريفى : زهر الأكم مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل دراسة وتحقيق آسية بتعدادة، ط1، الرباط، 1992، ص 204.

³ - المصدر نفسه، ص: 206،، انظر أيضا :

*Caillé jaques petite histoire du Maroc code série de le mat de moulay Ismail - (1727-1850) ..ncillus de librnisie et édition alantique. Casa, 1992.7 12

⁴ -De ohenier. M : Recherches historiques sur les maures et lustoire de l'empire de Maroc, paris 1787 T 3. P 423.

⁵ - LuganBermand : Histoire u Maroc des origines a nos yours. Criterion, Paris, 1992, p 180

والتي بلغت سبع ولايات متفرقة، والدور الذي لعبته والدته الأميرة خناثة بنت بكار في دعم مشروعية حكمه وتزكيته.

بعد وفاة أخوي المولى أحمد الذهبي والمولى عبد الملك¹ أربعة أيام، بويح المولى عبد الله بالخلافة في العاصمة مكناس يوم 4 شعبان سنة 1141هـ، من قبل رؤساء جيش العبيد وفقهاء وعلماء وأشرف المدينة، ولم يحضر تلك البيعة بنفسه، إذ كان غائبا بداره من بلاد سجلماسة²، وتشير بعض المصادر الأجنبية إلى أن بيعة مولاي عبد الله كانت بإيعاز من والدته خناثة بنت بكار التي قدمت وعودا لقواد جيش العبيد بمنحهم مالا كثيرا إن هم ناصرُوا ولدها³.

ومن الأحداث البارزة التي شهدتها هذه الولاية الأولى للمولى عبد الله، توجه الأميرة خناثة بنت الشيخ بكار المغاربي والدة السلطان المذكور إلى الحجاز رفقة حفيدها الأمير سيدي محمد بن عبد الله، بقصد حج بيت الله حرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك في شهر جمادى الآخرة عام 1143 هـ ضمن وفد أمير رسمي كبير يتصدره الوزير والكاتب الشرقي الإسحافي ونخبة من العلماء والفقهاء والقضاة. و في سنة 1147 هـ / 1734 م نفذ القائد سالم الدكالي، أحد رؤساء عبيد الرمل، محاولته الانقلابية على المولى عبد الله، والتي انتهت بخلعه وفراره إلى تادلا ومنها إلى سوس، وتمت مبايعة أخيه أبي

¹ - كانت وفاة المولى أحمد الذهبي يوم السبت 4 شعبان 1141 هـ / 6 مارس 1729 ع، بعدما دس له السم من قبل إحدى زوجات أبيه المولى إسماعيل، قيل إنها الأميرة خناثة. وكان قبيل وفاته عندما سقط مريضا - أمري بقتل أخيه عبد الملك خنقا، والذي كان مسجوناً عنده بدار الباشا مساهل بالعاصمة مكناس، وذلك يوم الثلاثاء فاتح شعبان سنة 1141 هـ / 3 مارس 1729 م. ويرى الريفي والكنسوسي أن خنق المولى عبد الملك لم يكن بأمر من المولى أحمد، بل كان من تدبير قواد العبيد الذين نسبوه إليه. انظر: الزيانى: البستان الظريف، ص: 232. / الكنسوسي: الجيش العرمم، ج 1، ص: 164. / الريفي: زهرة الأكم، ص 225

- De la Vérone Chantal: Vie de Moulay Ismail, roi de Fes et de Muroc, d'après Joseph de León (1708-1728), étude et édition, publication du centre d'études islamiques et banales d'histoire comparée n° 206, librairie arabe Paul Gunther. paris, 1974, pp 15-16.

² - محمد بن عبد السلام الضعيف. تاريخ الضعيف، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، دار المآثورات، ط 01، 1985، ص 111

³ - voir: De chenier: op. cit. P 4,340.

الحسن علي الأعرج من قبل قواد جيش العبيد والفقهاء والأعيان من أهل الديوان¹، ويذكر الزياني أن سبب عزل السلطان المولى عبد الله من قبل جيش العبيد يتمثل في إسرافه في قتل قوادهم ورؤسائهم انتقاماً منهم لقتل أخيه المولى عبد الملك، حيث بلغ عدد من قتل منهم عشرة آلاف أو يزيدون حسب رواية الزياني².

وخلال فترة حكم هذا السلطان (مولاي علي الأعرج)، تعرضت السيدة خنثة وحفيدها الأمير سيدي محمد بن عبد الله للسجن والامتحان ونهبت دارها، وذلك بإشارة من القائد سالم الدكالي³، ومن داخل السجن بعثت برسالة إلى العلماء تطلب منهم تحكيم الشريعة بينها وبين المولى علي الأعرج وإطلاق سراح حفيدها الصغير، فاستجاب العلماء لطلبها وشفعوا لحفيدها لدى السلطان الذي وافق على إطلاق سراحه⁴.

و بالفعل تمكن السلطان مولاي عبد الله من استرجاع كرسي الحكم بعدما ثار العبيد على أخيه مولاي علي الأعرج في 11 ذي القعدة عام 1148 هـ، وكان مولاي عبد الله وقتئذ بتادلا، وهناك لحقته بيعة العبيد وأهل مكناسة إلا أن القائد سالم الدكالي نكث تلك البيعة كعادته، وكتب إلى علماء فاس يدعي: " أن الديوان قد اتفق على خلع المولى عبد الله وبيعة سيدي محمد بن إسماعيل المعروف بابن عربية "⁵، فلما سمع أهل الديوان بما فعله القائد سالم الدكالي، ألقوا القبض عليه وعلى من معه من القواد وبعثوا بهم إلى المولى عبد الله بتادلا، حيث استفتى العلماء فيهم فأفتوا بقتلهم.

ثم تتابعت أحداث الخلع والتولية بين أربعة من أبناء المولى إسماعيل هم: المولى محمد بن عربية والمولى المستضيء والمولى زين العابدين بالإضافة إلى المولى عبد الله الذي تولى الحكم سبع مرات حسب المؤرخ الضعيف⁶، في حين يختزلها بعض المؤرخين الأجانب

1- الريفي: مصدر سابق ، ص: 239-240. /الضعيف: مصدر سابق، ص116

2- الزياني : المصدر السابق ، ص 249

3- الضعيف : المصدر السابق ، ص116.

4- نفسه، ص: 117.

5- نفسه ، ص: 142.

6- نفسه . ص 111 - 162 .

في أربع ولايات فقط¹، ويمكن القول من خلال دراستنا للمصادر التاريخية التي أرخت لهذه الفترة الحالية من تاريخ المغرب، أن مولاي المستضيء شكل المنافس الأقوى والعنيد للسلطان مولاي عبد الله، إلا أنه تمكن في النهاية من الانتصار عليه بعدما استوعب أن "سر إيجاد التوازن السياسي للمخزن المغربي يكمن في الوحدة بين العرب والبربر، واحترامهم لصفته الدينية الشريفة، ومنذ ذلك الحين شكلت كل من: الأوداية وبربر كزوان والشرفاء الأعمدة الأساسية التي مكنت المولى عبد الله من العودة إلى عرشه وعودة الاستقرار إلى المغرب... كما أن تعيين ابنه سيدي محمد بن عبد الله خليفة لوالده على المناطق الجنوبية، ساهم في إنعاش التجارة الأطلسية والصحراوية على حد سواء، مما مكن الخزينة من استرجاع أنفاسها، حيث الأجور تؤدي للجيش في وقتها، وأصبح أكثر انضباطا".²

إن جوهر الإصلاح العسكري الذي أقدم عليه السلطان محمد بن عبد الله كان يتمثل في إضعاف الجيش النظامي والاعتماد بشكل أكبر على القبائل عند الحاجة، وكان غرضه من وراء هذه السياسة، إلأى جانب تقليص دور الجيش كقوة سياسية، التخفيف من النفقات العسكرية للدولة. وهكذا عكس السلطان محمد بن عبد الله السياسة الاسماعيلية بمراهنته من جديد على العصبية القبلية بدل الاعتماد الكلي على الجيش النظامي.³

وبعد وفاته حاول اليزيد خلال حكمه القصير أن يغلب النموذج الاسماعيلي بتجميعه لجيش العبيد بمكناس وإرجاعه الأوداية إلى فاس بعد أن غابوا عنها مايقرب الثلاثين سنة. إلا أن هذه المحاولة بقيت مجرد مشروع في ظل الفتن التي عمت البلاد طوال حكمه المضطرب.⁴

وعندما تولى المولى سليمان مقاليد الحكم كان عدد الجيش لا يتجاوز 2400، منهم 2000 من العبيد و400 من الأوداية. ذلك أن الفتن التي طبعت عهد اليزيد وحالة الفوضى

¹-Luganbbernard : op.cit, p 181.

²-Luganbernard: op. cit, p 259

³ - ، المغرب قبل الإستعمار ، ص64

⁴ - محمد بن عبد السلام الضعيف ، المصدر السابق ، ص ص 212 - 213

التي تلت وفاته مباشرة أدت على تشتت الجيش النظامي وفرار أفراد الجيش بعد أن توقفت روايتهم.¹

المبحث الثالث : الحركة العلمية والأدبية بين بلدان المغرب العربي وتأثيراتها على نشاط الركب الحجى:

01-01- في الإيالات العثمانية المغاربية : "إيالة الجزائر + تونس + طرابلس الغرب":

01-02-المغرب الأقصى وبلاد شنقيط: تجمع الأبحاث والدراسات على أن الحركة العلمية والأدبية بالمغرب الأقصى في العهد الحديث. عرفت أوجها وبلغت ذروة إشعاعها، خلال فترة حكم السلطان المولى إسماعيل (1762 - 1727م)، والتي يعتبرها الدكتور عبد الله المرابط الترغي من أخصب الفترات التي عرفها المغرب عطاءً وإنتاجاً في الأدب وعلومه² بالنظر إلى غزارة أعمالها وكثرة أسماء رجالها من العلماء والأدباء الذين مارسوا الإنتاج العلمي والتأليف الأدبي والإبداع الشعري والنثري.

ومن أهم العوامل الثقافية التي أسهمت في إنتاج هذا الواقع الفكري المزدهر، اتساع النشاط التعليمي، بفضل الانتشار الكبير لمراكز العلم في مختلف المناطق حاضرة وبادية، وحضور العدد الهائل من الشيوخ الذين مارسوا العلم والتعليم، وتصدوا للدرس والإفادة³.

ومن أهم تلك المراكز العلمية بالمغرب وقتذاك - إلى جانب مدينة فاس، عاصمة العلم بالمغرب - يعدد الدكتور الترغي مركز مكناسة، الذي ظهر إشعاعه بعد اتخاذ المدينة عاصمة للبلاد، فأصبحت تستقطب العلماء والكتاب ورجال الدولة، فتحركت بها العلوم،

¹ - المرجع السابق ، ص 65

² - عبد الله المرابط الترغي ، حركة الأدب في المغرب على عهد المولى إسماعيل (1082 - 1139 هـ)، دراسة في المكونات والاتجاهات ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراة الدولة في الأدب العربي ، جامعة عبد المالك السعدي ، تطوان ، المغرب الأقصى ، ص:53

³ - نفسه 55.

ونشطت مجالسها وحلقاتها التعليمية مع كبار العلماء من أبنائها، ومع الطارئين عليها من تلامذة الدلاء وغيرهم¹.

ومركز عدوي الرباط وسلا، الذي استرجع مكانته العلمية والتعليمية التي كانت له على عهد بني مرين ومركز تطوان الذي برز مع الشيخ علي بركة، ومركز شفشاون الذي تعدى صيته وشهرته حدود تلك المدينة الصغيرة بفضل أعلام من أمثال علي بن عيسى العلمي صاحب النوازل، والأديب الشاعر عمر الحراق، والعالمين الأدبيين أبي العباس البرنسي وأبي عبد الله الحوات وغيرهم.

وفي البادية والمناطق النائية لعبت مؤسسة الزوايا دورا بارزا في نشر العلم والمعرفة وجعلهما في متناول الطلبة الراغبين في الانتفاع بهما. حيث نشطت حلقات الدرس ومجالس العلم، واشتهرت في هذا المجال العديد من الزوايا، كالزاوية الناصرية بدرعة، والزاوية العياشية بآيت عياش، والزاوية الشرقاوية بأبي الجعد وغيرها، واتسع النشاط العلمي في هذه الزوايا لتزاحم بذلك أكبر مراكز العلم في الحاضرة.

إلى جانب انتشار المراكز العلمية، وإشعاعها، عرف مجال الدرس اتساعا، فشمّل مختلف العلوم التي شكلت قاعدة التكوين العلمي والأدبي في هذه البيئة الإسماعيلية، ففي مجال علوم القرآن والتفسير، كان الاعتماد على تفسير الجلالين وتفسير ابن عطية وتفسير البيضاوي، والكشاف للزمخشري وغيرها. وفي مجال الحديث والسيرة النبوية كان الاعتماد على الصحيحين، وموطأ مالك وكتب السنن، ومواهب القسطلاني والأربعين النووية ومشارك الأنوار والشفاء للقاضي عياض، وسيرة ابن هشام، والاكتفا للكلاعي وغيرها.

وفي مجال الفقه والأصول كانت لائحة الدرس تجري بعدة مصنفات منها: الرسالة لابن أبي زيد والتهذيب للبرادعي والمقدمات والبيان والتحصيل لابن رشد و مختصر ابن الحاجب ومختصر خليل وغيرها².

ومن العوامل الأخرى التي أسهمت في ازدهار الحياة الثقافية خلال العهد الإسماعيلي انفتاحها على البيئة الشرقية بتهيئة سبل الاستفادة من علمائها والتواصل معهم، حيث يسجل

¹ - نفسه، ص: 57.

² - المرباط الترغي : نفسه، ص. 58 - 62.

الدكتور الترغي أن فترة المولى إسماعيل والتي تليها بقليل، عرفت فيضا كبيرا في كتابة الرحلة والإقبال على تسجيل ظروفها وموادها بصيغة من الصيغ¹، وخاصة الرحلة الحجازية التي أنتجها علماء المغرب وأدباؤه، وهي رحلة تقوم على عدة ثوابت أساسية، كاستهداف الذهاب إلى الحجاز بقصد تأدية مناسك الحج، والقيام بزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وبذلك أخذت تسميتها بالرحلة الحجازية أو الحاجبة، ووصف مراحل الطريق وما يميزها من مصاعب ومشاكل تصادف الراحلين عادة والحديث عن المناسك وشرح كيفية أدائها، وتسجيل ما ينتاب الحاج من شوق وحنين إلى الحج وزيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام، والتركيز على ما يمثل التواصل العلمي والاجتماعي بين المغرب وبقية المجتمعات التي يتم الاتصال بها².

ومن أشهر الرحلات الحجازية التي تم إنتاجها خلال هذه الفترة، نخص بالذكر: الرحلة العياشية الموسومة بماء الموائد لأبي سالم العياشي ت (1090هـ)، والرحلة المقدسة لمحمد بن محمد المرابط الدلائي (ت 1189هـ)، والرحلة الحجازية للشريف الولائي (ت 1101هـ)، والرحلة الحجازية لمحمد بن الحسن اليوسي (ت بعد 1119هـ)، والرحلة الحجازية الأولى ثم الثانية لأبي العباس أحمد الهشتوكي (ت 1127هـ)، والرحلة الحجازية الأولى لأحمد بن ناصر الدرعي (ت 1127هـ)، والرحلة الحجازية للشرقي الإسحافي (ت بعد 1150هـ)، والرحلة الحجازية لأبي مدين بن أحمد الروداني (ت 1157هـ) وغيرها³.

يرى الدكتور محمد الأخضر أن الحياة الثقافية بالمغرب خلال أزمة الثلاثين سنة، تابعت سيرها على نحو من التقدم، حيث تابع المولى عبد الله عمل أبيه في هذا الميدان، ومن ذلك أنه جدد مجموعة الكتب التي كان مولاي إسماعيل قد أمر وزيره أحمد بن الحسن اليمودي بجمعها، والتي تشتمل على عشرة أجزاء في مختلف العلوم⁴. وتحدث الدكتور عبد الهادي التازي الكتب النفيسة والمخطوطات القيمة التي تضمنتها "الحالة العبدلاوية" أهداها

¹ - نفسه، ص. 15.

² -

³ - فيما يتعلق بدراسة مضامين هذه الرحلات ومؤلفيها، انظر: مصطفى الغاشي، المرجع السابق، ص 120.

⁴ - محمد الأخضر: الأدب المغربي على عهد الدولة العلوية، العصر الأول (1139 - 1171 هـ / 1727 - 1757م)، مجلة المناهل، الرباط، عدد السنة الأولى، نوفمبر 1974، ص: 216.

وأوقفها السلطان مولاي عبد الله على خزانة القرويين بفاس يوم 22 رجب عام 1156هـ والتي اشتملت على مصاحف مجلدة وعدد من التفاسير وكتب الحديث والسير والتصوف والفقه والأصول واللغة والقراءات والنحو والبيان والمنطق وعلم الكلام¹

اشهر بيوتات الركب الحجي المغاربي: ضم الركب الحجي ببلدان المغرب العربي كل الفئات الاجتماعية على اختلاف أطيافها: الأمير والوزير والفقير والغني والشريف والصلوك هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الركب يضم الجنسين معا، وذلك حسب شهادات الحجاج الذين دونوا رحلاتهم "حيث ذكروا وجود نسوة ضمن الركب منهن حتى الأميرات² بل تجاوز الأمر إلى وجود حتى الحوامل منهن³.

كما ضم الركب أصحابالبنية الجسمانية القوية وضعفائها، وضم من هم ذاهبون بقصد أداء فريضة الحج، ومن هم ذاهبون بقصد خدمة الحجاج بمقابل، أي الذين كانوا يطلق عليهم صعاليك الركب، وضم حتى العبيد المرافقين لأسيادهم⁴.

01-03 بيوتات الركب الحجي المغاربي:

أ- البيوتات الجزائرية: على تنوع محطات انطلاق الركب الحجي ببايالة الجزائري تنوعت معه البيوتات التي كانت مسؤولة عن إمارة هذا الركب والإشراف عليه، كل حسب الإقليم الذي يقع فيه، وما اشتهر من هذه البيوتات نميز مايلي:

¹ - عبد الهادي التازي : جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري و الفكري، دار نشر المعرفة، الرباط، 2000، ص ص : 708 - 710.

² - الإسحاقى ، الأميرة خناثة

³ - أحمد التمللي الهشتوكي، رحلة الهشتوكي، ص 15. أبو مدين الدرعي، الرحلة الحجازية، ص 236 . محمد الناصري، الرحلة الكبرى، ص 494، المجاجي ، .

⁴ - محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، المملكة المغربية، مطبعة المخزن، تطوان، 1953 ، ص 41. الشرقي بن محمد الإسحاقى رحلة الإسحاقى، المملكة المغربية، مخطوط المكتبة الوطنية، ميكرفيلم رقم 3724 ص 29. الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، ص 115.

01-بيوتات الركب التواتي: كان منطلق الركب من زاوية الحاج بلقاسم¹، موضع تجمع الراغبين في أداء فريضة الحج، وأصبح صاحب الزاوية الشيخ الحاج بلقاسم، شيخ الركب وقائد فريق الحجاج "أسندت اليه مهمة ركب الحجاج في عصره، فكان يترأس وفد حجاج بيت الله الحرام عدوة سنزات، يعلم المجاهدين منهم، وينفق على الفقراء، ويواسي الضعفاء، فكان هو المرشد، والمعلم والمساعد، ولم يشغله ذلك كله عن التدريس والتعليم والتأليف واصلاح ذات البين...".²

وقد اجتمعت إحدى المرات في هذا الركب عدة شخصيات بارزة منها: الشيخ ابو محمد الجزولي وابنه الحاج الصوفي مؤسس زاوية بادريان.الذي وصفه صاحب الدرة الفاخرة بالعالم الصالح الأديب تلميذ الشيخ الحاج محمد بن أحمد المطارفي، وابنه الثاني الحاج بلغيث المدفون الى جواره في زاوية "تزيلزة".³

الشيخ عباد رفيق الشيخ بلقاسم وصاحب الخطبة الشهيرة، والشيخ الحاج يدة والحاج لحسن الجنتوري الشريف صاحب جنتور، والشيخ عمر الوقروتي صاحب الزاوية المعروفة باسمه في أوقروت.⁴

¹ - الشيخ أبو القاسم بن الحسين الجراري : يتصل نسبه ببأملوك الذي نزل قورارة في منطقة تحمل اسمه الى يومنا هذا ، وهو من نسل الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، ولد الشيخ عام 925هـ/1518م ببلدة أوسيف وتلقى دراسته الأولى بمسقط رأسه على يد والده الحسين ، وبعدها بدأ رحلة طويلة مرورا بالبيض ثم الى نواحي فاس ، ثم نزل ببلدة تادلا ، ثم عاد لمسقط راسه .خلف اثارا علمية وادعية وقائد وابتهالات وأذكار أهمها كتاب "منهج السالكين في التصوف "، وقصائد في التوحيد ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم .توفي عام 997هـ/1588م، ودفن بزواته المشهورة باسمه قرب تميمون. للمزيد ينظر: محمد الفاطمي ، الرحلة الحبية القورارية من خلال أنموذج قصيدة الشوق (مجهولة المؤلف)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ، المجلد 06، العدد03، جامعة الشهيد حمة لخضر ، وادي سوف ، الجزائر، 2020، ص :79.

² - محمد الفاطمي ، المرجع السابق ص :80.

³ - توفي الشيخ عام 1036هـ / 1626م بقصر تيلكوزة من زاوية الدباغ ، ومن نفس الشجرة تفرع لنا البيت البادرياني لمؤسسه الشيخ محمد عبد الله المشهور بسيدي الحاج الصوفي مؤسس زاوية بادريان .

⁴ - محمد الفاطمي ، المرجع السابق ، ص:80.

02 بيت الشيخ ابي نعامة: تأسست زاوية أبي نعامة على يد الشيخ أبي نعامة سنة 1130هـ/1718م، في أقلي ببلاد توات الجزائرية، وكانت مركز القادرية لكننة اتوات، ومكان الاستراحة المعتاد للحجاج القادمين من الحوض والأزواد، وفيها تلتقي أركاب الحج الجزائري والمغربي والشنقيطي والتكروري. حتى انها كانت توصف "بمجمع ركب الحج"، بسبب اجتماع الركبان فيها كما ذكرنا سابقا، لتتطلق تحت لواء واحد هو لواء "شيخ الركب النبوي الشيخ أبي نعامة". وبلغت أوج ازدهارها خلال القرن الثاني عشر الهجري حيث كانت مجمع ركاب الحج القادمة من توات وشنقيط وبلاد التكرور، ويعد الشيخ سيدي محمد (فتحا) بن عبد الرحمن بن أبي نعامة الكنتي الهاملي بن أبي بكر المتوفي بزاوية "أقلي" في 19 رمضان 1163هـ الموافق لـ 22 أغسطس 1750م. هو "صاحب مشيخة الركب" عندما تصل الركاب إلى الزاوية، وإليه يعود الفضل في إحياء هذه العادة بعد أن قُطعت مدة 25 سنة.

ويتحدث الحاج محمد البشير البرتلي عن شيخ الزاوية في ذلك العهد سيدي الحبيب بن محمد بن أبي نعامة الكنتي المتوفي سنة 1225هـ، والذي كان عالما بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتولى شؤون الزاوية بعد وفاة والده. فيقول: "... فنزلنا على نعم الرجل سيد وابن سيد، كريم وابن كريم. سيدي الحبيب بن الشيخ سيدي محمد، أدام الله حياته وأطال بقاءه، لنا ولجميع المسلمين في خير وعافية. آمين..."، وذكر أنه زار والده الشيخ أبي نعامة.¹

بيت الحاج أحمد بن الحاج الأمين التواتي: يقصد به أحمد بن الحاج الأمين التواتي: العلامة الفقيه، المشارك أبو العباس أحمد بن الحاج الأمين القبلي ثم الغلاوي كان عالما، عاملا فاضلا جوادا شجاعا، مهابا متواضعا، حسن الخلق. ذا معرفة لفروع الفقه مستحضرا لها

¹ - الحاج محمد البشير البرتلي ، المصدر السابق ، و/04.

لاسيما ما شتمل عليه المختصر ومتأخر شروحه، مشاركا فيغيره، جماعا للكتب.أخذ عنه المصطفى بن بيان الغلاوي وغيره، وأخذ القراءات عن التتواجيوبي تلميذ سيدي أحمد الحبيب اللمطي، وكان صيت وذكر في بلاد القبلة وبلاد التكرور .

ورحل إليه الناس للأخذ عنه، وتاب على يديه من الأعراب خلق كثير لأنه مسموع الكلمة في بلده.

كان شيخا لركب الحج الولاتي قبل أن يصل الى توات فيكون الأمر لأبي نعامة الكنتي، حج مرتين وتوفي في ثانيهما بين قريتي مرزق واتساوة من بلاد قزان ودفن بالثانية ضحى يوم الثلاثاء التاسع عشر من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ومائة وألف (1157هـ/1743م)، من أهم تلاميذ الشيخ عبد الرحمن بن ابراهيم الجنتوري التواتي الذي صحبه في احدى حجاته من مصر الى بلاد عين صالح وأجازه اجازة عامة، ومن تلاميذه أيضا الشيخ عبد الرحمن بن عمر التتلاني التواتي، وقد اجاز الشيخ أحمد بن الحاج الأمين هذا الأخير عندما حلّ ببلدة أقبلي في طريقه إلى الحج، وكان قد لقيه قبل ذلك في أروان في طريق عودته من حجته الأولى.

من تأليفه تأليف في مقر نافع حل فيه الدرر اللوامع، وشرح على المقنع اختصار "نظم أبي مرقع" في علم الهيئة لابن سعيد السوسي. سماه "كشف الغمة في نفع الأمة"، وفيه فوائد جمة لا توجد في شرحي الناظم، وتأليف المنطق بالجيم.¹

ب- البيوتات المغربية: كانت خطة إمارة الركب لها مقام كبير عند ملوك المغرب الأقصى، وكانوا هم الذين يعينون رئيس هذا الركب ويختارونه من علية الناس، فضلا وأخلاقا وثروة وعراقة بيت.

¹ - الحاج محمد البشير البرتلي، المصدر السابق، ص: 116.

وكانت العادة الغالبة في الدولة العلوية أن أمير الـركب الفاسي: لا يكون الا من فاس، ولم يخرج عن هذه العادة إلا السلطان المولى سليمان الذي رشح لرئاسة هذا الـركب أحد أعيان بيوتات مكناس. وكثيرا ما كانت بعض العائلات المغربية تتداول هذه الولاية ومنها عائلة "أبي محمد صالح" في الدولة المرينية.

وفي الدولة العلوية تداولتها عائلات أطولها أمدا "بيت أولاد عديل"، فقد تسلسلت في بيتهم رئاسة الـركب الفاسي مدة مديدة تزيد على الأربعين عاما، وتبتدئ تقريبا بعد عام 1121هـ، وتنتهي كذلك بعد عام 1162هـ، وطيلة هذه المدة لم يكن يذهب مع الـركب إلا هؤلاء أو من ينوبون عنهم.¹

¹ - محمد المنوني، المرجع السابق، ص ص: 30-31.

02-02- تجهيز الركب وعادات تحضير السفرة:

أ- عند المغرب الأقصى: 01- يوم خروج الركب من فاس: كانت العادة أن يخرج ركب فاس في السابع والعشرين جمادى الثانية أو الثامن والعشرين منه بحيث يستهل عليه رجب بتأزة أو فوقها، وكان يخرج من باب الفتوح وينزل في المكان المعروف بـ **بُؤْلَجَة** العسال على الضفة الشرقية لوادي سبو¹، ويبرز في هيئة بديعة وشارة حسنة من الاحتفال ونصب الأخبية المنوعة من القوراء والمستطيلة و القياطين المثلثة، هذا إلى قرع الطبول وإظهار الزينة، وكان يشيع تشييعاً منقطع النظير وقد يحضره حتى السلطان وحاشيته²، حيث يذكر العياشي أنه ابتدئ التهيؤ للمسير إلى الحج قبل نصف الشهر والركب في سجالمة قد عزموا الخروج على حد قوله، فاتصل بأمير الركب لانتظارهم³، ومن عادات سفرهم اختيار يوم الخميس، وهم يتوخون ذلك اليوم رجاء بركة قول النبي صلى الله عليه وسلم "..اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم الخميس"⁴.. ومما جاء في كلامه "..."ركبنا للسفر كل صعب وذلول، ووطننا أنفسنا بمفارقة المنازل والطلول. فيسر الله غالب المحتاج إليه في أقرب مدة..."⁵، ويذكر الإسحاقى أن يوم خروج الحاج من فاس يوم موعود ومشهود قل من يبقى بالمدينة إلا وخرج ودرب ودرج الرجال والولدان والأحرار والعبدان فما ترى أعجب من ذلك اليوم ولا أحسن منه منظراً ومخبراً يروق البصر ويميل بالفكر. عادة جميلة استندوا إليها وطبيعة جبلوا عليها⁶. لكن

¹ - عبد الرحمن المودن. المرجع السابق ، ص111

² - محمد المنوني . المرجع لسابق ، ص14

³ - أبو سالم العياشي . ماء الموائد ، ج01، المصدر السابق ، ص57

⁴ - نفسه . ص67

⁵ - نفسه . ص58

⁶ - محمد المنوني . المرجع السابق ، ص: 15.

العياشي لم يفصل كثيرا في ذكر مايلزم اصطحابه وكيفية التجهيز، لكنه أشار الى أنه كان ينتابهم القلق بسبب مشاعر الفراق والسفر¹. أما الناصري فيذكر أنه من عاداتهم عند التهيؤ للسفر زيارة الزوايا والخروج منها وفي ذلك يقول "...بعد أن زرت الوالد والوالدة والأشياخ في القبة -اغتنام بركتهم وودعتهم والأهل والأخوات والخدم والحشم، وأودعتهم لله الحفيظ وأودعوني، وقرأت من الآيات و الأذكار ماوردت في قراءته عند الخروج من المنازل والآثار².

02- عند أهل الجزائر: بما أن أمير الركب الجزائري هو قائد الرحلة إلى الحج، فإنه المسؤول الأول عن إعلام الجزائريين باقترابه، ومن ثم تأكيد موعده السنوي المعتاد، وإعلان النفير العام في عموم البلاد، والأذان في الناس بالحج، مثلما جاء في معرض تكليف الشيخ ابن الفكون بإمارة الركب³ "...وأذنا له بحسب التنفير حيث أراد المسير، لزيارة قبر المصطفى البشير النذير، يؤذن في الناس بالحج بضرب الطبل سعيًا لمن أراد أن يؤدي الفريضة إلى الأماكن العلية الشريفة...⁴، وقد تجلت تلك المسؤولية بجلاء في إحدى السنوات التي عم فيها الوباء بلاد الجزائر، وانقطعت سبل البر بسبب ذلك، فتدخل أمير الركب وحسم في أمر الذهاب إلى الحج. بعد تردد الناس وانزعاجهم، وميلهم إلى تغليب عدم الحج، ذلك الحسم في الأمر من طرف أمير الركب أدى أخيرا إلى فرح الجميع فرحا لا يوصف⁵.

كان يتم النداء في الناس بالحج قبل موعد السفر بأسابيع، حتى يتهيأ من ينوي الذهاب إليه خلال تلك السنة ويعد العدة، ويذاع خبره في المدن الكبرى، وأماكن التجمعات كالأسواق

¹ - أبو سالم العياشي . ماء الموائد ، ج1، المصدر السابق ن ، ص.ص: 67-69.

² - أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي . المصدر السابق ، ص 90.

³ - أحمد بوسعيد . المرجع السابق ، ص85

⁴ - أبو القاسم سعد الله . شيخ الإسلام ، المرجع السابق ، ص222

⁵ - الحسين الورثاني . المصدر السابق ، ج02، ص101

اليومية والأسبوعية، وفي الأرياف والقرى المجاورة للمدن، فينادي المنادي: " من أراد الحج فليتهيأ لذلك."¹

أما في التجمعات المتباعدة مثل قصور توات بالصحراء يتم إعلام الناس مكاتبة، من خلال مراسلة شيوخ الركب لأعيان القصور وزعماء القبائل وأهل البلد، مخاطبين إياهم: "من يريد الحج فليعمل عليه"²، وما أحسن تعبير تعبير النداء الذي حفظته المصادر بخصوص دعوة قبائل الغرب الجزائري إلى الحج، والتجمع حول أمير ركب الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، وقد تناقلت الأفواه عبارة: "إلى مكة.. إلى مكة.." في كل الجهات³.

والحاج الجزائري هو الخلية الأساسية في تكوين الركب، وجهوده الفردية هي مصدر تمويل رحلته إلى الحج، فيحضر كل حاج ماله ودابته ومؤنه وفرشه وماءه، وعادة ما يتجمع كل ثلاثة أو أربعة حاج قبل السفر قصد التحضير الجماعي لذلك⁴، ويظل توفير المال اللازم للسفر إلى الحج هو الشغل الشاغل للحجاج، لكن إذا ما عقد أحدهم العزم على الحج ضحى لأجله بالطارف والتالد من أملاكه وأرزاقه، وقد يفضل لديه بعض المال عن القدر المطلوب، فيحفظه أمانة في دكان الحرمين الشريفين إلى حين الرجوع من الحجاز⁵.

ومن الجزائريين من يعول على الحج في آخر المطاف، رجاء زيارة تلك البقاع، وطمعا في مصاحبة الأخيار من الأصدقاء والشيوخ، فيجد كل الدعم والتيسير من حيث لا يدري مثلما حدث للرحالة التتالي، الذي شجعه على الإقدام دعوة شيخين من اصدقاء له لمرافقتهم معبرا عن ذلك في رحلته بالقول "... فطلبا مني المرافقة، فاعتذرت لهما بقلة ذاتاليد، فقالا لي

¹ - أحمد الشريف الزهار ، نقيب الأشراف ، مذكرات نقيب الأشراف (1754-1830)، تحقيق توفيق المدني ، الجزائر

، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1974، ص 170

² - أحمد بوسعيد ، المرجع السابق ، ص 86

³ - هنري تشرشل ، المصدر السابق ، ص 43.

⁴ - جوزيف بيتس ، المصدر السابق ، ص 70

⁵ - خليفة حماش ، دكان الحرمين الشريفين ، المرجع السابق ، ص 124

كم تحتاج لذلك ؟. فقلت لهما إن وجدت سلف مائة مثقال، فالتزما لي لذلك... وخيرني أحدهما بين ما طلبته، وبين أن يعينني بنصفها تبرعا وطابا للثواب، فاخترت الإعانة¹

فركب الحج لا يعدم وجود الموسرين، لذلك كان بعض المحسنين منهم يعينون الشيوخ والفقهاء الراغبين في الحج².

والأتراك الراغبون في أداء الحج من الجزائر مثلهم مثل بقية السكان الجزائريين، يبحثون هم كذلك عن مصادر للمال من أجل تمويل رغبتهم تلك، فمثلا قام المدعو "أحمد خوجة التركي" وهو كاتب الداى ببيع بستانه الواسع الزاهر لقائد العرب في سهل متيجة المدعو "ابن سحنون" نفعل ذلك بنية الذهاب الى الحج³.

لكن الملاحظ هو تعود الحجاج الأتراك الذين يقصدون تونس للسفر منها إلى الحج بحرا على الاستفادة من الدعم والتمويل في تونس، وكمثال عن ذلك استلم وفد منهم ينتمي لبابلك الشرق كميات كبيرة من طعام وخضار ودجاج وبيض وعسل ونشا وعدس ولوبيا وجلجلان وسمن وزبيب وليمون وقهوة وشاي وفاكهة، فضلا عن العلف المخصص للكباش التي حملوها معهم إلى السفينة. كل ذلك أثناء إقامتهم في تونس. في ذهابهم للحج⁴، كما كانوا يعتمدون على الإيالة في كراء السفن لنقلهم بمعية بعض الحجاج الجزائريين على الإسكندرية، وذلك لتميز القادة الأتراك عن غيرهم بكثرة متطلباتهم في سفرهم - ثم إن تم عن طريق البر - من مستلزمات خاصة مثل الطبول والرايات والفساطيط والأخبية⁵

¹ - عبد الرحمن التتالي، المصدر السابق، و9.

² - أحمد بوسعيد. المرجع السابق، ص87

³ - أحمد الشريف الزهار. المصدر السابق، ص89

⁴ - خليفة حمّاش. كشاف وثائق الجزائر، المرجع السابق، ص370

⁵ - ابن يوسف الزياني. المصدر السابق، ص250

العادات غداة إزمام السفر إلى الحج: من ميزات الوجود العثماني في الجزائر اهتمام الحكام والمحكومين بإحياء المناسبات الدينية الكبرى على غرار موسم المولد النبوي الشريف وموسم سفر الجزائريين على الحج غير المتباعدتين زمانا، يقول الرحالة ابن عمار في ذلك: " هذا وقد جرت عادة اهل بلادنا الجزائر، حرسها الله من الفت وحاطها من الدوائر، أنه إذا دخل شهر ربيع الول، انبرى من ادبائها وشعرائها من إليه الإشارة وعليه المعول، إلى نظم القصائد المديحيات، والموشحات النبويات..¹

وفي واقع الأمر تعتبر تلك الاحتفالات الضخمة بالمولد النبوي الشريف في الجزائر بمثابة استعداد روحي لموسم الحج غير البعيد، حيث يتغنى فيها المداحون بالشوق لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم مع ركب الحج المغادر للجزائر، وإذا اقترب موعد سفره شرع خطباء المساجد في الدعوة للحج والحض عليه، فتشتاق مهج العينين إلى مشاهدة الحرمين الشريفين، وتبرز الآهات والأنين، ويتضاعف الوجد والحنين²

كان بعض الراغبين في الحج من الجزائريين في ذلك العهد يكثر من مشاورة الشيوخ والأفاضل بشأن ذهابه على الحج، ومن تكرار الاستخارة في ذلك، ليس ترددا أو زهدا فيه، ولكن إخلاصا ورجاء نجاح رحلته إليه، حيث يقول الورثاني معبرا عن دلالات الاستخارة لمن ينوي الحج: " وهذه الاستخارة لاتعود إلى نفس الحج، لأن الاستخارة في الواجب والمكروه والحرام لا محل لها، وإنما تكون الاستخارة هنا: هل يشتري أو يكتري؟ وهل يوافق فلانا أم لا؟ وهل يسير في البر أو البحر؟³ وعلاوة الإذن للحج بعد الاستشارة والاستخارة كما يقول التتلاي -التيسير⁴.

¹ - أحمد بن عمار . المصدر السابق ، ص15

² - أحمد بوسعيد . المرجع السابق ، ص92

³ - الحسين الورثاني . المصدر السابق ، ج03، ص145

⁴ - عبد الرحمن التتلاي . المصدر السابق ، ص05.

والجزائري الراغب في الحج آنذاك كان غالبا مايتحلى بآداب السفر غليه، بأن يجدد التوبة والاستغفار، ويرد المظالم على أصحابها، ويقضي الديون المترتبة عليه، ويخلف ورائه النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت رجوعه من الحجاز، ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه ذهابا وإيابا، ويكثر من الأذكار والدعاء¹.

وأثناء انضمام الحجاج من مختلف الجهات المتقاربة إلى ركب الحج المتشكل بالتدريج، فإن أهاليهم وأحبائهم لا يكتفون بتوديعهم من أحيائهم ومضاربهم، بل يتبعون الركب إلى قرى بعيدة جدا عنها، ويضطرون إلى المبيت هناك في ضيافة سكانها، الذين يحسنون استقبالهم ويكرمونهم مثلما فعلوا مع الحجاج². أما النسوة فإنهن يتزاحمن فوق أسطح المنازل التي يمر الركب بجانبها ويزغردن، وهن في غاية السرور برؤية ذلك المنظر البهيج³.

كانت تخصص ساحات كبيرة في معظم المناطق التي أعتاد الركب الجزائري الخروج منها، تكون على مشارف القرية أو المدينة جهة القبلة، يلتقي فيها الحجاج بمن جاء يشيعهم ويودعهم، فعادة تخصيص الساحات الكبرى لتوديع الحجاج عادة متأصلة في صحراء الجزائر خاصة، ولا زال بعضها يعرف بـ "رحبة الحجاج" نرغم اندراس معالمها الأصلية، ولعل ذلك الزخم الاجتماعي المحيط بتوديع الحجاج هو الذي ساهم في تنامي مشاعر الحنين يقول المصعبي:

ففارقت في حق الرحيم قرابتي وشيخي وولدانا عزيزا وماليا

¹ - نفسه، ص 06

² - الحسين الورثلاني . المصدر السابق ، ج 01 ، ص 188

³ - جوزيف بيتس . المصدر السابق ، ص 21

فأبكى فراقى إخوة لي أعزة ومن كان دانيا لي ومن كان قاصيا ¹

ومن العادات المتوارثة غداة سفر الركب زيارة الأولياء والصالحين المشهورين، وبصفة خاصة أضرحة الشيوخ: أبي مدين شعيب (ت 594هـ/1197م) بتلمسان، ومحمد بن عمر الهواري (ت 843هـ/1439م) بوهران، وعبد الرحمن الثعالبي (ت 875هـ/1475م) بالجزائر، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ/1503م) بتوات، وابن يوسف الملياني (ت 931هـ/1524م) بمليانة، وعبد الرحمن الأخضرى (ت 953هـ/1546م) ببسكرة... وغيرهم.

03 - تجهيز الركب عند الشناقطة: نود أن نشير إلى أن السمة البارزة عند الشناقطة هي الحرص على أداء فريضة الحج والعمل على تأدية المناسك، غير أنهم انقسموا إلى طائفتين، طائفة أنست من نفسها قدرة على الحج فارتحلت إلى أرض الحرم وأدت المناسك حقها، وطائفة لم تستطع إلى ذلك سبيلا، فاستبدلته بالشوق والحنين واستعاضت عنه بالتعلق الروحي؛ ² لذلك نصادف لدى أصحابها توقا إلى أرض الحجاز شديدا واحتفاء بالقادمين من الرحم كبيرا. فالشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي ³ يخصص مقطعا مطولا من نُويَّته يكشف عبره عن تعلقه الشديد بالحرمين متتبعا أماكن الحج ومزاراته آملا أن تبلغه العيس البيت الحرام ليأمن من الخوف والجوع ويلتمس الحاج ما يريد، يقول:

سوى أني استباح حريم صبري هوى الحرمين اشرف موطنين

وسوف تفي العزائم والمهارى بوعد منجـز من وافيين

¹ - إبراهيم بن باحمان الثميني اليسجني المصعبي . رحلة المصعبي ، تحقيق يحيى بن بهون حاج امجد ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، 2007م ، ص 67

² - محمد ولد المحبوبي . المرجع السابق ، ص 113

³ - هو الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي توفي 1286هـ/1869م، تربى في أحضان والده فخرج متضلعا من العلم ، وكان شاعرا متميزا دعا إلى مواجهة المستعمر

فقد منيتني قبل المنايا مرور ركائي بالدهنوين

ينازعن الأعنة سالكات ممر الجيش بين العدوتين

تبادر بالحجيج ورود بدر ويحدوه الحنين إلى حنين

على باب السلام مسلمات بفرط الشوق كل طوى وغين

تناخ لحاجتي دنيا وأخرى هناك فتنثني بالحاجتين

ببيت الله ملمس كل حاج تعالى الله عن كل كيد وغين.¹

أما محمد ولد محمي فنراه يرحب بأحد أفاضل قومه إبان قدومه من الحج ذاكرًا ما عترض
سبيل هذا الرجل واصفا شوقه الشديد مثنيا على الله الذي نجا أخاه من شر البحر وعناء
المسير، يقول.²:

وافى الهمام فتاه الدهر وابتهجا وانزاح برج هموم النفس وانفرج

وافى فزاد به الرحمن شائننا كربا وكان لنا من كربنا فرجا

قد وجه العيس نحو البيت تمرح في فيح الفلا والخلايا تعبر اللججا

تقتاده همة قصوى ويجذبه شوق حوى الصد منه لوعة وشجى

والحمد لله ربي إذ أتيح له من ورطة البحر والداء العضال نَجَّى.

¹ - أحمد بن الأمين الشنقيطي ، المصدر السابق ، ص214.

² - نفسه ، ص15.

الفصل الأول: ركب الحج المغاربي " رحلة النشأة و مسارات التطور "

ونستمع إلى الشيخ سيدي باب¹ وهو يحتفي بقدوم معاصره البشير ولد امباركي ويهنئه إثر عودته من الحج مهديا إليه سلاما طيبا مؤكدا أنه أكمل حجه إذ طاف بالبيت الحرام مستفيدا من المعارف والعلوم، يقول²:

سلام كمنثور اللآلى طيب وكالدر زان الغانيات منظما

يؤم فتى يمضي العزائم في العلا إذا لم يكن فيها الكسول ليعزما ذ

أتى طيبا طابت بسكناه طيبة وطاف بها البيت العتيق المكرما

وعانق أبكار العلوم وعونها فتم بحمد الله ماكان يمما .

وفي نص آخر نصادف عبد الودود ولد محمد يحي ولد محمد احمد يهنئ عبد الله بن الشيخ سيدي بقدومه من الحج قارئاً عليه سلاما طالبا من الله أن يجعل حجه متقبلا مبرورا، يقول³: سلام عندنا حاكى شذاه مجيئك بعدما طول التناي

تقبل في المواقف منك حج وبورك في التضرع والدعاء

ونقرأ في ديوان الشيخ محمد يحي بن ابوه عدة مقطوعات في الحنين للحرم والشوق إلى طيبة لعل أبرزها بيتين يتمنى عبرهما أن يبلغه الله إلى عوالي مكة وجناب طيبة بعد ان قطعجزءا من رحلته وبلغ الى مدينة -باسكنو-، يقول⁴:

اقول لقومي إذ راينا عشية معالم من باسكنو شما موليا

¹ - هو الشيخ سيدي باب بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي توفي 1924/1324، عالم جليل وفقه محدث وأصولي مؤرخ وشاعر ، كان له ور سياسي فاعل في تاريخ موريتانيا المعاصر إبان دخول المد الإستعماري ، وكان يميل إلى الاجتهاد في الفقه ، له مؤلفات منها : إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين

² - محمد فاضل بن أحمد ، تحقيق ديوان البشير بن امباركي ، جامعة نواكشوط ، 1990، ص25.

³ - يعقوب بن محمي ، تحقيق ديوان عبد الودود بن محمد أحمد ، المدرسة العليا للأساتذة ، نواكشوط ، 1987، ص21.

⁴ - محمد ولد المحبوبي ، المرجع السابق، 57.

عسى من أرانا هذه بعد بعدها يرينا عوالي مكة والعواليا.

أَرْجَعَ بعضُ الباحثين بؤادر الرحلة الشنقيطية إلى بداية القرن الخامس الهجري حيث كانت حجة "يحي بن إبراهيم الكدالي" التي أدرك من خلالها حاجة قومه الى مرشد ديني وداعية يبصرهم بأمر الشرع وأحكام الفقه، وذلك اثر محاورته لأبي عمران الفاسي بتونس حث سألته هذا الأخير، قائلاً: "مايمنعك من التعلم ؟"، فأجاب: "ياسيدي إن أهل بلادي قد عمهم الجهل فهلا بعثت معي من يعلمهم القرآن والسنة"، وعندئذ كتب أبو عمران إلى تلميذه (وجاج) أن ابعث مع هذا المير الصالح من يعلمه الدين ببلده، فأرسل معه الفقيه المجاهد "عبد الله بن ياسين"¹، وبذلك انطلق المشروع الفقهي بأرض شنقيط، وأثمرت -رحلة الكدالي- وأتت أكلها، فكانت عاقبة حجه رشدا وخيرا لأهل الصحراء. إذ اصطحب معه أول مُعَلِّمٍ حفظ لنا التاريخ ذكره²، ويسود المصادر التاريخية صمت الى أن نبلغ القرن العاشر لنسمع عن حجة الشيخ سيد عمر الذي مرَّ في رحلته بالإمام المغيلي³ والسيوطي، وأثناء عودته مرَّ الشام فاخذ عن بعض أهلها، ثم لا تلبث الرحلة الى الحج أن تتشط لتصبح عنوان الشهرة ودليل القوة والصبر، فيذيع صيت صاحبها ويتسابق الناس إلى التماس بركة دعواته الصالحة بعد رجوعه، وقد كانت مدينة شنقيط يومئذ مركزا تجاريا هاما ومعقلا معرفيا متميزا فتمثلت بذلك مجتمع ركب الحجيج ومنطلق مسيره، إذ يؤمها من حولها من القرى "لينطلقوا في ركب واحد إلى الديار المقدسة".⁴

¹ - هو عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي توفي 451هـ/1503م، وهو الزعيم الأول للمرابطين وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم، فتح بلاد درعة وسجلماصة، وامتد سلطانه من نواحي السينغال إلى سجماسة شمالا، ومن درعة الى اغمات غربا، للمزيد ينظر الزركلي، الأعلام ج04، ص144.

² - الخليل النحوي، المرجع السابق، ص112.

³ - هو محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني توفي 909هـ/1506م، مفسر وفقه اشتهر بمنائوته لليهود، وهدمه كنائسهم في اتوات، رحل الى السودان وبلاد التكرور لنشر الإسلام، له مؤلفات منها "الدر المنير في علوم التفسير"، وشرح لمختصر خليل.

⁴ - الخليل النحوي، المرجع السابق، ص113.

وقد بلغ الاهتمام بالحج عند القوم مبلغا بعيدا "فقد تحج الدار منهم حتى لا يبقى فيها صغير ولا كبير من شدة اعتنائهم بالحج"¹، وآية ذلك أن بعد الشقة (7000 كلم) تقريبا وانقطاع السبيل ومخاطر الطريق (الأوبئة والصوص والمفاوز)، لم يثن من سعيهم ولم يمنعهم يوما من أداء فريضة الحج، وقد بالغ بعض الباحثين حتى قدر عدد حجاجهم سنويا بثلاثة آلاف وذلك في فترة لا تسمح بهذا الكم، خاصة من حيث الكم الديموغرافي للسكان والوسائل المحدودة، و الأهم من ذلك أن الواحد منهم كان يخرج إلى الحج راجلا يسعى على قدميه حتى يبلغ إلى مقصده وقد يعيد الكرّة فيحج المرة تلو الأخرى، ولعل أوضح مثال على ذلك ما ذكره بعض الدارسين إلى أن محمد بن سعيد جد محمد ولد محمد سالم حج البيت سبع مرات وتوفي عائدا من حجته السابعة ودفن بودان.²

04- تجهيز الركب عند أهل تونس: ولحج مكانة بارزة في نفوس التونسيين، كما في نفوس المسلمين جميعا، حتى إن من يعود من الحج منهم كان يحمل لقب (حاج) افتخارا بأن الله من عليه بأداء الفريضة³، وقد ذكر السنوسي ما يؤيد ذلك فقال "...وأذن له فحج بيت الله، وصار الحاج أحمد بن الحاج الحسين بن الحاج إبراهيم، فثلاثتهم قد حجوا وزاروا..."، وكان لهذا الركن دور كبير في تدعيم الروابط الثقافية والاقتصادية بين تونس والحجاز، وهو دور يعد من بين فوائد الحج الجمّة للمسلمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي الذين يلتقون في مكة المكرمة في شهر ذي الحجة من كل عام، ويتبادلون الآراء⁴، ويتناقشون في مختلف المجالات، ويضاف إلى ذلك فإن تونس نظرا لكونها معبرا لحجاج بقية بلدان الشمال الإفريقي، وكانت أيضا ملتقى لعلماء تلك البلدان فقد اجتمع محمد يحيى الولاتي في تونس وهو

¹ - نفسه ، ص114..

² - نفسه ، ص114

³ - نورة بنت معجب بن سعد الحامد ، الصلات الحضارية بين تونس والحجاز "دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية (1256-1326هـ/1840-1908م)، دار الملك عبد العزيز ، الرياض ، 1426هـ/2005م ، ص154

⁴ - نفسه ، ص 155

في طريق عودته من الحج عام 1313هـ/1895م إلى بلاده بعدد من العلماء التونسيين منهم الشيخ سالم بوحاجب، مفتي تونس الشيخ حسين بن احمد ابن حسين، وغيرهما، وعمد بعض العلماء التونسيون على تكرار فريضة الحج رغبة في نيل الاجر والثواب، ممع تكرار الحج تتضاعف الاستفادة العلمية، ومن أبرز العلماء التونسيين الذين قاموا بأداء الحج مرات عدة الشيخ محمد بن احمد النيفر الذي حج الفريضة، وتطوع بثانية وثالثة مع مافي ذلك من المشقة، وكان يقول أريد أن أدفن في البقيع، وقد حقق الله رغبته فتوفي في المدينة المنورة بعد حجته الثالثة، ودفن بالبقيع في 12 محرم 1277هـ الموافق ل30 جويلية 1860م، كما أن البشير بن أحمد النيفر حج ست مرات، وكان هدفه إلى جانب أداء الحج الاطلاع على المخطوطات التي تحويها المكتبات العامة في الحجاز. ومن علامات تعلق التونسيين بالحج تخصيص أوقاف¹ خاصة بالحرمين الشريفين للتصرف بريعتها خدمة للحرمين الشريفين، والقائمين عليهما، والتصدق على فقرائهما ومجاوريهما، وتقع غالبية أوقاف الحرمين الشريفين في البلاد التونسية في المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية منها: تونس، باجة، ماطر، نابل، كما يوجد جزء منها أيضا في جزيرتي قرقنة، وجربة، وتنتشر بعض الأوقاف في أنحاء متفرقة من البلاد التونسية²، ولعبت أوقاف الحرمين الشريفين دور مهم في دعم صلات تونس بالحجاز بحكم أن جزء منها كان يصرف في تجهيز الحج، وكانت حصة الحجاز من ريع أوقاف الحرمين تسلم إلى الباي، وتعرف بالصرة، ويتم توزيعها غالبا في فترة الحج، ولم يقتصر وقف الأملاك لصالح أهالي الحرمين الشريفين في تونس نفسها، بل قام التونسيون بوقف عدد من الأملاك في الحجاز منها مدرسة (رباط) في مكة³، بناها تونسي من

¹ - أوقاف الحرمين الشريفين على نوعين : خاصة وعامة ، والأخيرة أكثرها شيوعا وأهمية ، وهي تشمل الهناشير التي تتكون من مجموعة من البساتين ذات الأشجار المثمرة ، كما تحوي أوقاف الحرمين الشريفين العامة -الرباع- والتي تتم الاستفادة منها عن طريق الكراء (الإيجار).

² - أحمد السعداوي ، المرجع السابق ، ص 202

³ - نورة بنت معجب ، المرجع السابق ، ص 224

جزيرة جربة يدعى الحاج علي دقروك، أوقفها على المجاورين التونسيين في مكة وتضم المدرسة أماكن لسكنى هؤلاء¹، وكذلك اشترت العائلة المالكة في تونس وهي والدة الباي الناصر بن محمد، موضعاً في مكة عبارة عن سبيل ماء يقع قرب الحرم المكي ليشرب ويتوضأ منه المحتاجون من الحجاج التونسيين وغيرهم، ومن العائلات التونسية التي كانت لها دور موقوفة في المدينة المنورة (آل التاجوري)، وقد اشترى أحد أفرادها داراً بالمناخة السلطانية في المدينة المنورة مع نخل ملصق بها، وأوقفهما على أولاده، ثم من بعدهم على أفراد طائفة المغاربة القاطنين بالمدينة المنورة، وكذلك قام عبد الرحمن المغربي من القيروان بـغشاء مدرسة في المدينة المنورة لفقراء الطلبة وتحتوي مقراً لسكنى المحتاجين منهم²

05- أهالي طرابلس الغرب وتعلقهم بالركب الحجي: من المعروف أن الحج كان من خلال أعداد قوافل الركب التي تتجه صوب الأراضي المقدسة، ونتيجة لتلك القوافل أسست العديد من المراكز على طول الطريق المتحد مع المغرب حتى الحدود المصرية شرقاً، وعمرت العديد من المحطات وجهزت **المواجه**³. كما قامت العديد من الجماعات على طول امتداد الطريق بالسهل والاعتناء بأركاب الحج، كذلك أصبحت العديد من الواحات ملتقى العديد من القوافل سواء التجارية منها أو القاصدة الحج، الأمر الذي جعل تلك الواحات ذات أهمية للرحالة من المسافرين والفقهاء والعلماء وطلاب العلم باعتبارها مراكز التقاء لتلك القوافل، وقد كان لأقاليم طرابلس الغرب أهمية كبيرة بشأن ركائب الحج حيث لعبت دوراً بارزاً في استقبالهم أي وفود الحج سواء القادمة من الأراضي المقدسة أو من دول المغرب، وتقديم المساعدة لهم وإرشادهم، وقد كانت تلك المساعدات تقدم من سكان أغلب الواحات. منها

¹ - نفسه ، ص 226

² - نورة بنت معجب ، المرجع السابق ، ص 227

³ - ج/ماجن،

واحة جرمة، مرزق، تراغن، زويلة، زلة، أوجلة. كما نشير من جانب آخر أن تلك الواحات كانت سوقا كبيرا لأولئك الوفود من الحجيج.¹

كذلك نشير إلى الطريق الشمالي الذي يمتد من مدينة فاس - تازة - بسكرة - بلاد الجريد - توزر - طرابلس فقد كان هذا الطريق يوجد على امتداده العديد من المدن والمحطات، والتي تعد ذات أهمية للرحالة و أركاب الحج والمسافرين لما تقدمه من خدمات لهم، والمتمثلة في تقديم المؤن لهم ولحيواناتهم إلى جانب إرشادهم وتقديم خدمات أمنية لهم. وقد تحدث العديد من الرحالة عن هذه الطريق وأهميتها، وعن مدينة طرابلس واستقبالها لأركاب الحج، والتزدد عليها بالمؤن واستبدال الرواحل من جمال وغيرها. حتى يتمكنوا من مواصلة سيرهم للوصول إلى مقصدهم صوب الأراضي المقدسة.

وقد أشار العديد من الرحالة إلى تلك العلاقة فهذا الورتيلاني يقدم شهادة عند عبوره أراضي طرابلس عام 1768 قاصدا الأراضي المقدسة بقوله "... لما خرجنا من الزورات الغربية وحكمها. يلاقينا من أصحاب سلطان طرابلس في هيئة عظيمة ونشأة كبيرة، توجهوا من سلطان تونس القادمين بالهدايا منها وهي هدية عظيمة قد سر بها..."²، وهذا الرحالة الفاسي يورد شهادة بشأن تعظيم أهل طرابلس واحترامهم للحجيج حيث يقول في ذلك... وخرج منها على والد الباشا يوسف ووالده وأهله وحواشيه في البحر وذهب الجميع لمحروسة تونس...³

¹ - علي مفتاح إبراهيم منصور ، تاريخ ليبيا الثقافي والديني والاجتماعي من خلال الرحالين العرب والأوروبيين - خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر 1700-1900، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراة ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر ، 2006/2007م، ص173

² - الحسين الورتيلاني . المصدر السابق ، ص 273

³ - ابن الطيب الفاسي . المصدر السابق ، ص113

أما الطريق الصحراوي فهو يعبر أراضي طرابلس الغرب بمنطقة فزان ووحداتها، والتي تعتبر امتدادا طبيعيا للشريط الصحراوي الذي يربط بين المغرب و طرابلس الغرب، وقد كان لفزان دورا كبيرا في الاعتناء بركائب الحج وتقديم المساعدة لهم.

ومن مظاهر تعلق أهالي طرابلس الغرب بالحج ما يسمى "بعادة التشويق"، وهي من العادات الدينية القديمة، وتتمثل هذه العادة في الاستعداد لتوديع الحجاج، فخلال موسم الحج تلتقي قوافل الحجيج من دول المغرب العربي وذلك في مركز الالتقاء بسوكنة، والجدير بالذكر أن هذه المدينة كانت نقطة عبور لهذه القوافل. حيث يتولى الأهالي ضيافتهم وإكرامهم وتقديم لهم كل ما يحتاجونه من مؤن وراحلة، ويستمر ذلك مدة ثلاثة أيام، وهم مقيمون بمكان الزاوية.¹ في الوقت نفسه تقوم قافلة حجيج المدينة والعديد من الأهالي بزيارة أضرحة الأولياء الموجودة بالمدينة، وهم يرددون الأناشيد والأذكار والمدائح النبوية، وبعد الانتهاء تنظم القافلة إلى قوافل الحجيج المغاربية بعد انقضاء ثلاثة أيام وهي مدة الضيافة، ثم بعد ذلك تنطلق قوافل الحجيج صوب الأراضي المقدسة، وخلال توديع القافلة يجري احتفالا كبيرا بالزغاريد ابتهاجا بسفر الحجيج والدعوة لهم بسلامة العودة، ويصاحب تلك القافلة العديد من الأهالي حتى مسيرة يوم كامل، وعند العودة يبلغ الأهالي بقرب وصول قافلة الحج حيث يستعدون لاستقبال الحجيج والاحتفال بقدمهم، وعند وصولهم تعد لهم مأدبة من أكلة شعبية تسمى عصيدة السلامة، وقد سميت هذه المناسبة بالتشويق، وذلك لتشوق الناس لزيارة بيت الله الحرام وأداء فريضة الحج، وبعد الانتهاء من مراسم الاستقبال تنطلق قوافل الحجيج في اتجاه بلدانها مبهجة بالعودة وسلامة الوصول.²

¹ - علي مفتاح ابراهيم الصغير ، المرجع السابق ، ص:174.

² - رولفس ، رحلته إلى ليبيا ، ترجمة محمد غانم ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول ، جانفي ، 1989 ، ص304

الفصل الثاني: ركب الحج المغاربي - البنية والتنظيم -

الفصل الثاني: ركب الحج المغربي - البنية والتنظيم:

المبحث الأول: إمارة الحج في بلدان المغرب "التجهيز والتشكيل البشري":

01-النشأة والتطور:الركب: عبارة عن مدينة متنقلة بنظام ويشرف على سيرها وراحتها وأمنها أمير الركب وبجانبه الإمام والقاضي، ويتحرك الجميع بأمعتهم على الإبل، وأتعاب السفر كثيرة ولذا تسير القافلة ببطء وتعاني من البرد والجوع والعطش وفقدان الزاد والماء و عياء الإبل²⁹⁴. فالقافلة الأهم هي قافلة الحج، القافلة التي تقود المسلمين إلى مكة. هي الأهم بالتأكيد إذ بالآلوف يتحرك المغاربة، يرافقهم عدد هائل من الجمال من المغرب، حيث الحجاج يحتشدون في تازة، القافلة تجتاز الجزائر وتونس إما بالجريد أو بمدينة تونس مضخمة بحجاج الولايتين، تصل طرابلس بعد نيف وشهرين من السفر هنا يجدد الناس قواهم، ثم يستأنفون المسيرة حتى الإسكندرية التي يبلغونها بعد 40 أو 50 يوما من السفر²⁹⁵.

لقد كان تعداد ركب الحج يصل إلى الآلاف من الأشخاص، وذلك استناداً إلى مجموعة من المعلومات التي تمكن من التكهن برقم تقريبي حول ذلك²⁹⁶، ومن هذه المعلومات ما أشار إليه محقق رحلة إحرار المعلى « أن ركب الحاج عبارة عن زحف بشري كبير من الجمال الحاملة لمئات إن لم تكن آلاف الناس »²⁹⁷.

ثم تصريح ابن ناصر الدرعي المغربي في رحلته الحجية لعام 1721م، في مناسبات مختلفة إلى وجود فارق زمني كبير بين نزول مقدمة الركب ونزول مؤخرته، كقوله إن مقدمة

²⁹⁴ - مولاي بلحميسي . الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ، ط02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981، ص: 25.

²⁹⁵ - لوسيت فالنسي . المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830، ترجمة الياس مرقص ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1980، ص72

²⁹⁶ - نفسه ، ص74

²⁹⁷ - محمد بوكبوط. سفارة محمد بن عثمان المكناسي، مصدر سابق ، ص194

الركب السجلماسي (المغربي) نزلت بعد العصر ولم ينزل آخر الركب إلا بعد العشاء²⁹⁸، وكّرر الدرعي مثل هذا التعبير على طول المؤلف، أو قول الورثيلاني عند عبوره المسافة الفاصلة بين طرابلس والقاهرة، في رحلته الحجية لسنة 1179هـ / 1765م، أن ركبه كان به ألوف مؤلفة من الناس، وأنه إذا أخذ الركب في المشي لا يستقصيه الراكب من أوله إلى آخره²⁹⁹.

من جهة أخرى دكّرت بعض المصادر التاريخية المغربية كالضعيف والقادري "غرق سفينة مغربية في سنة 1168 هـ / 1700م كانت انطلقت من ميناء الإسكندرية في اتجاه مراسي تونس، وعلى متنها أربعمئة (400) حاج مغربي عائدین إلى بلادهم³⁰⁰، وذكر الورثيلاني ذاته أن ركبه لما أراد التحرك من طرابلس في اتجاه الحجاز اختار بعضهم ركوب البحر عبر سفينة تحملهم من طرابلس إلى الإسكندرية، وبها 350 فرد³⁰¹. وإذا علمنا أن حمولة السفينة الأولى أو الثانية إنما هي أنموذج لحمولة سفن أخرى كانت تقل الحجاج، وأن المسار البحري عموماً لم يكن عليه إقبال كبير في التنقل من وإلى الحجاز لصالح المسار البري، لأن حجاج المسلك البري كانوا بأضعاف مضاعفة حجاج المسلك البحري، ودليله أن الورثيلاني أخبر سنة 1179هـ/1765م بأن ركب زواوة ضم لوحده نحو 3000 رجل³⁰²، مع العلم أن حجاج زواوة مثلوا عينة فقط من حجاج باقي مدن الجزائر في القرن 18م، كل هذا يساعدنا في تكوين فكرة عن تعداد الحجاج في فترة ما. إننا نقرب شيئاً فشيئاً من الوصول إلى رقم تقريبي لقافلة الحج في فترة ما، ونحن نقف عند أقوال حاج مغربي، وهو محمد بن عبد السلام

²⁹⁸ - أحمد بن ناصر الدرعي . الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج 01، ص 26

²⁹⁹ - الحسين بن محمد الورثيلاني. مصدر سابق، ص: 186.

³⁰⁰ - محمد بن الطيب القادري. مصدر سابق، ص 111. و محمد الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص 158

³⁰¹ - الحسين بن محمد الورثيلاني. مصدر سابق، ص 209 - 210.

³⁰² - نفسه، ص 43

الناصري الذي صرح عند دخوله مصر عائداً من حجته لعام 1196هـ / 1782م، أن زهاء 2000 مغربي بقوا بمصر لم يحجوا لأنهم وصلوا متأخرين³⁰³. ولا يستغرب من هذا الرقم، فقد أشار أندري رايموند إلى أن أعداد ركب الحاج خلال القرن 18م كانت تتراوح ما بين 20000 و 60000 حاج في الركب الشامي، وبين 30000 و 40000 عنصر حاج في الركب المصري³⁰⁴، وهناك تقديرات أخرى من مصدر آخر تفيد بأن أعداد الركب المصري كانت تتراوح بين 30000 وتعداد الركب الشامي كان يتراوح بين 30000 و 50000 عنصر، وكان دائماً أكثر عدداً من الركب المصري، وإذا أردنا أن نحصر الرقم في سنة محددة، لدينا تقديرات تفيد بأن تعداد ركب الحاج المصري سنة 1719م زاد عن 30000 فرد، وأنه ضم سنة 1738م وسنة 1750م حوالي 40000 فرد³⁰⁵. من جهة أخرى كان الركب يضم الجنسين معاً، وذلك حسب شهادات حجاج مغاربة بوجود نسوة ضمنه بل وجود الحوامل³⁰⁶، كما ضم الركب أصحاب البنية الجسمانية القوية وضعفائها، وضم من هم ذاهبون بقصد أداء فريضة الحج، ومن هم ذاهبون بقصد خدمة الحجاج بمقابل، أي الذين كانوا يطلق عليهم صعاليك الركب، وضم حتى العبيد المرافقين لأسيادهم³⁰⁷.

³⁰³ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ص 493

³⁰⁴ - André Raymon, Les provinces arabes du XVIe-XVIIIe et Architecture des pays arabes à l'époque ottomane in Histoire de l'empire ottoman, France, Fayard, 1989, pp 370-371.

³⁰⁵ - سميرة فهمي علي عمر . إمارة الحج في مصر العثمانية، جمهورية مصر العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001، ص 216.

³⁰⁷ - محمد الضعيف الرباطي . مصدر سابق، ص 115

كما تم إحصاء عدد الحجاج الذين رافقوا المحمل الشريف المصري سنة 1906 والذي بلغ 18171 حاجا منهم 1584 حاج سافر برفقة المحمل و 16587 حاج سافروا بغير مرافقة المحمل³⁰⁸.

02-التحضير للسفر إلى الحج عند أهل المغرب: إن للسفر في التقاليد الإسلامية آدابا يلتزم بها المسافر من أول خروجه حتى يوم عودته، ومن أبرزها المباشرة بالمسير والانطلاق مع الفجر، فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه قائلا "اللهم بارك لأمتي في بكورها.."، وعند التأهب للمسير لابد من رد المظالم وإرجاع الودائع وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلتزم نفقته وتجهيز الزاد، ولا يؤخذ له إلا الحلال الطيب، وليأخذ قدرا يوسع به على رفاقه، وثمة توصيات هامة تجعل المسافر يقوى أمام خطوب الأيام وحادثات الليالي، ويمكن تلخيصها في إسباغ الوضوء، وإقامة ركعتين قبل الانطلاق وتكرار الأدعية الماثورة في السفر وأكثر من ذلك يحرص الإسلام على اختيار صاحب أثناء السفر³⁰⁹. إذ يرغب في أن يكون ممن يساعد ويعين حتى يذكر رفيقه إذ نسي ويساعده إذا تذكر "فإن المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه، ويتعين على المسافر أن يتعلم فقه السفر وآداب الرحلة. فيعرف أدلة القبلة وأحكام صلاة القصر وطريقة الجمع بين الصلاتين تقدما وتأخيرا، وإذا أراد العودة واقترب من أهله فيندب له أن يرسل إليهم من يبشرهم بمقدمه كيلا يقدم عليهم بغتة فيرى ما يكرهه، وينبغي أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فذلك سنة³¹⁰

³⁰⁸ - يوسف جغلار و صالح كولن . المحمل الشريف ورحلته الى الحرمين الشريفين ، ترجمة د. حازم سعيد منتصر وأحمد

كمال ، دار النيل، ط01، القاهرة، مصر، 2015، ص164

³⁰⁹ - محمد بن احمد المحبوبي ، مرجع سابق ، ص: 24.

³¹⁰ - نفسه ، ص: 25 .

03- إقلاع الرحلة إلى الحج " الموعد السنوي لإقلاع الركب ": الحج ركن من أركان الإسلام وطاعة من أعظم الطاعات، وقد فرضه الله تعالى على من استطاع إليه سبيلا. فقال جل من قائل "...ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا...". كما ورد في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "... بُنِيَ الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان..." إلى غير ذلك من الأحاديث المرغبة في الرحيل إلى الحج مما يؤكد اعتناء الإسلام بفن الرحلة وذلك ما جعلها تزدهر وتتضاعف مع ظهور هذه الفريضة الواجبة على المستطيع مرة في العمر والمندوبة في المرات الأخرى. وبإتباع هذه الفريضة وأدائها تضاعف النشاط المرتحل فكان الحج وقود أغلب الرحلات وباعثها. فهو موسم سنوي وتجمع إسلامي كبير يلتقي فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها. مما يشكل جوا من المحاورة والنقاش العلمي يجذب الناس ويجعلهم يشتاقون إلى ذلك المكان المقدس الذي تهوي إليه أفئدة العلماء، هذا فضلا عن الجانب الروحي لهذه الفريضة³¹¹

04- تجهيز الركب وعادات تحضير السفر:

04-01- مستلزمات السفر ومعداته: لقد كان التحضير للحج ومتطلباته عملية صعبة في ذلك الزمان، تقتضي التفرغ التام والسرعة في إعداد عدته، وإلا داهم الوقت من ينوي الذهاب إليه، بسبب صعوبة الاتصال ما بين الناس، مفاجأة التطورات المعيقة عن الخروج إليه³¹²، وبالتأكيد كان حجاج المغرب العربي، في رحلتهم هذه الطويلة والشاقة، والتي تمتد لآلاف الأميال، وتستغرق أشهرا بل أحيانا سنوات، مما استلزم تنظيما دقيقا واعتمادا على وسائل ومعدات آمنة ومتنوعة، وهذه المستلزمات المتكاملة يمكن تقسيمها إلى عدة فئات:

³¹¹ - نفسه، ص ص : 25-26.

³¹² - BERARD SAFFOREY ; chronique du touat , Ghardaïa , centre de documentation saharien :p05.

أ- المستلزمات المالية والأمنية(السلاح): ويتحرى النّاي على الحجّ أحلّ ما يملك من مال ليغطي به نفقات حجه، ويجتهد في ذلك خصوصا من يوم إحرامه، وإنّ قدرَ على ذلك في جميع سفره كان أفضل له، جاعلا الأولوية من مصاريف نفقته للقوت، وما يليه للباس، وما يليه للعلف والدواب³¹³. ممثلا أمرّ وتحذير الشاعر "الحاج" الذي قال³¹⁴: (الطويل)

وَحُجَّ بِمَالٍ مِنْ حَلَالٍ عَرَفْتُهُ وَإِيَّاكَ وَالْمَالَ الْحَرَامَ وَإِيَّاهُ

مَنْ كَانَ بِالْمَالِ الْمُحَرَّمِ حُجُّهُ فَعَنْ حَجِّهِ وَاللَّهُ مَكَانَ أَغْنَاهُ.

02- النقود المسكوكة (العملات): لم يكن الاعتماد على النقود المعدنية والمشغولات الذهبية والفضية مجرد اختيار، بل كان ضرورة لضمان خدمة الحاج طوال رحلته الشاقة والخطيرة، وكان الحاج يحمل معه مزيجا من العُمَلَات، وأشهرها في ذلك الزمن:

03- الدنانير الذهبية (المثقال): وهي العملة الذهبية الرئيسية ذات القيمة العالية، يستخدمها للإنفاق الكبير وشراء الاحتياجات الأساسية طوال الطريق.

وكان كل ركب يأخذ معه عملة المضّر الذي ينتمي إليه، لتتنوع عملات بلدان المغرب، حيث انفرد كل لإقليم بعملة معينة أي أنه كان لكل إيالة عملة خاصة بها خاصة العملات الرئيسية:

ففي المغرب الأقصى مثلا كان ركب حجهغالبا ما يصطحب معه نقود من صنف "الريال"³¹⁵، والتي كانت شائعة لتتجاوز حدود المملكة إلى بعض أطراف إيالة

³¹³ - أبو سالم العياشي . تعداد المنازل ، المصدر السابق ،

³¹⁴ - محمد بن ابي بكر بن رشيد البغدادي . القصيدة الذهبية في الحجّة المكية والزورة المحمدي، تحقيق محمد بن إسماعيل

المقدم، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط03، 2006م، ص90

³¹⁵ - يُطْلَقُ عليه في بعض المصادر لفظ " الدورو".

الجزائر، وبعض مناطق جنوب الصحراء وغيرها، ولهذا ترى أبوسالم العياشي ينصح الحاج باصطحابه لهذه العملة، "لأنه نافق في كل بلدة" حسب وصيته.

أما إيالة الجزائر فكانت سائدة بها عملة "السلطاني"³¹⁶ حيث ذكر (دوفو) أن أمير الحج لسنة 1089هـ اصطحب معه 1220 دينار سلطاني على متن سفينة يونانية، وفي السنة التي بعدها اصطحب معه 400 دينار سلطاني على متن سفينة هولندية³¹⁷، وفي السنة الموالية اصطحب معه 1666 دينار ذهبي سلطاني على متن سفينة الرئيس الحاج أحمد بن غنام، وأما أكبر مبلغ ارسل هو في موسمي حج 1104هـ و1119هـ حيث ارسل في الأولى 1660 دينار ذهبي سلطاني، وفي الثانية 1500 دينار ذهبي سلطاني³¹⁸. وفي إيالة تونس كانت العملة السائدة هي: المحبوب والقرش والريال التونسي.³¹⁹

04- النقود الفضية (الدرهم): للإنفاق اليومي، وكانت تتمثل أساسا في القروش العثمانية خاصة "القرش المجيدي الفضي"، حيث كانت ضرورية للمعاملات في المشرق العثماني ودفع الرسوم الجمركية.

05- النقود المحلية: وهو كما ذكرناه سابقا بما أن لكل إيالة عملتها الخاصة بها في التداول المحلي، فإن ركب الحج كانوا يضطرون إلى توفير هذه النقود المحلية حسب محطات الركب، والمناطق التي يمر بها.

ب- المشغولات الثمينة (شبه النقدية): كانت أهم وسيلة لادخار ونقل الثروة بشكل آمن نسبيا وتتركز أساسا في:

³¹⁶ - ناصر الدين سعيدوني . النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني ، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط3، 2012م، ص

³¹⁷ - ALBERT DEVOULX .notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger ; la revue africain n24-25 p 223.

³¹⁸ - ibid.p223.

³¹⁹ - عبد الحميد هنية .مرجع سابق ، 93

01-التبر: يقول عنه ابن الطيب الفاسي: "والتبر تُرب في المعادن، وهو أفضل مُدَحَّر..."³²⁰ كان بعض الحجاج من أهل المغرب العربي يأخذون معهم كميات من التبر³²¹ في رحلاتهم للحج لصرفها في مقتنياتهم، أو استبدالها متى احتاجوا للمال، لإمكانية ذلك في جميع المحطات التي ينتقل فيها الركب.

02-الحلي الذهبية والفضية للنساء: كانت النساء تحمل حليهن من أساور (خلاخل)، وخواتم وأقراط، وأحزمة ذهبية وفضية، وكانت هذه الحلي بمثابة بنك متنقل في أوقات الشدة أو الحاجة إلى السيولة يمكن بيع قطعة منها. أو استخدامها كضمان للاقتراض.

03-الذهب غير المشغل³²²: ويقصد به (القطع والسبائك الصغيرة)، حيث كان أثرياء الركب يحملون قطعاً ذهبية أو سبائك صغيرة يسهل تخبئتها ونقلها.

ج- المستلزمات المادية لحفظ النقود: وتتمثل في:

01-الصرة أو (الكيس الجلدي): (الجبيرة في العامية الجزائرية): وهو عبارة عن حزام جلدي أو صرة مصنوعة من جلد السعدان³²³ كان الحاج يخط نقوده الذهبية فيها، وإن لم يجد الجلد يتخذ قطعة من القماش المتين، ولتأمين نقوده يُلَفُّ هذا الحزام حول خَاصِرَتِهِ بشكل دائم للحماية من السرقة أو الضياع.

³²⁰ - محمد ابن الطيب الفاسي . مصدر سابق ، ص10

³²¹ - التبر : الذهب كله ، وقيل : هو من الذهب والفضة وجميع جواهر الأرض من النحاس والصُّفْر مما استخرج من المعدن قبل أن يُصاغ ويُستعمل ، وقيل من : الفُتَات من الذهب والفضة قبل أن يُصاغاً . ينظر : ابن منظور ، المصدر السابق ، ص416.

³²² - الذهب غير المشغول : هو الذهب الخام أماالذهب المشغول فهو على شكل حلي ذهبية من الأطقم والأساور والسلاسل، أي أنه ذهب خام مضاف له معادن مختلفة لإعطائه المساواة واللون المطلوب ويسمى حلي ، هذه الحلي يضاف لها أحياناً أحجار (فصوص) أو ألوان .

³²³ - لوسيت فالنسي . مرجع سابق ، ص119

02- الحزام النقدي (الصدقية): كان بعض الحجاج يصنعون أحزمة أو سترات داخلية بها جيوب مخفية لحمل النقود والمشغولات الذهبية. ولمواجهة التحديات والمخاطر من سرقة ونهب وتقلبات أسعار الصرف: كان على الحاج أن يكون على دراية بأسعار صرف العملات المختلفة بين المناطق، وحتى لا يُخدع كان يفضل أن يحمل معه والتبر والنقود، وهما يغنيان عن حمل بعض البضائع للمتاجرة فيها، لأن في حمل السلع الظاهرة خطرا على الركب من اللصوص، مثلما أشار إلى ذلك الرحالة العامري التلمساني³²⁴: (الخفيف)

لَا تُكَلَّفُ بِسَلْعَةٍ إِنَّ فِيهَا خَطَرًا وَهِيَ مَحَنَّةٌ وَبَلَاءٌ

بَلْ دَنَانِيرٌ حَبِيذٌ مِنْ نَضَارٍ فِي حِزَامِكَ حَبْدًا الرُّفَقَاءُ

وقال كذلك ابن الطيب الفاسي³²⁵:

الْحَمْدُ لِلَّهِ بِشَيْءٍ مِمَّا ذَهَبَ وَلَمْ نَلْتَقِ بِقُوَّةٍ لِفَضَّةٍ وَلَا لِدَهَبٍ

فَكُنْ وَاثِقًا بِاللَّهِ جَلَّ، وَلَا تَمِلْ إِلَى الْمَالِ تَحْطَى عَنْ رَشِيقِ نِبَالٍ

د- السلاح: ومن نصائح الرحالة للحجاج المحتملين عدم نسيان البندقية وفي ذلك قال ابو سالم العياشي: "... وخذ لنفسك ماتحتاج إليه من البارود³²⁶ والرصاص، واتخذ لنفسك

³²⁴ - محمد المنوني . مرجع سابق ، ص 91

³²⁵ - محمد ابن الطيب الفاسي . مصدر سابق ، ص 20

³²⁶ - شرح الرحالة الحاج بن الدين الأغواطي طريقة صنع البارود في رحلته قائلا : " يُجمع التراب المالح من الأرض أو من الملاط ، ويوضع في ماعون ويُصَبُّ عليه الماء ، بنفس الطريقة التي يُعالج بها الرماد عند صناعة الصابون ، ثم يُغَلَّى الماء إلى أن يصبح خائرا ، ثم يؤخذ منه ويُخلط مع أربعة أرتال من الكبريت وأربعة أرتال من الفحم المستخرج من شجرة الدفلى ، هذه العناصر المختلفة تُخلطُ جميعا في غضون أربع ساعات ، فتصير بارودا ، للمزيد ينظر : الحاج بن الدين الأغواطي . رحلة الأغواطي ، تحقيق أبو القاسم سعد الله ، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2011، ص 90

مدافع³²⁷، فإنما هي في الطريق هيئته وأي هيبة. فاستكثر منها جهدك، وأمر من يستمع لك بذلك، فإنها نعم السلاح لمن هو في تلك الطريق...³²⁸. ويضيف أيضا: "...واحدروا من السرقة بالليل من هنالك الى برقة. ولا تأمنوا في خلاء، ولا في عمارة. وتتاوبوا على الحراسة، ولا يغرنكم أن تتوالى عليكم ليالي نوات أمن، فإن الشر والعياذ بالله يأتي بغتة. ومن الأمثلة القديمة: ((ممن مأمنه يؤتى الحذر))...³²⁹، ويوصي العامري كذلك بقوله:

واتخذ يالبيب آلة حرب ربما عرضت لك الأعداء.³³⁰

ولايَعْفَلُ بعض الحجاج الجزائريين مثلا عن "التسلح" ببعض الأسلحة الخفيفة قبل خروج الركب من الجزائر، من قَبِيل الخناجر والبنادق والبارود³³¹. فهي مادة مطلوبة في سفر الحج لأسباب كثيرة ومتنوعة، منها ما ذكره الرحالة العامري التلمساني ناصحا الحاج: (الخفيف)

وَاتَّخَذِ يَا لَبِيبُ آلَةَ حَرْبٍ رُبَّمَا عَرَضَتْ لَكَ الْأَعْدَاءُ.³³²

ولهذا تذكر بعض الروايات أنه في أحد مواسم الحج امتلكت مجموعة مسلحة من الحجاج الجزائريين ثلاث بنادق كبار طوال وبندقية صغيرة و يَطْغَانَا (خنجرا طويلا)، وقد اضطرت تلك المجموعة لاستخدام الأسلحة المذكورة التي أثبتت جدوى حملها وفعاليتها، بعدما أحاط اللصوص ببعض الحجاج في موقع صعب، بسبب تخلفهم عن الركب.³³³

هـ - المستلزمات الغذائية والمائية:

³²⁷ - يقصد بها البنادق البارودية .

³²⁸ - أبو سالم العياشي . التعريف والإيجاز ، المصدر السابق ، ص: 62.

³²⁹ - نفسه ، ص: 72.

³³⁰ - محمد المنوني ، مرجع سابق ، ص 91

³³¹ - أحمد بوسعيد . المرجع السابق ، ص 96

³³² - محمد المنوني . مرجع سابق ، ص 91

³³³ - الحسين الورثاني . مصدر سابق ، ج 03، ص 145

01- القمح والشعير (الطحين): ويصطحب عادة "السويق"³³⁴، وهو أساس الغذاء في الرحلة، أما القمح والشعير فكانوا يحملونه معهم ليطحن ويخبز منه على الطريق.

فمثلا حجاج ايالة الجزائر خاصة الأتراك، والذين يركبون البحر يأخذون في الغالب معهم "البشماط"، وهو كما ذكر الشريف الزهار عبارة عن كعك مجفف، كان شائع استخدامه عند جنود البحرية الجزائرية حيث كان يقدم عادة على رأس المؤونة التي تعطى للعساكر الأتراك سواء في إقامتهم أو في سفرهم، وكذلك "البرغل" المستخلص من حبوب الحنطة المسلوقة المجروشة.³³⁵

ومن أمثلة التزود بالمؤونة في المحطات حملُ الحجاج للدقيق المُرَجِي في أُرْجِيَة مدينة طرابلس، بمقدار زاد ثلاثة أشهر إلى مصر إن كان الفصل شتاء، أو زاد شهرين إن كان الفصل صيفا³³⁶، وذلك لمواجهة الصحاري القاحلة التي يندُرُ فيها التموينونزلنا بعد ذلك بـمكان سيدي أبي العصيدة، شيخ مشهور ذو كرامات وبركات، تصنع العصيدة عنده للحاج غذا قدم ولغيره، وهو في فياف على طريق الحاج يزار³³⁷

02- الزيت والسمن (الدهان): مصدر مهم للدهون والطاقة، ويحفظ لفترات طويلة. (الرحلات الفقيقي)

03- التمر والفواكه المجففة: كالزبيب والتين المجفف.

04- الدقيق (الكسكس): وجبة أساسية سريعة التحضير

³³⁴ - السويق : يقصد به مدقوق الحنطة والشعير حسب الحديث ،

³³⁵ - أحمد شريف الزهار . مصدر سابق ، ص163

³³⁶ أحمد بن ناصر الدرعي . مصدر سابق ، ص172

³³⁷ - الحضيكي . المصدر السابق ، ص88

05-البهاراتو القهوة³³⁸ والشاي والسكر: عناصر أساسية في الثقافة المغربية، وكان الركب يحملها بكميات كافية. فالملاحظ هو تعود حجاج ايالة الجزائر المسافرين عبر البحر خاصة الأتراك منهم، والذين كانوا يقصدون تونس برا ثم السفر منها عبر البحر، كانوا يستفيدون من دعم بيالك قسنطينة، فقد ذكر الزياتي في الترجمانة أنه استلم من باي قسنطينة، وكذلك من باي تونس كميات كبيرة من: طعام وخضار ودجاج وبيض وعسل ونشا وعدس ولوبيا وجلجلان وشمون وزبيب وزيت وليمون وشمع وقهوة وشاي وسكر وفاكهة، فضلا عن العلف المخصص للكباش التي حملوها معهم الى السفينة. كل ذلك أثناء إقامتهم في تونس، في ذهابهم للحج ثم بعد عودتهم ؟.³³⁹

و-المستلزمات المائية: لقد عُدَّ الماء من أوليات الرحلة ولوازم السفر التي حرص الرحالون على التوفر عليها وامتلاكها قبل شد الرحال و جوب آفاق العطش والظمأ والأهوال، وينعدم الماء في صحراء بلاد المغرب العربي لأيام عديدة، لأنها عبارة عن قفار لا أنهر فيها ولا ينابيع باستثناء بعض الآبار القليلة ذات الماء المالح أو الأجاج، وكان الماء يُحْمَلُ في القرب³⁴⁰ الجلدية ذات الأحجام المختلفة، تبعا لجلود الأغنام، وذلك بعد أن يتم إتقان دباعتها، حتى لا يضيع مأوها النفيس جدا في السفر³⁴¹، على أن انتخاب القرب³⁴² الوثيقة الخرز لم يكن إلا مقدمة لعلاقة خاصة ومتوترة بين الرحالة ومصادر المياه التي شكلت محطات رئيسة في مسار الرحلات الحجية، ولقد دفعت هذه الظاهرة أهل المغرب العربي

³³⁸ - حسب أخبار الرحلات الحجية فإن مادة القهوة كانت تستهلك في الإيالات المغربية فقط خاصة الجزائر خاصة في الترجمانة ، أما المغرب وشنقيط فلم تذكر الرحلات أنهم يستهلكونها ماعدا الناصري الذي تناولها في أوبته بمصر .

³³⁹ - أبو القاسم الزياتي . الترجمانة ، المصدر السابق ، ص 164

³⁴⁰ - القرب /قربة : عند ابن منظور ، وهي وعاء من الجلد لحمل الماء وتبريده وهو ضروري لعبور المغاور والصحاري.

³⁴¹ - جوزيف بيتس . المصدر السابق ، ص 70

³⁴² - كانت القرب والأوعية تتفجر في بعض الأحيان بسبب احتكاك الجمال أثناء سيرها فيضيع من الناس ما حملوه من الماء . للمزيد انظر : أحمد محمد حسين باشا . رحلة في صحراء ليبيا 1923، تحقيق علي أحمد كنعان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، القاهرة ، 2004، ص10

إلى الاهتمام بالآبار والعيون والأنهار ووصفها، من حيث عمقها وكيفية حفرها، وطعمها وكيفية التغلب على جعلها صالحة للشرب سائغة للشاربين.³⁴³

ز-المعدات السكنية والنقل (الرواحل): بما أن الركب يُداوم الانتقال من مكان لآخر في سفره، وقد يستغرق نزوله في بعض المحطات ساعات طويلة أيام حتى، فإن الحاج يحملون معهم الخيام الصغيرة والأخبية (الخيام الكبيرة)، ذات الأشكال المتنوعة، للسكن والوقاية من الحرّ والقرّ، ومنها القوراء والمستطيلة والقياطين المثلثة.³⁴⁴

01-الخيم: ج/خيمة وتسمى كذلك الفسطاط: للمبيت والراحة والحماية من حر الصحراء وبرد الليل، وغالبا ما تكون خفيفة الوزن وسهلة النصب.

02-الأخبية: ج/خباء، ويقصد بها نوع من الخيم الصغيرة

03-الوسائد والبسط (الأفرشة): للفراش والراحة داخل الأخبية.

04- الرواحل: وسيلة النقل الأساسية وتتمثل في الإبل والخيول والبغال والحمير بالنسبة للركب البري، حيث كان اختيارها يعتمد على مرحلة الرحلة (صحراوية) أو جبلية. أما البحري فكان يستعمل السفن.³⁴⁵

ك-المستلزمات الشخصية والملبوسات:

01-الألبسة العادية:

وهذا العياشي الذي اعتاد السفر مرات عديدة إلى الحجاز ينصح الحاج باتخاذ أكثر من قميصين، ثلاثة أو أربعة عند خروجه من بلده، لأن القميصين غير كافيين، فربما

³⁴³ - حسن حافظ علوي .مرجع سابق ، ص108.

³⁴⁴ - الحسين الورثلاني . المصدر السابق ، ص70.

³⁴⁵ - للتفصيل أكثر ينظر الفصل الثالث ، المبحث الأول وسائل النقل البري والبحري .

يَتَجَسُّ أحدهما، أو يتوسَّخ، ولا يَتَسَرُّ غسله. فالاحتياط واجب في الملابس لأنها تبلى ويضنيها السفر الطويل. وفيه معنى مجازي حول انتشار لبس الجلابية بين المغاربة عند ابن الطيب الفاسي حيث يقول: ".. والحمد لله الذي جعل الحجاج في كفالتة وضمانه، وألبسهم في حالتي الذهاب والإياب، -جلابيب - حفظه...".³⁴⁶، أما البدلة التي درج الحاج الجزائري على ارتدائها فعادية جداً، تتكون أساساً من القطع التالية، بأسمائها المتداولة آنذاك: قميص، سروال، قلنسوة، حائك (برنس)، وبشماق (نعل بلاستيكي متين)³⁴⁷. أما لباس المغاربة فتتضمن أساساً في الجلابية والعمامة وغيرها.³⁴⁸

02-لباس الإحرام: وهو لباس أبيض غير مخيط، كان يحمله الحاج نظيفاً ومعتراً ليلبسه عند دخول المناسك، وجرت العادة أن يُشترى من مصر أو من قرى الحجاز³⁴⁹.

03-النعل أو الحذاء القوي: مناسب للمسير الطويل خاصة في المناطق الجبلية الوعرة والمفاوز.

ل-أدوات النظافة الشخصية: لا يغفل الحجاج عن أخذ أبسط الأدوات معهم في سفرهم مثلاً: الحناء، المشط، الكحل المشط والمرآة الصغيرة و الصابون السواك للتنظيف، وهي من سنن السفر للنبي صلى الله عليه وسلم،.... بل ذكر العامري التلمساني³⁵⁰ (الخفيف).

مِقْرَضٌ وَمِشْطٌ وَمَوْسَى وَمِرَاةٌ وَيُحْفَظُ كُلُّهُنَّ غِشَاءً

وَحُيُوطٌ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَإِبْرَأَةً وَمِنْ بَعْدِ مَخِيطٍ إِشْفَاءً

ثُمَّ مَكْحَلَةٌ بِكُحْلِ وَمِيلٍ ثُمَّ لَقَاطُ شَوْكٍ بَيْسَ الدَّاءِ

³⁴⁶ - محمد ابن الطيب الفاسي . المصدر السابق ، ص17

³⁴⁷ - الحسين الورثلاني . المصدر السابق ، ص93

³⁴⁸ - عبد الرحمن المودن . مرجع سابق ، ص123

³⁴⁹ - أبو سالم العياشي ، ماء الموائد ، المصدر السابق ، ص99

³⁵⁰ - محمد المنوني ، المرجع السابق ، ص90.

م-المستلزمات الدينية والعلمية: عادة ماكان الركب يصطحب معه:

مصحف صغير للقراءة والتعبد خلال الرحلة والمصحف المرسل، ومدونات فيها أدعية الحج وأعماله خطوة بخطوة ومناسك كحزب النصر وغيرها وكتب علمية للتلايح الثقافي، كما كان الحجيج يسهرون على اقتناء الكتب وجلبها من المشرق.

أقلام ومحابر (دواة ورقاط): أدوات غير إلزامية تخص بعض من يريد التدوين أو التلايح الثقافي كالدواة، الأقلام وغيرها بعض الحاج كان يأخذها معه لتدوين المشاهدات والخواطر وتدوين النوازل أو لكتابة المراسلات العائلية أو العلمية بين العلماء.³⁵¹

ن-المستلزمات الطبية: صيدلية صغيرة متنقلة تخضع لمقتضيات تلك الظرفية التي كانت تعتمد على مواد طبيعية وفي التطبيب أهم محتوياتها: الأعشاب الطبية والعقاقير: للتداوي والتطبيب خاصة من اللدغات والإصابات البسيطة. الكحل: وهو من السنة ومفيد للنظر خاصة في الزوابع الرملية والمفاوز. و في ذلك يقول الحُصَيكي: "... ولك أيضا ان تشتري من العطرية الكحل والشب والمرءة..."³⁵²

01-الزيت والعسل: لاستخداماتهما العلاجية والغذائية.

ح-المستلزمات الاجتماعية والتجارية:

01-سلع للتبادل التجاري: أحيانا كان الحاج يتاجرون في السلع خلال الطريق لتمويل رحلتهم. ويمكن ان نستخلص مما سلف، عناصر المواد التي كانت التجارة الحبية تروجها على طول المسالك الى المشرق أو منه. فكانت البوابيح، وسائر المنتجات الجلدية، ثم الثياب الصوفيك (الحيك)³⁵³، أهم ماينقله اهل المغرب في اتجاه الشرق، بالإضافة الى

³⁵¹ - عبد الرحمن المودن . مرجع سابق ، ص124

³⁵² - أحمد بن محمد الحُصَيكي . المصدر السابق ، ص 77

³⁵³ - عبد الرحمن المودن ، المرجع السابق ، ص125

المواد الصحراوية، الذهب تبراً أو مسكوكاً، والعاج وريش النعام³⁵⁴، وهذه المواد كانت تروج بالأخرى في الطريق أي التجارة البينية في الإيالات العثمانية، ثم شتى أنواع العقاقير وبعض المواد القليلة القيمة (مشط، مرءاة) التي تستعمل في المقايضة مع أعراب السبيل للحصول على الزاد الطري كالسمن والعسل والزيت وغيرها.³⁵⁵ وكانوا كذلك يتزودون بالدقيق المرحي وبعض السلع من طرابلس لقطع المفاوز الخالية بينها وبين مصر حيث يندر التموين، وكانوا يتزودون بمحطة مصر العامرة بمؤن تكفي مدة أربعة أشهر، لتغطي رحلتي الذهاب والعودة منها وإليها، مع استغلال القلاع والحصون المحمية بين مصر والحجاز في عملية تخزين بعض المؤن لحين العودة، نظراً لقلّة الزاد في تلك النواحي وغلاء أسعاره.³⁵⁶

02- الهدايا والتذكارات: كان ركب الحج المغربي يحمل معه هدايا وتذكارات منها منتجات تقليدية محلية ليهدئها لإخوانه في المشرق أو ليتاجر بها لتغطية نفقات الرحلة هذه المستلزمات لم تكن أشياء مادية، بل كانت تمثل شبكة أمان كاملة تضمن للبقاء على قيد الحياة، الوصول إلى هدفه الديني، والعودة بأمان إلى أهله، ليقص عليهم حكايات رحلة العمر.

إن التزود بالمؤونة أو "الميرة" - كما كانت تسمى وقتها - لم يكن يقتصر على مدن المغرب والجزائر منطلق الركب المغربي والجزائري، وإنما يتم كذلك من المدن والقرى والبوادي التي يتوقف بها ركب الحج، فطريق الحج كانت عامرة نسبياً، وكانت البلدات (القرى) والمدن الواقعة في مسار رحلة الحج تتجهّز بالمواد والسلع التي يحتاجها الحجاج في سفرهم، لبيعها لهم أو مقايضتها بسلع أخرى.³⁵⁷

³⁵⁴ - أبو سالم العياشي . تعداد المنازل الحبية ، مصدر سابق ، ص44

³⁵⁵ - عبد الرحمن المودن . المرجع السابق ، ص 125

³⁵⁶ - جوزيف بيتس . مصدر سابق ، ص41.

³⁵⁷ - عبد الرحمن عزي . التواصل القيمي في الرحلة الورثانية ، المرجع السابق ، ص07

03-التنظيم:(تنظيم الركب): ينظم ركب الحج المغاربي من عدة جوانب، فهناك تنظيم تجهيزي يشمل لوازم السفر ومتطلباته، وهناك تنظيم بشري أشبه مايكون بإدارة متنقلة لتسيير الركب منذ خروجه إلى عودته.

أ-التنظيم التجهيزي: ويكون تجهيز الركب على مرحلتين، المرحلة الأولى وهي التي تسبق الركب وخروجه، والمرحلة الثانية والتي تكون متزامنة مع السير بحسب ما تقتضيه المرحلة التي مر بها الركب.³⁵⁸

ب -التنظيم البشري: يقصد به التأطير البشري ويتجسد ذلك من خلال عدة شخصيات تسهر على السير الحسن للركب في كل ظروفه وأحواله، وأهم شخصية هو أمير الركب.³⁵⁹

01- مكونات الركب الرئيسية واختصاصاتها: أضحي ركب الحج بمثابة قرية نشيطة، تصبح وتمسي، لكنها متنقلة، مرتحلة نازلة، مساكنها الأخبية والخيام، وساكنتها مجتمع الحجاج المؤقت، المتكون من فئات متباينة، مرتبة ضمن محالّ الركب بانتظام، على حسب المكانة والوظيفة والاختصاص،³⁶⁰ حيث ضم كل الفئات الاجتماعية على اختلاف أطيافها: الأمير والوزير والفقير والغني والشريف والصعلوك هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الركب يضم الجنسين معا، وذلك حسب شهادات الحجاج الذين دونوا رحلاتهم "حيث ذكروا وجود نسوة ضمن الركب منهن حتى الأميرات"³⁶¹ بل تجاوز الأمر إلى وجود حتى الحوامل منهن

³⁵⁸-سليمان دهان ،تنظيم ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني بين تلبية المقدس والتواصل الحضاري ،مجلة

أفكار وآفاق ،العدد 09،الجزائر ،2017،ص59

³⁵⁹- نفسه .ص67

³⁶⁰- أحمد بوسعيد .مرجع سابق ، ص108.

³⁶¹- الشرقي بن محمد الإسحاقي .مصدر سابق ، ص26

³⁶². كما ضم الركب أصحاب البنية الجسمانية القوية وضعفائها، وضم من هم ذاهبون بقصد أداء فريضة الحج، ومن هم ذاهبون بقصد خدمة الحاج بمقابل، أي الذين كانوا يطلق عليهم صعاليك الركب، وضم حتى العبيد المرافقين لأسيادهم³⁶³.

02-03 - التشكيل البشري لركب الحج:

أ- الأمراء وعلية القوم: ولم يكن الركب يضم عوام الناس فقط، بل حدث أن ضم فئة من الأعيان، وبالأخص أفرادا من العائلة الحاكمة في ركاب الحج الرسمية، حيث كانت الملوك تعنى بذلك تختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب مما يضاها ركب مصر والشام وغيرها³⁶⁴ مثل الركب الفاسي المغربي الذي كان يذهب ضمنه الأمراء، كما هو الحال مع ركب 1101 هـ / 1690م الذي ضم الأمير المعتصم بن السلطان المولى إسماعيل، وركب عام 1123 هـ / 1711م الذي سافر فيه أبو مروان بن المولى إسماعيل، وركب عام 1143 هـ / 1730 - 1731م الذي ضم والدته السلطان مولاي عبدالله السيدة خاتمة بنت بكار المغافري وابنه سيدي محمد الأمير³⁶⁵، وأرسل السلطان سيدي محمد بن عبد الله عام 1182 هـ / 1768م ولديه مولاي علي ومولاي عبد السلام للحج مع هذا الركب³⁶⁶، وحدثنا الناصري وهو عائد من الحج مع الركب السجلماسي بموقع سيدي خالد - في ركب 1196 هـ / 1781م إن الركب الرسمي المغربي الذهاب للحج ضم اليزيد

³⁶² - الهشتوكي. مصدر سابق، ص 15، وأبو مدين الدرعي. مصدر سابق، ص 236، ومحمد بن عبد السلام

الناصرى، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج 01، ص 494 .

³⁶³ - محمد المنوني. مرجع سابق، 44

³⁶⁴ - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري . الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،الدولة العلوية ،الجزء الثامن ، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، دار الكتاب ،الدار البيضاء ، المغرب، 1997، ص 120

³⁶⁵ - الإسحاقى .مصدر سابق ، ص 27

³⁶⁶ - أبو القاسم الزيانى. الترجمانة الكبرى، صص 209-210، و محمد بن الطيب الفاسي ، المصدر السابق ، ص 220-

بنا السلطان³⁶⁷، ورحل إلى الحج مع ركب الشخص ذاته لسنة 1212هـ/1796م. كلا من ابن السلطان مولاي سليمان وأخيه حيث ذكر الناصري في الاستقسا انه في سنة ست وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان المولى سليمان رحمه الله ولده الأستاذ الأفضل المولى أبا إسحاق إبراهيم بن سليمان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع الركب النبوي الذي جرت العادة على هيئة بديعة من الاحتفال، وإبراز الأخبية لظاهر البلد، وقرع الطبول وإظهار الزينة³⁶⁸. وانطبق واقع إرسال الأمراء كذلك على الركب المشرقي³⁶⁹، ومن أدلته إشارة المؤرخ الجبرتي أن الركب المصري لسنة 1193هـ / 1779م سافر معه، أربع صناجق، وسافر معه أ أمراء وأغوات وغيرهم من الأكابر، ومن أعيان التجار³⁷⁰. وجعل لركب الحج في القرن 18م قائد ينظم مسيرته، وكان هذا القائد يُعين من قبل السلطة المركزية في حالة الركب المغربي وفق شروط، ويحمل عند اختياره لقب أمير³⁷¹، ويُعين في حالة الركب الشامي من قبل السلطة المركزية باستانبول³⁷² كما يفهم ذلك بشكل واضح في حالة أمير الركب الشامي سنة 1782م الذي لا يد فوقه، يده عند «السلطان»³⁷³ ويحمل عندها لقب «الوزير»³⁷⁴، ويعين أمير الركب المصري أيضا بمرسوم من استانبول³⁷⁵، ويخلع عليه باشا القاهرة الخلعة تأكيداً لهذا التعيين³⁷⁶ ويحمل إذاً لقب الأمير³⁷⁷ أو «الباي»³⁷⁸، ويتلقى راتباً سنوياً مهماً

³⁶⁷ - محمد بن عبد السلام الناصري . المصدر السابق ، ص140

³⁶⁸ - نفسه، ص 121

³⁶⁹ - أحمد بن ناصر الدرعي. المصدر السابق ، ج01، ص 189، و الهشتوكي . المصدر السابق، ص 258 .

³⁷⁰ - الصناجق : هم عبد الرحمان بيك، عثمان وسليمان بيك الشابوري، وعلي بيك المالطي، وذو الفقار بيك: عبد الرحمان الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم ، ج02، جمهورية مصر العربية، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1997، ص 74

³⁷¹ - الشرقي بن محمد الإسحاق. المصدر السابق، ص148

³⁷² - محمد بوكيوط . المرجع السابق ، ص188

³⁷³ - محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الكبرى، ص376

³⁷⁴ - محمد بن عثمان المكناسي. إحراز المعلى، المصدر السابق ، ص283.

³⁷⁵ - عبد الرحمان الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم الجزء 01،

جمهورية مصر العربية، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1997 ، ص 100

³⁷⁶ - الشرقي بن محمد الإسحاق . مصدر سابق ، ص 209 - 210

³⁷⁷ - أبو القاسم الزياتي. الترجمانة الكبرى، مصدر سابق ، ص257.

مقابل مهامه³⁷⁹، وعد أمير الركب فيباشاوية مصر في أواخر القرن 18م ثاني منصب مهم في السلطة بعد منصب حاكم القاهرة شيخ البلد³⁸⁰، واستطاع المماليك احتكاره ضمن هيمنتهم على المناصب المهمة في هذه الباشاوية³⁸¹، وشهد على ذلك الرحالة الناصري في حجته الثانية عندما صرح أن أمير الركب المصري هو من الغز³⁸²، ولم يتفق الرحالة المغاربة في توصيف أمير ركب الحج المشرقي من المنظور الأخلاقي لتقريبنا من مدى صلاحه لهذا المنصب الحساس والخطير، فأمر الركب الشامي حسب قول الهشتوكي في حجته عام 1121هـ / 1709م غير جدير بالمهمة بخلاف أمير الركب المصري « فإنه رجل صالح متواضع، يحب أهل الخير من العلماء والصالحين والفقراء»³⁸³، وجاء الإسحاقى من بعده ليصفه بالظالم خلال حجته عام 1134 هـ / 1730 - 1731م³⁸⁴ لكن الناصري تحدث عنه بإيجاب عام 1196هـ / 1782م.³⁸⁵

ب- أمير الركب: كانت تتألف هيئة الركب العليا من رئيس يسمى "شيخ الركب" و"أمير الركب" يختاره الملك من عليّة القوم وسرّاتهم ومن قاض قائد³⁸⁶، وتذهب معه حامية

³⁷⁸ - أطلق اللقب على أمير ركب الحج المصري للمزيد انظر : ابن عثمان المكناسي. إحرار المعلى، المصدر السابق ، ص 265.

³⁷⁹ - يسمى هذا الراتب بـ «ساليانة»، كما يحصل أمير الركب أيضاً على مدفوعات أخرى «تسليمات» للمزيد انظر : سميرة فهمي .المرجع السابق ، ص 73 ، و«سليانة»: تعبير أطلق على المرتب السنوي الذي كان يتلقاه الموظفون المنتسبون للخرينة المصرية

³⁸⁰ - ناصر الأنصاري. المُجمل في تاريخ مصر: النظم السياسية والإدارية، ط2، مصر، دار الشروق القاهرة، 1997، ص 193.

³⁸¹ - عبد الرحمان الجبرتي . المصدر السابق ، ص ص 22 - 73.

³⁸² - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الصغرى، المصدر السابق ، ص 104.

كان أمير الركب المصري لسنة 1191 هـ / 1777 - 1778م هو حسن بيك رضوان، وأميره سنة 1194هـ / 1779م هو مراد بيك . للمزيد انظر: عبد الرحمان الجبرتي . المصدر السابق ، 1997، ص 74

³⁸³ - يدع هذا الأمير: أمير باي إبراهيم. للمزيد انظر: الهشتوكي. المصدر السابق ص 245-258.

³⁸⁴ - الشرقي بن محمد الإسحاقى. المصدر السابق ، ص 249-250.

³⁸⁵ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، المصدر السابق ، ج1، ص 376.

³⁸⁶ - المقري التلمساني . نفح الطيب ، مصدر ساق ، ج2، ص 548

تحرسه³⁸⁷، ففيما يتعلق بمسألة تعيين أمير الركب أخبرتنا الرحلة الحجية المغربية أن قائد ركب الحاج الرسمي كان يعين من قبل السلطة المركزية وفق شروط، ويحمل لقب أمير عند اختياره، ويعد من خدام السلطان، ويذهب في جم غفير من أهل فاس وغيرهم من مختلف جهات المغرب، واستأثرت بإمارة هذا الركب وتوارثتها في هذه الفترة عائلات محددة. كما هو الحال مع "عائلة عديل" مثل ما أخبرنا بذلك أحمد بن ناصر في حوالي 1790م. إذ كان أمير الركب الفاسي هو: "الحاج عزوز عديل"³⁸⁸، وبعد مضي حوالي 24 سنة على ذلك أكد لنا الإسحاق أن إمارة الركب لعهد "فما قبله منذ أربع أو خمس وعشرين سنة في دارهم مع إخوانه من والدهم السيد محمد عديل... والشيخ عبد الخالق أمير الركب هذا العام...." أي 1737م³⁸⁹. وأخبرنا ابومدين الدرعي في عام 1740 أن شيخ الركب الفاسي القادم من الحج هو ولد عديل، وحتى في ركب الحج غير الرسمي وهو الركب الفلالي فقد كان لأميته علاقة بنسب الأسرة الحاكمة كما حصل زمن حجة أحمد بن ناصر الثالثة أنه "الشريف مولانا عبد الهادي بن إدريس" وأن أُميره في حجة الحضيكي هو "مولاي الشريف"³⁹⁰، وأُميره سنة 1781 هو "مولاي علي بن محمد الحسيني العلوي البوعامي"³⁹¹.

ج- العلماء: فهم ذوو الحل والإبرام، لا يُقَطَّعُ أمر من أمور الركب وشؤون الرحلة دون استشارتهم والرجوع إليهم. ووجودهم في الركب مدعاة لإقبال العامة وتشجيعهم على الذهاب إلى الحج.

يقول الرحالة الورثلاني عن دور العلماء التحفيزي لبقية السكان "... فلما سمع الناس من عمالة الجزائر بحج هؤلاء الفضلاء، ونخبة العلماء، حركهم ذلك إلى شد الرحال إلى بيت

³⁸⁷ - عبد الرحمن ابن خلدون . العبر ، ج 07، ص 296

³⁸⁸ - أحمد بن ناصر الدرعي . المصدر السابق ، ص: 147 .

³⁸⁹ - الشرقي بن محمد الإسحاق . المصدر السابق ، ص 253

³⁹⁰ - محمد بن أحمد الحضيكي السوسي . المصدر السابق ، ص 82

³⁹¹ - نفسه . ص 83

الله الحرام من كل بلد..."، وذلك بعد أن عدّ الورثلاني أسماء العشرات من العلماء وأعيان المداشر ورؤوس الجماعات، الذين جمعهم ركب الحج. وقد اشتهر الركب الجزائري بوفرة علمائه وشويع ذكرهم في الطريق الى الحج، وغداً الحجاج المغاربة يطلبون مرافقة الركب لأجلهم. حيث ذكر الرحالة العياشي أنه عزم -هو شخصياً- على الذهاب مع ركب أهل الجزائر، رغبة في مرافقة فقهاء ونجباء طلبته، ورجاء المذاكرة في بعض العلوم، لولا أن أصحابه من أهل مراكش جاءوه بأكابر الركب المغربي مُسْتَشْفِعِينَ.³⁹² والإقبال نفسه أبداه عدد كبير من علماء إقليم فزان الليبي، حيث انضموا الى الركب الجزائري في أحد المواسم، لأن شيخاً جليلاً من شيوخ منطقة توات كان ضمنه.³⁹³ ولتبيان أهمية احتواء ركب الحج الجزائري مثلاً على العلماء والفقهاء في ذلك العهد، يكفي أن نذكر أن بعض العلماء الجزائريين كانوا يرافقون قوافل الحجاج عند مرورها على المداشر والقرى النائية، أو على الأقاليم شبه المستقلة عن سلطة العثمانيين، وذلك لحمايتها من أياعتداء قد يقوم به بعض اللصوص، بفضل الحُرمة والهيبة التي تشكلت عن العلماء والأولياء والصالحين في مُحَلَّة زعماء البدو من القبائل المُرْتَدَّة آنذاك.³⁹⁴

ويلاحظ في رحلات الحج أن العلماء لم يكونوا مُلْزَمِينَ بالنقيد بضوابط الركب الإجرائية، من صعود وهبوط وملزمة له... فنجدهم أحياناً يتقدّمون الركب، وأحياناً أخرى يتخلفون عنه، وذلك بسبب علاقاتهم الشخصية بنُظرائهم في بعض البلدان، وارتبطاتهم العلمية، التي مثّل الحج رافداً من روافدها. فقد كان الذهاب للحج بالنسبة للعلماء مناسبة

³⁹² - أبو سالم العياشي . ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج 02، ص 188

³⁹³ - الفلاني القبلاوي . المصدر السابق ، و 02

³⁹⁴ - المهدي البوعبدلي . التعريف بالكتب والمخطوطات ، المرجع السابق ، ص 44

دينية ومنقبة علمية في آن واحد، يحرص المؤرخون والمترجمون على ذكرها لمترجميهم منهم.³⁹⁵

د-القضاة: القضاة كما - العلماء - لهم شأن واحترام، فهم من نخبة الركب، يُقَدَّمُونَ ويُستشارون، وغالبا ما يُعَرَّفُونَ اثناء الرحلة بتلك الوظيفة، على منوال قاضي قورارة المدعو "عبد الحكيم بن عبد الكريم القوراري" لذي ضمه ركب الحج لسنة 1100هـ/1592م³⁹⁶، وقاضي مدينة المدية المدعو "سيدي بن نوة" الذي صَحَاب الركب في حجة 1179هـ/1766م.³⁹⁷ وغيرهم من القضاة، وبالنسبة للإيالات العثمانية كان يصاحب الركب خاصة البحري قاضيان مالكي وآخر حنفي.³⁹⁸

هـ-الحُرَّاس: وجود الحراس في ركب الحج أمر وارد، لكنه ليس ثابتا في جميع المواسم خاصة خلال القرن الـ 17 الميلادي.

ويؤكد حضور الحرس إذا حج مع الركب بعض القادة أو العائلة الحاكمة، أو كبار الموظفين الأتراك بالنسبة للإيالات العثمانية. وتتوفر الحماية للركب بصفة خاصة في الطريق بين مصر والحجاز.³⁹⁹ ويمكن أن تتبع الركب قوة عسكرية لحماية خاصة التجار وبضائعهم، إذا كان عددهم فيه كبيرا. والمتعارف عليه في مواسم الركب الجزائري أن يَعْتَمِد الحجاج على أنفسهم في ضمان الحراسة خاصة في الليل لحماية أمتعتهم ورواحلهم.

³⁹⁵ - أبو القاسم سعد الله ، شيخ الإسلام ، المرجع السابق ، ص 48

³⁹⁶ - عبد المجيد القدوري . المصدر السابق ، ص 188

³⁹⁷ - الحسين الورثاني . المصدر السابق ، ج 01، ص 264

³⁹⁸ - القاضي الحنفي كان يكلف بالطائفة التركية ومن والاها والتي كانت تعتق المذهب الحنفي ، وأما المالكي فكان مكلفا بالرعية التي كانت تعتق المذهب المالكي.

³⁹⁹ - جوزيف بيتس . المصدر السابق ، ص 68

و- التجار: لا يخلو الركب من التجار الحجاج، الذين يستغلون رحلة الحج للممارسة نشاطهم التجاري؛ طمعا في تعويض الإنفاق وجني الأرباح. ويساعدهم في ذلك وكالات وأسواق المغاربة في مصر، والتي تسهل عليهم المبادلات التجارية.⁴⁰⁰

ز- الأدلاء: كانت القافلة تصطحب معها الدليل أي العارف بأسرار المسالك الصحراوية، قال ابن خلدون في معرض حديثه عن تجار الصحراء "إن بين بلاد المغرب وبلاد السودان" المفازة المجهلة، لا يهتدى فيها للسبيل، ولا يمر الوارد إلا بالدليل الخبير من الملتئمين الطواعن بذلك القفر...⁴⁰¹، وقد كان الدليل على بينة وعلم باتجاه المسالك الصحراوية لكثرة التردد عليها، على الرغم من أن هذه المسالك لم تكن ثابتة على حال بسبب تنقل الرمال من مكان إلى آخر⁴⁰²، والحجاج يثقون في الدليل الماهر، باعتباره سائق الركب وهم الركاب المسافرون، ويتغنون به في أشعارهم⁴⁰³: (الطويل)

سُرَرْنَا وَطِبْنَا حِينَ سَرْنَا لِطِيبَةِ وَلَمْ نَخْشَ مِنْ طُولِ الْمَسِيرِ التَّمَادِيَا

وَقُلْنَا اجْتَهِدْ يَا سَائِقَ الرِّكْبِ إِنَّمَا تَهْوُنُ الْمَنَايَا إِنْ بَلَّغْنَا الْأَمَانِيَا.

ك- الجمالة: وهم الأعراب المكلفون بنقل الأمتعة والبضائع. وتوكل إليه مهمة الاعتناء بالجمال وتأمين أعداد منها احتياطا⁴⁰⁴. وبالتالي فهم طائفة خدماتية انتشرت وازدهر نشاطها في معظم المدن العربية في العصر العثماني.⁴⁰⁵ وبالإضافة إلى تكفلهم بنقل الحجاج وأمتعتهم؛ فإنهم كانوا يقومون بنقل بضائع التجار في مكة المكرمة⁴⁰⁶، حيث يبقى هؤلاء من

⁴⁰⁰ - عبد الرحيم عبد الرحيم . المرجع السابق ، 52.

⁴⁰¹ - عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، مصدر سابق ، ج4، ص77

⁴⁰² - حسن حافظ علوي ، مرجع سابق ، ص241

⁴⁰³ - الحسين الورثاني . المصدر السابق ، ج02، ص81

⁴⁰⁴ - جوزيف بتس، المصدر السابق، ص 66، 67.

⁴⁰⁵ - ريمون اندري . المرجع السابق ، ص115.

⁴⁰⁶ - إبراهيم رفعت باشا . المصدر السابق ، ص 120

أشهر الأعوان في طريق الحج، رغم أنهم لا ينضمون إلى الركب - في معظم الحالات - إلا بعد وصوله إلى المحطة المصرية، فيسوقون الجمال أثناء إنزال حمولتها⁴⁰⁷ للراحة وتقديم العلف لها سؤقا قاسيا، حيث يصف ذلك ابن الطيب الفاسي بقوله: "...وقد رايناهم حملوا على جمل واحد ما كانت تحمله الخمسة والستة من الإبل في الطريق، وقد سخر الله لهم الإبل ونزع الرحمة من قلوبهم عليها، يحملون عليها لقناطر المقنطرة من المتعة، وأحمال التبن، والحطب وغير ذلك⁴⁰⁸ حتى لا يظهر من الجمل إلا رأسه...".⁴⁰⁹ ويبدو أن عددهم كان كبيرا في الركب، حيث ذكر الورثاني أن بعض الحجاج الجزائريين ضلوا الطريق في أحد المقاطع، ولم يهتدوا إلى مكان الركب إلا بعد سماعهم صت سائقة الإبل، وذلك من وراء أحد الجبال.⁴¹⁰ وكان مما يوصى به المعاملة الحذرة مع هؤلاء الجمالة وتحمل أذاهم وفي ذلك يقول ابن الطيب الفاسي: "...ويتأكد من حسن الخلق هم الجمالة فأنهم أصعب، وأشد شراسة، وهو خلق فيلين لهم ويعرض عن كلامهم ما أمكنه، ولا يقابلهم بشيء، وإلا جلب الضرر لنفسه وخصوصا جمالة الحجاز فإنهم لا يعبر عن شراستهم بحقيقة ولا مجاز، فليحذر الإنسان منهم ما أمكنه...".⁴¹¹ وكذلك يوصي الحضيكي بقوله: "...وعليك أيها الأخ بمكارم الأخلاق... وتحمل الأذى في طريقك مع الحجاج والخدام والجمالين، فإن هذا الطريق طويل ينال فيه المشقة القوي والضعيف، يحتاج إلى زيادة صبر لاسيما مع البداوة والجمالين، فإنهم يحرصون على استخراج أدنى شيء منك...".⁴¹² وفعلا كان هؤلاء العربان يحافظون على

⁴⁰⁷ - يوصي بعض الرحالة من العلماء بضرورة أن يطلع الجمال على ما أراد حمله من الزاد قليلا ، أو كثيرا ، ولا يخفي

منه شيئا تجنبا لسوء معاملتهم. ينظر محمد ابن الطيب الفاسي ، المصدر السابق ن ص52.

⁴⁰⁸ - يَقْصِدُ الرَّحَّالَةَ هُنا المسافة القصيرة من شط النيل إلى مراسي السفن على مجرى النيل حيث يقوم هؤلاء الجمالة بإدخال تلك الإبل بحمولتها إلى السفينة وينبخونها فيها بأحمالها على ظهورها ، ثم يخرجونها منها بعد أن تُلَقَّ من على أظهرها الحمولة .

⁴⁰⁹ - محمد ابن الطيب الفاسي . المصدر السابق ، ص145

⁴¹⁰ - الحسين الورثاني . المصدر السابق ، ج03، ص134

⁴¹¹ - محمد ابن الطيب الفاسي . المصدر السابق ، ص52

⁴¹² - الحَضِيكِي . المصدر السابق ، ص89.

الحجاج وأمتعتهم متى غمروهم بالخيرات من مأكولات ولحوم وغيرها. و تزداد عنايتهم بهم إذا وعدوا بكسوة يعطونهم إياها، وكانت كسوتهم يسيرة الكلفة عبارة عن ثياب قطن. فكانوا يُهْمَلُونَ العناية بالجمال بل يتمادون في إلحاق الضرر بأصحابها. فتارة يقطعون حزام الجمل ليقع صاحبه ويتأخر عن القافلة لإصلاحه فيغتنمون الفرصة للانفراد به وقتله إذا لم يمنحهم الماء أو الغذاء. أو يسلبونه المتاع ويفرون بجمالهم⁴¹³، لهذا صدق قول الحضيكي حينما أوصى الحاج في طريقه عن الجمالة خاصة "...وَأَرَعَ دِينَكَ، وَصُنْ عِرْضَكَ وَمَالَكَ، واحفظ مروءتك، ولا تتعاط معهم المساوي، فإنهم أشقاء على الخير، وألسنتهم حداد، وَوَفِّ إِلَيْهِمْ كِرَاءَهُمْ، ثم أحسن إليهم ولو بالقليل من طعامك..."⁴¹⁴ و كل هذا جعل الحجاج المغربي يشكون منهم مرات كثيرة⁴¹⁵، حتى أنهم أصبحوا يُعدونهم من مصائب الطريق المُسلطة على الإبل، ومنه على مستخدميها من الحجاج، كما نقل الشاعر⁴¹⁶:

كَمْ جَمَلٍ مُنْتَصِبٍ لِلشَّقَا مَاجِرُهُ الْجَمَالُ إِلَّا انْكَسَرَ

وَكَانَ فِي الرُّكْبِ يُرَى مُبْنَدًا فَمَا لَهُ مِنْ بَعْدِ هَذَا خَبَرٌ.

ل- الغلام: هو: رجل عادة مايكون فارسا يتقدم الركب ليستكشف الطريق ويتأكد من سلامتها⁴¹⁷، و يتكفل كذلك بحمل العلم أو الراية طيلة سفر الركب، ومهمته رفع الراية عاليا أو نشرها في أوقات معينة معتادة، أو في أوقات استثنائية مثل اعتداء قطاع الطرق والصوص، ومن ثمَّ يمثل الحجاج لإشارته بعد رؤيتهم للراية، ويقصدون موضعها. ويعتبر

⁴¹³ - إبراهيم رفعت باشا . المصدر السابق ، ج01، ص 68

⁴¹⁴ - الحضيكي. المصدر السابق ، ص89

⁴¹⁵ - حكى ابن حمدون في تذكرته عن الأعمش أنه حجَّ فأحرم فلاحاه الجمال في شيء فرقع عكازه فشجه بها ، فقيل له لم ذاك ، وأنت محرم . فقال : من تمام الإحرام شجَّ الجمال . ينظر ابن الطيب الشرقي الصميلي ، المصدر السابق ، ص52

⁴¹⁶ - محمد بن الطيب الفاسي . المصدر السابق ، ص60

⁴¹⁷ - الحضيكي . المصدر السابق ، ص85

توقّفُ العلام عن المشي أو نزوله عن مركوبه - وهو يرفع الراية الكبيرة - إيعاز للركب بالتوقّف والنزول، ومن رأى الراية من الحجاج مرفوعة فماعليه سوى الامتثال.⁴¹⁸ وهذا ماحدث فعلا في ركب لرحالة الحُصَيكي الذي وصف الحادثة كمايلي: "... ثم سرنا غير بعيد⁴¹⁹، فإذا بقرى كثيرة ونخيل، فلما دنونا هناك فإذا بالخييل والرجال تخرُج من خلالها متسلحة، تركّض نحونا، فاجتمع الركب، ونَصَبَ العَلَامُ الرايةَ، وتأهب الناس لقتالهم، فلما رأونا كذلك، رجعوا خاسئين صاغرين...⁴²⁰،

ويروي ابن الطيب الفاسي أنهم لما تجاوزوا وادي ابي كدية الكبير ولملوحته وجفافه وحيرة افراد الركب وخوفهم على بهائمهم من العطش كان الرأي للعلام والدليل (الخبير) حيث يقول في ذلك " .. وتجاوز أول الركب مع العَلَامُ، والخبير⁴²¹ وجعلوا يرتادون المنزل، وأخذ كلّ يحوز منزله وينزل...".⁴²²

وكان اللون الأخضر هو لون العلم المحمول من طرف الركب الجزائري في أغلب الأحيان، مثلما نُصِبَ في ركب حجّ، هذا شاهده⁴²³: (المديد)

من قصور أَقْبَلِي نروح ياخاوتي سِرْبَة بَطْبُلْنَا وَعَلَامُنَا أخضر .

م- المُنَادِي (البَرَّاح): يعرف المُنَادِي في العرف الشعبي المغربي بالبرَّاح، وهو من أعوان الركب الموظفين في مجال الإعلام آنذاك، ينادي البراح بأعلى صوته بين الفينة والأخرى لإخبار أكبر عدد ممكن من الحجاج بما يقع في الطريق من مستجدات.

⁴¹⁸ - الحسين الورثاني . المصدر السابق ، ج01، ص433.

⁴¹⁹ - يقصد المفازة التي بين سدي خالد وبسكرة بإيالة الجزائر .

⁴²⁰ - الحضيكي . المصدر السابق ، ص85

⁴²¹ - يقصد دليل الركب

⁴²² - محمد بن الطيب الفاسي . المصدر السابق ، ص139

⁴²³ - أحمد بوسعيد . المرجع السابق ، 115

منها هذه النماذج التي وقعت في بعض المواسم: مثل دعوة الحجاج قبل رحيل الركب من احد المنازل إلى حمل الماء ليومين متتالين.⁴²⁴ ومنها كذلك في حادث طارئ - حصول المناداة - و"التباريح" على أن الركب قد ضلّ الطريق ووقع في التّيه⁴²⁵. كيف يتفطن الحجاج لذلك الأمر الخطير. والمنادي له دور كبير جدا في اقلاع الركب ونزوله، حيث حدث في حجة ابن الطيب الفاسي انه حسب قوله: "... لما اقلع المحمل المصري وسار، وبعدما كملت الركائب واجتمع بعد التفريق نجابة النجائب وانقضى مقام المقيّل، نودي في ذلك المكان الرّحب بالرحيل وحمل المحمل الشريف، وسار الركب سير السيل...⁴²⁶....". ثم نادى منادي الرحيل فسار الركب ...⁴²⁷. ومنها -في حالة أخرى- تذكير الحجاج بالوصول إلى الميقات المعلوم من أجل الإحرام، ذلك ما عبر عن الشاعر في قوله⁴²⁸: (الطويل)

وَنَادِي مُنَادٍ لِلْحَجِّجِ لِيُخْرِمُوا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ أَجَابَ وَلَبَّاهُ

وَصِرْنَا كَأَمْوَاتٍ لَفَقْنَا جُسُومَنَا بِأَكْفَانِنَا كُلُّ ذَلِيلٍ لِمَوْلَاهُ .

ن- المؤذن: لم يخلُ ركب الحج من المؤذنين، الذين يصدحون بصوت الحق لتنبيه الحجاج إلى مواقيت الصلاة، ودعوتهم لحضور صلاة الجماعة ليلا ونهارا.

وأصبح بمقدور الحاج أن يؤدي الصلوات كلها في جماعة رغم ضخامة الركب ومشاق السفر ومخاطره، وخاصة إذا علمنا أن عدد المؤذنين في الركب يزداد بازدياد عدد

⁴²⁴ - عبد الرحمن المجاجي . المصدر السابق ، و07

⁴²⁵ - الحسين الورثاني . المصدر السابق ، ج01، ص333

⁴²⁶ - محمد ابن الطيب الفاسي . المصدر السابق ، ص332

⁴²⁷ - نفسه ، ص232.

⁴²⁸ - ابن رشيد البغدادي . المصدر السابق ، ص30

الحجاج لإيصال النداء إلى مؤخرة الركب وأطرافه، حيث يذكر العياشي أن ركبهم المراكشي الكبير ضم عشرة مؤذنين، يَزَجُّ بأصواتهم الركب في الثلث الأخير من الليل.⁴²⁹

ح- صاحب الطبل: لا نعلم الطريقة التي كان أمير الحج يعتمد عليها في إدارة شؤون الركب (القافلة) في أوقات الإستراحة وأوقات الرحيل (الاقلاع)، وإن كان من الواضح أن تُقَرَّ طبل الرحيل كان من الأمور المعمول بها في عملية التواصل بين أمير الركب والحجيج، وعل هذا يمكن أن نتصور بأن النقر على هذا الطبل بطريقة معينة قد يعني الشروع في حمل الأتقال على الجمال، والنقر عليه بطريقة مغايرة لسابقتها قد يعني الانطلاق في المسير، والنقر بطريقة ثالثة قد يعني حط الرحال والاستراحة بعد المسير، وهكذا دواليك⁴³⁰، و الطبل وسيلة من وسائل الإعلام المتاحة في ذلك الزمان، وهو ضروري في ركب الحج؛ بل هو يرمز في دلالاته المعنوية إلى سلطة أمير الركب، الذي واضب -بادئ ذي بدء- على ضرب طبله في المدينة المحروسة "الجزائر" وفي غيرها من مدن الإسلام، لإعلام الناس بِقُرْبِ موعد سفر ركب الحج، على عادة أمراء الأركاب في ذلك الزمن. ويستخدم في سفر الركب طبل كبير من نحاس، يضربه صاحبه وقت قيام الركب ووقت نزوله، ضربة الإعلام بالتهيؤ، ويوضع بعد العودة من الحج في خباء مخصص له، حيث أنه يعتبر من الأوقاف العامة.⁴³¹

وقد يتناوب مجموعة من الأعوان على دق الطبول الضخمة، بعد انقضاء فترة الراحة، إيذانا بجمع الخيام وتحميل الجمال لمواصلة رحلة الحج.⁴³²

ط- أعوان آخرون: وهم أقل شهرة ومسؤولية من الذين سبق ذكرهم ومن أشهرهم:

-الرعاة:

⁴²⁹ - أبو سالم العياشي . ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج01، ص160

⁴³⁰ - حسن حافظ علوي ، المرجع السابق ، ص235

⁴³¹ - محمد المنوني . المرجع السابق ، ص14

⁴³² - جوزيف بيتس . المصدر السابق ، ص69

-المشاعلي: وهو الشخص المكلف بإيقاد النار في المشاعل للإضاءة، وتزويدها بالحطب كلما اوشكت على الانطفاء.⁴³³

-رئيس السّياس: هو كبير طائفة - السياس - والسائس من كان يتولى قيادة البغال ويتولّى ربطها في مربط الدواب.⁴³⁴

-خبير المياه: وهو من الأعوان المتخصصين في معاينة مياه الآبار المنتشرة على طول الطريق، فيرسله الحجاج لتلك المهمة، كلما وقفوا على عين من عيون الماء.⁴³⁵

المبحث الثاني:أنواع الركب الحجي المغربي ودروبه

⁴³³ - جوزيف بيتس . المصدر السابق ، ص68

⁴³⁴ - محمد بن عمر التونسي ، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفى مسعد ،

الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، 1965 ، ص20

⁴³⁵ - عبد الرحمن المجاجي . المصدر السابق ، و05

01-أنواع ركب الحج المغربي:

01-الركب الجزائري: تميز الركب الجزائري خلال العهد العثماني باستقلاليته وخصوصيته حيث تكرر استخدام لفظ "الركب الجزائري" أو "ركب الجزائر" في متون الرحلات الحجازية في الكثير من المواضع⁴³⁶، و كان يخرج من إيالة الجزائر ركب واحد كل عام⁴³⁷ واحد بري وآخر بحري في نهاية زمن الإيالة وتطور الملاحة البحرية.

الركب البري: يتشكل عن طريق تجمع العديد من قوافل الحج الفرعية القادمة من جميع أنحاء الإيالة: من معسكر والمدينة وقسنطينة وعنابة وغيرها. لتتجمع في مكان واحد وهو بسكرة التي كانت نقطة التقاء الركب الجزائري، وعندما يكون الركب المتوجه إلى الحج في طريق العودة بعد أن أدى فريضة الحج، وكثيرا ما يلتقي الركب في تونس أو طرابلس⁴³⁸. هذا دون اغفال الحديث عن الركب الجزائري المسافرين عبر البحر، والذي شاع في تلك الفترة واعتبر بمثابة الركب الرسمي لحكام الجزائر من الأتراك⁴³⁹.

02- ركب المغرب الأقصى: تعددت أركب الحجاج المغاربة المتوجهين إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، وكان أول ركب سمي بالركب الصالحي نسبة إلى مؤسسه والداعي إليه الشيخ أبو محمد الصالح المغربي، وكان هذا الركب يسلك طريق آسفي الحجاز، ومن أركب الحج التي كانت في تلك الفترة مايلي:

-الركب الفاسي: كان يخرج من مدينة فاس، ويرجع تأسيسه إلى سنة 70هـ/1301م، وأصبح منذ القرن الثامن الهجري الركب الرسمي الذي يسير فيه حجاج بلاد المغرب. حتى أن رئيس

⁴³⁶ -أحمد بوسعيد. مرجع سابق، ص 35

⁴³⁷ - فوزية لزغم. البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي 925-1246هـ/1520-

1830م، أطروحة دكتوراة، جامعة وهران، الجزائر، 2014/2013، ص 438

⁴³⁸ - نفسه، ص: 439.

⁴³⁹ -أحمد بوسعيد. المرجع السابق، ص 35

هذا الركب الإداري أو شيخه هو المسؤول الأول والأساسي عنه وعن بقية الركبان الأخرى⁴⁴⁰، وقد اهتم المغاربة بهذا الركب وأعانوه بالإعانات المادية الوفيرة. كان يتألف من رئيس ويسمى شيخ الركب أو أمير الركب يختاره السلطان من أكابر الناس وعلية القوم⁴⁴¹.

-الركب السجلماسي: كان هذا الركب⁴⁴² يخرج من سجلماسة، ويذهب فيه أهل تافيلالت ومن لحق بهم، وهو ركب قديم، كان يسير تحت إمرته رئيس يختاره أهل الركب من أفضل القوم، وتذهب فيه خلائق كثيرة وكان لا يخلو من كبار الأعلام⁴⁴³، وذكر أبو سالم العياشي أن أمير الركب في حجته كان الشيخ محمد بن محمد الحفيان⁴⁴⁴.

-الركب المراكشي: يخرج هذا الركب من مراكش، ويذهب فيه أهل المدينة ونواحيها، ويعتبر الركب المراكشي هو الركب الرسمي للدولة، والمرجح أنه تأسس مع دولة السعديين وانتهى بانتهاء دولتهم⁴⁴⁵.

03-الركب الشنقيطي: هو ركب سكان موريتانيا الحالية وما حولها من أقاليم⁴⁴⁶. تأسس بعد عمارة هذه الجهة وكان يسافر سنويا ويمشي فيه كل من أراد الحج من سائر جهات شنقيط⁴⁴⁷. وأقدم رحلة حجية مدونة خرجت من بلاد شنقيط هي "رحلة الحاج البشير البرتلي سنة 1789م، ويتكون ركب الحج الشنقيطي من:

⁴⁴⁰ - محمد علي فهم بيومي . المرجع السابق ، ص ص 26-27

⁴⁴¹ - محمد المنوني . المرجع السابق ، ص 12

⁴⁴² - يعد الركب السجلماسي من أشهر الركبان بعد الركب الفاسي

⁴⁴³ - محمد علي فهم بيومي . المرجع السابق ، ص 28

⁴⁴⁴ - أبو عبد الله محمد العياشي . المصدر السابق ، ص 57

⁴⁴⁵ - محمد المنوني . المرجع السابق ، ص ص 36-37

⁴⁴⁶ - محمد علي فهم بيومي . المرجع السابق ، ص 30

⁴⁴⁷ - محمد المنوني . المرجع السابق ، ص 39

أ- ركب الحج الولاتي: نسبة إلى مدينة ولاتة، الواقعة في ولاية الحوض الشرقي لموريتانيا حالياً، وهو القديم، حيث يذكر ابن بطوطة أنه خلال زيارته لولاته (وكان إسمها يومئذ إيولاتن) أراد أن يحج مع حجاجها، ثم ظهر له أن يتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم ملك مالي، وذكر أيضاً أن ملك مالي لم يأذن لقاضي ولاتة - التي كانت تابعة له يومئذ - محمد بن عبد الله بن ينومر بأداء فريضة الحج ذلك العام مع صاحبه⁴⁴⁸. ولئن كان حجاج ولاتة في بداية أمرهم يحجون ضمن الركب المالي وركاب بلاد التكرور، إلا أن ركبهم استقل فيما بعد عن الركاب السودانية، خصوصاً بعد سقوط مملكة السونغاي التي ورثت مملكة مالي، واستطاع سكان ولاتة أن ينظموا ركبهم الحجي الخاص بهم. وترسخت لديهم على مر القرون تقاليد حج كانت لها نظمها المحكمة التي تأخذ بعين الاعتبار شؤون الركب من جوانبها المختلفة، مادية كانت أو علمية أو أمنية، مقاما أو حركة، كل ذلك حسب ماتمليه الظروف زمانا ومكانا، وكان الركب المنطلق من ولاتة يسلك طريقا شاقا وعرا عبر الصحراء الكبرى متجها أحيانا إلى حاضرة تنبكتو بشمال دولة مالي حايلا، وأحيانا يتجه مباشرة إلى بلاد توات في الصحراء الجزائرية عبر منطقة أزواد، ويؤكد ذلك ما أورده صاحب "فتح الشكور" في معرفة أعيان علماء التكرور "في معرض حديثه عن الحاج أحمد بن الحاج أمين الولاتي الذي يتأخر ركب الحجاج من ولاتة إلى توات"⁴⁴⁹. ليكون الأمر إلى أبي نعامة الكنتي التواتي فيما بعد ذلك⁴⁵⁰، بعد أن يلتقي بركب الحاج الجزائري والمغربي، و منها ينطلق الركب المغربي باتجاه دولة جنوب ليبيا، ومن أهم محطاته مدن غات وأوباري ومرزق وفزان وزلة وجربة، ليصل إلى مصر، ومنها يتوجه إلى الحجاز.⁴⁵¹

⁴⁴⁸ - ابن بطوطة . المصدر السابق ، ص ص 247، 245

⁴⁴⁹ - الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي ، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، تحقيق محمد إبراهيم

الكتاني ومحمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1401هـ / 1981م ، ص 48

⁴⁵⁰ - نفسه ، ص 49

⁴⁵¹ - الحاج محمد البشير البرتلي ، المصدر السابق ، ص 06

ب-ركب الحج الشنقيطي: نسبة إلى مدينة شنقيط الواقعة بولاية آدرار الموريتانية حالياً، والتي عرفت ازدهارا كبيرا في القرن 12هـ/18م، جعل اسمها يطلق على كافة المجال الموريتاني الحالي⁴⁵²، بعد أن أصبحت مركزا رئيسا لانطلاق ركاب الحجاج من غرب الصحراء، وبشكل منتظم كل سنة، فقد أورد الفقيه سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي (توفي سنة 1233هـ/1818م) في رسالته "صحيحة النقل في علوية إيدو علي وبكرية محمد قلبي مانصه "...وكان الركب يمشي من شنقيط إلى مكة كل عام، ويحج معهم من أراد الحج من سائر الآفاق، حتى إن أهل هذه البلاد، أعني من الساقية الحمراء إلى السودان إلى أروان، يعرفون عند أهل المشرق إلى الآن بالشناجة..⁴⁵³. ومن مدينة شنقيط يلتحق ركب الحجاج بالركب الفاسي للتوجه إلى توات فغدامس، ففزان، فالقاهرة، فالحجاز. وقد ادت عملية انتظام الحجاج وتكتله في ركب واحد إلى بلورة حيز ثقافي واجتماعي خاص بشنقيط من خلال زيتها الموحد الذي ميزها عن غيرها من سائر حجاج المناطق الأخرى.⁴⁵⁴

02- طرق ومسالك ركب الحج المغاربي:

01-02- المسالك البرية: لا شك أن التوجه إلى الشرق بالنسبة إلى الرحالة المغاربة كان يطرح مشكلة الطريق التي يجب عليهم إتباعها. فمن المؤكد أن اختيار الطريق لم يكن عشوائيا، وإنما كان يخضع لبعض الشروط الأساسية: كالوجهة المقصودة، الدوافع، الطريق الأكثر استعمالا والأقل خطرا. فهذا الإشكال لم يطرح فقط خلال القرنين السابع عشر والثامن

⁴⁵² - أحمد ابن الأمين الشنقيطي ، الوسيط في تراجم ابناء شنقيط ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1989م ، ص422، وكان هذا المجال يضم أطرافا من بلاد مجاورة شملها فضاء ثقافي وحضاري ناشئ عن تمازج عربي بربري صحراوي سوداني خاص ، نتجت عنه قيم وعادات مشتركة جعلته يتميز عن الشعوب المحيطة به شمالا وجنوبا . ولقد ظل اسم "بلاد شنقيط " الذي ألصق بهذه الأرض وأكثر شيوعا ، وبه عرفت لدى المشاركة والمغاربة أكثر من غيره

⁴⁵³ - الحاج محمد البشير البرتلي ، المصدر السابق ، ص07

⁴⁵⁴ - محمد الراضي ولد صدفن . رحلات الحج و أثارها الثقافية في بلاد الشناقة خلال القرنين 12و13هـ ، رحلة سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم نموذجا ، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، نواكشوط ، العدد 01 ، سنة 2013م، ص 51

عشر، وإنما قبل ذلك أي منذ بدايات الركب المنظم. فبالنسبة إلى المتوجه إلى الشرق خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أمامه إمكانياتان أساسيتان: الطريق البري التقليدي والطريق البحري عبر المتوسط⁴⁵⁵.

أ- الطريق البري: اعتمادا على بعض نصوص الرحلات الحجازية للقرنين السابع عشر والثامن عشر وقفنا على ثلاثة طرق برية كانت معتمدة في تلك الفترة⁴⁵⁶

- الطريق العرضاني التلي: (شبه الساحلي): وهي الطريق الشمالية لركب الحج المغربي والجزائري، ومبدأه من الحواضر المغربية الكبرى كفاس، وحواضر الغرب الجزائري كتلمسان ومعسكر ومازونة وغيرها، ومنتهاه في الجزائر العاصمة ليمتطي السفن إذا اختار الركب السفر عن طريق البحر.

أما إذا اختار المسير عبر البر فأبرز محطاته بعد حواضر المغرب الأقصى هو تلمسان، ومنها إلى مدينة الجزائر (دار السلطان) عبر محطات متنوعة، ومن مدينة الجزائر يشد رحاله صوب مدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق للترود كما حصل مع أبو القاسم الزياني، ومنها يلج الركب البلاد التونسية .

ويمكننا تحديد معالم هذا الطريق اعتمادا على نظم ابن مسايب ورحلتي أبو القاسم الزياني و أبو راس الناصري وغيره وهي مرتبة كمايلي:

تلمسان - جبال تسالة (حوض بلعباس حاليا)، تليلات، يلل، جديوية، مجاجة، واد الفضة، العطاف، مليانة، متيجة، البليدة، بوفاريك، دار السلطان (مدينة الجزائر)، الأربعا، برج حمزة،

⁴⁵⁵ -مصطفى الغاشي. الرحلة المغربية، المرجع السابق، ص 349

⁴⁵⁶ - سعاد آل الشيخ . طرق ومسالك أركاب الحج المغربية بالجزائر العثمانية ، مجلة الدراسات التاريخية ، العدد 01، المجلد 10 ، جامعة غرداية ، الجزائر ، 1443هـ/2022م، ص219

بني منصور، البيبان، مجانة، قصر الطير، سطيف، ميلة، قسنطينة، واد الشارف . وصولا الى مدينة الكاف التونسية.⁴⁵⁷

كان هذا الطريق من الطرق الرئيسية لأركاب الحج المغربية، واستنادا لما ورد في لرحلات الحجازية وتتبع مسارها عبر هذا الطريق، قد يقع الاتفاق والاختلاف بين الحجيج في الالتحاق بالركب ومصاحبه ومسار الرحلة لكل ركب⁴⁵⁸، لأن انطلاقهم كانت متباينة تباينا تاما أو جزئيا، وهذا التباين من منطلق الإقامة أو مسكن الحجيج (الجهة التي تتبع الركب. غير أن الملاحظ أن أركاب هذه الفترة معظمها تشترك في المسار مع المحطات الكبرى لأركاب الحجيج المعتادة.⁴⁵⁹

الطريق العرضاني الأوسط: يبدأ هذا الطريق بالنسبة لأركاب الحج المغربية من محطات متنوعة حسب أقاليم وجهات هذا البلد⁴⁶⁰ حتى أننا لنتنوع أركابهم نميز وجود:

الطريق البري المنطلق من فاس: يقول المنوني⁴⁶¹ أن الطريق التي كان يسلكها الركب الفاسي كفانا مهمة الحديث عنها كثير من حجاج هذا الركب الذين دونوا رحلات عديدة اهتموا فيها بصفة خاصة بذكر المسالك التي يمر عليها هذا الركب من أول مرحلة إلى آخر مرحلة⁴⁶²، وقد اعتمده عدد كبير من الرحالة المغربية كعمر المرابط الدلائي خلال عام 1668م، وأحمد القادري عام 1688م، والحسن بن مسعود اليوسي عام 1689م، وابن الطيب الشرقي عام 1726م، والعامري التلمساني عام 1739م، ومما يزيد أهمية هذا الطريق

⁴⁵⁷ - سعاد آل الشيخ ، المرجع السابق ، ص 220

⁴⁵⁸ - مصطفى الغاشي ، المرجع السابق ، ص 341

⁴⁵⁹ - مصطفى الغاشي ، المرجع السابق ، ص 341

⁴⁶⁰ - سعاد آل الشيخ ، المرجع لسابق ، ص 221

⁴⁶¹ - محمد المنوني ، ص 33

⁴⁶² - نفسه ، ص 15

وهذا الركب انه يشكل تاريخيا ركب الدولة الرسمي خلال عهدي الدولة المرينية والدولة العلوية.⁴⁶³

الطريق البري المنطلق من سجلماسة: وقد اعتمد عدد غير يسير من الرحالة المغاربة للقرنين السابع عشر والثامن عشر كأبي سالم العياشي غير مرة سنوات: 1649م/1653م/1661م/168م، والهشتوكي مرتين 1684م/1707م، والشيخ احمد بن ناصر الدرعي عام 1709م، والحضيكي عام 1739م، وقد كانيتمده عدد وفير من الخلق، كما كان يضم أعلاما كبيرة تنتمي إلى عالم التصوف والزوايا من أمثال أبي سالم العياشي واحمد بن ناصر الرعي، وكذلك جاء ذكر هذه الطريق ومراحلها في كل هذه الرحلات، وغالبا ما كان الركب السلجماسي يلتقي في طريقه الركب الفاسي، وهو ما يعني أن نقاط التقاطع كانت موجودة بين الطرفين.⁴⁶⁴

الطريق البري المنطلق من مراكش: يبدو من خلال الرحالة الذين اعتمدوا هذا الطريق خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين /السابع عشر والثامن عشر الميلاديين انه لم يكن يحظى باهمية كبيرة⁴⁶⁵، واعتمادا على المنوني فإن هذا الطريق مرتبط بتاريخ الركب المراكشي الذي كان ركب الدولة الرسمي زمن السعديين، إذ كانوا يولونه اهتماما خاصا تعكسه تلك الوصايا والرسائل التي كان يبعث بها السلاطين السعديون ال حكام الحجاز من اجل العناية بالركب والحجاج.⁴⁶⁶

ومن مميزات هذا الطريق البري والذي عَجَّ بالقوافل الحجية والتجارية على حد سواء خاصة في اقليم طرابلس الغرب ؛ أنه كان طريق أفقي واضح المعالم الا فيما ندر من تشابك

⁴⁶³ -مصطفى الغاشي .المرجع السابق ،ص 350

⁴⁶⁴ - نفسه ،ص ص 356-357

⁴⁶⁵ - نفسه ،ص 364

⁴⁶⁶ -محمد المنوني .المرجع السابق ، ص36

التضاريس عند قطع الأطلس الصحراوي الجزائري بالمنطقة الرابطة بين جبال لقصور والعمور الجزائرية كثيرا ماحدث تيهان عند محاولة الركب الميل يمين جنوب السفوح الجنوبية لتجنب الثلج أو في مفاوز بلاد الجريد وبرقة. فهو كما اسلفنا طريق واضح المعالم ومستقيم يساعد الرواحل في الجد في السير. كما اشتهر هذا الطريق بكثرة الماء وتعدد المنابع من عيون وغدران وأودية جارية. و امتاز بكثرة التجمعات السكنية من منطلقه الى منتهاه بأحواز مصر ما ادى الى كثرة الأسواق التي كانت تقام على طول هذا الطريق سواء في المدن والحوضر الكبرى أو الأسواق الموسمية (التي تعمر بمرور الركب).⁴⁶⁷

أما عن الأسباب الداعية لتعريض ركب الحج المغربي على هذه المنازل، فهي إما لأخذ قسط من الراحة والتزود بالماء والمؤونة، وغن صادف وغن حطّ الركب ببلاد خصيبة فعادة ماكانوا يرعون فيها عيّرهم.⁴⁶⁸

والكلام نفسه يقال عن المدن والحوضر الكبرى حيث كان الحجاج يحصلون منها منافع كثيرة وبخاصة التجارة ولقاء الصالحين والتبرك بالمزارات وطلب الاجازات والتلاحق الثقافي والعلمي.

ثانيا: الطريق الصحراوي: سُمي هذا الطريق -بطريق الواحات- وطريق الصحراء، وكليهما صائب، فهو يمر بالواحات الصحراوية.

كما يسميه الحجاج القادمون من بلاد التكرور بالطريق الوسطانية، ربما لأنها تتوسط طريق الحج الأفارقة وطريق الهضاب المشهورة.⁴⁶⁹

⁴⁶⁷ - سعاد آل الشيخ . المرجع السابق ، ص 222

⁴⁶⁸ - نفسه ، ص223

⁴⁶⁹ - سعاد آل الشيخ . المرجع السابق ، ص224

كما يُعتبر من اصعب الطرق الصحراوية بالنسبة للحجاج المغاربة والشناقطة نظرا لتباعد المراحل بين محطاته إلى جانب صعوبة تضاريسه، ولكن مع ذلك له أهمية بالغة لدى ركائب الحج المغربية إلى جانب القوافل التجارية الصحراوية ؛ وتكمن تلك الأهمية أنه أكثر حركية في نشاطه الاقتصادي.⁴⁷⁰

وخاصة في جزئه الغربي لأنه يحتوي على شبكة من طرق القوافل التجارية بإضافة لأنه طريق آمن باعتبار أن أغلب طرقه تحت سيطرة قبائل المنطقة لحمايته من اللصوص، كما تكثر فيه مراكز البيع والشراء مما يضمن التزود بالمؤن والسلع.

ومسار هذا الطريق ينطلق من سجلماسة في خط سير أفقي نحو إقليم توات مرورا على قرى وادي الساورة، والتي تعتبر مركز أساسي تعبره القوافل الحبية والتجارية لما يتميز به من أسواق رخص السلع والمبادلات التجارية.

ولما يصل الركب إلى توات ينقسم الى فرعين:

الطريق العلوي: يتميز هذا المسلك بكثرة الحُمَادَات⁴⁷¹ وبوجود أحجار مبنية على مقاطع معينة من الطريق تغني عن كراء الدليل⁴⁷²

يبدأ هذا الطريق بدقة من سجلماسة ثم عين عباس والرفاعية، ليدخل صحراء الجزائر من واد الأساور (الساورة)، ثم ضاية الحمار، ثم واد غير ليمر بقرية اجلي وهي أولى قرى وادي الساورة، ليصل بعدها الى قرية مازر وبني عباس، ثم قرية بشير وصولا الى موقع فم

⁴⁷⁰ - رشيد حفيان ، الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر الغاربية وأثرها الحضاري خلال العهد العثماني خلال القرنين (11-12هـ/17-18م)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، جامعة قسنطينة ، الجزائر ، 2014م، ص21.

⁴⁷¹ - الحمادات /جمع :حمادة : هي أرض صحراوية قاحلة تتكون من هضاب صخرية بازلتية قوية، حيث تم إزالة معظم الرمال بفعل الرياح

⁴⁷² - سعاد آل الشيخ .المرجع السابق ، ص 225

المدفع، ثم قرية بني خلف، تسابت -توات، ثم أوكريت(أوقروت) وهي من بلاد تيجورارين، ثم أولاد محمود، واد امقيدن، قرية والا، القليعة (المنبعة)، زيرارة، الجديد، الحمّد، واركلا (ورقلة)، امكوسة (انقوسة)، وادي ريغ، اكرك، تماسين، تكرت(تقرت)، سوبا (وادي سوف)، ماء الرياح، العندا، نفزاوة لأولى مدن المغرب الأدنى.⁴⁷³

الطريق السفلي: أما الشطر الثاني لريق الحج الصحراوي الجنوبي فيمر عبر اتوات سواء بالنسبة للركب المغربي أو الركب الشنقيطي (لانس منطلق الركب الشنقيطي من ولاتة الى تنزروفت الى توات)، ويكون ملتقاه عند زاوية الشيخ ابي نعامة بتوات.⁴⁷⁴

ومن توات ياخذ طريقه نحو الدغامشة، ثم بلاد ايقسطن، ثم أوقروت، ثم صحراء اذكر والتي تعتبر صحراء طويلة وشاقة لايقطعها الركب الا في 50 يوما.

الطريق السفلي: سلكه ابن مليح السراج وبعده البشير البرتلي وغيره، وهو طريق موحش لكثرة المفاوز به خاصة تنزروفت. وهذه الطريق هي التي مرّ منها ابن مليح لسراج في ذهابه إلى الحج.⁴⁷⁵

أما عن مميزات الطريق الصحراوي بشقيه العلوي والسفلي فهو المفضل لدى الحجاج وخاصة في جزءه الغربي لأنه يحتوي على شبكة من طرق القوافل التجارية⁴⁷⁶، فهو يمر عبر توات التي هي مجمع القوافل التجارية الآتية من تمبكتو والسودان الغربي والمحملة

⁴⁷³ - نفسه ، ص226

⁴⁷⁴ - التقاء الركب المغربي والشنقيطي بالركب الجزائري الصحراوي في هذه النقطة كان يشكل تكتلا يعطي للركب قوة من جوانب شتى وخاصة في زرع الرهبة في قلوب قطاع الطرق واللصوص ، حيث تصل قافلته إلى ألفين جمل مقسمة إلى مائة جمل ، وعلى كل فرقة أميرا للركب. ينظر : الحاج محمد البشير البرتلي ، المصدر السابق ، ص83

⁴⁷⁵ - تجنبها في طريق عودته من الحج ، ومال عنها الى اليسار سالكا طريق تيدكلت حتى بلغ وادي رسم الليل ، وذلك لشدة حروشتها وجذبها وقلة مائها وبعدها عن العمران ، وهذا عادة مايسلكه الركب في طريق العودة حيث يقع اسفل طريق توات عين صالح .

⁴⁷⁶ - مصطفى الغاشي . المرجع السابق ، ص335

بالذهب، فتوات يرخص فيها سعر الذهب بشهادة لرحالة أبو سالم العياشي في قوله: "...لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخوا الصراف إلى توات، فإن الذهب فيها أرخص، وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر..."⁴⁷⁷.

كما تعبر مدينة ورقلة (اروجلان قديما) حاضرة تجارية مهمة بالصحراء الجزائرية من حيث النشاط التجاري ورواج البيع والشراء فيها بوصف أبوسالم العياشي في قوله: "...الى جانب كثرة الواحات ووجود الماء والكأ خاصة في الطريق العلوي الرابط بين توات ونفزاوة..."⁴⁷⁸،

أما جزءه الرابط بين توات ونفزاوة فتقل فيه الصلعة وقطاع الطرق فهو فارغ.

فابن مليح السراج في ذهابه ذكر بأنه التقى بقبائل التوارق، حيث تعاطوا معهم البيع والشراء.⁴⁷⁹

أما الصعوبات التي واجهها الحجاج في هذا الطريق بمسلكيه فهي متعددة، فالمسلك الجنوبي شاق خاصة بين توات وفزان مسيرة خمسين يوما متعبة، يعبر عنها ابن مليح لسراج في قوله: "...وقد انتفضت الجراب وعجزت الركاب، وماتت الرواحل لبعده المراحل، وقد أشرف الناس فيها على المهالك..."⁴⁸⁰.

أما المسلك الثاني الذي سلكه العياشي كان هو الآخر محفوفًا بالمخاطر خاصة الطريق الرابط بين أوقروت وورقلة لكثرة الرمال والزوابع الرملية، لهذا غكترى أمير الركب دليلا ليدلهم على الطريق ومعاطن المياه، ومع هذا لقي الركب صعوبة في السير وخاصة في شقه الرابط بين قرية -والا- والمنيعه، حيث يقول العياشي في ذلك: "... نزلنا يوم العاشر

⁴⁷⁷ - أبو سالم العياشي . ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج1، ص79

⁴⁷⁸ - نفسه . ج1، ص81

⁴⁷⁹ - ابن مليح السراج . المصدر السابق ، ص32

⁴⁸⁰ - نفسه . ص32

على قرية يقال لها والّا، بعدَ قَطْعنا قُرْبَهَا رمالا كثيرة يَحَارُ النظر في كثرتها وصعوبتها، وقاسينا منها شدة، ولقيت الإبل أضعاف مالمقينا.⁴⁸¹

أما المسلك الرابط بين المنبعة وورقلة بوصف العياشي أيضا "...فهي أرض حرشاء جرداء لا علم فيها، مُزِقْتُ من حروشها النعالُ وتأثر حوافر البغال والإبل، ولقي فيها الركب من الجوع والعطش..."⁴⁸²

الرحلة عن طريق البحر: كل الركاب كانت تسلك طريق البر في ذهابها وإيابها، وفوق ذلك كانت جماعات تؤلفركابا تسافر في البحر ذهابا وإيابا، ولم يكن هذا وليد تقدم السفر في البحر بظهور السفن البخارية بل كان قبل ذلك بزمان كثير، وكثيرا ما كان بعض الحجاج المغاربة يرجع على طريق البحر⁴⁸³. ولذلك استعملوا مصطلح "الركب البحري" عندما يتعلق الأمر بالسفر بحرا، ففي عهد السلطان المغربي المولى عبد الرحمن بن هشام عرف الركب البحري ازدهارا وانتعاشا لم يعرفهما من قبل، كما يشير إلى ذلك الأستاذ محمد المنوني في دراسته عن "ركب الحج المغربي فقد ذكر أن الركب البحري ظل يتقوى ويزدهر إلى أن صار مع السنين هو "الركب الرسمي للحجاج المغاربة".⁴⁸⁴

حيث عانى المسلمون عموما والمغاربة خصوصا بسبب تعرض سفنهم لعمليات النهب التي مارسها بحارة من مختلف المدن الأوربية، ورغم أن الغرر كان يغلب على الطريق البري بسبب القلاقل التي أحدثها الغزو الهلالي بالطريق البري الذي يربط المغرب ببلاد

⁴⁸¹ - أبو سالم العياشي . ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج01، ص107

⁴⁸² - نفسه . ص125.

⁴⁸³ - محمد المنوني . المرجع السابق ، ص:40.

⁴⁸⁴ - نفسه . ص ص: 40-41.

مصر، فإن المغاربة وبخاصة أولئك الذين كان عزمهم زيارة البيت الحرام غالبا مايسافرون على سفن توصلهم إلى بلاد مصر، ليواصلوا الرحلة بعد ذلك نحو بلادالحجاز⁴⁸⁵.

إن تفضيل المغاربة الطريق البحري لا يعني أن البحر كان أكثر أمنا من الطريق البري، بقدر مايدل على أن الخطورة متفاوتة بين الطريق البري والبحري، وحتى إذا ركبوا البحر فإنهم ينتظرون في كل لحظة أن يقعوا في قبضة العدو، ولعل الحالة النفسية التي عاشها ابن جبير وابنرشيد السبتي وأحمد المقري على متن المراكب التي نقلتهم إلى ديار مصر خير دليل على ضعف الأمن في البحر المتوسط⁴⁸⁶، وبخصوص الراكب البحري الجزائري فإنه كان مرتبطا بإجراءات تحضير (الصرة)⁴⁸⁷، والقوائم الملحقة بها،والداي هو الذي يعطي الأمر بانطلاق رحلة الحج رفقة مبعوثه الخاص الذي عادة ما يكون بيت المالجي⁴⁸⁸، وفي هذا الصدد وصف الشريف الزهار مشاركته في انطلاق ركب الحج لعام 1233هـ/1818م بهذه العبارات "...بعد شهرين من ولايته⁴⁸⁹، أمر بتسريح المراكب للحج، وعين (أمين)بيت المال أمينا على الصرة، ودفع له مال الصدقة التي تدفع كل سنة لفقراء الحرمين الشريفين،وفي هذه السنة ذهب الناس أفواجا للحج،منهم الفقير إلى ربه،وكان الوباء قد اشتعلت ناره،وفي يوم سفرنا وقت الضحى،وصلت مائة جنازة،ثم سافرنا، نطلب من الله

⁴⁸⁵ - نفسه . ص :22.

⁴⁸⁶ - الطاهر قدوري . مسالة القرصنة أو الجهاد البحري في المغرب الإسلامي :دراسة مقارنة ،مجلة عصور الجديدة،

العدد 02،وهران ،الجزائر ،جوان 2020م،ص 137

⁴⁸⁷ -تعتبر الصرة التي تخصصها مؤسسة الحرمين الشريفين للبقاع المقدسة في أعين السكان علامة شرف وواجب نبيل

يرمز إلى الروابط الروحية والثقافية و الاقتصادية بين الجزائر العثمانية والمدينتين المقدستين ،فبالنسبة للجزائر اكتست الصرة التي ارتبطت بقالفة الحج-طابعين اثنين احدهما ديني والآخر اجتماعي بما أنها كانت موجهة اسميا للحجاج .على أنه في واقع الأمر لم يكن للحجاج الجزائريين حق في الأموال المخصصة لمكة المكرمة والمدينة المنورة ،ولم يكونوا

يحصلون على إعانات من أموال الصرة .ناصر الدين سعيدوني ،الوقف الجزائري أثناء العهد العثماني ،صص 175-176

⁴⁸⁸ - ناصر الدين سعيدوني .الوقف ، المرجع السابق ، ص 178

⁴⁸⁹ -يقصد ولاية الداوي حسين باشا والذي تولى في 23ربيع الثاني سنة 1233هـ

القبول والعودة لنا ولجميع المسلمين...⁴⁹⁰. ففي كل عام يغادر مدينة الجزائر حوالي 200 من الحجاج باتجاه مكة المكرمة عن طريق البحر التي تعتبر الأكثر أمنا والأقل تعباً والأقصر مدة بالمقارنة مع طريق البر التي تسلكها قافلة الحجاج (الركب)، وبالنسبة لطريق البحر، جرت العادة أن يستأجر البايليك وكبار الموظفين والأعيان سفناً عثمانية أو أوروبية لنقل الحجاج و"الصرة".

02- نماذج من الرحلات الحجية المغربية خلال القرنين الـ17 والـ18 الميلاديين:

أ- الرحلات الحجية البرية:

01-01- رحلة العياشي: يُعَدُّ أبا سالم العياشي من أبرز الشخصيات المغربية التي ذاع صيتها قديماً وحديثاً. فهو أبو عبد الله بم مُحَمَّد العياشي، ولد في أواخر شعبان 1037هـ/1628م، في قبيلة آيت عياش، وهي قبيلة بربرية تتاخم بلاد الصحراء من أحواز سجماسة.

وتوفي أبو سالم العياشي يوم الجمعة 18 من ذي الحجة عام 1090هـ/1679م، بعد إصابته بالطاعون.

بدأ تكوين أبي سالم على يد والده وشيوخ الأسرة، فكان والده أول شيوخه في التربية والتعليم، فقرأ عليه القرآن ولقنه الذكر في الزاوية العياشية، التي أنشأها عام

⁴⁹⁰ - أحمد الشريف الزهار . المصدر السابق، ص 144

1044هـ/1643م، وتعرف الآن بزاوية سيدي حمزة، وتقع على ضفاف أحد روافد نهر زيز جنوبي مدينة ميدلت.⁴⁹¹

وقد درّس على أخيه عبد الكريم العياشي بالزاوية القراءات والتجويد والنحو والفقه والتفسير والحفظ والنقل، ثم درّس بفاس على عدد من الشيوخ والعلماء، ثم درس بدرعة خاصة على يد شيخه الكبير محمد بن ناصر الدرعي⁴⁹²، ولا يعلم عنه الدارسين هل درس بفاس قبل دراسته بدرعة أم العكس، ولم تتح له الظروف السياسية التي عرفها المغرب الأقصى أواسط القرن الحادي عشر الهجري أن يرحل الى الدلاء ولا الى مراكش. فاستغنى عن زيارة الأولى بالعلاقات الودية والمراسلات العلمية والأدبية التي كانت بينه وبين بعض علماء الزاوية الدلائية كأبي علي الحسن بن مسعود اليوسي والطيب بن محمد المسناوي ومحمد المرابط الدلائي وغيرهم. كما لم يزر الثانية مكتفيا بصحبة أشهر علمائها كأبي بكر بن يوسف السكتاني، وهو في طريق العودة من المشرق في رحلته الأولى، فأخذ عنه أبو سالم وطارحه العلوم والمعارف.

يعتبر أبو سالم العياشي من أبرز علماء الأسرة العياشية؛ فهو الأديب والرحالة والفقيه والصوفي والداعية إلى تعاليم الإسلام السمحة والمحارب للبدع التي استشرت في المغرب في تلك الفترة، فكما ذكرنا آنفا فقد تعلم بالزاوية العياشية ثم التحق بالزاوية الناصرية، ثم جامع القرويين بفاس، ومن أشهر مؤلفاته:

-إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، و إقتفاء الأثر بعد ذهاب الأثر، وقد قام برحلات ثلاث: الأولى: في شهر ربيع النبوي 1053/1643م⁴⁹³، و الثانية: أواخر ربيع

⁴⁹¹ - عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1997م، الرباط، ج1، ص362.

⁴⁹² - عبد الهادي التازي. رحلة الرحلات، المرجع السابق، ج1، ص199.

⁴⁹³ - أبو سالم العياشي. إتحاف الأخلاء، المصدر السابق، ص25.

النبي 1046هـ/1658م، والثالثة والأخيرة الموسومة "بماء الموائد" ؛ وهي افضل رحلاته دون فيها خلاصة تجربته في الحجاز.⁴⁹⁴

ب- التعريف برحلته ماء الموائد: تُعتبر رحلة ماء الموائد من أهم رحلات أبي سالم العياشي، التي دون فيها وقائع رحلته، والتي دامت حوالي سنتين ونصف، بداية من خروجه من زاويته يوم الخميس ربيع الثاني عام 1072هـ/1661م، إلى حين رجوعه إليها مغرب الأربعاء من شوال 1074هـ/1663م، مضيفا إليها بعضا من أخبار رحلتيه السابقتين.⁴⁹⁵

وهي ديوان علم وأدب، كما أكد على ذلك العياشي بنفسه بقوله: "إِ الغرض من هذه الرحلة أن تكون ديوان علم. فلا آلو ما أدخلت فيها من الفوائد لرغبة كثير من الصحاب في ذلك..."⁴⁹⁶. فالرحلة العياشية من أهم الرحلات المغربية وأكثرها انتشارا لأنها أكثر مادة وتنوعا، وقد رجع لهذه الرحلة الكثير من الرحالين من اللاحقين، ودونوا منها دون أن يرجعوا إلى مصادر أخرى.⁴⁹⁷

تعتبر الرحلة سجل تاريخ وجغرافيا وتصوف وأدب وآثار، وانفردت عن غيرها من الرحلات والكتب وأمهات المصادر الرحلية، بإيراد جملة من النصوص والرسائل والإجازات والنقول وخطب الكتب. التي لا تكاد تقف على اثر في غيرها.

حاول العياشي أن تكون رحلته شاملة لكل علوم عصره، ويعطي صورة حقيقية عن الظروف السياسية والاقتصادية في عصره، ولم يُخفِ ميله إلى علم التصوف في العديد من الصفحات، وترجم للعديد من شيوخه ومحبيه، وهذا يعود لكون العياشي متصوف تربى في كنف الزوايا.

⁴⁹⁴ - نفسه ، ص25.

⁴⁹⁵ - عبد الهادي التازي ، رحلة الرحلات ، المرجع السابق ، ج01، ص200

⁴⁹⁶ - أبو سالم العياشي ، ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج02، ص445.

⁴⁹⁷ - عبد الهادي التازي ، رحلة الرحلات ، المرجع السابق ، ج01، ص ص 200-201.

ج- أهمية الرحلة العياشية: حضيت رحلة ابي سالم العياشي بالكثير من الإهتمام من قبل الباحثين والدارسين، فقد اعتبرت مصدرا لدراسة الظواهر الثقافية والعلمية والاجتماعية والسياسية، وخاصة خلال الفترة التي غطتها الرحلة من احداث القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، حتى عدّها بعضهم من أعظم رحلات المغرب العلمية والحجازية.⁴⁹⁸

أما عبد الهادي التازي فيقول: "وتعدّ رحلة العياشي من أهم الرحلات المغربية، وأكثرها انتشارا لأنها أكثر مادة وأكثر تنوعا، وقد طفق الرحّالون من اللاحقين ينقلون عنها دون أن يعودوا إلى مصادر أخرى..."⁴⁹⁹، وهذا ما أكد عليه في بداية رحلته حيث اقرّ بأنّها لن تكون مجرد وسيلة للترفيه فقط، وإنما ميدان خصب لشتى المعارف، حيث يقول: "...وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون دويان علم، لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها..."⁵⁰⁰، وقد راعى في رحلته مستوى القارئ وطموحه العلمي، وهذا هو السر وراء التنوع المعرفي لهذه الرحلة.

تميزت الرحلة العياشية انسجاما مع شخصية مؤلفها واتساقا مع خصائص عصرها، بنشاط علمي متميز، فكانت كما وصفها صاحبها ديوان علم لاكتاب سمر وفكاهة، أي أن محتواها دار بالاتجاه الديني في تساوق تام مع العلمي، ولاغربة أن يتلازم الهدفان عند أبي سالم العياشي الفقيه العالم، والمؤمن الورع الذي يرتجي الخلاص ويقصد منابعه.⁵⁰¹

وتعتبر الرحلة العياشية (ماء الموائد) من أشهر الرحلات وأفيدها على مر التاريخ، فهي بالإضافة إلى فوائدها التاريخية والأدبية والجغرافية، قد جاءت حافلة بمعطيات اجتماعية وإنسانية ذات فائدة كبيرة.

⁴⁹⁸ - عبد السلام بن سودة. المرجع السابق ، ص362.

⁴⁹⁹ - عبد الهادي التازي ، رحلة الرحلات ، المرجع السابق ، ص201

⁵⁰⁰ - أبو سالم العياشي ، ماء الموائد، ج02، ص 328.

⁵⁰¹ - عبد الهادي التازي ، رحلة الرحلات ، المرجع السابق ، ص223

تستمدُّ الرحلة العياشية قيمتها الحقيقية من مضمونها الغني الذي جعلها تحتضن عددا كبيرا من النصوص والشعار والتراجم، الشيء الذي اضفى عليها طابع الموسوعية، كما تستمد هذه الرحلة قيمتها من مكانة صاحبها، فالعياشي عالم من كبار العلماء، وفقهه من جلة الفقهاء، وهو بعد هذا شخص يبدو متزن الخطى، رصين النزعات كما ينبغي لمثله أن يكون. ثم إن مسار الرحلة هو مسار مقدس، قد رسم معالمها العامة، وحدّ حدودها التي ألفت بين جغرافيا الأرض والفكر، وزاوجت بين متطلبات الروح والعقل، ففي تساوق تام مع الرحلة، فإن صاحبها بدا مسكونا بالتعرض لعلماء الأمصار وذكر تأليفهم وعرض لقاءاته بهم، وإيراد القضايا الفقهية والعلمية التي تطّارحها معهم.⁵⁰²

تعد رحلة العياشي من أهم الرحلات المغربية، وأكثرها انتشارا لأنها أكثر مادة وأكثر تنوعا، وقد طفق الرحالون من اللاحقين ينقلون عنها دون أن يعودوا إلى مصادر أخرى، وهذا ما أكد عليه في بداية رحلته حيث اقر بأنها لن تكون مجرد وسيلة للترفيه فقط وإنما ميدانا خصبا لشتى المعارف حيث يقول: "وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون كتاب علم لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيهما معا فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها سيما إن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التمكين فكل شيء عنده موقع ونفع لا يوجد في غيره، والله المسؤول أن يلهمنا فيما يأتي، وهذه الرحلة تتضمن وصف خروجه يوم الخميس أول ربيع الثاني سنة 1073هـ للحج من مراكش حتى وصوله مدينة القاهرة في 27 رمضان سنة 1073هـ.⁵⁰³

02-01- رحلة الحاج محمد البشير بن أبي بكر البزّليّ الولاتي: لقد كان للشناقطة نشاط

مرتحل سيار وهاجس إلى الرحلة ملحاح استدعته الطبيعة البدوية وزادت من حداثة قسوة

⁵⁰² - عبد السلام بن سودة، المرجع السابق، ص 363

⁵⁰³ - حمد الجاسر . مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) لعبد الله بن محمد العياشي المتوفى سنة 1090هـ، دار

الرفاعي، ط01، الرياض، السعودية، 1404هـ/1984م، ص 15

الحياة وشدة التمسك بالدين فضربوا في الأرض يبتغون من فضل الله، ويسعون إلى الحج ويطلبون الأسانيد والإجازات في، وربما خرجوا من بلادهم رغبة في الكشف والاستطلاع أو فرار من السيطرة والاستعمار، لذلك يمكن القول إلى الشناقطة كانوا ميالين إلى السفر والانتقال، شغوفين بالظعن والمسير فمن أبرز سماتهم التجول و الترحال لذلك تجدهم صبورين على احتمال المشاق ومواجهة الصعاب نزاعين إلى الانطلاق لا يلوون على أحد ولا يعولون على راحلة ولا بعير⁵⁰⁴.

فالثقافة الشنقيطية تكاد تنفرد بين مثيلاتها في العالم الإسلامي بالظعن والمسير، إذ أبدع القوم ثقافة متميزة وهم يضربون في الأرض متخذين العيس مدرسة مما يسمح بالقول الحركية والنشاط من سمات الحياة الشنقيطية البارزة، غير أن ذلك لم يمنع الإبداع و الفردية والتميز، فإذا كانت الثقافة ربيبة الإقامة والاستقرار فإن القوم استطاعوا أن يعكسوا الآية ويخرقوا القاعدة حيث جاءوا من الأمر جديدا إذ أنتجوا ثقافة اكتنفها التجوال وأظلتها الحركية⁵⁰⁵.

أما الرحلات الشنقيطية المدونة - والتي جاءت متأخرة نسبيا - فأقدمها هي رحلة الحاج بن محمد البشير بن أبي بكر البرتلي الولاتي إلى الحرمين الشريفين سنة 1204هـ/1789م، مع أن أهل البلاد عبروا عن تعلقهم بالديار المقدسة منذ مئات السنين، بشد الرحال كل سنة إليها لتأدية هذه الفريضة متحدين كل المصاعب والأخطار عبر مسالك الصحراء الوعرة نود أن نشير هنا إلى أن السمة البارزة على الشناقطة هي الحرص على أداء فريضة الحج والعمل على تأدية مناسكه، غير أنهم انقسموا إلى طائفتين، طائفة أنست من نفسها قدرة على الحج فارتحلت إلى أرض الحرم وأدت المناسك حقها، وطائفة لم تستطع إلى

⁵⁰⁴ - الخليل النحوي ، المرجع السابق ، ص 45

⁵⁰⁵ - محمد بن احمد بن المحبوبي ، المرجع السابق ، ص 46

ذلك سبيلا، فاستبدلته بالشوق والحنين واستعاضت عنه بالتعلق الروحي، لذلك نصادف لدى أصحابها توقا إلى أرض الحجاز شديدا واحتفاءً بالقادمين من الحرم كبيرا⁵⁰⁶.

لقد كانت تقاليد أعمال الرحلة إلى بلاد الحرمين الشريفين - كما نبهنا إلى ذلك آنفا - قديمة ومتأصلة في بلاد شنقيط عموما، وكانت في ولاته أكثر رسوخا وانتظاما، غير أن عدد الرحلات المذكورة والمدونة ليس بتلك الكثرة، ولا بذاك الانتظام، فلم تورد كتب التراجم أي ذكر لرحلة مدونة من تلك البلاد قبل رحلة الحاج بن محمد بن البشير بن أبي بكر البرتلي، إلا رحلة الحاج علي بن محمدنا الله بن الطالب جبريل البرتلي الولاتي المتوفي سنة 1094هـ/1683م.⁵⁰⁷ الذي ذكر صاحب فتح الشكور أنه قيد زيارته في طريقه إلى الحج، وقال: "قيدت مافي هذه الأوراق من الأنبياء والأولياء والأشياخ والصالحين لتتوسل على الله تعالى بجاههم عنده أن يميئتنا على كلمة التوحيد"، غير أنها لا تزال مفقودة، وربما يرجع ذلك إلى أن الحاج من تلك البلاد لم يكونوا يعتنون قديما بتدوين رحلاتهم، على الرغم من أن صدى رحلاتهم إلى الحج بقي يتردد في كتب التاريخ والتراجم والمناقب. ويبدو أن البرتلي لم ينطلق في كتابته لرحلته من فراغ، وانه كان على إطلاع ومعرفة ببعض الرحلات المدونة، وعلى وعي بأهميتها، وبما ينبغي أن تتضمنه، فقد خرج وهو عازم على كتابة رحلته، حيث أشار إلى انه سيذكر فيها من سلاقيه من العلماء والصالحين، وما سيقف عليه من قبورهم، وهو أمر درج على الإخبار به من أعمل الرحلة قبله من العلماء الذين لم يدونوا رحلاتهم، أو من دونها منهم مثل الحاج بن محمدنا الله بن الطالب جبريل البرتلي الولاتي الذي قيد أسماء من زارهم من الأنبياء والصحابة والأولياء والأشياخ والصالحين كما ذكر صاحب الرحلة انه سينبه في رحلته على مياه الطريق العذب منها والمالح، ومواضع الحذر، والخوف

⁵⁰⁶ - الخليل النحوي. المرجع السابق، ص 54

⁵⁰⁷ - الحاج محمد البشير البرتلي، المصدر السابق، ص 07

ومافيه الأمان من أهل البلاد، وكيفية الطريق في الوعر والسهولة، وهو مدرج عليه كذلك كتاب الرحلات المغربية قبله⁵⁰⁸.

02-الحاج محمد البشير البرتلي الولاتي ورحلته إلى الحج:

01-02 التعريف بمؤلف الرحلة: هو الحاج البشير بن الحاج أبي بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي المتوفى سنة 1214هـ/1800م الولاتي دارا ومسكنا، ومنشأ ووطنا، المالكي مذهباً الأشعري اعتقاداً، ولم تقدم المصادر المتاحة الشيء الكثير عن جوانب حياته سوى ما أفصح عنه صاحبها فتح الشكور، ومنح الرب الغفور اللذين لم يحددا تاريخ مولده، ولا عمره، وعده المختار بن حامد ضمن علماء مدرسة بارتيل بولادة⁵⁰⁹.

02-02 - أسرته: تنتمي أسرة مؤلف الرحلة إلى قبيلة "بَارْتِيل" والنسبة إليها "بُرْتْلِي" أو "بَارْتِيلِي" وقد اشتهرت بكثرة علمائها وشيوخها، وهم ينتسبون للأنصار، وقد قدموا إلى البلاد حسب المتواتر محلياً ضمن قبائل أنصارية أخرى في تاريخ غير محدد بعد القرن التاسع الهجري، ويذكر أهل ولاته أنهم جاؤوا من المغرب، واستوطنوا منطقة الحوض، ومدينة ولاته بالذات ولهم بها حي كبير (الحي الجنوبي - رحبة بارتيل -)، ونشاطهم تنموي زراعي وثقافي⁵¹⁰، كما توجد منهم مجموعة تقطن مدينة بوتلميت بجنوب موريتانيا، ومنهم أيضاً مجموعة أهل أنفغ الخطاط القاطنة في منطقة إنشيري الموريتانية⁵¹¹.

03-02 مسار الرحلة: خرج ركب البرتلي من ولاته يوم 25 صفر سنة 1402هـ/

الموافق ل14 نوفمبر 1789م ضمن ركب حج، يضمن مجموعة من كبراء مدينة ولاته

⁵⁰⁸ - الحاج محمد البشير البرتلي ، المصدر السابق ، ص ص 08-09

⁵⁰⁹ - نفسه ، ص 23

⁵¹⁰ - عبد العزيز منير ومحمد باعثمان ، طريق ركب الحج الشنقيطي من خلال رحلة الحاج محمد البشير بن الحاج أبي بكر

بن الطالب محمد بن الطالب عمر البُرْتْلِي المتوفى سنة 1214هـ/1800م، ص 09

⁵¹¹ - الحاج محمد البشير البرتلي ، المصدر السابق ، ص ص 23-24

ومقدميهم ، وانطلق الركب من ولاتة وصولاً الى أزواد في رحلة دامت أربع عشرة ليلة حسب المؤلف، فكانت أول قرى أزواد هي بوجبيهة، والتي مكث فيها الركب أربعاً وعشرون ليلة، ليتوجه الركب بعدها إلى مدينة تنبكتو لزيارة قبور الصالحين بها، ولقاء علمائها، حيث زار المؤلف مجموعة من مزاراتها ومساجدها ليعود بعدها الى بوجبيهة التي مكث بها ثلاثاً وعشرين ليلة أخرى⁵¹²، وفي 13 جمادى الأولى 1204هـ/ الموافق لـ 01 يناير 1790م خرج الركب من بوجبيهة إلى قرية المأمون، فمكث بها أربع عشرة ليلة، ومنها إلى قرية المبروك في 29 جمادى الأولى 1204 الموافق لـ 29 يناير 1790م.⁵¹³

المرحلة الثانية: الطريق من المبروك إلى توات: بعد قضاء خمس ليال في بلدة المبروك اتجه الركب شمالاً إلى منطقة توات وذلك في يوم الاثنين 07 جمادى الثانية من سنة 1204هـ/ الموافق لـ 22 فبراير 1790م، حيث مر الركب بطريق سالكة خصوصاً ببئر أشوراط وبئر تنصضير، وهو بحر المناهل قبل الدخول إلى صحراء تنزروفت، والتي قطعها الركب في مدة سبعة أيام إلى غاية وصوله إلى بلاد بئر والن الذي يشرف على بلاد توات حيث مكث به الركب ثلاثة أيام قبل الدخول إلى توات، والتي استهلها الركب بزيارة زاوية الشيخ أبي نعامة، والتي تعتبر نقطة التقاء وتجمع ركائب الحج القادمة من توات وبلاد التكرور لتنظم تحت لواء واحد هو لواء شيخ الركب النبوي الشيخ أبي نعامة⁵¹⁴، وبعد استراحة الركب بهذه الزاوية لمدة خمس ليال شد الرحال بعدها الركب نحو عين صالح ليوم الاثنين 05 رجب 1204هـ والتي وصلها بعد يومين من المسير، فمكث فيها الركب خمس ليال كاملة، وقد وصف المؤلف ألقاها بالكرم و خدمة الحجيج.⁵¹⁵

⁵¹² - عبد العزيز منير ومحمد باعثمان ، المرجع السابق ، ص 09

⁵¹³ - نفسه ، ص 10

⁵¹⁴ - الخليل النحوي .المرجع السابق ، ص 48

⁵¹⁵ - عبد العزيز منير ومحمد باعثمان ، المرجع السابق ، ص 11

المرحلة الثالثة: الطريق من عين صالح إلى قرى فزان: خرج الركب من عين صالح يوم الاثنين 12 رجب 1204هـ، وسار بالطريق المعهودة لمدة، ثم انحرف عنها لجهة اليمين لتحاشي بعض أعراب المنطقة، وبعد مرور أربعة أيام من المسير في أرض فلاة قليلة منابع المياه وصل الركب إلى قرى فزان⁵¹⁶، وأول منزل من هذه القرى نزل به الركب هو قرية أوباري، والتي وصف المؤلف أهلها بالكرم والضيافة الحسنة للركب، بعدها حط الرحال بقرية جرمة والتي تحدث المؤلف عن كرم أهلها لينتقل الركب بعدها إلى قرية أخرى تسمى تكريب⁵¹⁷ ثم قرية أتساوة والتي تعتبر من أعظم قرى فزان ويظهر على المؤلف إعجابه بأهلها ما جعله يصفهم بأوصاف حسنة كا كرم أهلها وحسن وجوههم، ومحبتهم للحجيج حتى ذكر أنه لم ير في طريقه أناسا أشد حرصا على طلب البركة من الحاج والدعاء والتواضع مثل هؤلاء القوم، كما أثنى على مستواهم العلمي طريقة مناقشتهم للمسائل الفقهية . ليقلع الركب بعدها نحو قرية مرزوق وهي من الحواضر المهمة لإقليم فزان والتي تتميز بتقاليد راسخة في استقبال الحجيج⁵¹⁸.

بعد قضائه حوالي تسع ليال في إقليم فزان توجه الركب نحو قرية أترغن والتي عادة مايتزود فيها الحاج بالتمر لجودة نوعيته حيث نزل في زاوية الشيخ محمد بن تامر، والذي استقبلهم وأكرمهم، وفي اليوم الموالي انتقل الركب إلى زويلة التي سماها المؤلف قرية الشرفاء حيث مكث الركب بها ليلتين ليكمل مسيره بعدها نحو قرية تمسة والتي وصلها بعد نصف يوم.⁵¹⁹

⁵¹⁶ - الحاج محمد البشير البرتلي. المصدر السابق ، و 05

⁵¹⁷ - نفسه . و 06

⁵¹⁸ - نفسه . و 07

⁵¹⁹ - عبد العزي منير ومحمد باعثمان . المرجع السابق ، ص 12

قرية وجلة: سار الركب في طريق الهاروج مدة 12 يوما كاملة، وصولا إلى قرية وجلة، وهي قرية كثيرة النخل والأشجار، ومحطة مهمة من محطات ركائب الحج⁵²⁰ والتي زار فيها الملف قبور الصالحين مثل الفاتح عبد الله بن أبي سرح وزار كذلك خلوة الإمام زروق البرنسي وعرج على بعض مساجدها كذلك، وانضم بعض أهالي أوجلة إلى الركب يريدون الحج، وبعد مبيت دام ثلاث ليال توجه الركب نحو قرية جالو، والتي وصلها بعد مسيرة نصف يوم تقريبا حيث حل بها ليلة الـ 27 رمضان 1204هـ الموافقة ليلية القدر، فختم الركب القرآن الكريم بها، لينتقل الركب بعدها نحو قرية سيوى وهي آخر محطات الصحراء الليبية من طريق الحج الطويل⁵²¹، حيث مر بوادي قطمير حيث حل عليهم عيد الفطر المبارك بعد مسير يومين ماضطر الركب إلى التوقف لأداء شعيرة زكاة الفطر وصلاة العيد، ثم واصل السير في طريق صلبة كثيرة التعرجات، وصولا إلى مكان يسمى الطرفاوي و بعد تجاوزه وصل الركب إلى منهل الكيكيب المالح الماء، ثم انتقل إلى منهل الغزالية وهو منهل طيب الماء، وبعد المبيت به شد الرحال نحو قرية سيوة⁵²²، والتي أقام الركب بها ثلاثة أيام ليرحل عنها إلى موضع يسمى عين البقر للمبيت، بعدها نزل بقرية صغيرة تسمى أم الصغير، فلم يطل مقامهم بها لعدم اعتناء أهالي القرية بهم فانتقلوا سريعا إلى موضع آخر به عين ماء تسمى "أجديد"، ومنها إلى وادي كرب حيث بات الركب قرب عين الأرجام ورعت فيه إبلهم.⁵²³ لينتقل بعدها إلى وادي إسكاف الذي يشرف على مسلك جبلي كثير الالتواءات يؤدي إلى مجموعة وديان من بينها وادي الحديد وأيماجيف وأغرغر وتكرت وأسراس وجبل ألقج ووادي تهدين، وصولا إلى هضاب تسمى مزررن،

⁵²⁰ - محسن ولد المحبوبي . المرجع السابق ، ص 225

⁵²¹ - الخليل النحوي . المرجع السابق ، ص 47

⁵²² - عبد العزيز منير ومحمد باعثمان ، المرجع السابق ، ص 15

⁵²² - الحاج محمد البشير البرتلي .و 16

⁵²² - نفسه .و 18

⁵²³ - نفسه .و 19

حيث بات الركب في واد يقال له أفر وفي هذا الملك مر الركب على خيم قبيلة من الطوارق تسمى إهياون بالغوا في إكرامهم بالذبائح والألبان ليواصل السير عبر طريق وعرة ما جعلهم يبيتون ليلتين عند عيون المرابط أبي صلاح ليجتازوا بعدها مجموعة سباخ وصولاً إلى ماء اليهودية وهو منهل خبيث الماء وهو مشتهر عند الرحالة بسبب تسميته⁵²⁴

المرحلة الرابعة: الدخول إلى مصر: أول ما دخل الركب أرض مصر كانت قرية كرداسة، و كان ذلك في الـ 25 شوال 1204 هـ الموافق لـ 27 يونيو 1789م عبر وادي الرهبان، ثم سار عبر قرى الريف المصري وصولاً إلى نهر النيل، ليستقلوا السفن للعبور إلى الضفة الأخرى من النهر، وصولاً إلى طيلون حيث بات الركب سبع ليال ليرتحل في أعقاب الركب المصري يوم 02 ذي القعدة 1204 هـ الموافق لـ 04 جويلية 1789م مروراً بالحصباء والدار الحمراء وصولاً إلى قرية عجروود حيث وقف المؤلف على اهتمام العثمانيين بالحجاج خاصة ما تعلق بالسقاية كبناء الأحواض التي تملأ بالمياه العذبة⁵²⁵.

المرحلة الخامسة: الطريق من مصر إلى الحجاز

ب - نماذج من الرحلات الحجية البحرية:

01- رحلة جوزيف بيتس:

عندما تكون إحدى السفن جاهزة للإبحار إلى الإسكندرية، ينادي المنادي في مدينة الجزائر التي أعيش فيها معلناً ميعاد إقلاعها، وعندئذ ينتهز كل من نوى الحج في ذلك العام الفرصة -بسعادة- للسفر بحراً لأنه أقل إرهاقاً وتكلفة من السفر براً، وفي تلك السنة خرجت من

⁵²⁴ - نفسه . و 17.

⁵²⁵ - نفسه . 17 و 18.

الجزائر قاصدا مكة (المكرمة) فوصلنا للإسكندرية في غضون ثلاثين أو أربعين يوما وهي فترة معقولة⁵²⁶

الإسكندرية: وقد مكثنا في الإسكندرية زهاء عشرين يوما، لقد قدم لنا المؤرخون بلا شك الكثير من المعلومات عن الإسكندرية⁵²⁷

رشيد: وبعد أن قضينا في الإسكندرية حوالي عشرين يوما ركبنا البحر مرة أخرى إلى رشيد التي تبعد كما أظن حوالي فرسخين عن مجرى النيل الرئيسي الذي يسمى بحر النيل، وأظن أننا قطعنا من الإسكندرية حوالي خمسة فراسخ أو ستة في اتجاه الشرق قبل أن نصل إلى مصب النيل الشهير في المتوسط⁵²⁸

عن مصب النيل: وفي الغالب يكون مصب النيل خطرا جدا، مما يجعل السفن تبتعد عنه لأن النيل يجرف الرمال إلى البحر، مما يجعل السفن تضطر في بعض الأحيان للانتظار عشرة أيام أو اثني عشر يوما حتى يظهر المصب من هذه الرمال⁵²⁹

السويس: في طريقنا من القاهرة إلى مكة (المكرمة) وعند طرف البحر الأحمر وصلنا لمدينة السويس التي تبتعد عن القاهرة زهاء يوم، ولها ميناء ترسو به السفن المتجهة للديار المقدسة، والسفن هنا غريبة مميزة، فليس لها سطح وهي عميقة الغاطس وتملأ بالمؤن المتجهة لمكة، ولما علمنا ونحن في القاهرة أن هذه السفن (الموجودة في ميناء السويس) جاهزة للإقلاع زودنا أنفسنا بمؤن تكفينا أربعة أشهر، لتكفينا أيضا في رحلة عودتنا إلى للقاهرة.⁵³⁰

⁵²⁶ - جوزيف بتس. رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة ودراسة عبد

الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة، مصر، 1999م، ص 23

⁵²⁷ - نفسه. ص ص 23-24

⁵²⁸ - نفسه. ص 26

⁵²⁹ - نفسه. ص ص 27-28

⁵³⁰ - نفسه. ص 40

الطور: وبعد أن أبحرنا يومين أو ثلاثة من السويس رست سفينتنا في الطور وهي مدينة صغيرة جدا ذات ميناء حيث أنعشنا أنفسنا بالماء، ذلك أن كل مسافر يتحمل مسؤولية حصوله على مائه.⁵³¹

بئر فرعون: وبعد أن أبحرنا قليلا من الطور أردنا الموضع الذي عبر منه بنو إسرائيل البحر الأحمر ويسمونه بئر فرعون، ويعني المكان الذي غرق فيه فرعون ومن معه بعد عبور بني إسرائيل، ويقولون أنه مكان خطر جدا حتى إذا لم تهب عواصف هوجاء وذلك لوجود نوع من الدوامات البحرية تبتلع السفن.⁵³²

الإبحار في البحر الأحمر: والإبحار في البحر الأحمر غير آمن ليلا، إلا في موضع واحد لا يستغرق أكثر من ليلتين، وذلك بسبب كثرة الصخور التي ما نكاد ننتهي من رؤية بعضها حتى نرى بعضها الآخر، والبحر الأحمر ضيق حول السويس، ولما أبحرنا للطور كانت الصحراء قريبة عن يسارنا، ولم نر أي ساحل عن يميننا.⁵³³

المرباط: لقد مكثنا مبحرين في هذا البحر زهاء شهر، وكنا قد أبحرنا من السويس حوالي عشرين يوما فوصلنا لموضع دفن (مقام) المرباط، ويعني المجاهد في سبيل الله.⁵³⁴

02- الطريق الذي سلكه ابن عثمان المكناسي: لقد غادر ابن عثمان المكناسي والوفد

المرافق له مدينة الرباط في الفاتح من محرم 1200هـ/04 تشرين (نوفمبر) 1785م ، في اتجاه مدينة تطوان⁵³⁵، ويؤكد ابن عثمان أن شدة هيجان البحر حالت دون ركوبهم البحر، حيث يذكر ذلك بقوله "... فلما وصلنا تطوان لم يتمكن للمركب قدوم لشدة هيجان

⁵³¹ - نفسه ، ص: 41.

⁵³² - نفسه ، ص: 42.

⁵³³ - نفسه ، ص: 43.

⁵³⁴ - نفسه ، ص: 44.

⁵³⁵ - مصطفى الغاشي. المرجع السابق، ص 420

البحر في ذلك الأوان، وقد كان فصل الشتاء..⁵³⁶، وبعد أن أقاموا مدة من أربعة أشهر ونصف الشهر. توجه الوفد إلى مدينة طنجة التي أقام بها شهرا ونصف الشهر، وفي 02 رجب استقل مركبا إسبانيا بعثه ملك إسبانيا استجابة لرغبة السلطان سيدي محمد بن عبد الله لينقلهم إلى قرطاجنة الإسبانية⁵³⁷، وعلى ما يذكر فقد ركب الوفد سفينة حربية كبيرة أبحرت باتجاه القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية وقد وصلوها في 04 شوال 1200هـ/1785م⁵³⁸، وبعد الانتهاء من المهمة التي قدم الوفد من أجلها إلى إسطنبول، وبعد تجهيزه بما يحتاج إليه في الطريق، غادر الوفد العاصمة التركية يوم 23 رجب 1201هـ/1786م. مخترقا الأناضول وبلاد الشام مرورا بعدة مدن وقرى (مدينة السكوت، مدينة اسك شاهر، أدرنة، قرية اسكندرون، أنطاكية، حماة، حمص، ودمشق)⁵³⁹، ويذكر ابن عثمان أن الوفد مكث بمدينة دمشق السورية ثمانية وثلاثين يوما ثم غادرها ليلة 19 شوال باتجاه الحجاز⁵⁴⁰، وقبل أن يصل إلى الحجاز مر الركب على قرية ذي النور، ووادي الشور، وقرية معان، والعقبة، وبلدة تبوك، ومدائن صالح ثم المدينة المنورة، وبعد أداء الزيارة توجه الوفد إلى مكة المكرمة⁵⁴¹، والتي دخلها عند الضحى من اليوم السابع من ذي الحجة سنة 1020هـ، والذي يوافق 07 سبتمبر من عام 1788م⁵⁴²، وظل بها إلى غاية 27 منه ليبدأ طريق العودة. وقد كان خروج الوفد من مكة المكرمة مع الركب الشامي باتجاه المدينة ومنها إلى دمشق حيث يذكر ذلك بقوله "...فبقينا مدة مقامنا بمكة ونحن ملازمين للبيت، حتى تعين السفر مع ركب حجاج الشام إذ نفر، ورجعنا أدراجنا نفري المعالم والمجاهل..⁵⁴³" وفي يوم 09 ربيع الأول توجه الوفد إلى مدينة عكا التي ظل بها مدة تسعة أيام في انتظار قدوم السفينة التي سوف تقل الوفد، وخلال الإقامة بعكا زار الوفد مدينتي القدس الشريف والخليل، وفي 29 ربيع الثاني غادر الوفد ميناء عكا على ظهر سفينة حملته إلى جزيرة قبرص التي أقام بها نحو عشرة أيام، ثم تحركت السفينة

⁵³⁶ - ابن عثمان المكناسي . الإحراز ،المصدر السابق ،ص 51

⁵³⁷ - مصطفى الغاشي . المرجع السابق ،ص 422

⁵³⁸ - ابن عثمان المكناسي . الإحراز ،المصدر السابق ،ص 55

⁵³⁹ - مصطفى الغاشي . المرجع السابق ،ص 425

⁵⁴⁰ - ابن عثمان المكناسي . الإحراز ،المصدر السابق ،ص 150

⁵⁴¹ - مصطفى الغاشي . المرجع السابق ،ص 400

⁵⁴² - عبد الهادي التازي . المرجع السابق ،ص 402

⁵⁴³ - ابن عثمان المكناسي . الإحراز ،المصدر السابق ،ص 256

باتجاه تونس حيث تنتهي الرحلة البحرية ، وذلك أن الوفد قرر الدخول إلى المغرب عن طريق البر⁵⁴⁴.

03: الطريق الذي سلكه أبو القاسم الزياني: حج الزياني حجته الثانية بمفرده سنة 1206هـ /1792م، في عهد المولى سليمان. هذا بعدما كان حج مع والده قبلها ،حيث يمكننا تقسيم رحلته إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: كانت بداية رحلته من مدينة تلمسان ، ثم الجزائر ومنها لقسنطينة، ثم إلى تونس التي وصلها في الأول من جمادى الأولى 1208هـ/05 ديسمبر 1793⁵⁴⁵، ومن تونس سافر إلى الإصطمبول بقصد السفر في درب الرومي لمشاهدته وخبر مابه من المنازل والمدن الموجودة بالشام.

المرحلة الثانية: حيث رافق أمين الصرة في درب الروم ، وذكر منازل ومدنه ومشاهداته في إقليم الشام. بدأوا سفرهم بمنزل يقال له: الإسكدار ومنها أخرج آفاق الأناضول رفقة ركب المحمل الشريف مارين بعدة قرى ذكر منها: قرية قرضل ،سقالة الديل ، قرية جارسك كولي: خان الوزير ،السكوت ، قرية سيدي الغازي ،خصوم باشي ،بياض كولي ،بلودم ،آق شهر ،القين ،اللاذن، قرية اسمل ، قرية قربناز ، اركلة ، وادي قشلة مقطع شفر خان ، قرية اوابل ، ثم مدينة اذنة ، ثم مدينة حماة بعدها مدينة حمص ثم دمشق بعدها مباشرة الى بلاد الحجاز⁵⁴⁶

بعد أدائه مناسك الحج ومقامه بمكة وما لقيه بها من الأمراء والأعيان وذكر مزاراتها قرر الرجوع.

المرحلة الثالثة: الأوبة الى بلاد المغرب: الوصول إلى تونس: وفي ذلك يقول "...ولما بلغنا لتونس الخضرا ، ومعنا جماعة من الحجاج الفقرا...وبعد يومين جاءنا الإذن بالنزول إلى (الكرنطينة) الشنعا ، فنزلنا بقلعة تيكلي...."⁵⁴⁷

،وبعدما أكمل عدة الكرنتينة نزل بتونس ،ومنها توجه برا الى الجزائر التي دخلها عبر مدينة قسنطينة ،ثم توجه إلى مدينة الجزائر التي أقام بها سبعة اشهر⁵⁴⁸:"..إلى أن فتح الله

⁵⁴⁴ - مصطفى الغاشي . المرجع السابق ، ص 428

⁵⁴⁵ - مولاي بلحميسي .الجزائر من خلال الرحالة المغربية ، ص 183

⁵⁴⁶ - أبو القاسم الزياني . الترجمانة ، مصدر السابق ، ص ص 175، 183

⁵⁴⁷ - نفسه . ص 363

⁵⁴⁸ - نفسه . ص 374

⁵⁴⁹ عليه برد بضاعته..."،وبعدما كانت نيته الاستقرار بتلمسان جاءه أمر شريف من السلطان المولى سليمان بالرجوع الى وطنه ليجتمع شمله بأهله.⁵⁵⁰

⁵⁴⁹ - نفسه . ص 379

⁵⁵⁰ - مولاى بلحميسي . الجزائر من خلال الرحالة المغاربة ، ص ص 194-195

المبحث الثالث: جهود السلطة المركزية في تنظيم وإدارة الحج

أولاً : أمير الركب (الولاية والمهام):

تكوين قافلة الحج: لقد عرّف ركب الحج المغربي الرسمي خلال القرنين الـ 17 والـ 18 الميلاديين، مزيداً من العناية والتنظيم، شأنه في ذلك شأن الرحلات الحجازية عموماً، وإن مما يميز رحلة الركب خلال هذه الفترة دقة التنظيم والمبالغة في الاحتفاء والتكريم، وقد كان لذلك أثره الكبير في اتساع ركب الحج في كامل بلدان المغرب حيث نشأت ركائب مختلفة، بما فيها أركاب الدولة التي تعد ركاباً رسمية⁵⁵¹.

وبشكل عام لم تكن قوافل الحج خلال الفترة العثمانية تختلف في تكوينها الإداري والتنظيمي عن القوافل التي كانت تُنظم في الفترة السابقة لها، إلا في أمور بسيطة اقتضتها الظروف المحلية التي تتحكم في تنظيم تلك القوافل. وعليه؛ فإنه يمكن أن نشير إلى أن قافلة الحجاج كانت تتكون مما يلي: أمير الركب - نائب أمير الركب.

02- شروط ومراسيم تعيين " الإمارة على ركب الحج " قال النبي صلى الله عليه وسلم: "...إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم.."، فأوجب النبي صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، منبهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع؛ فتعين بذلك التأشير على حجاج بيت الله الحرام شرعاً.

وبما أن إمارة الحج جماعية، فإنه كان واجباً على ولي الأمر البحث عن المستحقين المؤهلين للولايات التي يجتمع فيها العلماء والفقهاء والأولياء والصلحاء.

فإمارة ركب الحج تعتبر ولاية، وهذه الولاية ضربان: - أحدهما أن تكون على تسيير الحجاج، والثاني على إقامة الحجاج⁵⁵².

و في السنة التاسعة وفد إلى مكة حجاج المدينة من المهاجرين والأنصار والقبائل تحت إمارة أبي بكر، فكان أول أمير للحج في الإسلام.⁵⁵³

⁵⁵¹ - محمد المنوني . المرجع السابق ، ص 09

⁵⁵² - أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي ، الأحكام السلطانية ، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي ، دار الكتب

العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1421هـ/2000م، ص106

والذي يهمنا نحن في موضوعنا هي: الأولى، أي "الولاية السياسية"، والتي تُعنى بتسيير الحج، فهي إذن كما ذكرنا ولاية سياسية، وتدبيراً من أجل المراتب الدينية، وأعم الوظائف؛ لأن متوليها يقود جموع المسلمين في أداء مناسكهم، وينوب عن ولي الأمر في خدمة الحرمين الشريفين.

وفي هذا يقول الماوردي في الأحكام السلطانية: "... فأما تسيير الحج فهو ولاية سياسية، وزعامة وتدبير، والشروط المعتبرة في المولى: أن يكون مطاعاً، ذا رأي وشجاعة، وهيبة وهداية..."

والذي عليه من حقوق هذه الولاية عشرة أشياء:

أحدهما: جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لايتفرقوا، فيخاف عليهم التوى⁵⁵⁴ والتغريير.

الثاني: رتيبهم في المسير والنزول، بإعطاء كل طائفة منهم مقاداً⁵⁵⁵، حتى يعرف كل قوم منهم مقاده إذا سار، ويألف مكانه إذا نزل، فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه.

الثالث: أن يرفق بهم في السير حتى لايعجز عن ضعيفهم، ولايضل عنه منقطعهم - روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "...المضعف أميراً لرفقه..."⁵⁵⁶، يريد من ضعفت دابته. كان على القوم أن يسيروا بسيره.

الرابع: أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها، ويتجنب أوعرها وأجذبها.

الخامس: أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت، والمراعي إذا قلت

⁵⁵³ - أحمد السباعي ، تاريخ مكة - دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران ، ج1، مكتبة الملك فهد الوطنية ، المملكة العربية السعودية ، 1419هـ/1999م، ص 101

⁵⁵⁴ - التوى: بفتح التاء المثناة ، الهلاك .من توى بوزن "رضى" أي هلك ، وأتواه الله : أهلكه .

⁵⁵⁵ - المقاد : بفتح الميم ، من قولك : اعطيته مقادتي ، أي انقدت له ، أو على وزن كتاب : الحبل الذي يقاد به ، يريد أن يعرف كل واحد منهم رئيسه الذي هو تابع له وجماعته التي انضم اليها ، وقافلته التي يسير فيها .

⁵⁵⁶ - والمضعف بضم الميم وسكون الضاد وكسر العين ، قال في النهاية وفي حديث خبير "من كان مضعفاً فليرجع"، أي من كانت دابته ضعيفة .، ويقال : أضعف فهو مضعف : إذا ضعفت دابته ، ومنه حديث عمر المضعف أمير على أصحابه "يعني في السفر "

السادس: أن يحرسهم إذا نزلوا، ويحوطهم إذا رحلوا، حتى لا يتخطفهم داغل⁵⁵⁷، ولا يطمع فيهم متلصص.

السابع: أن يمنع عنهم من يصددهم عن المسير، ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج بقتال. إن قدر عليه، ويبذل مال إن أجاب الحجيج إليه، ولا يسعه أن يجبر أحدا على بذل الخفارة إن امتنع منها حتى يكون باذلا لها عفوا، ومجيبا لها طوعا، فإن بذل المال على التمكين من الحج لا يجب.

الثامن: أن يصلح بين المتشاجرين، ويتوسط بين المتنازعين، ولا يتعرض للحكم بينهم إجبارا، إلا أن يفوض إليه الحكم، فيعتبر فيه أن يكون من أهله فيجوز له حينئذ أن يحكم بينهم.

التاسع: أن يقوم زائغهم، ويؤدب جانيهم، ولا يتجاوز التعزير إلى الحد، إلا أن يؤذن له فيه فيستوفي إذا كان من أهل الإجتهد.

العاشر: أن يراعي اتساع الوقت حتى يؤمن الفوات، ولا يلجئهم ضيقه إلى الحث في السير. وإذا وصل الحجيج إلى مكة، فمن لم يكن على العود منهم فقد زال عنه ولاية الوالي على الحجيج. فلم يكن له عليه يد، ومن كان منهم على العود فهو تحت ولايته وملتزم بأحكام طاعته.⁵⁵⁸

وإذا قضى الناس حجهم أمهلهم الأيام التي جرت بها العادة في انجاز علائقهم، ولا يرهقهم في الخروج. فيضر بهم.⁵⁵⁹

وأضاف الجزيري، إلى ماسبق من شروط: توافر الورع والتقوى، وأن يكون متصفا بالاستقامة والأفعال المرضية، عالما بأحكام الحج.⁵⁶⁰

⁵⁵⁷ - جاء في القاموس : أدغل به : خانه واغتاله ، وفي الأمر أدخل عليه ما يفسده ، والداعر : الخبيث الفاسق ، والداعر بالغين المعجمة من الدغرة بفتح الدال وسكون الغين : أخذ الشيء اختلاسا .

⁵⁵⁸ - أبو يعلى محمد بن الحسين الماوردي . المصدر السابق ، ص 109-110

⁵⁵⁹ - نفسه ، ص 110

⁵⁶⁰ - محمد بن عبد القادر الجزيري ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، تحقيق محمد حسن

إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2002 ، ص 43

وإضافة إلى الشروط التي ينبغي توافرها في أمير لركب، فإنه عليه واجبات يلزمه القيام بها منها:

- أن يجمع الناس في حلهم وترحالهم حتى لايتفرقوا، وأن يحصيهم في كل مراحل الحج.
- أن يسهر على عملية الترتيب في المسير والنزول بتوزيعهم على مجموعة من القواد، وذلك حتى لايتنازعو ولا يضلوا.
- أن يرفق في المسير حتى لايعجز الضعيف ولا يضل عنه المنقطع.
- أن يسلك بهم أسهل الطرق، ويتجنب أوعرها وأضيقتها.
- أن يبحث عن الماء إذا فقد، والمراعي إذا قلت.
- أن يحرسهم عند حلهم، ويحوطهم بأتباعه وحرسه إذا ساروا حتى لايتسلط عليهم عابث أو مفسد.

- أن يمنع عنهم من يصددهم عن المسير، ويدفع عنهم قطاع الطرق واللصوص
- أن يصلح بين المتشاجرين، ويتوسط بالقسط بين المتنازعين.
- أن 'يقوم زائغهم، ويؤدب خائنهم، بإقامة الحد عليه، أما إذا دخل الركب بلدا إقامة الحد، فوالي ذلك البلد هو من يقيم الحد.⁵⁶¹

وهذا مثال عن أهمية أمير الحج ودوره في الإشراف على الركب وتسيير شؤونه "... وكان تربصهم بفاس في الاجتماع أكثر من الشهرين، وأمير الركب يتفقددهم بنفسه، ويبسط نعمه، ويأخذ بيدهم في مصالحهم، وأهل فاس يتبركون بهم وبخيارهم. وأما في السفر فأمر الركب لايسير إلا بالهوية، ولايطول في المشي، لأن غالب الركب الرجلي والنساء والصبيان والأشياخ الكبار. ويتفقد أحوالهم في المشي والنزول، لأن غالبهم الضعفاء والمساكين، فيقر على كل مايناسبه من الزاد كل يوم بحسبه، وكذا الركوب، والكل ذهابا وإيابا، لأن أمير

⁵⁶¹ - نفسه ، ص43

الركب في كل زمانه لا يكون إلا بفاس، إلا ممن كانت ثروته، وحسنت سيرته مع الخلق ومع مولاه، وكان له مايقوم به ركب الحاج ذهابا وإيابا...⁵⁶²

03- مهام أمير الحج: لقد تعددت الوظائف المسندة إلى أمير الحج خلال الفترة العثمانية. ويمكن أن نشير إليها فيما يلي باختصار:

أ-المهام الإدارية:كان على أمير الحج قيادة القافلة بحكم وظيفته كقائد أعلى لها. هذا بجانب ترتيب عمليات شراء ونقل المؤن المرسله مع القافلة أو التي رسل قبل رحيلها إلى الحصون الواقعة على طول طريق الحج، الإشراف على توزيعها أثناء الرحلة⁵⁶³. وجمع الناس في مسيرهم حنتفروا ويسلك بهم أوضح الطرق ويراعي اتساع الوقت⁵⁶⁴.

ب-المهام المالية:كان على أمير الحج أن يقوم بنقل وتسليم الإعانات النقدية والعينية المرسله سنويا من الخزانة المالية لأهالي الحرمين الشريفين، وترتيبها أو توزيعها أثناء إقامة القافلة في مكة والمدينة. كما كان عليه أيضا أن يقوم بتوزيع الإتاوات النقدية والعينية على شيوخ وأمرأ البدو القاطنين على طريق الحج لتأمين الحماية للقافلة. ويتحمل مسؤولية كل ما يجبرفره أثناء السفر⁵⁶⁵.

ج-المهام القضائية:وتمثلت في فضّ النزاعات بين الحجاج. حيث كان ينزل أمير الحج ويتعرف على شكوى الحجاج فيصلح بينهم. وإن كانت الخصومة شرعية أحال المتخاصمين إلى قاضي المحمل. أما إذا كان التنازع الحجاج وأهل البلد فلا يحكم بينهم إلا حاكم البلد أو المنطقة المتواجدين فيها⁵⁶⁶.

⁵⁶² - محمد بن عبد الكبير بن هاشم الكتاني . مصدر سابق ، ص299.

⁵⁶³ - مريم بلال ، المرجع السابق ، ص 106.

⁵⁶⁴ - محمد بن عبد القادر الجزيري. المصدر السابق، ص135

⁵⁶⁵ - إبراهيم رفعت باشا . المصدر السابق ، ج2 ، ص ص 156 158

⁵⁶⁶ - محمد بن عبد القادر الجزيري، المصدر السابق ، ص ص 135 155.

د-المهام الاجتماعية:كان على أمير الحج النظر في أمر الفقراء بالقافلة، خصوصا المشاة والمرضى وكذلك تفقد أحوالهم. كما كان عليه أيضا الرفق بالحجاج فإذا كان الوقت حاراً أو بارداً صبر بهم عن الرحيل حتى يعتدل الوقت، ويسلك بهم أوضح الطرق⁵⁶⁷.

هـ-المهام الدينية:وتتمثل في إلزام الحجاج بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها ولو بالجمع بين الصلاتين المجموعتين في وقت واحد، ولا يسمح لأحد أن يصلي صلاة الليل بالنهار وصلاة النهار بالليل⁵⁶⁸.

و-المهام العسكرية:وهي من أهم مهام أمير الحج إذ كان عليه فرض الحماية على الحجاج أثناء الرحلة. فقوافل الحج كانت دائماً بحاجة إلى حماية عسكرية على طول الطريق إلى الحرمين الشريفين، خاصة من القبائل العربية المنتشرة على طول الطريق ومن القبائل المحاذية الضاربة في إقليم الحجاز من ناحية أخرى⁵⁶⁹.

-أن يراعي الوقت حتى لايفوتهم الحج. وإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام، وإقامة السنن، وإن كان في متسع من الوقت سار بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى المناسك، أما إذا كن الوقت ضيقا سار بهم إلى عرفة حتى يدركوا الحج⁵⁷⁰.

أمير الركب هو الوحيد المخول له توجيه الأوامر المتعلقة بارتحال الركب أو نزوله في منازل الطريق المتعددة، كأن يأمر -مثلا- بالتوقف عن المسير من أجل الصلاة المكتوبة، أو لأجل الراحة، أو اعداد الغذاء، أو التزود بالماء.⁵⁷¹

ويستغل أمير الركب ذلك التوقف فينعزل أحيانا عن الحجاج بمعية مستشاريه، للتشاور في غرض خاص، أو في غرض علم يعود نفعه على الركب بأكمله.⁵⁷²

⁵⁶⁷ - نفسه ص140

⁵⁶⁸ - نفسه ص14

⁵⁶⁹ - إبراهيم رفعت باشا، ج 2، ص 298.

⁵⁷⁰ - نفسه ، ص299.

⁵⁷¹ - القيسي السراج ، المصدر السابق ، ص :38.

⁵⁷² - الحسين الورثياني ، المصدر السابق ، ص93.

ومن مهام الأمير كذلك أن يسهل على الحجاج عملية كراء الدور أو الغرف في الخانات، حيث نزولهم الطويل في بعض المدن.⁵⁷³

وعلاوة على هذه المهام التي يتحملها أمير الحج تجاه الحجاج، كانت هناك مسؤولية أخرى تنتظره في الحجاز، حيث توجد النزاعات والخصومات بين شريف مكة ومنافسيه من الأشراف. وكانت الدولة العمانية تتدخل عن طريق أمير الحج في تلك النزاعات. فقد كانوا يهابون ويقدرّون أمير الحج لأنه كان يقود معه إلى الحجاز قوة عسكرية كفيلة بترجيح الجانب الذي ينحاز إليه⁵⁷⁴ و هكذا نرى أن مهمة أمير الحج لم تكن سهلة إذ كان مسؤولاً مسؤولية كبيرة نحو القافلة والحجاج وتعتبر من أخطر المسؤوليات إذ إن مصيره يتوقف على نجاحه أو فشله في النهوض بتلك المسؤولية.

04-مراسيم تعيين أمير الركب: اتسمت مراسيم تعيين أمير الحج، في عهد بعض الدول الإسلامية كالمملوكية مثلاً بالعديد من الترتيبات التي طرأت على هذه الوظيفة ؛ حيث كان السلطان المملوكي هو الذي يعين أمير الحاج في كل عام، وكان على قافلة الحاج أمير واحد يتولى أمر الركب.

وتغير الأمر في أواخر القرن الثامن الهجري، بظهور ما يسمى ب " " أمير الركب الأول " و "أمير المحمل ". وكان أمير الركب الأول أقل رتبة من أمير المحمل ؛ إذ كان غالباً أمير عشرة⁵⁷⁵، بينما كان أمير الحاج أمير مكة.⁵⁷⁶

وعادة ما كان يتم تعيين أمير الحاج في شهر ربيع الأول فيما يعرف بيوم المولد النبوي، وكان هذا اليوم جديراً بعناية سلاطين مصر ؛ إذ كان يتلى فيه القرآن الكريم وسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتقام فيه الألعاب الترفيهية. وعندما يتم اختيار أمير الحاج من قبل السلطان يدار مشروب السكر على الحضر ؛ فيشرب السلطان، ثم يعطي إشارة

⁵⁷³ - عبد الرحمان المجاجي ، المصدر السابق ، و: 04.

⁵⁷⁴ - احمد الرشدي ، حسن الصفا والابتهاج الرشدي ، المصدر السابق ، ص ص 68-69.

⁵⁷⁵ - القلقشندي . صبح الأعشى ، المصدر السابق ، ج 04، ص 14

⁵⁷⁶ - أمير المائة كانت هذه المرتبة تمثل أعلى مراتب العسكريين في الدولة الأيوبية ، وقد ظل أمير المائة في عصر المماليك يمثل أعلى طبقات الأمراء في الجيش المملوكي ، للمزيد ينظر القلقشندي ، مصدر سابق ، ج 04، ص 14

لحامليه إلى من اختاره أميرا للحاج في تلك السنة. وعند وصول المشروب يفهم الإشارة، وينهض على قدميه مسرعا لتقبيل يد السلطان، ثم يأتي بعده الأمراء للتهنئة على هذا الاختيار.⁵⁷⁷

أما في العصر العثماني فكان يتم تعيين أمير الحج بموجب خط شريف⁵⁷⁸ يبعث به السلطان على يد قابجي باشي⁵⁷⁹ (Kapicbasi)، أوجوخدار⁵⁸⁰ (Cuhadar)، وكان على الأغا حين وصوله إلى مصر ولاية أخرى، يتجه إلى القلعة لتسليم الخط الشريف للباشا. وبعد هذا التسلم يعقد الباشا جلسة الديوان للخلع على أمير الحج. ففي الجلسة كان يقرأ كاتب الديوان الخط الشريف على مسمع كل من حضر من الأغوات والسناجق وأمير الحج ومعاونيه. وبعد قراءة الخطالهمايوني، يخلع الباشا الخلعة⁵⁸¹ على من عينه السلطان أميرا للحج⁵⁸².

كانت الدولة العثمانية مسؤولة على إدارة قوافل الحج وما فيها من الصدقات المرسلّة إلى الحرمين الشريفين وما تحمله من غلال، فضلا من أرواح الحجاج فكان السلطان يعين أهم موظف على رأس قافلة الحج، هو أمير الحج الذي يكون المسؤول الأول عليها ويختار بعناية فائقة من بين أهم الشخصيات⁵⁸³. وكانت هذه الوظيفة قبل بداية الحكم العثماني لبلاد الشام ومصر والحجاز، تسند إلى أعظم شخصية بين وفود الحجاج سواء من مصر أو من

⁵⁷⁷ - محمد بن عبد القادر الجزيري . مصدر سابق ، ج1، ص 287

⁵⁷⁸ - خط شريف: هو الأمر الصادر من السلطان إذا كتبه بيده أو حرره الكتاب وأمضاه السلطان بيده لا بخاتمه كما يطلق أيضا على كل وثيقة تصدر من الديوان الهمايوني إذا كتب أعلاه السلطان، للمزيد ينظر : فهمي ، ص 153.

⁵⁷⁹ - قابجي باشي وهي فرقة القابجية، فالقابجي هو البواب يحرس باب الديوان الحكومي، وله مهام أخرى تتمثل في توظيفهم في حفلات الاستقبال بالقصر السلطاني، سهيل صابان، المعجم الموسوعي، المرجع السابق ، ص 171.

⁵⁸⁰ - جوخادار ومعناه فتان القصر السلطاني ثم أصبح يطلق على رسول السلطان أو الوالي، مريم بلال ، المرجع نفسه، ص 88 .

⁵⁸¹ - الخلعة: وهي عبارة عن ثوب التشريف وتميزت في العصر العثماني كلباس مزين يمنح لبار الموظفين واعيان الولاية في المناسبات والأعياد الدينية ، للمزيد ينظر ، فهمي بيومي ، ص154، وكذلك سميرة فهمي ، المرجع السابق ص 164.

⁵⁸² - نفسه، ص 103.

⁵⁸³ - محمد فهمي بيومي، ص 163

الشام أو العراق أو مكة. لكن خلال العهد العثماني أصبح هناك أميران فقط وهما: أمير الحج الشامي وأمير الحج المصري⁵⁸⁴. ونتيجة اهتمام الدولة العثمانية اهتماماً واضحاً بإمارة الحج، وحرصها على ذلك كان يتم تعيين أمير الحج كلّ عام ليخرج على رأس القافلة. ولا شك أنّ إمارة الحج لم تأخذ شكلاً واحداً في كافة العصور. بل تطورت من عصر إلى آخر. ففي القرن السادس عشر منح منصب إمارة الحج إلى اثنين من الموظفين المدنيين الأول: لم يكن من المماليك ولا رومياً، بل كان موظفاً في الدولة العثمانية. وكان أول من قاد الحجاج كقافلة واحدة في العصر العثماني. وأما الثاني: فقد كان ناظرًا للحسبة.

أما في فترة القوة والانتصارات العسكرية التي أحرزتها الدولة العثمانية من عام 925هـ - 1519م إلى نهاية القرن السادس عشر، فقد أسندت فيها إمارة الحج إلى أشخاص مختلفين في النوعية من باشوات ومشايخ بدو وغيرهم بعيداً عن الوظائف العسكرية⁵⁸⁵.

وأما في القرن السابع عشر، فمن المعلوم أنّ هذه الفترة شهدت بداية اختلال نظام الإدارة العثمانية في مصر والأقاليم الشامية. وعود النفوذ إلى القوى المحلية الممثلة في أمراء المماليك وأتباعهم، والسيطرة على أهم المناصب. ومن بين المناصب التي أصبح لهم حق توليتها هي وظائف عسكرية كالبعثات للبدو لتأديبهم، والحملات المرسلّة بأمر السلطان لمحاربة الأوروبيين أو الفرس أو الإشراف على الجزية السنوية، وأيضا الإشراف على قافلة الحج. وكان يدعى "أمير الحج" ونظراً لتعرض قوافل الحج إلى اعتداءات البدو بشكل زائد خلال ها القرن، فقد اضطرت الدولة إلى إسناد وظيفة إمارة الحج الى عسكريين.⁵⁸⁶ كما تميز هذا القرن ب بروز التنافس حول هذا المنصب الذي يعد رمزاً للقوة والنفوذ. وذلك لأنّ منصب إمارة الحج كان من المناصب المهمة والعليا في الدولة العثمانية. إذ كان يلي منصب الباشا والدفتردار في الأهمية⁵⁸⁷. وفي القرن الثامن عشر فإنّ منصب إمارة الحج تأرجح بين أيدي أفراد البيوتات الكبيرة والمتنفذة. فالبيت الأقوى هو دائماً المستحوذ على هذا المنصب.

⁵⁸⁴ - شاهين مرجع السابق، ص 67.

⁵⁸⁵ - محمد فهمي بيومي. المرجع السابق، ص 70.

⁵⁸⁶ - عبد الرحمن الجبرتي. عجائب الآثار في التراجم والإخبار. ج 02، ص 265.

⁵⁸⁷ - محمد فهمي بيومي. المرجع السابق، ص 78.

وصاحب ذلك تدخل الانكشارية بثوراتهم لتأييد مناصريهم، واستمر الصراع حوله وتدير الدسائس والمؤامرات لتولي هذا المنصب. كما شهد هذا العصر فتناً كبيرة بين البدو انتهت الصراعات كبيرة. ولم يكن للسلطان العثماني إلا الموافقة على ذلك اجتناباً للاضطرابات فأصبحت مدة تولية هذا المنصب قصيرة، حتى أنها لم تكن تتجاوز أحياناً أربعين يوماً. وأصبح الأغوات والباشوات أمراء السناجق هم من يجتمعون لتعيين أمير الحج. كما اتصف أمير الحج بعدم تأدية واجباته على أكمل وجه كامتناعه على دفع العوائد القبائل وبدو الطرق في موسم الحج، مما سبب مشاقاً كبيرة للحجاج⁵⁸⁸.

أما في العصر العثماني فكان يتم تعيين أمير الحج بموجب خط شريف⁵⁸⁹ يبعث به السلطان على يد قابجي باشي (Kapicbasi⁵⁹⁰) أوجوخدار (Cuhadar⁵⁹¹)، وكان على الأغا حين وصوله إلى مصر ولاية أخرى، يتجه إلى القلعة لتسليم الخط الشريف للباشا. وبعد هذا التسلم يعقد الباشا جلسة الديوان للخلع على أمير الحج. ففي الجلسة كان يقرأ كاتب الديوان الخط الشريف على مسمع كل من حضر من الأغوات والسناجق وأمير الحج ومعاونيه. وبعد قراءة الخط همايوني، يخلع الباشا الخلعة⁵⁹² على من عينه السلطان أميراً للحج⁵⁹³.

د-الموارد المالية لأمر الحج: كان لأمر الحج إيرادات كثيرة من موارد متعددة وكانت تتمثل فيما يلي:

⁵⁸⁸ - محمد فهمي بيومي. المرجع السابق، ص 171

⁵⁸⁹ - خط شريف: هو الأمر الصادر من السلطان إذا كتبه بيده أو حرره الكتاب وأمضاه السلطان بيده لا بخاتمه كما يطلق أيضاً على كل وثيقة تصدر من الديوان الهمايوني إذا كتب أعلاه السلطان، للمزيد ينظر، فهمي سميرة علي، المرجع السابق، ص 153

⁵⁹⁰ - قابجي باشي: وهي فرقة القابجية، فالقابجي هو البواب يحرس باب الديوان الحكومي، وله مهام أخرى تتمثل في توظيفهم في حفلات الاستقبال بالقصر السلطاني، صابان، المعجم الموسوعي، ص 171

⁵⁹¹ - سميرة فهمي علي. المرجع السابق، ص 154

⁵⁹² - الخلعة: وهي عبارة عن ثوب التشريف وتميزت في العصر العثماني كلباس مزين يمنح لبار الموظفين واعيان الولاية في المناسبات والأعياد الدينية، سميرة فهمي علي، المرجع السابق، ص 154.

⁵⁹³ - سميرة فهمي محمد علي، المرجع السابق، ص 103.

- خزائن المالية التابعة للدولة: كان أمير الحج كواحد من أمراء الطَّبْلُخَاة يستلم من الخزينة سواء العثمانية المصرية أو الشامية راتباً سنوياً يسمى سَالْيَانَة⁵⁹⁴ selyane بالإضافة إلى مدفوعات أخرى تعطى له من الخزينة أيضاً لسد نفقات المهام المكلف بها⁵⁹⁵.

- مساعدات الأوقاف: كانت المبالغ التي تأتي من هذه المساعدة عبارة عن تسهيلات تقوم بها الخزينة بضمان وقف بعض القرى، وتحصيل التزامها لحساب الخزينة، ثم تحويل دخول هذه الأوقاف لأمرأ الحج. وأحياناً تكون هذه الأوقاف إيرادات عينية مثل محاصيل القمح والفول والسكر⁵⁹⁶.

- إيرادات من الخزينة الإرسالية: الخزينة الإرسالية وهي فائض واردات ولايات الدولة العثمانية، أو المال المرسل إلى السلطان. ويخصص مبلغ منها إلى أمير الحج. وكانت هذه المخصصات في الغالب ثابتة، حيث كانت تقدر بـ: 110.000 ليرة⁵⁹⁷.

- إيرادات من ضريبة الحماية على البن والبهارات: نظراً لضغط أمراء الحج الذي لم يتوقف عن طلب الزيادة، وكذلك نظراً لأعباء المالية الواقعة على كاهل الخزينة اضطرت الدولة العثمانية بأمر ولاتها بالسماح لأمراء الحج بفرض ضريبة تعرف بضريبة الحماية على البن والبهارات. وكانت مقدارها قطعة ذهب واحدة على كل فرد من البن والتوابل⁵⁹⁸.

- إيرادات مقررة على أمير مكة وينبع: كان للأمير الحج عوائد نقدية كبيرة من أمير مكة وينبع تقدر بمبلغ ألفي دينار كما كان له عليهما عوائد عينية من أغنام ومواشي. وكانت هذه العوائد لم تكن ثابتة طيلة الفترة العثمانية إنما كانت تتقطع عند حصول خلاف بين أمراء الحج وأشرف مكة⁵⁹⁹.

594- ساليانة: كلمة فارسية تعني سنة، وساليانة تعني سنوية وهي تعبير يطلق على المرتب السنوي الذي يصرفه الباشا

على كبار الموظفين، للمزيد ينظر ، سميرة فهمي علي عمر ، المرجع السابق ، ص.156

595- محمد بن عبد القادر الجزيري ، المصدر السابق ، ص 162.

596- فهمي بيومي. المرجع السابق ، ص 190، 191.

597- سميرة فهمي علي . المرجع السابق ، ص 112.

598- فهمي بيومي. المرجع السابق ، ص 193.

599- محمد بن عبد القادر الجزيري ، المصدر السابق ، ص 161

وعلاوة على هذه الإيرادات التي كان أمير الحج يحصل عليها، كان يحصل أيضا على إيرادات أخرى من موارد متنوعة. فقد كان يستفيد من يدفع له مقابل تقديمه الأغذية للجمال التي تحمل مختلف البضائع في طريق العودة. وإضافة إلى ما ذكر ؛ فقد كان أمير الحج يحصل أيضا على مبالغ ضخمة من التجار مقابل تأجير الجمال لهم لتحمل أمتعتهم. وعند وفاة أحد الحجاج، فقد كان ما يتركه ذلك الحاج يأخذه أمير الحج عند عدم وجود وارث. وأما إذا كان للحاج المتوفي وارث فقد كان أمير الحج يأخذ عُشر ما يتركه. وهكذا تجتمع لديه مبالغ ضخمة بهذه الطريقة؛ فضلا عما كان يصله من مختلف الهدايا⁶⁰⁰.

وفي القرن الثامن عشر لم يكن أمير الحج يستلم كل هذه العوائد، مصروفات المؤن وتسهيل وسائل النقل لخدمات الواجبة للقافلة، المبالغ المقدمة للقبائل العربية والبدو لم تعد تصرف من خزينة السلطان. وعلى هذا كانت معظم النفقات تقع على عاتق أمير الحج⁶⁰¹.

- نماذج من أمراء الركب المغاربي:

أ- أمراء الركب الجزائري: رغم وجود شيخ أو وكيل للحجاج المغاربة أجمعين في الحجاز خلال العهد العثماني، إلا أن الجزائريين كان لهم ممثل خاص هو "رئيس طائفة الجزائريين".⁶⁰² وقد كان المرشح لإمارة الركب الجزائري ينشغل بأمور الحج انشغالا، حتى لا يجد وقتا للإقراء أو التأليف ؛ بل ويعتذر عن معظم المسؤوليات العلمية والاجتماعية الموكلة إليه، لانشغاله بالحج الذي يقتضي منه التغيب عن بلاده شهورا طويلة.

ويجب أن شيخ الركب قدوة في أخلاقه وصفاته لحجاج الركب، متحليا بالصلاح والتؤدة والعلم والوقار، تحبه القلوب وتميل إليه النفوس، عطوفا على الحجاج، وملتزما ب: "الرفق بالرفيق والسائق المزمّل للبيت العتيق، يسير على قدر سعيهم، ولا يؤثر البعض على بعضهم... يأخذ بخواطر الحجاج ويواسي جميعهم على قدر حالهم، إماما للحجاج قبل أن يكون أميرا عليهم...".⁶⁰³

⁶⁰⁰ - إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق ، ج 2، ص 302

⁶⁰¹ - سميرة فهمي علي . المرجع السابق ، ص 115

⁶⁰² - عائشة غطاس . أوقاف الحرمين ، المرجع السابق ، ص 224

⁶⁰³ - عبد الرحمن المجاجي . المصدر السابق ، و 10.

من أشهر أعلام أمراء ركب الحج الجزائري نجد:

01- الشيخ الفكون:

02- الشيخ أبي نعامة "باعث الركب النبوي": كما لقب

ب- أمراء الركب المغربي:

وبعد هذا نذكر زمرة كريمة من أمراء الركب الفاسي وهم:

- الشيخ أبو زيد الغفاري: عقد له السلطان يوسف المريني على السير بركب عام 704هـ.

- الشيخ خليل أبو العباس أحمد بن يوسف حفيد أبي محمد صالح المتوفي أواخر الثامن. قاد الركب مرات منها عام 738هـ

- الحسن بن عمران: ذهب بركب عام 740هـ

04- الشيخ الحاج: الراوية المكثّر أبو الحجاج يوسف بن الحسن بن أبي بكر التسولي الورتاجي من أشياخ السراج الأكبر، ترأس هذا الركب المرة بعد المرة.

05- لشيخ الجليل عبد الله بن أحمد دفين مكناس و المتوفي بها عام 833هـ.

06- الشيخ الفاضل: أبو عمران موسى بن محمد بن معرف الشاوي ثم الطليقي المتوفي عام 1004هـ. سار بالركب سنوات متعددة.

07- الحاج محمد القيسي ترأس الركب عام 1074هـ.

08- الشيخ الصالح الحاج حسيني المتوفي بعد عام: 1110. قاد ركب الحجيج غير مرة.

09- الشيخ العاقل الحاج محمد صغيرة الأندلسي ترأس ركب عام 1121.⁶⁰⁴

- المحمل الشريف:¹ المحمل: «قبة من خشب رائق الصنعة بخرط متقن وشبابيك ملونة بأنواع الأصباغ وعليها كسوة من رفيع الديباج المخوص بالذهب، ورقبة الجمل وسائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم... ويتبعه جمل آخر مثل صفته، ثم الكسوة المشرفة ملفوفة قطعاً قطعاً»⁶⁰⁵، وفيه من يعرفه عبارة عن أعواد خشبية على شكل هودج، شكله مربع

⁶⁰⁴ - محمد المنوني ، المرجع السابق ، ص ص: 30-31.

⁶⁰⁵ - أبو القاسم الزياني ، الترجمانة ، المصدر السابق ، ص ص 204-205

ذو سقف يأخذ في الإرتفاع من الجوانب الى الوسط الذي فيه قائم ينتهي بهلال، وكان يسدل على ذلك الهيكل الخشبي كسوة إما من حرير أو الخز أو غيرهما، وكان يوضع على ظهر جمل عند السفر.⁶⁰⁶

وكان أول من استحدث المحامل في طريق مكة الحجاج بن يوسف الثقفي.⁶⁰⁷ هذا وقد ذكر صاحب ((الدرر الفرائد)) أن: "المحامل التي اعتادت ان ترد من الأقاليم إلى الحجاز أربعة: العارقي والمصري، والشامي، واليميني. وحج في بعض السنين الحلبيون بمحمل وحج آخرون في سنين مختلفة..."⁶⁰⁸

ومن أحفل المحامل أبهة وزينة - المحمل العراقي ؛ لأن مقر الخلافة العباسية كان في العراق وكان معول أقاليم الإسلام على ما يصدر منها ويرد إليها، والولايات والأمور الدينية والدنيوة. لذلك اهتم الخلفاء اهتماما بالغا بالمحمل، وكانوا ينفقون عليه بسخاء، خصوصا عندما حجت السيدة زبيدة ؛ زوج الخليفة هارون الرشيد، والتي انفقت المبالغ الطائلة في بناء الصهاريج في درب الحاج لتوفير المياه لهم عبر الصحراء المقفرة.⁶⁰⁹ ومن جانب آخر، كان المحمل الذي يحمل كسوة الكعبة بيد السلطان المملوكي "النصر بن محمد قلاوون"، بما أضفى على ركب المحمل صفة الرعاية والاهتمام باعتبار أن له الحق السياسي والديني في ترتيب نفقات الحرمين الشريفين. يقول ابن بطوطة: "والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة، ويبعث مرتبات القاضي الخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة..."⁶¹⁰

علاقة المحمل بركب الحج المغاربي: يصف لنا ابن بطوطة يوم المحمل مصر قائلا ".. يوم دوران المحمل يوم مشهود... يركب قضاة القضاة الأربعة، ووكيل بيت المال والمحتسب، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة، ويقصدون جميعا باب القلعة "دار الملك الناصر"؛ فيخرج اليهم المحمل على جمل، وأمامه الأمير المعين للسفر إلى الحجاز

⁶⁰⁶ - إبراهيم رفعت باشا ، المصدر السابق ، ج2، ص 63

⁶⁰⁷ - عبد الرحمن ابن الجوزي ، المنتظم ، ج1، ص273

⁶⁰⁸ - محمد بن عبدالقادر الجيزي ، المصدر السابق ، ص 139

⁶⁰⁹ - شمس الدين ابو المظفر يوسف ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، ج17، ص 220

⁶¹⁰ - ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص:411.

في تلك السنة ومعه عسكره، والسقاؤون على جمالهم. ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء، ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر، والحداة يحدون أمامهم، ويكون ذلك في رجب. وعند ذلك تبتهج العزمات، وتنبعث الأشواق، وتتحرك البواعث، ويلقي الله العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده؛ فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد...⁶¹¹.

ويروى بأنه كان يوجد محملان شريفان يحملان اسم الخليفة. أحدهما: يخرج من مصر، والثاني من إستانبول مروراً بالشام. وكان هذا المحمل يحتوي على كسوة تغطيه. فكانت أرضية وغطاء المحمل المصري من اللون القرمزي، واللون الأخضر لمحمل الشام الشريف عليه طغراء السلطان⁶¹². وكانا مصنوعين من حرير عليها زخارف هندسية وآيات قرآنية منسوجة بخيوط من فضة أو ذهب⁶¹³. وعادة ما يرافق خروج المحمل احتفال كبير ومشهود. كما كان العمل يخرج مرفوقاً بأمر الحج وأمين الصرة، بالإضافة إلى عدد كبير من الخدم مع قريب من 20 جملاً⁶¹⁴. وكانت الاحتفالات بخروج المحمل الشريف تستمر إلى حين وصوله إلى مكة المكرمة. وهناك كان يتم استقباله بإطلاق المدافع احتفاءً بوصوله.

وجرت العادة أن يقوم شيخ الحرم النبوي باستقبال المحمل الشريف. حيث يمسك بزمام الجمل ويصعد به إلى سلم باب المسجد النبوي. وهناك يرفع المحمل ليضعه غربي المنبر الشريف. وترفع كسوته المزركشة، ويلبسونه الخضراء، ويلبس أمير الحج وخدامه لباس الخدمة، ثم يحملون الكسوة باحترام ويدخلونها في الحجرة الشريفة من الباب الشامي، ويتركونها في ساحة السيدة فاطمة رضي الله عنها. ويبقى هناك إلى غاية خروج القافلة من المدينة وتقام لذلك احتفالات كبيرة⁶¹⁵. وعند عودة القافلة إلى مصر أو الشام والانتهاء من الاحتفال بعود المحمل، يقوم أمير الحج بتسليمه إلى الباشا. وجرت العادة أيضاً بأن تحفظ

⁶¹¹ - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص: 221.

⁶¹² - المكيالحنفي، المرجع السابق، ص: 82-83.

⁶¹³ - عبد العزيز مؤذن، كسوة الكعبة وطرزها الفنية منذ العصر العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة في الحضارة والنظم الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة 1982، ص 205.

⁶¹⁴ - فهم بيومي، ص: 144-145.

⁶¹⁵ - أوليا جليبي. المصدر السابق، ص 54.

كسوة المحمل في المخزن. وكانت هذه الكسوة تجدد كل عشرين سنة، أما كسوته الخضراء، فيكسى بها سنوياً.⁶¹⁶

02- الكسوة الشريفة: من البديهي أن تحظى عملية تجهيز وصناعة كسوة الكعبة الشريفة⁶¹⁷ باهتمام الخلفاء والأمراء عبر العصور. ويروى بأن النبي صلى الله عليه وسلم كسا الكعبة بثياب يمانية⁶¹⁸. ومنذ ذلك الحين بقي تقليد الكسوة سنة متبعة لدى كافة الخلفاء والأمراء. وعليه؛ فإنه من الطبيعي أن العثمانيين عندما انتقلت إليهم مسؤولية حماية وخدمة الحرمين الشريفين حافظوا على هذه السنة، واعتنوا بها عناية كبيرة. ولم يكتفوا بذلك التقليد المتوارث، بل أضافوا إليه كسوة لستار الكعبة وكسوة لمنبر الحرام⁶¹⁹، وخصصوا لها نفقات كبيرة⁶²⁰.

أما عن الكسوة التي أعدّ المحمل لحملها، فقد حظيت هي الأخرى بعناية مهمة من جانب الدولة العثمانية التي كانت ترسلها كل عام مع قوافل الحج البرية حتى في السنوات التي لم يخرج فيها المحمل لظروف القاهرة. فقد كانت تقوم بإرسالها عن طريق البحر⁶²¹. ومن الشواهد على ذلك أنه تم إرسال الكسوة عن طريق البحر في السنة التي تم فيها الحاق مصر والشام بالدولة العثمانية 922هـ / 1516م⁶²². فقد حرص السلطان سليم الأول على إرسال الكسوة الكعبة الشريفة مصحوبة بالصدقات التي كانت ترسل إلى فقراء مكة والمدينة.

⁶¹⁶ - فهم بيومي . المرجع السابق ، ص ص : 280-283.

⁶¹⁷ - الكسوة لغة : بكسر الكاف وضمها وسكون السين، وهو ما يتخذ من الثياب لستر، أما اصطلاحاً فهي ما يطلق على الغطاء الذي يغطي الجدران الأربعة للكعبة من أعلاها إلى أسفلها والمنسوج بالحريير الأسود عليها آيات قرآنية المكي، للمزيد ينظر ، أميرة الوصفي المداح ، المرجع السابق ، ص: 144.

⁶¹⁸ - محمد ليبب البيتوني. المصدر السابق ، ص 11 .

⁶¹⁹ - نفسه ، ص 138 ، للتفصيل في وصف الكسوة أنظر : ابراهيم رفعت باشا. المصدر السابق ج1، ص 96.

⁶²⁰ - للنظر في نفقات الكسوة أنظر : إبراهيم رفعت باشا ، المصدر نفسه، ج 02، ص 355 357 .

⁶²¹ - ابن إياس. المصدر السابق، ج 05، ص 115.

⁶²² - أحمد بن محمد الحضري. مختصر حسن الصفا والابتهاج في ذكر من ولي إمارة الحج، تحقيق: محمد بن ناصر

التمساحي، ط 1 ، مكتبة زهراء الشرق القاهرة 2006، ص 219

وتذكر المصادر بأنه من شدة اهتمامه بهذا الأمر، أنه حرص على أن تعرض عليه مع كسوة الحرم النبوي وكسوة مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام⁶²³. كما صنع للمحمل كسوة جديدة، وتناهى في زركشة البرقع والمحمل الشريف⁶²⁴.

وعندما دالت الدولة للسلطان سليمان القانوني (1520-1566) بالغ هذا الأخير تزيين الكسوة، حتى جعل لها ستائر موشحات بالجواهر⁶²⁵. وكان القانوني أول من بعث قناديل مذهبة إذ أرسل منها ثلاثة كهدية إلى الكعبة⁶²⁶. وفي عهد السلطان إبراهيم (1639-1648)⁶²⁷، تم تجديد ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم وكسوته. واستمر الأمر عند ذلك طيلة الفترة العثمانية.

هذا؛ وقد كانت الكسوة في العصر العثماني تصنع في قصر يوسف في القاهرة تحت يد أمهر الخطاطين⁶²⁸، وتجهز ستة أشهر قبل انطلاق المحمل. وكان يشرف عليها ناظر الكسوة ويقوم بمراقبة خياطتها وإعدادها الباشا بنفسه⁶²⁹.

أما كسوة باب الكعبة المسماة بالبرقع فقد كانت كلها منقوشة بالذهب. وكان حملتها مغاربة من أهل تونس وفاس. وكانت تخاط بالمسجد الحسيني لتوضع في صندوق مغطى بأقمشة فاخرة مطروزة. ويكتب إشهاد شرعي بتسليم الكسوة إلى أمير الحج⁶³⁰، لتحمل بعد

⁶²³ - للنظر ما سطر على كسوة مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام :أنظر: إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، ج 1، ص

247

⁶²⁴ - أميرة الوصفي المداح . المرجع السابق ، ص 148

⁶²⁵ - أحمد الرشيدى. المصدر سابق، ص :222، للتفصيل فيما تتضمنه الكسوة الكعبة الشريفة انظر إبراهيم حلمي ،

المصدر ، السابق ص ص61-62

⁶²⁶ - نفسه، ج 03، ص ص301-302 .

⁶²⁷ - السلطان إبراهيم ابن السلطان أحمد الأول ولد سنة 1024هـ/ 1615م وهو السلطان العثماني الثامن عشر، جلس على العرش سنة 1640 بعد وفاة أخيه السلطان مراد الرابع الذي توفي دون أن يعقب ذكورا، اضطربت الدولة في عهده وعرف بسلطنة الحريم بتدخل سيدات الحرم السلطاني في شؤون الدولة، وبعد أن زاد سوء حال الدولة وثارت الانكشافية ضده وانتقوا على عزله سنة 1648 ، ثم قاموا بقتله وتولية ابنه محمد الرابع انظر: عزتلو يوسف بك ،آصاف تاريخ السلاطين العثمانيين من أول نشأتهم حتى الآن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة 2014 ، ص.88.90

⁶²⁸ - للتفصيل في ديار عمل الكسوة وموظفوها :أنظر إبراهيم حلمي. المرجع السابق ، ص 73-86.

⁶²⁹ - أميرة الوصفي المداح. المرجع السابق ، ص 151

⁶³⁰ - إبراهيم رفعت باشا.المصدر السابق ج 1 ، ص 6.

ذلك إلى مكة المكرمة مع القافلة المصرية في أجواء احتفالات بهيجة كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل⁶³¹. وكانت الكسوة تحفظ بحضرة العلماء والكبراء إلى صباح يوم النحر، حيث يتم خلعها على باب الكعبة⁶³².

والجدير بالذكر أن الدولة العثمانية اختصت بإرسال الكسوة الداخلية للكعبة وكسوة الحجرة النبوية من إستانبول. وذلك كل 15 سنة أو عند اعتلاء كل سلطان جديد⁶³³. وتحمل الكسوة الجديدة اسم السلطان الذي قام بتجديدها⁶³⁴. وكانت يرسل معها طيب الكعبة والعنبر، علاوة على الشمع الكبير والصغير الذي تضاء به الكعبة ومقامات المسجد⁶³⁵، واستمر إرسال ذلك إلى غاية عهد السلطان أحمد الأول⁶³⁶.

وأبقت مصر على تقليد إرسال كسوة الكعبة الخارجية من أوقاف الكعبة من مصر. وعندما علم السلطان سليمان القانوني بأن الأوقاف لا تكفي لصناعة الكسوة قام بشراء قرى أخرى للصرف منها على نفقاتها⁶³⁷. كما كانت أحياناً تصل الكسوة من إستانبول إلى مصر كما حدث في زمن السلطان سليم الثالث سنة 1216هـ / 1801م⁶³⁸ وقام السلطان عبد

⁶³¹ - للتوسع بالاحتفال بالكسوة انظر: إبراهيم رفعت باشا، ج1، ص ص9-12 والحلواني. المرجع السابق، ص235.

⁶³² - سميرة فهمي علي. المرجع السابق، ص 173

⁶³³ - إبراهيم حلمي. المرجع السابق، ص 55.

⁶³⁴ - المكي الحنفي. المصدر السابق، ج1، ص 77.

⁶³⁵ - أميرة الوصفي المداح. المرجع السابق، ص 152.

⁶³⁶ - السلطان أحمد الأول (1603 - 1617): تميز عهده بالحروب مع الدول الأوروبية غرباً، ومع الدولة الصفوية في الجهة الشرقية، وأنشأ في عهده أيضاً مسجد المسمى على اسمه مسجد السلطان أحمد. ويعرف أيضاً بالمسجد الأزرق، للمزيد ينظر، أميرة الوصفي المداح. المرجع السابق، ص 152.

⁶³⁷ - المكي الحنفي. مصدر سابق، ج 1، ص 437.

⁶³⁸ - السلطان سليم الثالث: 1175 - 1222هـ / 1761 - 1808م: عصره بالاصطلاحات الداخلية خاصة المالية والإدارية، كما شهد عصرة الحملة الفرنسية على مصر الذي ساهم في إخراجها منها بالتعاون مع كل من إنجلترا وروسيا. ومن أهم وقائع عصره أيضاً التمرد الكبير للانكشارية، واللذين كانوا سببا في خلعه من الحكم، وحبسوه واستبدلوه بأبن عمه السلطان مصطفى الرابع.

العزیز⁶³⁹ بإرسال كسوة الكعبة وتوابعها من استانبول عام 1287هـ / 1870م وكتب على ستارها الخارجي اسمه الكامل⁶⁴⁰.

أما الكسوات القديمة التي تطلع عن الكعبة، فقد كان جزء منها يقطع ويبيع للحجاج اللذين يتهاقون عليها، وتوضع على صدورهم كتعويذة من الخطر⁶⁴¹. أما الأجزاء الكبيرة فكان لزاماً على أمراء مكة يرسلوها إلى استانبول وتبقى في ضريح أبي أيوب الأنصاري لزيارة الأهالي لها، ثم ترسل إلى القصر العثماني ويحفظ في جناح الأمانات المقدسة بقصر طوب كابي سراي، وتقطع الكسوة على أجزاء توضع فوق كل ضريح سلطاني وأمرائهم ونسائهم، ومنهم السلطان سليمان القانوني السلطان محمد الثالث وغيرهم كما علقت أجزاء منها بحوائط المسجد بقصر السلطان، وفي جامع أدرنة⁶⁴²

- الموظفون الملحقون بقائد المحمل:

ب- الرواحل وقوادها: تنوعت الرواحل لكن الأهم كانت الإبل.

1- الجمال: كانت قافلة الحج في الفترة العثمانية مكونة من حوالي 15.000 جملاً ونظراً لكثرة عددها، فإنها كانت تسير متتابعة أو مقسمة إلى جموعات صغيرة. وكانت تربط ذيولها ببعضها البعض وكان يطلق عليها القطار ويوضع على الأوائل منها أجراس على أعناقها وسيقانها ليتبعها البقية. كما كان الأمراء يتنافسون في كثرة عددها وغلو أثمانها والمفاخرة بها⁶⁴³.

⁶³⁹ - السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان محمود الثاني (1861-1876) عرف باهتمامه بإصلاح العدالة والبحرية وغيرها. يعتبر أول سلطان عثماني يزور أوروبا. تم عزله بعد استصدار المعارضين له لفتوى من شيخ الإسلام س تقضي بوجوب خلع سنة 1876. توفي بعد خمسة عشر يوماً من عزله وقيل انه انتحر. للمزيد انظر آصاف، المرجع السابق، ص 128 - 131.

⁶⁴⁰ - أميرة الوصفي المداح. المرجع السابق، ص 152.

⁶⁴¹ - جوزيف بتس. المصدر السابق، ص 54

⁶⁴² - محمد فهم بيومي. المرجع السابق، ص: 280-267

⁶⁴³ - محمد بن عبد القادر الجزيري. المصدر السابق، ج 02، ص 22.

2. الجمالة: كما ذكرناه انفا يقصد بهم الأعراب المكلفون بنقل الأمتعة والبضائع. وتوكل إليه مهمة الاعتناء بالجمال وتأمين أعداد منها احتياطاً⁶⁴⁴. وبالإضافة إلى تكفلهم بنقل الحجاج وأمتعتهم؛ فإنهم كانوا يقومون بنقل بضائع التجار في مكة المكرمة⁶⁴⁵. وكان هؤلاء العربان يحافظون على الحجاج وأمتعتهم متى غمروهم بالخيرات من مأكولات ولحوم وغيرها. و تزداد عنايتهم بهم إذا وعدوا بكسوة يعطونهم إياها، وكانت كسوتهم يسيرة الكلفة عبارة عن ثياب قطن. فكانوا يهملون العناية بالجمال بل يتمادون في إلحاق الضرر بأصحابها. فتارة يقطعون حزام الجمل ليوقع صاحبه ويتأخر عن القافلة لإصلاحه فيغتنمون الفرصة للانفراد به وقتله إذا لم يمنحهم الماء أو الغذاء. أو يسلبونه المتاع ويفرون بجمالهم⁶⁴⁶.

ج. موظفو القافلة: كان إعداد قافلة الحج يبدأ بتعيين الإدارة التي ستتولى مسؤول وصول القافلة إلى الحجاز وعودتها بأمان. لذلك كان السلطان يباشر بنفسه تعيين أمير الحج كمسؤول أول ورئيسي لها، ثم ترتب الهيئات اللازمة لخدمة وتنظيم وحماية القافلة. فيتم تنظيم الموظفين في الهيئات الإدارية والمالية والقضائية والعسكرية بالإضافة إلى هيئات الخدمات المعاونة.

- الهيئة الإدارية: وتتمثل في الرئيس الأول والفعلي للقافلة والمسؤول عنها أمام السلطان. أما الثاني فينوب عنه في غيابه. وكان أمير الحج أهم شخص في القافلة.

رتب وألقاب أمير الحج: كان أمير الحج كأحد أمراء الطَّبَّخَانَة⁶⁴⁷ tophane، ويحمل دائماً رتبة أمير اللواء⁶⁴⁸ sancakbeyi. كما كان يذكر هذا اللقب الأخير أياً للواء دائماً في الوثائق مقروناً بلقب أمير الحج.

⁶⁴⁴ - جوزيف بتس. المصدر السابق، ص 66، 67.

⁶⁴⁵ - صادق باشا. المصدر السابق، ص 120

⁶⁴⁶ - إبراهيم رفعت باشا، المصدر السابق، ج 01، ص 68

⁶⁴⁷ - أمير الطبخانة مصطلح مملوكي ويعني الأمير الذي تدق له الطبول من الآلات الموسيقية ومنها طبخانة السلطان

للمزيد ينظر، سميرة فهمي. المرجع السابق، ص 164.

⁶⁴⁸ - سنجق بك هو حاكم منطقة إدارية في المقاطعات العثمانية، للمزيد انظر، سميرة فهمي. المرجع السابق، ص

كما لقب أمير الحج بلقب خادم المحمل المحمدي الرفيع. ومن عبارات التشريف التي كانت ترد في الوثائق مقرونة باسم أمير الحج عبارة: "قدوة الأمراء الكرام كبير الكبر الفخام صاحب القدر والمجد والاحتشام والمقر الكريم العالي حاوي رتب المفاخر والمعالي الأمير..... أمير اللواء (مصر أو الشام...) ومير الحاج الشريف" ⁶⁴⁹.

ب نائب أمير الحج. ويسمى "كثُخدا" أو "دوادر". وهو أحد معاوني أمير الحج، ولها أكثر من مهمة منها تبليغ الرسائل لأمير تقديم له الأوراق للتوقيع عليها، فيكتب عن أمير الحج في المهمات الشاقة عليه وكتطير الجمال والسهيل الطرق إلى المضايق فكان بهذه الوظائف بمثابة الشرطي الذي يسهر على الحراسة ليلا ⁶⁵⁰. ولهذه المهام كان يلقب وكيل أمير الحج، فيختار من أشجع وأقل الموظفين ⁶⁵¹.

ج. الهيئة العسكرية: ويسمى "كثُخدا" kethüda أو "دَوَادَر" devedar. وهو أحد معاوني أمير الحج وله أكثر من مهمة منها تبليغ الرسائل لأمير تقديم له الأوراق للتوقيع عليها، فيكتب عن أمير الحج في المهمات الشاقة عليه وكتطير الجمال وتسهيل الطرق إلى المضايق. فكان بهذه الوظائف بمثابة الشرطي الذي يسهر على الحراسة ليلا ⁶⁵². ولهذه المهام كان يلقب وكيل أمير الحج، فيختار من أشجع وأقل الموظفين ⁶⁵³.

الهيئة القضائية والدينية: وتتشكل أساسا من:

- **قاضي المحمل الشريف:** كان يعتبر القاضي الشرعي والرسمي الذي يفصل في الخصومات التي تقع بين الحجاج. وكان يتم اختياره من بين قضاة المذاهب الأربعة، ويتم استبداله كل

⁶⁴⁹ - سميرة فهمي . المرجع السابق، ص 179.

⁶⁵⁰ - أحمد الرشدي. المصدر السابق ، ص 35.

⁶⁵¹ - محمد فهمي بيومي. المرجع السابق ، ص 195.

⁶⁵² - محمد بن عبد القادر الجزيري. المصدر السابق ، ص ص 163-167 .

⁶⁵³ - محمد فهمي بيومي. المرجع السابق ، ص 195.

سنة⁶⁵⁴. ونظرا لأهمية هذا المنصب فقد كان يتم تعيينه بحكم سلطاني شريف. كما أنه لهذه الأهمية، كان من الطبيعي أن تفتح هذه الوظيفة باب التنافس والتحاسد بين العلماء⁶⁵⁵.

- **شهود المحمل الشريف:** وكان يشترط أن يكونا اثنين من أهل الخبرة والعدالة لا يتم تغييرهما إلا بموت أو مرض يمنع السفر عليهما. وذلك لأجل حفظ حقوق المسلمين أثناء السفر⁶⁵⁶.

- **الإمام:** وهي من الوظائف الدينية المهمة في قافلة الحج. ونظراً لأهميتها كان بشرط أن يكون فيمن يتولى هذا المنصب أن يكون من العلماء، معروفًا بالأخلاق والتقوى والقدوة الحسنة وبالرغم من أهمية صلاة الجماعة بالنسبة للحجاج، إلا أن بعض أمراء الحج أهملوا الإمام، حتى أنهم كانوا إذا حان وقت الصلاة كلفوا أحداً بالصلاة دون أن يسألوا عن الإمام.

- **الميقاتي والمؤذن:** "الميقاتي" هو الذي كان يختص بالإعلام بالوقت الذي مضى والذي بقي للقافلة أثناء سيرها في الطريق. ويبين اختلاف جهة القبيلة، وضبط مسير الركب وإقامته في المحطات. أما المؤذن فوظيفته الأذان الصلاة طيلة رحلة القافلة. بالإضافة إلى الأذان في جبل عرفات⁶⁵⁷.

الهيئة المالية: وكانت تتشكل من:

- **كاتب ديوان إمارة الحج:** يدعى "كاتب الصّرة"، ويختص بتدوين ما يتسلمه أمير الحج من صور نقدية وعينية. كما يتولى كتابة مراسلات أمير الحج وأوامره. وأكثر من تولى هذا المنصب كانوا من الأعيان وظلت هذه الوظيفة الوارثة في بعض العائلات طيلة العهد العثماني⁶⁵⁸.

- **صراف الصّرة:** لقد كان النظام المألوف في الدولة العثمانية أن هناك صرافين للصّرة. وقد استمر هذا الحال حتى سنة 1178هـ / 1865م، وبعدها انقطعت هذه الوظيفة. وكان من

⁶⁵⁴ - محمد بن عبد القادر الجزيري. المصدر السابق ، ص ص 167 169 .

⁶⁵⁵ - إبراهيم رفعت باشا. المصدر السابق ج2، ص، 123.

⁶⁵⁶ - أحمد الرشيد. المصدر السابق ، ص 35.

⁶⁵⁷ - إبراهيم حلمي . المرجع السابق ، ص 140.

⁶⁵⁸ - سميرة فهمي. المرجع السابق ، ص 183.

أهم اختصاصات الصراف صرف الصرر المقررة للعربان ولأهالي مكة والمدينة، وكذلك ما يلزم شراؤه لمؤنة العساكر والجمال⁶⁵⁹. وكان يساعده كاتبان للصرة⁶⁶⁰.

- **الموظفون المختصون بخدمة القافلة:** لقد اشتملت قافلة الحج على العديد من الموظفين المكلفين بمهام متعددة تخص القافلة. فبالإضافة إلى الموظف الرئيسي وهو أمير الحج الذي تم تفصيل الحديث عن مهامه، تجدر الإشارة إلى أهم الموظفين الذين يقومون بمساعدته في أداء وظيفته. ومن هؤلاء الموظفين:

- **مقدم الحمّالين (العكامة):** العكامة هم أشخاص وظيفتهم وضع الأحمال على الجمال هموقيادتها والمحافظة عليها وإنزالها مثل السكر والشربات والحلاوة والملبس والشمع وغير ذلك⁶⁶¹.

- **مسؤول مطبخ أمير الحج (الكيلارجي kilerci):** وظيفته الإشراف على المطبخ الخاص بأمير الحج وأتباعه. وكان يعين من أصحاب النصيحة. ويشترط فيه أن لا يكون مبذرا فيضيع المأكولات التي تحت يده في أقل مدة⁶⁶².

- **الطباخون:** كان كبيرهم يدعى المعلم ومعه العديد من الطباخين تحت إمرته وكانوا يختصون بطهي الطعام وتوزيعه على الحجاج وهم كثيرون التحمل للمشاق إذ كان عليهم أن يحملوا معهم العديد من العديد من أدوات الطبخ كل عام⁶⁶³.

- **المخبزي:** وهو المختص بعمل الخبز فيطرق الحج. وكان يقوم بهذا العمل فقط حين تتوفر المياه الكافية وكان الخبز الذي يحضره مخصصا لأمير الحج ومساعديه⁶⁶⁴.

⁶⁵⁹ - فهم بيومي. المرجع السابق ، ص 206-208

⁶⁶⁰ - إبراهيم رفعت باشا . المصدر السابق ، ج 2، ص 45

⁶⁶¹ - أحمد الرشيد. المصدر السابق، ص، 35..

⁶⁶² - نفسه . ص ص 181 183

⁶⁶³ - محمد بن عبد القادر الجزيري . المصدر السابق ، ص ص 212 213.

⁶⁶⁴ - إبراهيم حلمي. المرجع السابق ، ص 138.

- **رئيس السقائين:** وهو المختص بالإشراف على ملء القرب في المناهل كما كان عليه الدفاع عن السقائين في الزحام وكان هو وموظفوه يحملون المياه العذبة في موكب المحمل. ومنهم من كان يسبق القافلة لملء الأحواض وإقامة الخيام⁶⁶⁵.

- **مهتار الطاشخانه Mehtertaşhane:** وكان يختص بإحضار المياه للوضوء وغسل الأيدي عند الاحتياج. ما كان عليه تسليم التشاريف والخلع للعربان على طول طريق الحج⁶⁶⁶.

- **مهتار الشراب خانه Mehterşeraphâne:** وهو الذي يتولى الإشراف على أمر المشروب. فكان عليه تبريد المياه أوقات الحر ومزجه بالسكر وتقديمه للحجاج. كما كان عليه الإشراف على الأوعية الخاصة بالشراب⁶⁶⁷.

- **مهتار الفراشخانه Mehtarfiraşhane:** كان المهتار وأتباعه من الفراشين البيوت الهامة، لأنها تشتمل على أنواع عديدة من الخيام الخاصة بقوافل الحج. وكان للفراشين دراية عظيمة في نصب الخيام وطبها ومعرفة تامة بشد الأحمال التي تحمل في الموكب على البغال⁶⁶⁸.

- **حراس خيمة أمير الحج:** وهم الموظفون الصغار الذين يقومون بحراسة خيمة أمير الحجاج أثناء الليل وكانوا خمسة مراقبين⁶⁶⁹.

- **مقدم الضوئية:** هو الذي يقدم ويرأس الضوئية وهم حملة المشاعل في الموكب الذين يضيئون الطريق أثناء السفر في الليالي المظلمة بمشاعلهم. ومن مهامهم أيضا إحضار الحطاب للمشاعل وللطبخ بطريق الحج⁶⁷⁰.

- **مبشر جبل عرفات:** ويسميه الجبرتي بنجاب عرفات وكان عليه أن يقوم بعملية الإعلان حين وصول القافلة إلى جبل عرفات⁶⁷¹.

⁶⁶⁵ - أحمد الرشيد. المصدر السابق ، ص 35

⁶⁶⁶ - محمد بن القادر الجزري. المصدر السابق ، ص ص 205-208.

⁶⁶⁷ - إبراهيم رفعت باشا . المصدر السابق ، ج2، ص 155.

⁶⁶⁸ - محمد بن عبد القادر الجزيري . المصدر السابق ، ص ص 209 210

⁶⁶⁹ - سميرة فهمي. المرجع السابق ، ص 186.

⁶⁷⁰ - إبراهيم حلمي. المرجع السابق ، ص 1139

⁶⁷¹ - محمد بن عبد القادر الجزيري. المصدر السابق ، ص ص 223 224

- مبشر الحاج (جاويش الحاج): فقد كان المبشر يعلن نبأ قرب الحج واليوم المنتظر لوصولهم. كما كان يحمل رسائل الحج إلى أصدقائهم. وقد غيّر لقبه بعد القرن السادس عشر إلى جاويش الحاج⁶⁷².
- شاد المحمل: وكان يختص بتنظيم وتسهيل الطريق للمحمل في المضائق وعند الازدحام. ويشترط فيه الكفاءة لأداء واجبه⁶⁷³.
- رئيس المخازن شاد المخازن: ويكون هذا الرجل موثوقا به وله التجربة التي تمكنه من تقدير ما تحتاجه القافلة من مؤن، ويجب أن يكون أمينا لأنه يستطيع التلاعب بالون. وكان يوزع المخصصات بواسطة أعوانه.
- السمسار: وكان يشترط في صاحب هذه الوظيفة الخبرة والصناعة بالغلal. ويلتزم بعدة التزامات منها إحضار ونقل الغلال وغربلتها وغير ذلك من المهام الموكلة إليه⁶⁷⁴.
- الزردكاش zerdekas أو الجبجي cebeci: وهو المسؤول على الأسلحة بقافلة الحج وما تحتاج إليه من آلات الحرب ولباس الخيول والزرذ والأوتار والبارود وغير ذلك⁶⁷⁵.
- مهتار الركبخانه: Mehterrikaphane: وهو المتسلم الحواصل السروج والركاب واللجام. وكان غالبا كلعام يُصحب بقافلة الحج ما عدته خمسة وثلاثون سراجا بآلاتها⁶⁷⁶.
- نجار عربات المحمل: وهو الذي يقوم بصيانة عربات المحمل وتوفير العمال اللازم لأداء هذا العمل⁶⁷⁷. بالإضافة إلى هؤلاء الموظفين كان يخرج مع المحمل السعال والطبيب والجراح والبيطري والشعراء وحتى مغسلوا الموتى والحلاقون... إلخ.⁶⁷⁸

⁶⁷² - نفسه . ص 140 - 143

⁶⁷³ - فهم بيومي. المرجع السابق ، ص 213

⁶⁷⁴ - محمد بن عبد القادر الجزيري. المصدر السابق ، ص 220 221

⁶⁷⁵ - نفسه. ص ص 214، 213

⁶⁷⁶ - نفسه . ص ص 216 217

⁶⁷⁷ - سميرة فهمي. المرجع السابق ، ص ص 189 195.

⁶⁷⁸ - أحمد الرشيد، المصدر السابق ، ص 36

ومن خلال ما تقدم يمكن القول بأن هذه الأجهزة المعتمدة في قوافل الحج تبين أن القافلة كانت أشبه بحكومة صغيرة متنقلة. وهذا إذا دلّ شيء فإنما يدل على أهمية الحج عند الدولة العثمانية التي أعطته هذه الهيبة والعظمة من خلال توفير كل هذه الأجهزة والتكفل بها.

- **موظفو الأحمال:** وبالإضافة إلى الموظفين الذين سبقت الإشارة إليهم، كان ثم موظفين آخرين مكلفين بحمل أمتعة الحجاج، والاعتناء بها في قافلة الحج، من ساعة خروجها إلى حين عودتها إلى ديارها. ومن هؤلاء الموظفين ما يعرف بموظفي الأحمال. ومن عناصر هذه الفئة:

- **جاويش المحمل:** وهو قائد الجماعة القائمة على الأحمال وكان يعين من طرف الباشا عادة كان يعين جاويش واحد لكل قافلة تخرج للحج، لكن بعد القرن السادس عشر تزايد العدد بحسب الحاجة.

- **مقدمو القواس:** كان عددهم عشرة أفراد ووظيفتهم هي إحضار عربان الحمل القيام بأمر الأحمال المجهزة برا وبحرا.

- **الشادون:** وغالبا كانوا من العثمانيين أو مماليك أمير الحج، وكان عددهم أربعة أفراد، وكانوا يختصون بتلقي كل ما يرد إليهم من الأحمال⁶⁷⁹.

- **الكتاب:** هم الموظفون المكلفون بضبط وحفظ وصون الأحمال.

- **الكيالون:** هم الموظفون المكلفون بضبط الكيل عند قبضها وتسليمها لأمير الحج.

⁶⁷⁹ - محمد بن عبد القادر الجزيري ، المصدر السابق ، ص :159.

الفصل الثالث: الحضور

السياسي والاقتصادي للسلطة

في تجهيز المركب والإشراف

عليه

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب

والإشراف عليه:

المبحث الأول: المنشآت والمرافق الخدمية:

01 - وسائل النقل:

النقل البري:

01-01-الرواحل (الدواب):الرواحل/ مفردها راحلة:وهي الناقة التي تصلح لأن ترحل،

وكذلك الرحول، ويقال الراحلة المركب من الإبل ذكرا كان أو أنثى. والهاء فيها للمبالغة كالتي في داهية وروية وعلامة، وإنما سميت راحلة لأنها ترحل أي يشد عليها الرحل.⁶⁸⁰

قال الحريري: وقد يكنى النعل بالراحلة لأنها مطية القدم، وإليها أشار الشاعر بقوله مُلَغِزَا (الطويل):

رواحلنا ست ونحن ثلاثة نجنبهن الماء في كل مورد.⁶⁸¹

روى البيهقي في ((الشعب)) في أواخر الباب الخامس والخمسين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من مشى عن راحلته عقبة، فكأنما أعتق رقبة"، قال أبو أحمد: العقبة ستة أميال.⁶⁸²

وقال ابن قتيبة: الراحلة: النجيبة المختارة من الإبل للركوب وغيره، وهي كاملة الأوصاف، فإذا كانت في إبل عرفت. وقال الأزهري: الراحلة عند العرب الجمل النجيب

⁶⁸⁰ - ابن منظور . مصدر سابق ، ج01، ص 319

⁶⁸¹ - نفسه . ص 321

⁶⁸² - كمال الدين الديرمي . حياة الحيوان الكبرى ، تحقيق محمد فاضلي ، ج01، أبحاث للنشر والترجمة والتوزيع ، الجزائر ، ط2001، م01، ص 926

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

والناقة النجيبة. قال: والهاء فيها للمبالغة كما يقال رجل نسابه وداهية. وقال بعض العلماء: الراحلة البعير الكامل الأوصاف الحسن المنظر القوي على الأحمال و الأسفار⁶⁸³.

-02-01- الإبل: "مطية المسافرين محل الراحلين": تحتل الجمال أو الإبل مكانة مميزة في تاريخ وتراث العرب، وهي مكانة تعود إلى آلاف السنين، حيث اعتبر الجمل رفيق البدوي في حياته وحله وترحاله، لما حباه به الله من قدرة على الحياة في الصحراء، والتكيف مع طبيعتها القاسية، بما فيها من الحر الشديد ونذرة المياه والشمس المحرقة، حتى عرف في التاريخ باسم «سفينة الصحراء»، إضافة إلى قدرته على الحياة في المناطق الجبلية حيث الطقس البارد.

أ - مدلول ألفاظ الإبل: يطلق على حيوان الجمل عدة تسميات وهي: الإبل والجمل والبعير والحر، ولفظ إبل من أبل، وإبل مؤبلة جعلت قطيعا قطيعا، وذلك نعت في الإبل خاصة، والإبل اسم واحد يقع على الجمع، وليس بجمع، ولا اسم جمع، إنما هو دال على الجنس، أي ليس لا واحد من لفظها وهي مؤنثة⁶⁸⁴، ويقال للرجل ذوي الإبل: أبل، والجمع آبال، وأبل الرجل كثرت إبله فهو مؤبل، ومال مؤبل في الإبل خاصة، والإبل وغيرها تأبل أبلا وأبولا جزأت عن الماء، وتأبلت: هملت وغابت وليس معها راع⁶⁸⁵،

وأما لفظ البعير، فهي من "بعر"، والبعير بمنزلة الإنسان من الناس، يقال للجمل بعير وللناقة بعير، والجمع ابعة وأباعر⁶⁸⁶، أما العير فهي إبل تحمل الميرة والتجارة. لا تكون عيرا إلا كذلك⁶⁸⁷.

⁶⁸³ - نفسه ، ص 700.

⁶⁸⁴ - حسن حافظي علوي . المرجع السابق ، 119.

⁶⁸⁵ - ابن منظور . مصدر سابق ، ج 321

⁶⁸⁶ - محمد بن احمد الأزهرى . تهذيب اللغة ، تحقيق محمد عوض مرعب ، ج 02، دار إحياء التراث ، بيروت ، 2001م،

ص 229.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

ب- الخصائص والمميزات الشكلية والنبئية للإبل: ورد ذكر الإبل في القرآن الكريم مرتين، إحداهم في سورة الغاشية، بحيث جاءت الآية الكريمة تحت المسلم على النظر في بداعة خلقها، قال تعالى: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت" سورة الغاشية⁶⁸⁸، 7. في صيغة استفهام إنكاري، وهي أفضل صور الحث على النظر، وعلى إعمال البصر، والعقل والقلب للوصول إلى ما عليه الإبل من خلق بديع، من عظم جثتها ومزيد قوتها، وبديع أوصافها⁶⁸⁹. جاء في تفسيرها، أن الجمال (ممثلة لسائر الحيوان) على مزية خاصة في خلقها بصفة عامة وقيمتها للعربي بصفة خاصة، فالإبل حيوان العربي الأول، عليها يسافر ويحمل، ومنها يشرب ويأكل، ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل، فهي مورد الأول للحياة، ثم إن لها خصائص تفرد بها من بين الحيوان، فهي على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها - ذلول يقودها الصغير فتتقاد -، وهي على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف، مرعاها ميسر، وكلفتها ضئيلة، وهي اصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدح وسوء الأحوال. أفلا ينظرون إلى خلقها وتكوينها ؟ ثم يتدبرون: كيف خلقت على هذا النحو المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعا. إنها من إبداع المبدع المتفرد بصنعه⁶⁹⁰.

ومن خصائص الجمل الشكلية، أنه من الحيوانات ذوات الخف، عظامه كثيفة وصلبة، تتجه عيونه الواسعة والناعسة للأسفل، وله جفن ثالث يعد دفاعا ضد هبوب الرمال، وأما الحاجبان الكثيفان والصف المزدوج من الرموش فتساعد في ذلك أيضا، وفي وسع الجمل الرؤية من خلال جفونه شبه الشفافة، والأذنان صغيرتان ومبطنتان بوبر، كي تمنع

⁶⁸⁷ - محمد بن الحسن بن دريد الأزدي . جمهرة اللغة ، تحقيق رمزي منير بعلبكي ، ج2، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1987م، ص 777.

⁶⁸⁸ - يعلق القزويني على الآية في شأن عجائب الإبل فيقول : من الحيوانات العجيبة ، هو حيوان عظيم الجسم شديد الانقياد ، ينهض بالحمل الثقيل ويبرك به ، وتصبر عن عشر ايام ، وإنما طولت رقبته ليستعين بها على النهوض بالحمل الثقيل ، وينال الأرض برعي منها حالة قيامه . لتكون الرقبة مناسبة للقوائم.

⁶⁸⁹ - علي محمد الصلابي . المعجزة الخالدة (الاعجاز العلمي في القرآن الكريم) ، براهين ساطعة وادلة قاطعة ، دار المعرفة ، بيروت ، 2013م، ص229

⁶⁹⁰ - سيد قطب . في ظلال القرآن ، ج06، ط17، دار الشروق ، القاهرة ، 1412، ص43

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

دخول رمل الصحراء، وبالمثل الأنف متكيف مع البيئة الصحراوية، فالمنخاران اللذان على هيئة فتحتين عريضتين يحميهما غطاءان عضليان يمكنه إغلاقهما حين يشاء، ويحرك الجمل أنفه، لتبريد هواء الشهيق وتكثيف الرطوبة الكامنة في هواء الزفير، والمشفران المتحركان، ذوا قدرة على القبض، يقلل هذا من حاجة الجمل إلى إخراج لسانه مما يفقده الرطوبة⁶⁹¹.

ج-الإبل: سفينة البر ورفيقة أهل الحضر:

الإبل والرحلة: ورد في لسان العرب لابن منظور: عن مادة رَحَلَ رَحَلٌ مايلي " ورحل الرجل إذا سار، و أرحلته انا، ورجل رحول، وقوم رحل أي مرتحلون كثيرا، ورجل رحال عالم بذلك مجيد له"⁶⁹²، ويفهم من كلام ابن منظور أن الرحلة في الأصل كانت للبعير ثم امتدت مجالاتها وتوسعت لتشمل الإنسان وغيره". فارتحل البعير رحلة سار ومضى ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارتحل القوم عن المكان ارتحالا، ورحل عن المكان يرحل فهو راحل، من قوم رحل انتقل"⁶⁹³. ويبدو أن هذا الحيوان بقدرته على التحمل والتأقلم مع أوضاع الصحراء قد أحدث تحولات هامة في هذه المنطقة، ويرجع له الفضل في فك العزلة عنها وفتحه إمكانية الانتقال منها وإليها، وربط أطرافها المترامية، وانفتاحها على بقية العالم، ولهذا كان بحق أداة وصل حضاري وتجاري للصحراء بالمغرب والمشرق⁶⁹⁴، و يعتبر الجمل وسيلة نقل وتبضع وهو الرفيق الدائم لدى سكان الصحراء، وقد أدى ظهور الجمل "سفينة الصحراء" إلى خلق فرصا مثالية لتعمير الصحراء، ولإستغلال مواردها، وجعلها منطقة عبور للتجارة بين البحر المتوسط وإفريقيا، وكان الجمل أيضا عاملا مهما في تحسين ظروف المعيشة بالصحراء

⁶⁹¹ - روبرت إروين . الجمل "التاريخ الطبيعى والثقافى"، ترجمة : احمد محمود ، هيئة أبو ظبى للسياحة والثقافة ،

الإمارات العربية المتحدة ، 2012م ، ص ص 21-22.

⁶⁹² - ابن منظور . المصدر السابق ، الجزء 11 ، ص 278 .

⁶⁹³ - نفسه ، الجزء 11 ، ص 280

⁶⁹⁴ - أحمد مولود ولد أيده . الصحراء الكبرى مدن وقصور ، ج 01، دار المعرفة ، الجزائر ، 2009م ، ص 37.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

والاتصال، والتبادل الثقافي والاجتماعي والتجاري بين مختلف أطرافها، لاستعمالاته المتعددة، فهو يمثل موردا اقتصاديا هاما للرجل الصحراوي: سفينة برية لنقل البضائع، وسرجا أو راحلة للركوب، وهو من أكثر الحيوانات مقدرة على المشي مسافات طويلة دون أن يناله تعب أو يحس بالعياء، ومتى كان في طريق سفر لا يحتاج إلى رعي، وإنما هو يخطف الأعشاب الخفيفة هنا وهناك، ليتلذذ باجترارها عندما يحط أثقاله وقت الراحة والاستجمام⁶⁹⁵. وهو اصبر الحيوانات على العطش، لاحتواء جلده على كمية قليلة من الغدد العرقية والعروق الدموية، بحيث طبقة جلده الغليظة تمنع التعرق وتبخر الماء من الدم⁶⁹⁶.

وَوَطْنُ الجمل في كل مكان من العالم، هو الصحراء التي تكيف لمناخها ولطبيعتها ونباتها، وكما هو معروف فبلاد المغرب جنوبها منطقة صحراوية، هذا ماجعل الإبل تشكل موردا اقتصاديا هاما لدى سكانها، فهو حمال أثقالهم، وأنيسهم في الصحاري، ورفيقهم في البراري، وسفينة برهم.

د-الإبل: المطية المثلى لرحلة الحج: الجمل أصل ركاب الحج، سفينة الصحراء أو "سفينة السفار في القفار"، رمز التحمل في مواجهة مشاق الطريق القاسية، والتعود على قناطير الأثقال والحمال، والصبر على العطش لأسابيع وشهور⁶⁹⁷، وحيث أراد الله تعالى بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش حتى أن ظمأها ليرتفع إلى العشر وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم⁶⁹⁸. وبخصوص هذه الميزة الأخيرة فإن الإبل إذا وجدت الكأ الرطب لا تشرب، لو أقامت ماعسى، حيث نقل أبو

⁶⁹⁵ - إسماعيل العربي . الصحراء الكبرى وشواطئها ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983 م ، ص ص 43-45.

⁶⁹⁶ - حسن حافظ علوي . المرجع السابق ، ص 138.

⁶⁹⁷ - تعد الإبل من الحيوانات الصبورة ، إذ بوسعها السير معدل خمسة أيام إلى ستة أيام دون أن ترد الماء ، وتصل طاقة تحمل بعضها إلى عشرين يوما فتسمى "الإبل الجوازي" للمزيد انظر op.cit : tableau géographique , mauny(r) p.393.

⁶⁹⁸ - كمال الدين الدميري . المصدر السابق ، ص 32

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

سالم العياشي في رحلته أن إبل الركب لم تشرب ماء بفضل ذلك مدة تسعين يوما (ثلاثة شهور)، في أرض صحراء ما بين مصر وليبيا⁶⁹⁹.

ويذكر الرحالة «كومان» أثناء رحلته من شبه جزيرة سيناء (1638-1639م) أن الجمل تحمل مشقة أربعة أيام لم يشرب ماء خلالها، وكان يعيش على القليل من الطعام يكفي مع ضخامة حجمه، وكان يحمل أمتعة بلغت من الضخامة والثقل حدا لا يصدقها سامع إلا إذا رآته عينه. ويتراوح معدل سرعة الجمل ما بين 08 إلى 10 كيلومترات في الساعة إذا كان لا يقل سوى راكبه، ولا تتجاوز المسافة التي يستطيع الجمل المحمل بالأثقال قطعها سوى 60 كيلومتر في اليوم⁷⁰⁰. والخاصية الثانية المميزة التي جعلت الحجاج يعتمدون على الإبل بالأساس في سفرهم هي قدرتها المذهلة على حملهم وحمل متاعهم وبضائعهم براحة وأمان.

ويتم أحيانا تخصيص بعض النوق دون الجمال لحمل الأمتعة فقط، فتوضع في مقدمة الركب، لتكون أمام أعين الحجاج⁷⁰¹. أما الجمال فيتم اختيار القوية السليمة غير الضاعنة في السن⁷⁰².

وتقترض «أوديت دي بي غادو» أن تزايد رحلات القوافل بين أطراف الصحراء قد زادت من الطلب على صناعة رواحل الإبل⁷⁰³.

وقد تفنن الحجاج في صنع ما يريح أجسامهم ويقيهم الصدمات والاهتزازات الناجمة عن تمايل الإبل في بعض المسالك الصعبة، من ذلك ما عرف في بعض البلاد باسم "الشقدف"، وهو "محمل خشبي كبير ذو شقتين، توضع كل واحدة منهما على جنب البعير،

⁶⁹⁹ - أبو سالم العياشي . ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج1، ص208

⁷⁰⁰ - mouny , op,cit ,p.393.

⁷⁰¹ - عبد الرحمان التتلاي . المصدر السابق ، و15

⁷⁰² - أحمد مولود ولد ايده . المرجع السابق ، ص15

⁷⁰³ -puigadeau(o.du), arts et coutumes(ii),op,cit.p.334.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

ويقرن بينهما بحبال وثيقة على ظهره، ولا بد للراكب فيه من شخص معادل له في الجهة الأخرى، مقاربا له في الرزانة، ثم يوصل بين الشقتين من أعلى بحبال، يظل عليها بغطاء يقي الحر والبرد، وهو من أشهى المراكب وأهنئها⁷⁰⁴. لكن ذلك "الشقدف" لم يكن يتوفر سوى للموسرين من الحجاج، لأن سعره غال، كما أنه يتطلب جمالا مهياة لوضعه⁷⁰⁵. وعرف قصر شنقيط بجودة، كما عرف قصر شنقيط بجودة صناعة الرواحل، فقد كانت رواحلها من أجمل الرواحل الصحراوية⁷⁰⁶.

وكما ذكرنا سابقا فإن الركب عبارة عن مدينة متنقلة بنظام ويشرف على سيرها وراحتها وأمنها أمير الركب وبجانبه الإمام والقاضي، ويتحرك الجميع بامتعتهم على الإبل، وأتعب السفر كثيرة ولذا تسير القافلة ببطء وتعاني من البرد والجوع والعطش وفقدان الزاد والماء و عياء الإبل⁷⁰⁷.

يشكل انطلاق القافلة لحظة مهمة في حياة أهل المغارب، وتكون فترة انطلاق رحلات القوافل سواء التجارية أو الحجية مع تراجع درجات الحرارة، خاصة مع بداية فصل الشتاء.

وتتم على وقع " قرع الطبول " ⁷⁰⁸، غير أن انطلاقها يشفع ببعض التحضيرات ليس للتزود بالسلع فحسب، بل ومن خلال اخذ التجهيزات والاحتياجات اللازمة، للحد من منغصات عبور الصحراء المفاجئة، التي لا تكون في الحسبان، فعندما شبه عالم الصحاري «تيدور مونو» قافلة الإبل العابرة لبحور الرمال "بالسفينة" التي تعب أمواج البحر، واصفا الإبل بسفينة الصحراء، ورجال القافلة بطاقم السفينة⁷⁰⁹، ولذلك يجوز مع هذا التشبيه

⁷⁰⁴ - أبو سالم العياشي ، ماء الموائد ، مصدر سابق ، ج2، ص 13

⁷⁰⁵ - أحمد بوسعيد ، المرجع السابق ، ص 96

⁷⁰⁶ - أحمد مولود ولد ايدة ، المرجع السابق ، ص16

⁷⁰⁷ - مولاي بلحميسي ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة ، المرجع السابق ، ص24

⁷⁰⁸ - المقرئ ، المصدر السابق ، ج05، ص205

⁷⁰⁹ - monod(th.méharées,op ,cit,p25.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

الحديث تزود القافلة تجهيز بكل ما تحتاجه قبل "الإبحار" تفاديا لحصول أي مكروه خلال رحلتها الشاقة، حيث الحجاج يحتشدون في تازة، القافلة تجتاز الجزائر وتونس إما بالجريد أو بمدينة تونس مضخمة بحجاج الولايتين، تصل طرابلس بعد نيف وشهرين من السفر هنا يجدد الناس قواهم، ثم يستأنفون المسيرة حتى الإسكندرية التي يبلغونها بعد 40 أو 50 يوما من السفر⁷¹⁰. فقد شبه أحد الباحثين الغربيين قوافل الحجيج العابرة لبحور الرمال، بالسفينة التي تعب أمواج البحر، واصفا الإبل بسفينة الصحراء ورجال القافلة بطاقم السفينة⁷¹¹.

وللدلالة على أن الإبل القوية هي وسيلة النقل الأولى للحجاج، فقد تمنى أحد الراغبين في الحج من الشعراء السفر إلى الحجاز في ذلك العهد على ظهر بعير قوي، طويل القوائم، واسع الصدر، عريض المناكب، يتساقط وبره على حوافره، يمرق كالطير، ويجري في سيره نحو الحجاز جريا.

يقول الشاعر الحاج عن أمنيته تلك بلغة شعبية دارجة ومعبرة:

أتمني مدرب نعت القبه غايس في لوبر للظفر

يمشي ماهو اقليل في دراغو شلبيه بالتشبار واسع الصدر

ومرافق بين الأكتاف أوساع اللبه يمرق طير من لوكر.⁷¹²

وأجود الإبل واصلبها وأكثرها نفعا للحجاج الجزائريين والمغاربة في سفرهم في إبل طرابلس، فهي تشتهر بكثرة الخدمة وقوة التحمل، لأنها تمرنت على المشاق العظيمة، لذلك قيل في الأمثال بخصوص ما يتمنى الحاج أن يكسبه: "جمل طرابلسي وقربة مصرية"⁷¹³.

⁷¹⁰ - لوسيت فالنسي، المرجع السابق، ص72

⁷¹¹ - monod Théodore, méharées terres d'aventure, édition acte sud France, France, 1999, p.25.29.

⁷¹² - أحمد بوسعيد، المرجع السابق، ص97

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

وكانت تقام بمدينة طرابلس سوق أسبوعية في كل يوم جمعة، تسمى "سوق العمروس"، وهي من أعظم أسواق الإبل بتلك النواحي، تجلب إليها الإبل من كل مكان، ويقصدها الحجاج المغاربة في ذهابهم للحج بصفة خاصة ⁷¹⁴. أما الحجاج المارون بمنطقة فزان الليبية فانهم ينتظرون قدوم قافلة كبيرة محملة بالإبل من مدينة طرابلس من أجل الشراء ⁷¹⁵.

أما جمال مصر فكانت تُعري المسافرين، فقد حاول الأمير ابراهيم بك أمير الحج المصري لعام 1786 مرتين الاستيلاء على جمال مناخ اللوق (المشرف على بولاق) عند اقتراب موسم الحج، وذلك نظرا لما يجتمع فيه دواب الحمل الكثيرة.

وكان يخرج مع الركب المصري بعد انضمام الركب المغربي إليه العديد من الجمال المصاحبة لقافلة الحج، وقد اختلفت أعدادها من فترة إلى أخرى. فيذكر الجزيري أن عدد الجمال اللازمة لكفاية المهام الشريفة كان يتراوح ما بين ألف وخمسمائة وألف وستمئة جمل، وذلك منذ بداية العهد العثماني حتى عام 960هـ/1553م، ويذكر الرحالة ((كوبان)) في النصف الثاني من القرن السابع عشر أن عدد جمال قافلة الحج التي شاهدها كان يصل ما بين تسعة آلاف و عشرة آلاف جمل.

وتنظم الإبل الموجودة بكثرة في الركب بربط ذيول كل أربعة جمال بعضها ببعض، ووضعها في المقدمة كقاطرة ⁷¹⁶ للقافلة، وتعليق أجراس كبيرة حول أعناقها أو أرجلها، فتحدث صوتا موسيقيا مع تعاقب خطوها، كي تحت الإبل الأخرى في السير. فموسيقى الأجراس

⁷¹³ - احمد بن ناصر الدرعي ، الرحلة الصغرى ، المصدر السابق ص172

⁷¹⁴ - ابو سالم العياشي ، ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج02، ص 502

⁷¹⁵ - القيسي السراج ، المصدر السابق ، ص 33

⁷¹⁶ - القِطَارُ : قطعة من الإبل على نسق واحد . انظر ، الشيخ كمال الدين الدميري ، المصدر السابق ، ص 394

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

المعلقة أو المحمولة، ورنين صوتها تجعل الجمال نشطة، فتسير الأمور بانتظام حتى الوصول على المحطة الموالية⁷¹⁷.

وخير دليل على أهمية الجمال ومكانتها في ركب الحج مقولة الحاج "شيخه جمل". أي أنه إذا غاب الاتفاق في الركب بسبب ضعف شخصية شيخ الركب، فإن رغاء الجمل يعد إيدانا بارتحال الركب أحيانا من غير إذن شيخه، فأول من يسمع رغاء بعير. ين أن الناس يرتحلون. فيقوم إلى بعيره، فإذا رآه الذي بجانبه قام، وهكذا حتى يرتحل الركب كله برغاء جمل⁷¹⁸.

ومن أجل ضمان السير الحسن للركب كان الحاج الذين يمتطون الدواب الأخرى يمشون الهوينى من غير سرعة، قصد مواكبة ومساعدة الإبل المثقلة بالحمال في سيرها.

ومن آداب معاملة الحاج لدابته أن يريحها بالنزول عنها غدوة وعشية، وعند كل عقبة، ويتجنب النوم على ظهرها، وينبغي ألا يمكث على ظهرها زمنا طويلا وهي واقفة⁷¹⁹. ولابد من احترام شروط السقي والعلف، وإلا ماتت الرواحل لبعد وصعوبة المراحل. ذلك أن الإبل تعاني كثيرا من السير في الأرض الحرشة وصيبها عياء كبير، وهو ما يدفع في كثير من الأحيان الحاج إلى تعجيلها حيث ذكر محمد بن عبد السلام بن ناصر أن "الحجاج الذين رافقهم في حجته الأولى قاموا بتنعيل إبلهم عند اجتياز مفازة سيدي خالد بالجنوب الجزائري⁷²⁰. وما أجمل نصيحة الشاعر الجزائري ابن الونان التواتي (ت1187هـ/1773م)⁷²¹ المتضمنة في شمعقيته:

⁷¹⁷ - جوزيف بيتس ، المصدر السابق ، ص 67

³⁷ - أبو سالم العياشي ، ماء الموائد ، مصدر سابق ، ج01، ص 277

⁷¹⁹ - القيسي السراج ، المصدر السابق ، ص 11

⁷²⁰ - محمد بن عبد السلام الناصري ، الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ص 108.

⁷²¹ - ابن الونان التواتي : هو ابو العباس احمد بن محمد (ت1773/1187م) ، التواتي الأصل ، الفاسي الدار ، كان والده صاحب نواذر ، من ندماء السلطان العلوي محمد بن عبد الله ، فكناه بابي الشمقمق ، تشبها له بالشاعر الكوفي الماجن ،

مهلا على رسلك حادي الأينق ولا تكلفها بما لم تطق

فطالما كلفتها وسقتها سوق فتى من حالها لم يشفق⁷²².

و-رواحل أخرى مستخدمة في الذهاب إلى الحج:

الخيـل:ويقصد بها جماعة الافراس لا واحد لهنم لفظه كالقوم والرهط والنفر ؛ وقيل مفردة خائل قاله ابو عبيدة. وهي مؤنثة، والجمع خيول، وقال سبستانى: تصغيرها خييل، وسميت الخيل خيلا لاختيالها في المشية، فهو على هذا اسم على للجمع عند سيبيويه، وجمع عند أبي الحسن⁷²³، ويكفي في شرف الخيل أن الله تعالى أقسم بها في كتابه فقال: ((والعاديات ضبحا))- العاديات:01-، وفي ((الصحيح)) عن جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوي ناصية فرسه بأصبعيه، وهو يقول:(الخيـل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والغنيمة).⁷²⁴

والخيـل يحتاج إليها للركوب والعدو والركض والطلب وعليها يجاهد العدو، و بها تحرز الغنائم، وهي قوة وزينة وعز.و اشرف ما ركب من الدواب⁷²⁵.

بالإضافة إلى الإبل والخيـل استخدمت البغال والحمير على نطاق واسع.قال تعالى:"...والخيـل والبغال والحمير لتركبوها وزينة..."(النحل:08)، فذكر البغال وامتن علينا بها كامتتانه بالخيـل والحمير وأفرد ذكرها بالاسم الخاص الموضوع لها، ونبه على مافيهـا من الأرب والمنفعة⁷²⁶. ففي الجزائر العثمانية، كانت من وسائل النقل الرئيسية في المسارات

وتخطت هذه الكنية إلى ابنه احمد ، وإلى أرجوزته القافية الشهيرة "الشمقمقية" ، التي تعددت اغراضها الشعرية بين الغزل والفخر والحكم ، ينظر أحمد بوسعيد المرجع السابق ، ص99.

⁷²² - نفسه ، ص 99

⁷²³ - كمال الدين الدميري ، المصدر السابق ، ص 592

⁷²⁴ - البخاري (2852)، مسلم(1873)

⁷²⁵ - كمال الدين الدميري ، المصدر السابق ، ص 276

⁷²⁶ - نفسه ، ص 277

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الרכب والإشراف عليه

الداخلية والخارجية، ولا أدل على ذلك من وجود منصب "كبير الحمّارين" أو "الحمّار"⁷²⁷ في عواصم البيالك (المقاطعات الإدارية الأربع)، للقيام بتجهيز الدواب أو تسليمها أو كرائها⁷²⁸.

يوصف البغل با لهداية في كل طريق يسلكه مرة واحدة، وهو مع ذلك مركب الملوك في أسفارها، وقعيّدة الصعاليك في قضاء أوطارها مع احتماله للأثقال وصبره على طول الإيغال، وفي ذلك يقال: (الرجز)

مركب قاض وإمام عدل وعالم وسيد كهل يصلح للرحل والرحل⁷²⁹.

وتميز بابلك الشرق بامتلاك ثروة حيوانية معتبرة، وبكثرة أسواق البغال، خاصة في عاصمة الإقليم مدينة قسنطينة التي وصفها الرحالة ابن عثمان المكناسي سنة 1199هـ/1785م قائلا: "مارأيت بلدة أكثر واردا منها...وهي منبع البغال فمنها تفرق في البلاد، لو ترى ما يدخل منها إلى السوق في كل يوم لقضيت العجب. يأتي العرب بها أي البغال، يسقونها كأنها قطيع من البقر"⁷³⁰.

وقد زاحمت البغال الصوف والجلود والعسل والقمح على رأس الصادرات الجزائرية في القرن الـ18/12م⁷³¹. أما الخيول فلم تكن بتلك الوفرة مثل البغال والحمير، وكاد امتلاكها يقتصر على البايّات والجند والأثرياء من أصحاب الضياع، رغم تزويد داي الجزائر لباي تونس

⁷²⁷ - الحمّار : أو أمين الحمّارين ، من الوظائف الإدارية في الجزائر العثمانية ، ويسمى أيضا "باش الحمّار" ، وهو المسؤول عن الدواب (الحمير بصفة خاصة)، فيتولى ضبط اعدادها ، وتجهيزها عن القيام بحملة ما ، ينظر أبو القاسم الزياني، المصدر السابق ، ص195

⁷²⁸ - أحمد بوسعيد ، المرجع السابق ، ص 100

⁷²⁹ - كمال الدين الدميري ، المصدر السابق ، ص269.

⁷³⁰ - ابن عثمان المكناسي ، الإحراز ، مصدر سابق ، ص329

⁷³¹ - أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ج02، المرجع السابق ، ص 317

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

بأعداد كبيرة منها في إحدى السنوات، نقلت من الجزائر إلى تونس في مركب أجنبي رفقة خدامها⁷³².

تأتي البغال في مقدمة الدواب الموظفة في السفر للحج بعد الإبل، نظرا لوفرتها وخصائصها، وكان تجميع لبغال وإحضار الخيام بمثابة إذانا بسفر الركب. وامتلك عدد لا بأس به من الحجاج هذه المطايا، بل أن أحد الجزائريين - وهو من وجهاء الركب - أخذ معه في سفره إلى الحج خمس بغال. وذلك كونه من الموسرين، لأن هذا العدد لا يتأتى لجميع الحجاج⁷³³.

وتقوم البغال في السفر إلى الحج بمهام محددة لا تقدر عليها الإبل، إذ تنفع في الإسراع في سقي الماء، أو للبحث عن عيون المياه والمواجن (البرك)، أو تفقد ظل، أو معاينة مكان مناسب لنزول الركب.. وغيرها، وكذلك يحتاج ركب الحج من يمتطون البغال أثناء السفر في مواقف أخرى من بينها مثلا استخدامها في مناورة وإخافة اللصوص المعتدين أو المتربصين بالركب في رحلته، أو أثناء نسيان بعض الحجاج لبعض متاعهم في منزل معين، يكون الركب قد غادره وابتعد عنه، أو للتخلف عن مسير الركب لزمن يسير بسبب أمر طارئ⁷³⁴.

والملاحظ هو قلة أسواق البغال في محطات الطريق، على خلاف الإبل المتوفرة في أسواق طرابلس اليبية ومصر وغيرها. لذا اعتاد بعض حجاج المناطق التلية الجزائرية على استبدال أو بيع أعداد من البغال والحمير في أسواق طرابلس بالإبل، التي يحتاجونها بصورة

⁷³² - خليفة حماش ، كشاف وثائق الجزائر ، المرجع السابق ، ص 361

⁷³³ - أحمد بوسعيد ، المرجع السابق ، ص 101

⁷³⁴ - عبد الهادي التازي ، المرجع السابق ، ص 73

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

أكبر⁷³⁵. كما أن بعض الحجاج الجزائريين كانوا يريحون خيولهم وبغالهم بين الفينة والأخرى، فينزلون من على ظهورها، ويركبون الإبل المتوفرة بكثرة في الركب⁷³⁶.

ونظرا لكثرة أعداد الحجاج المتوافدين على بلاد الحجاز، فإن معظم ما يتوفر من البغال والحمير في الأقاليم المجاورة لها يتم توجيهه إليها، كلما اقترب موسم الحج، لاستخدامه في التنقل بين أرجائها كراء. حيث يصف العياشي الحمير الموجودة هناك بإعجاب قائلاً: "ولم أر أسرع مشيا من حمير الحجاز ولا أوطأ مركبا، ولا أقل تعباً مع السرعة المفرطة في المشي، فلقد كنت انظر وأنا راكب إلى أطرافي. هل يتحرك منها شيء مع الإسراع في المشي، فلا تكاد تتبين لي حركة شيء منها. وذلك رغم أن ركوب الحمير أمر لم يألّفه معظم الحجاج المغاربة عموماً⁷³⁷."

ب- النقل البحري "السفن والمراكب": يبدو أن تكاليف السفر بحرا كانت أقل بكثير من تكاليف السفر برا. وقد لخص أبو القاسم الزياني ذلك بقوله (لضعفه)، أو (قلة ذات اليد)⁷³⁸. ذلك أن السفر في البحر لم يكن يقتضي (السير ليلا). كما هو الحال بالنسبة للسفر في البر. كما أن مدة الرحلة كانت أقصر كثيرا من المدة التي تستغرقها القافلة البرية، فمثلا السفينة التي كانت تقلع من السويس تصل ميناء جدة بعشرين يوما بعد إقلاعها، أي أن الرحلة عبر البحر تستغرق أقل من نصف مدة الرحلة بصحبة قافلة البر⁷³⁹. أضف إلى ذلك أن الرحلة البحرية كانت في أغلب الأحوال أكثر أمانا من الرحلة البرية، صحيح أنه كانت

⁷³⁵ - أحمد بن ناصر الدرعي ، المصدر السابق ، ص: 173.

⁷³⁶ - أبو سالم العياشي ، ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج 02، ص 403

⁷³⁷ - نفسه، ص 153

⁷³⁸ - أبو القاسم الزياني ، المصدر السابق ، ص 214

⁷³⁹ - يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، المرجع السابق ، ص 53

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

هناك المخاطر الناتجة عن الشعاب المرجانية المشهورة في البحر الأحمر (القلزم كما كان يسمى آنذ) غير أنه كان بالإمكان تجنب مثل هذه الأخطار في أغلب الأوقات ⁷⁴⁰.

ونظرا لضعف تجهيزات السفن الإسلامية ⁷⁴¹، كانت السفن المسيحية تستخدم لنقل الأشخاص والبضائع إلى الشرق ومن الشرق كذلك... فالمسيحيين احتكروا النقل البحري، وكان نصيب المسلمين في هذا المجال ضعيفا ⁷⁴². فبالنسبة إلى إيالة الجزائر ظل الاعتماد في مجالي التجارة الخارجية والأسفار إما إلى الحج أو التنقلات الأخرى، على كراء سفن البلاد الأوروبية الأكثر تقدما في مجال الملاحة البحرية، وقد احتل الناقلون الفرنسيون مكانة مميزة مقارنة مع غيرهم من الانجليز و الاسبان، وكان تردي العلاقات بشكل أكثر حدة بالنسبة للاسبان وأقل من ذلك بالنسبة للانجليز في مصلحة أرباب السفن الفرنسية الذين هيمنوا على كل أشكال النقل بين الجزائر والخارج ⁷⁴³.

تعتبر مسألة استئجار السفن من الجزائر وإليها من الأنشطة الأكثر تنظيما، والتي خضعت لترتيبات محددة وملزمة للطرفين المكثري وصاحب السفينة أو من يقوم مقامه. وتجنبنا لكل أعمال المضايقات أو الابتزاز التي يمكن أن يتعرض لها أرباب السفن. كإرغامهم على توجيه سفنهم إلى وجهة لا يرغبون هم في التوجه إليها، حرصت الدول الأوروبية في هذا المجال على ضمان حقوق مواطنيها. وقد كانت المعاهدات الموقعة بين بعض هذه القوى والسلطات الجزائرية مناسبة للتذكير بحماية حقوق أصحاب السفن في قبول أو رفض طلبات الاستئجار من أي طرف كان وأيما كانت صفته ⁷⁴⁴.

⁷⁴⁰ - نفسه ، ص 54

⁷⁴¹ - يقصد السفن الإسلامية المغاربية

⁷⁴² - حركات إبراهيم ، المغاربة والبحر ، المندوبية العامة لقدماء المحاربين ، المملكة المغربية ، ص 17

⁷⁴³ - محمد امينالبرزاز ، الاختراق التجاري الفرنسي للجزائر ، المرجع السابق ، ص 47

⁷⁴⁴ - نفسه ، ص 175

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

أ- بخصوص الركب البحري الجزائري: فإنه كان مرتبطا بإجراءات تحضير (الصرة)⁷⁴⁵، والقوائم الملحقة بها، والداي هو الذي يعطي الأمر بانطلاق رحلة الحج رفقة مبعوثه الخاص الذي عادة ما يكون بيت المالجي⁷⁴⁶، وفي هذا الصدد وصف الشريف الزهار مشاركته في انطلاق ركب الحج لعام 1233هـ/1818م بهذه العبارات "بعد شهرين من ولايته"⁷⁴⁷، أمر بتسريح المراكب للحج، وعين (أمين) بيت المال أمينا على الصرة، ودفع له مال الصدقة التي تدفع كل سنة لفقراء الحرمين الشريفين، وفي هذه السنة ذهب الناس أفواجا للحج، منهم الفقير إلى ربه، وكان الوباء قد اشتعلت ناره، وفي يوم سفرنا وقت الضحى، وصلت مائة جنازة، ثم سافرنا، نطلب من الله القبول والعودة لنا ولجميع المسلمين".⁷⁴⁸

ففي كل عام يغادر مدينة الجزائر حوالي 200 من الحجاج باتجاه مكة المكرمة عن طريق البحر التي تعتبر الأكثر أمنا والأقل تعباً والأقصر مدة بالمقارنة مع طريق البر التي تسلكها قافلة الحجاج (الركب)، وبالنسبة للركب الجزائري الذي كان يسلك طريق البحر، جرت العادة أن يستأجر البايليك وكبار الموظفين والأعيان سفنا عثمانية أو أوربية لنقل الحجاج و"الصرة".⁷⁴⁹

⁷⁴⁵ - تعتبر الصرة التي تخصصها مؤسسة الحرمين الشريفين للبقاع المقدسة في أعين السكان علامة شرف وواجب نبيل يرمز إلى الروابط الروحية والثقافية والاقتصادية بين الجزائر العثمانية والمدينتين المقدستين، فبالنسبة للجزائر اكتست الصرة التي ارتبطت بقافلة الحج-طابعين اثنين أحدهما ديني والآخر اجتماعي بما أنها كانت موجهة اسميا للحجاج. على أنه في واقع الأمر لم يكن للحجاج الجزائريين حق في الأموال المخصصة لمكة المكرمة والمدينة المنورة، ولم يكونوا يحصلون على إعانات من أموال الصرة. ناصر الدين سعيدوني، الوقف الجزائري أثناء العهد العثماني، ص 175-176

⁷⁴⁶ - ناصر الدين سعيدوني، الوقف، المرجع السابق، ص 178

⁷⁴⁷ - يقصد ولاية الداى حسين باشا والذي تولى في 23 ربيع الثاني سنة 1233هـ

⁷⁴⁸ - أحمد شريف الزهار، المصدر السابق، ص 81

⁷⁴⁹ - ناصر الدين سعيدوني، الوقف، المرجع السابق، ص 179

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

وحسب المعلومات التي جمعها " آلبار دوفو"⁷⁵⁰ يتبين أنه في العام 1086هـ/1678م، تم نقل الحجاج على سفينة إغريقية، وفي 1096هـ/1685م على سفينة هولندية، وفي عام 1104هـ/1693م على سفينة جزائرية تحت قيادة الرئيس حاجي محمد بن غانم، وفي 1118هـ/1707م على سفينة لومازان le masin الفرنسية، وفي 1127-1131هـ/1715م تم نقل الحجاج على سفينة انكليزية تحت قيادة القبطان بير BIR، وفي 1131هـ/1719م على سفينة انكليزية أخرى تحت قيادة القبطان ميكيل ألسن (mikil elesen)⁷⁵¹، وفي 1132هـ/1720م على سفينة فرنسية تحت قيادة القبطان نيقولا انجير nicolas anger، وفي 1139هـ/1727م نقل الحجاج إلى الإسكندرية على ظهر سفينة فرنسية تحت قيادة القبطان جونيل⁷⁵² djounil،

ب-أما الركب المغربي: أخذ الركب البحري يتقوى من أيام السلطان المولى سليمان. ما جعل بعض الأمراء يرجعون بعد حجهم عبر البحر مثل ابن السلطان المذكور الأمير المولى إبراهيم. وابنيه الآخرين. حيث يذكر الناصري أن هذا الأخير ذهب عن طريق البر لكنه عاد عبر البحر: "... ولما كان رمضان من سنة سبع وعشرين ومائتين وألف، قدم المولى إبراهيم بن السلطان المذكور من الحجاز ونزل بطنجة، وكان قدومه في قرصان الانجليز لن والده رحمه الله كان قد وجهه إليه مع بضع قراصينه إلى الإسكندرية. فصادفوه قد انحدر على جزيرة مالطا فركب المولى المذكور فيما خف من حاشيته في قرصان النجليز وسبق إلى طنجة فاحتل بها..."⁷⁵³، ليزداد أكثر أيام السلطان المولى عبد الرحمان حيث كثر الحج على البحر ذهابا وإيابا وعليه من - مرسى طنجة - حج ورجع ركبان هيأهما السلطان المذكور الأول عام 1256هـ وجه فيه ولديه الأميرين المولى الرشيد والمولى سليمان وحمله

⁷⁵⁰-albert devoux :notes histouriques sur les mosquées et autres édifices religieux d'alger :n24-25 :revue africain :p ,223

⁷⁵¹ -ibid :p224

⁷⁵²-ibid :p225

⁷⁵³ - الناصري ، الاستقصا ، مصدر سابق ،ج8، ص 124

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

هدايا وقصيدة للحضرة النبوية الشريفة من نظم المؤرخ اكنسوس المراكشي، والركب الثاني بعثه عام 1274هـ. كان فيه أبناؤه الأربعة الأمراء المولى علي والمولى إبراهيم والمولى عبد الله والمولى جعفر وابن عمهم المولى أبو بكر بن عبد الواحد بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وقد احتفل السلطان المولى عبد الرحمان بهذا الركب وبالغ في تجهيزه بما لم يتقدم في الركب قبله⁷⁵⁴. لكن رغم ذلك يشير المنوني إلى تضائل عدد الحجيج عبر البحر بقوله: "...وتضخم عددهم في دولة الإبل والشرع بقدر ما قلوا في عصر البخار..."⁷⁵⁵.

تبقى الإشارة إلى أن فئة من حجاج المغارب لم تكن تصحب القافلة المصرية، وكانت تفضل ركوب البحر من السويس إلى موانئ الحجاز وعلى وجه التحديد جدة وينبع. كما يلاحظ أن سفن الحجاج كانت تشكل قافلة بحرية بعد إقلاعها من النيل شأنها في ذلك شأن الموكب البري، ويصل عدد سفنها بين الثلاثين والأربعين سفينة منها السفن الكبيرة التي تحتوي على قمرات وسفن صغيرة كان يستغلها فقراء الحجاج⁷⁵⁶. حيث ذكر أبو القاسم الزياني ذلك بقوله: "فخرجنا من المرسى بخمسة وثلاثين جفنا بين كبار وأغربة..."⁷⁵⁷.

⁷⁵⁴ - محمد المنوني ، المرجع السابق ، ص ص 40-41.

⁷⁵⁵ - نفسه ، ص 09.

⁷⁵⁶ - يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، المرجع السابق ، ص 54

⁷⁵⁷ - أبو القاسم الزياني ، مصدر سابق ، ص 214

03- الخدمات على طول الطريق:

03-01. -الأدلاء- الماء - أماكن الإستراحة -توفير السلع:

03-01- خِفاةُ القافلة و الأدلاء: أجمعت كتب الجغرافية والرحلات على صعوبة التنقل عبر مسالك الصحراء، هذا المجال القاحل نظرا لما تميز به من قلة الماء وشدة الحر وكثرة القيظ وهبوب الزوابع الغبارية وعدم وضوح معالم الطريق، وغير ذلك من الأخطار التي تحيط بالمسافرين في القفر. و نتيجة لاستعمال هذا الطريق، اضطر الحجاج إلى تنظيم أنفسهم أكثر من أي وقت مضى حتى يضمنوا السلامة ويفوزون بعبور القفر آمنين مطمئنين، وقد فرضت هذه المستجدات على الحجاج الخضوع لتنظيم محكم يقوم على الانضباط لأوامر قائد القافلة أي أمير الركب وبعض مساعديه من الذين يستحيل نجاح الرحلة بدونهم كما هي الحال بالنسبة للدليل والتكشيف.⁷⁵⁸

لقائد القافلة كامل التصرف في رؤوس الإبل المكون لركبه وقد يقوم ببيع دواب الإبل التي يصبها الإعياء أثناء الرحلة، كما يتصرف في الدواب التي تعيق حركة الموكب، ويتألف طاقم قيادة القافلة في العادة من عدة رجال أقوياء، قادرين على إنزال الحمولة عن ظهور العيس، ولعل من ابرز هؤلاء المعاونين (اقاديم) وهو رجل مكلف بحط وشد رحال القافلة، وشحنها عند الرحيل والنزول بكل محطة⁷⁵⁹. كما أنه لاغنى للقافلة عن دليل عارف بالمسالك، وقد حدثتنا المصادر عن أولئك الرجال الذين يتقدمون القوافل والعارفين بالمسالك عبر الصحراء منذ القدم. فقد أشار ابن حوقل إلى أدلاء القوافل خلال وصفه لأودغست: "... والدلالة على المياه بالصفة والذاكرة، ولهم الحس الذي لا يدانيه في الدلالة إلا من قاربهم وسعى سعيهم، ففيهم البسالة والجرأة، والفروسية على الإبل، والخفة في الجري والشدة،

⁷⁵⁸ - حسن حافظ علوي .مرجع سابق ، ص232

⁷⁵⁹ - أحمد مولود ولد ايده ، المرجع السابق ، ص17

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

والمعرفة بأوضاع البر و أشكاله، و الهداية فيه..⁷⁶⁰ كما تحدث ابن بطوطة بانبهار عن دليل من قبيلة مسوفة كان يقود القافلة التي كانت تقله إلى إيولاتن (ولاته). فذكر أنه رجل أعور العين مريض الثانية، ورغم ذلك فهو أعرف الناس بالطريق..⁷⁶¹، و تحدث كذلك عن خطة أخرى تتعلق بالقوافل "التكشيف" اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة، فيتقدم إلى إيولاتن بكتب الناس إلى أصحابهم بها، ليكتروا لهم الدور، ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع(..) وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء، فلا يعلم أهل إيولاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم.. وقد اكرتينا التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب..⁷⁶² وقد أشار أبو حامد الغرناطي إلى أن أصحاب القوافل "يمشون في الرمال كالبحار، ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم وبالجمال في القفار"⁷⁶³،

وفعلا يبدو أن سكان هذه المناطق قد سخروا بعض ما حصلوا عليه من معارف بعلم الفلك والنجوم لضبط بعض الأمور التي تتعلق بالمواقيت المثلى لسير القوافل واهتدائها في صحراء شاسعة خالية من إحداثيات، ويبدو لنا أن تركيز دلالة القوافل على الفلك والنجوم قد يستشف منه أن القوافل كانت تسير أحيانا كثيرة في الليل الذي تتخفص فيه درجات الحرارة، خصوصا خلال الليالي المقمرة، تفاديا لشدة القيقظ خلال النهار⁷⁶⁴. فقد سخر الإنسان بهذا المجال الصحراوي كل طاقاته العقلية والتجريبية للتكيف مع معطيات البيئة الصعبة التي تفرضها هذه الطبيعة، ويعكس المثل السائر: "إذا طلع نجم العوى يقول البعير لصاحبه: "ايوى، ايوى"(هيا. هيا). مما يعكس تجربة متراكمة لتتبع وملاحظة مواقع النجوم لتحديد الميقات الأمثل لانطلاق القوافل.⁷⁶⁵ كما لا نعرف شيئا عن الطريقة التي كانت تتم بها عملية جمع

⁷⁶⁰ - ابن حوقل ، صورة الأرض ، مطبعة بريل ، ليدن ، هولندا ، 1983 ط02، ص 98

⁷⁶¹ - ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج02، ص:192.

⁷⁶² - نفسه ، ص193

⁷⁶³ - أبو حامد الغرناطي ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، الجزائر ، 1989م، ص35

⁷⁶⁴ - أحمد مولود ولد ايده ، المرجع السابق ، ص 18

⁷⁶⁵ - نفسه ، ص19

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

الأموال المخصصة لتغطية نفقات الرحلة بما فيها أجرة التكشيف والدليل. ولما كانت ممتلكات الحاج غير متساوية في الركب، جاز لنا أن نتساءل عن قيمة ما كان يؤديه كل واحد منهم برسم مصاريف الرحلة. وهل كان لهذه المصاريف علاقة بقيمة السلع أم بعدد الإبل المحملة بها، أم كانت تنقسم على الأشخاص بصرف النظر عن متاعهم، وإذا كان الأمر على هذا النحو، فهل القسمة تكون على المتبوع دون التابع، أي على التجار فقط دون مساعديهم.

أشار أبو سالم العياشي إلى مايفيد في معرفة أن أجرة الدليل الذي كان يُكْتَرى لمرافقة ركب الحج لم يتم الحسم فيها، وأنها ظلت مثار جدل كبير بين الفقهاء. قال: "...سمعت شيخنا العلامة أبا بكر السجستاني المراكشي رضي الله عنه يقول: جر البحث في الجامع الأزهر أيام اشتغاله بالإقراء هناك في هذه المسألة، وهي أجرة دليل الركب... قال: ولم يوجد نص في ذلك. ثم اضاف ويمكن استخراج حكم المسألة وهو من اصل ماورد في حديث الهجرة من استئجار النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لدليل. فهل كانت الأجرة على الإبل أو على الرؤوس ؟ وهل أعطى أبو بكر عن غلامه أو لا ؟. فلم يفصل فيها الفقهاء في الأجرة على من تكون...".⁷⁶⁶

02-03: خدمة تسليح الركب: مثل الركب الرسمي في بلاد المغرب العربي خلال القرن الـ 18 رمز أبهة الدولة وحضورها. فكانت السلطة الحاكمة في كل إقليم لا تتوانى في الإشراف عليه والتحكم فيه لما له من رمزية هذا من جهة. من جهة أخرى كانت ترسل ضمن هذا الركب شخصيات رسمية لمنحه مزيدا من الأهمية وللإعلاء من شأن الحاج، و كذلك لتمثيل حضور سلطة الدولة في المناطق التي يمر بها الركب. وبما أن رحلة الحج بالنسبة لأهل المغرب كانت أقصى ما يتمناه الفرد منهم ويرجوه في حياته، دفعه هذا لأن يتحدى من أجلها الصعاب ويتجشم العنت والصعاب ولا يخشى الأهوال، فكانت المخاوف

⁷⁶⁶ - أبو سالم العياشي ، ماء الموائد ، مصدر سابق ، ج01، ص ص 372-373

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

التي تراود وتؤرق ركب الحجيج في مسالكهم الصحراوية نحو حج بيت الله الحرام، هو الأمن والخوف على النفس و المؤونة، مما يتلقاه من مخاطر في الطريق كقطاع الطرق، وبعض الأعراب الذين يسلبون هؤلاء الحجيج متاعهم ومؤنهم. هذا ماشكل هواجس حقيقية لأفراد الركب وللسلطة المشرفة على إرسال الركب و مثل لها تحدٍ كبير لما له من رمزية ومكانة في أوساط العامة وأهل الحل والعقد.⁷⁶⁷

وفي ظل العجز الرسمي أحيانا عن حماية الركب من الاعتداء والسلب، أضحت مسؤولية تأمين الركب منيطة بأفراده أي الحجاج أنفسهم⁷⁶⁸، وهذا ما تزودنا به بعض الرحلات الحجية التي ذكرت الكثير من هذه المخاطر والمصاعب التي ذكرناه سابقا، فقد أشار مثلا صاحب الرحلة الحجية المعروفة بالرحلة العامرية في قصيدته النظمية إلى إجبارية تزود الحجيج بالضروريات الواجب عليهم توفيرها في هذه الرحلة الطويلة والشاقة، ومن هذه النصائح حتمية التزود بالسلاح، واستعماله في الدفاع عن أنفسهم ضد هؤلاء، واتخاذ الرفيق الصالح، وعدم التخلف عن الركب أو الابتعاد عنه، حتى لا يتعرضون للهلاك من قطاع الطرق، حيث يقول في نظمه:

واتخذ يالبيب، آلة حرب⁷⁶⁹ ربما عرضت لك الأعداء،

واتخذ للطريق خير رفيق إن ذاك لعمري العنقاء

ثم لا تتفرد عن الركب لمحا إن ذاك يساق منه البلاء.⁷⁷⁰

⁷⁶⁷ - جلول بن قومار ، هاجس الأمن عند ركب الحجاج المغاربة من خلال الرحلات الحجية (17-18م) ، مجلة الحوار

المتوسطي ، مج 12-13، جامعة سيدي بلعباس ، الجزائر ، ديسمبر 2017، ص14

⁷⁶⁸ - أحمد بوسعيد ، المرجع السابق ، ص158

⁷⁶⁹ - المقصود من كلامه هنا هو السلاح سواء الرمح أو السيف أو البندقية المعروفة عند العوام بالمكحلة .

⁷⁷⁰ - محمد المنوني ، المرجع السابق ، ص91.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

وهذا ما نصّح به كذلك الرحالة أبو سالم العياشي بصريح القول في مخاطبته لأحد أصدقائه ممن نوى الحج "... وخذ لنفسك ما تحتاج إليه من البارود والرصاص، واتخذ لأصحابك ولنفسك مدافع، فإنها في الطريق هيبتة، وأي هيبة..."⁷⁷¹ مستشهدا بما مر عليه من تجارب حيث في رحلته الكبرى ذكر أنهم عندما وصلوا إلى ماء يسمى زيارة، ذكر بقوله: "...حصلت للركب روعة، لخبر أخبروه، أنّ بإزائهم قوم من العرب، يريدون الإغارة فشمروا الناس للقتال، وأخرجوا عدتهم، وهيئوا آلة حربهم..."⁷⁷²، وفي فترات ومواسم موالية اضطرّ الحجاج إلى استخدام البنادق المزودة بالرصاص الحي في حراسة الركب. حيث ذكر السجلماسي أن لصاً تمكن من خطف بندقية من بعض الحجاج، وحين تبعوه رماهم برصاصة، لكنه لم يصب أحداً.⁷⁷³ أما الحجاج الجزائريون فكانوا يُطلقون النار من أسلحتهم لإخافة اللصوص ودفعهم.⁷⁷⁴

ولم تتوانى السلطة الحاكمة في كثير من الفترات في توفير الحماية للركب. فمثلاً خصصت حكومات الولايات العربية لركب الحج في القرن 18م فرقة إسناد عسكرية مشكلة من الفرسان المسلحين بأسلحة مختلفة لحماية الأرواح والأموال المنضوية تحته⁷⁷⁵، وكان السلاح الناري أهم هذه الأسلحة، ونقصد تحديداً عدة البنادق التي كانت كتيبة الركب تصاحبها معها في ترحالها.⁷⁷⁶ هذه الحامية العسكرية كانت تحت قيادة

⁷⁷¹ - أبو سالم العياشي ، التعريف والإيجاز ، مصدر سابق ، ص51

⁷⁷² - أبو سالم العياشي ، ماء الموائد ، المصدر السابق ، ص212

⁷⁷³ - الهلالي السجلماسي ، المصدر السابق ، ص30

⁷⁷⁴ - جوزيف بيتس ، المصدر السابق ، ص30

⁷⁷⁵ - قدر تعداد هذه الكتيبة في الركب المصري بين 900 و 1000 جندي يرافقون القافلة سنوياً: سميرة فهمي ، المرجع

السابق ، ص 290

⁷⁷⁶ - كان هناك موظف يسير مع ركب الحج المصري، وهو المسؤول عن الأسلحة بالقافلة وما تحتاجه من آلة الحرب،

للمزيد ينظر سميرة فهمي ، المرجع السابق، ص 124.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

"الزردكاش zerdek، أو الجَبَجِي: وهو المسؤول على الأسلحة بقافلة الحج وما تحتاج إليه من آلات الحرب ولباس الخيول والزرد والأوتار والبارود وغير ذلك"⁷⁷⁷.

وحول أخبار هذه الكتائب نتوقف بداية عند ما ذكره ابن ناصر الدرعي بأن أمير ركب الحاج المصري يغادر بلده مصحوباً بعساكر⁷⁷⁸، وكذلك ما ذكره الهشتوكي في رحلته من أن الركب الشامي كان معه من رماة المغرب نحو خمسمئة (500) ومعه خيل كثير⁷⁷⁹، وأكد لنا محمد بن عبد السلام الناصري ذلك في رحلته الكبرى، وهو على الراجح يقصد بهم جنوداً من إيلات الجزائر وتونس وليبيا مانقله سابقه⁷⁸⁰، ومعلومات هذا الحاج في هذا الموضوع يدعمها وصف الورثيلاني للفرقة العسكرية التي كانت ترافق الركب المصري سنة 1179 هـ / 1765 م بأنه "... لا شبيه لها في الركاب الأخرى من ناحية الأهمية..."⁷⁸¹، ونكتشف أيضاً في وصف الصميلي⁷⁸² للكتيبة المرافقة للركب المصري عند دخوله بندر ينبع بأن "... هذا الدخول تم في فخامة وضخامة دالة على علو القامة.. ونشر الرايات والأعلام ما لا يحيط بوصفه ألسنة الأقلام، وقدم أمامه جملة من العسكر وافرة.. وأظهروا من السلاح الفائق والملابس الفاخرة.... وجعل الأمير حوله من الأبطال ما حرك تلك الجبال، ومن الغيطات والأبواق..."⁷⁸³.

وأبرزت لنا هذه الرحلات المدونة خلال فترة القرن الـ 18 الميلادي مظاهر أخرى لهذه الإمكانيات العسكرية وهي تعرض لتنافس الركبين المصري والشامي في إظهار القوة بـ «عرفات و مكة المكرمة». فحولما كان يجري في هذا المكان ذكر ابن عثمان المكناسي

⁷⁷⁷ - مريم بلال ، المرجع السابق ، ص ص 214 ، 213.

⁷⁷⁸ - أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، المصدر السابق ، ص 146.

⁷⁷⁹ - أحمد بن محمد الهشتوكي، المصدر السابق ، ص 258.

⁷⁸⁰ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، ص 376.

⁷⁸¹ - الحسين بن محمد الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص 621.

⁷⁸² - الصميلي : كنية تكنى بها الرحالة محمد بن الطيب الشرقي الفاسي المشهور بالصميلي .

⁷⁸³ - محمد بن الطيب الفاسي ، المصدر السابق ، ص 132.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

أن: "وزير الشام (أي أمير الركب) تقدم بمحله وعسكره وطبوله وكذا باي مصر (أي أمير الركب) بمحمله و وعسكره وطبولهم تنقر والمزامير والعسكر يخرج المدافع، وكل واحد من الفريقين يجهد في التقدم على الآخر...".⁷⁸⁴ كما كان الركبان المصري والشامي يقومان في الليلة الثانية من ليالي «منى» باحتفال كبير يتمثل في: "...إيقاد المصابيح... وإكثار الرمي بالبنادق والمدافع والمحارق المرتفعة...".⁷⁸⁵ وهذا الاحتفال شبيه باحتفالهما كذلك بليلة «الوقدة» ببدر، وهي ليلة وصفها الزبادي بأنها تشعل فيها الشموع والمصابيح ويطلق فيها الركبان المدافع.⁷⁸⁶

و أشار الهشتوكي الى أنه بعد تجاوز ركبهم لموضع يقال له "مقرب" بالأراضي الليبية تعرضوا لاعتداء، "فاجتمع الركب كله بمدافعهم وعدتهم، وأطلقوا البارود والرصاص فخافوا...".⁷⁸⁷

وهذا الإسحاقى يتحدث عن الجيش المصاحب للركب المغربي في حجته لعام 1143هـ/1731م، وهو يستعرض قوته بالأراضي الليبية في صورة احتفالية: "... فيمن معه من الوصفان عبيد البخاري... ولعبوا بالبارود لعبا قضا منه ترك البلد وغيرهم العجب...".⁷⁸⁸ ومما كان يقوي من إمكانيات القوة عند ركاب الحج المغربية والمصرية في القرن 18م، هو اتحاد كتائبها العسكرية عند نية التصدي لخطر ما، مثل ما استعان الركب المصري بالقوة العسكرية التي كان يتوفر عليها الركب المغربي عام 1152هـ / 1740م.⁷⁸⁹ وكانت هذه الكتيبة مشكلة «من الوصفان عبيد البخاري... ومسلحة بالبارود».⁷⁹⁰ كما ذكرناه

⁷⁸⁴ - محمد بن عثمان المكناسي، المصدر السابق، ص 265

⁷⁸⁵ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ص 375

⁷⁸⁶ - الزبادي المنالي، المصدر السابق، ص 375

⁷⁸⁷ - الهشتوكي، المصدر السابق، ص 84

⁷⁸⁸ - محمد بن الشرقي الاسحاقى، المصدر السابق، ص 99

⁷⁸⁹ - الزبادي المنالي، المصدر السابق، ص 81

⁷⁹⁰ - محمد بن الشرقي الاسحاقى، المصدر السابق، ص 81

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

آنفا . كما ذُكِرَ أن أمير الركب المصري لذلك العام، وهو محمد باشا باي، طلب من الركب المغربي أن يسير معه لما يتوفر عليه من فرسان، وذلك رغبة في: "...الاستظهار به على شياطين العرب أهل القفر بالحجاز المتلصصين..."⁷⁹¹. وبعد أكثر من 50 سنة من رحلة الإسحافي تحدث محمد بن عبدالسلام الناصري سنة 1196هـ / 1782م أن الركب المغربي كان يتوفر على ما ينيف عن 500 بندقية⁷⁹². وعاد ليذكرنا في حجته الثانية أي بعد مضي حوالي 15 سنة من رحلته الأولى بوجود فرسان ترافق الركب المغربي.⁷⁹³ مادفعهم لاستعمال سلاحهم "...ثم منه يوم الثلاثاء، مررنا على نجع أولاد علي والحرابة، وظهرت فيهم مخايل المكر، وأخذ الناس حذرهم منهم، وشمروا لمحاربتهم، وفروا تاركين خيمهم، ورح'رمهم، ورمت الناس بالبنادق..."⁷⁹⁴.

خدمة توفير الماء: يكتسي الماء قيمة خاصة في كل الرحلات الحجازية ؛ باعتباره عنصرا أساسيا في اختيار طريق الحج وتتبعها للوصول بنجاح، لذا فالماء يعد من أوليات الرحلة ولوازم السفر التي حرص أفراد الركب على توفرها وامتلاكها قبل شد الرحال، ولذلك فكلما توفر الماء في مسار رحلة الركب ؛ كلما اطمأنت قلوب الحجاج وأحسوا بالأمان، وكلما قل الماء شعر الناس باليأس والخوف. على أن الماء في المسالك البرية يبقى عنصرا أساسيا في اختيار طريق الركب الحجي المغربي، تبعا لخصائص جغرافيا المسار التي غلبت عليها الصبغة الصحراوية.⁷⁹⁵ على أن أهم ما عني به الرحالة المياه لشدة الحاجة إليها في بعض المواضع، سواء كانت هذه المياه آبارا، أو أحساء، أو غدرانا، أو عيونا، أو بركا، أو

⁷⁹¹ - نفسه ، ص 84.

⁷⁹² - مريم بلال ، المرجع السابق، ص 156.

⁷⁹³ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، ص 689.

⁷⁹⁴ - نفسه ، ص 251.

⁷⁹⁵ - عمر بن قايد ، هاجس البحث عن الماء في المسالك الجزائرية من خلال بعض كتب الرحلات المغربية خلال القرنين

11-12هـ/17-18م، مجلة روافد للبحوث والدراسات ، العدد 09، جامعة غرداية ، الجزائر ، ديسمبر 2020م، ص01.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

أنهاراً، والتزموا أن يصفوا بدقة طعم هذا الماء على اختلاف مذاقاته⁷⁹⁶، وأشاروا إلى مواضعه وبينوا بعده وقربه من سطح الأرض، وأوضحوا طرق استخراجهِ والوصول إليه، بل لقد تغنى به الشعراء من الرحالة وضمنوه قصائدهم وأرجازهم، ذلك أن تعبيرهم عن مخاوفهم من نقص الماء قد احتل بؤرة شعورهم، لأنه مدار حياتهم وحياة دوابهم أثناء هذه السفرة⁷⁹⁷ التي امتزج فيها البعد الديني بالبعد الدنيوي، وتماهى فيها الأرضي بالسمائي، وتجاوز فيها الموت مع الحياة، فكان أبو علي محمد اليوسي كثير الانتقاد لما يراه ويشاهده، فهو لا يتأخر عن الحديث عن المياه التي يصادفها الركب في الطريق وعن ملوحتها وقبحها وماتفعله بالإنسان الشارب لها من ضرر⁷⁹⁸، أما أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته فإنه يخبرنا بأنه قد "مات من المغاربة زهاء ستين من العطش، من نساء وصبيان ورجال وولدان."⁷⁹⁹ كما يصف ذات الموقف الذي كثيراً ما يتكرر مع ركب الحجيج المغربي ابن أبي محلي السجلماسي الذي يخبرنا باضطرابه وصحبه إلى شرب ماء البحر قائلاً: "...لقد شرب بعضنا، بل كلنا، ماء البحر الزعاق..."⁸⁰⁰، ولذلك فكلما توفر الماء في مسار الرحلة الحبية كلما اطمأن قلب الحاج وهدأ روعه، وأحس بالأمان، وخلا بصفاء روحه، وكلما قل الماء وعز الوصول إليه كلما "اشتدت الحال، وبلغت القلوب الحناجر"⁸⁰¹.

أما ابن مليح السراج فيقدم في رحلته الحبيةوصفاً دقيقاً لمساره الذي اتخذ من موارد المياه نقط توقف و محطات استراحة، وهو في هذا الوصف يتجاوز البعد الجغرافي ليتناول طعم الماء ومذاقه، يقول: "...الثالثة مورد يقال له بنائم، فيه بئر واحدة مأوها ملح أجاج، لا

⁷⁹⁶ - حسين نصار ، المرجع السابق ، ص118.

⁷⁹⁷ - محمد ماكمان ، المرجع السابق ، ص120

⁷⁹⁸ - ابوعلي محمد اليوسي ، المصدر السابق ، ص43.

⁷⁹⁹ - أحمد بن ناصر الدرعي ، المصدر السابق ، ص83

⁸⁰⁰ - ابن أبي محلي ، المصدر السابق ، ص133.

⁸⁰¹ - نفسه ، ص 135.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

يستقر في البطن ساعة، طعمه فيه رائحة الكبريت ثم مرحلتان صحرا، ثم بعده مورد رسمي بجبل على وصف الأول ثم مرحلتان صحرا بعدهما....⁸⁰².

السلطات المحلية المركزية في بلاد المغرب العربي وخدمة الماء ؟.

اعتبر توفير الماء في الطريق لحجاج بيت الله من أكبر التحديات التي كانت تقع على مسؤولية السلطان العثماني، خصوصاً على حكام مصر وبلدان المغرب، ولعل ما نقلته لنا الرحلة المغاربية في هذا الشأن رهيب للغاية، وربما يعد الالتزام بهذه الخدمة المحك الحقيقي لخدمة الحجاج من عدمه في القرن 12هـ / 18م، لقوله تعالى: « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ».

أما بخصوص علاقة حكام مصر بهذا الموضوع، فيتبين لنا بداية أن هؤلاء كان يلقي على عاتقهم أكبر قدر من المسؤولية في هذا الأمر، بحكم إشرافهم على القسم الأكبر من الأراضي الصحراوية ذات الظروف المناخية القاسية في اتجاه مكة المكرمة، هذا من جهة، من جهة أخرى منطقة الحجاز منطقة جافة فقد احتاجت الى وسائل متعددة لأجل تيسير توصيل المياه إلى الحرمين الشريفين، هذا مادفع بالعثمانيين والمصريين الى بذل جهود كبيرة في سبيل تسهيل هذا العمل، فقاموا بإصلاح العيون وحفر الآبار إلى غير ذلك من هذه المحاولات، وتأكيداً لهذا الاتجاه فقد قام المصريون بتوفير "سحابات"⁸⁰³ تحمل الماء بهدف إرواء الناهلين في كل مكان ترحل فيه القافلة، وحتى تصل الى الحجاز. فيقوم سقاء السحابة⁸⁰⁴ بالدور ذاته مع أهالي الحجاز.⁸⁰⁵ لذلك فلم يكن هناك من سبيل أمام السحابة الرسمية الوحيدة التي تسير مع القافلة والتي لم تكن تكفي القافلة وحدها. فأخذت تتعدد تلك السحابات

⁸⁰² - ابن مليح السراج ، المصدر السابق ، ص31.

⁸⁰³ - أول من أجرى سحابة لخدمة الحجيج في سلاطين آل عثمان هو : السلطان سليمان القانوني ، وكانت من أهم السحابات التي أوقفت لتوفير الماء للحجاج ، للمزيد ينظر : فهيم بيومي ، مخصصات الحرمين ، المرجع السابق ، ص405.

⁸⁰⁴ - السحابات: هي "حاملات الماء" التي 'تحمل مع القوافل وتسير معها في الطريق إلى مكة ثم إلى عرفة ثم إلى المدينة ، وغرضها توفير المياه للحجيج ، والتي كانت تعني الركب المصري ومعه المغربي هي "سحابة السلطان محمد الثالث الذي عمل سحابة خاصة بهم تحتوي على الماء للفقراء المساكين

⁸⁰⁵ - فهيم بيومي ، مخصصات الحرمين ، المرجع السابق ، ص403

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

بسرعة شديدة، وأخذ المصريون ينفقون عليها الأموال الطائلة خاصة على: الجمال والمياه والحبال والشقاف والأكفان لمن يتوفى بالطريق من الفقراء، وأجر الجمالة الى غير ذلك.⁸⁰⁶ كما خصص الموظفين بينهم موظف يسمى «مهتار الشراب خاناه»، ومهمته تبريد الماء في أوقات الحر ومزجه بالسكر وتقديمه للحاج⁸⁰⁷، وكانت بعض هذه السحابات - تشتترط- وهي مصرية أن يقوم بأمرها المغاربة⁸⁰⁸ كما كان في سحابة السلطان سليمان القانوني⁸⁰⁹، وكانت توقف عليها الأوقاف الضخمة جداً مثلما كان محمد علي باشا الذي أوقف عليها عدة قرى في القرن الحادي عشر.⁸¹⁰ كما ساهموا أي العثمانيين في توفير منابع المائية وذلك بتشجيع الجهود الفردية لصيانة وترميم العيون وتكافئ الدولة بعدها المتبرع على ذلك.⁸¹¹

أما تقييم الحاج المغاربة لهذه الخدمة، فنعرفه من شهاداتهم. لقد سمو لنا عدداً من الحصون في طريق الحاج التي توجد بها آبار أو برك ينقل إليها الماء⁸¹²، ومن أقوالهم إخبار الرحالة ابن ناصر الدرعي عند وصوله لـ «آبار السلطان» بين مصر والحجاز عام 1121هـ / 1709م، بوجود آبار محكمة الصنعة⁸¹³ فضلاً عن ثلاث أخرى محدثة لم يذكرها أبو سالم العياشي في رحلته التي قام بها في القرن 17م⁸¹⁴، كما أقر الزبادي من بعده بوجود ثلاث آبار جيدة البناء في «اصطبل عنتر»⁸¹⁵، إلا أن حاجاً آخرين وقفوا في كثير من المواضع على نقائص لهذه الخدمة⁸¹⁶، فحدثونا عن أعداد كبيرة من الوفيات والجثث التي يرجحان العطش هو السبب الأول في وفاة أصحابها بهذا المسلك.

⁸⁰⁶ - نفسه ، ص 405.

⁸⁰⁷ - سميرة فهمي، إمارة الحج في مصر العثمانية، ص 188.

⁸⁰⁸ - فهمي بيومي ، مخصصات الحرمين الشريفين ، المرجع السابق ، ص 404.

⁸⁰⁹ - محمد بن الشرقي الاسحاقي ، المصدر السابق ، ص 159.

⁸¹⁰ - فهمي بيومي ، مخصصات الحرمين الشريفين ، المرجع السابق ، ص 405.

⁸¹¹ - مريم بلال ، المرجع السابق ، ص 140.

⁸¹² - عمر بن قايد ، المرجع السابق ، ص 15.

⁸¹³ - أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، ج 1. ص 252.

⁸¹⁴ - أبو سالم العياشي ، ماء الموائد ، المصدر السابق ، ص 254.

⁸¹⁵ - عبد المجيد الزبادي المنالي، المصدر السابق، ص 65.

⁸¹⁶ - مريم بلال ، المرجع السابق ، ص 138.

حيث صرح ابن ناصر الدرعي وهو ذاهب إلى الحجاز، بوفاة زهاء ستين (60) حاجاً من المغاربة بسبب العطش بعد تجاوز «بندر الوجه»⁸¹⁷. وتحدث الهشتوكي رفيقه في الرحلة عن موتى كثير بدرب الحجاز⁸¹⁸، كما لفت انتباهنا الرحالة المغربي إلى مشاهد مأساوية حصلت بهذا المسلك وهي وجود جثث كثيرة للحجاج على قارعة الطريق مات أصحابها نتيجة شح الماء، وفي هذا الصدد حدثنا الإسحاقى عام 1731م عن أكوام من العظام في «بندر الوجه» على جنبات الطريق⁸¹⁹، وأخبرنا أبو مدين الدرعي هو الآخر عام 1154هـ / 1741م عن مشهد مشابه على الطريق بين موضع «الدركين» و «اصطبل عنتر»، حيث «عظام الموتى والإبل بأرجائها لا تقدر ولا تحصى»⁸²⁰، وبعده حدثنا ابن عبدالسلام في رحلته الثانية عام 1796م عن عدد كبير من الموتى في موضع «الأزلم» ولا أحد اهتم بدفنهم⁸²¹، بل يصبح المشهد فظيماً للغاية وهو يتحدث عن تلك الأكوام من عظام الحجاج في بقية الطريق «على جوانب الجادة»⁸²². أما بشأن علاقة حكام الحجاز بخدمة توفير الماء للحجاج في طريقهم، فقد أشار الناصري في رحلته الحجية الأولى إلى انتباه الولاة إلى هذا المشكل وقيام الأمير سرور بإصلاح قنواته بمكة⁸²³، وأشار الرحالة ابن الطيب الفاسي وهو بموضع «الخضيراء» إلى وجود جثث بالجملة للموتى نتيجة السموم الحارة⁸²⁴، ولا شك أن موت أصحابها كان بسبب العطش بالدرجة الأولى. وجاء من بعده الناصري ليتحدث عن المسافة الفاصلة بين المدينة المنورة و«آبار الغنم» التي مات بها في حجته الثانية «ما ينيف على ربع الحجاج بالسموم الحارة والعطش، وأما البهايم إبلاً وبغلاً وحمراً فلا تسئل عما حل

⁸¹⁷ - أحمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 170.

⁸¹⁸ - أحمد الهشتوكي، المصدر، ص 245.

⁸¹⁹ - الشرقي بن محمد الإسحاقى، المصدر السابق، ص 211.

⁸²⁰ - أبو مدين الدرعي، المصدر السابق، ص 205.

⁸²¹ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ص 103.

⁸²² - نفسه، ص 416.

⁸²³ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ج 01، ص 360.

⁸²⁴ - محمد بن الطيب الفاسي، المصدر السابق، ص 131.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

بها من الموت»⁸²⁵. وكان الناصري أخبرنا وهو يمر بموضع «هدية» في اتجاه «حفائر الغنم» وهو في عودته من الحجاز أن «هذه المرحلة والتي قبلها هلك بها ومات من الأدميين والدواب الكثير»⁸²⁶، وعاد ليحدثنا هو نفسه عبر شهادته الحية بعد حوالي 15 من شهاداته الأولى عن المسافة الفاصلة بين «القاع» و«بدر» التي هلك بها الكثير بسبب العطش⁸²⁷. لهذا يغدو الماء في رحلة ومسار الركب مجرد وسيلة وأداة ضرورية لاستمرار الكائن البشري وتحقيق شرط الحياة لديه، ولا ينحصر في كونه مصدرا للأمان والاطمئنان والدعة، ولكنه يتجاوز هذا الشرط ليلامس البعد الديني؛ فالماء نظير للطهارة والنقاء الجسماني المواكب للنقاء الروحي الذي من أجله شدد الركاب وزمت الأزمة، ذلك أن "مما ينبغي لمن وفق لذلك، و تجرد عن الأهل والوطن لحياة الفضل هنالك، أن يتوسل بإخلاص العمل بنية صادقة، و يتمسك من التقوى بعروة وثقة، فإن من أقبح القبائح، و أفصح الفضائح، أن يقصد المهاجر الوفود على مولى كريم، حلیم عظیم، و هو بما تكنه الضمائر خبير عليم بباطن وسخ، و ظاهر ملتطخ، فينبغي له أولا طهارة الباطن من كل خبث و رجس، و طهارة الظاهر من كل لوث و نجس".⁸²⁸ عرف الإنسان أن مولاه دعاه ليكرمه في بيته بمغفرة ذنوبه ويباهي به ملائكة قدسه، وأنه يتقلب في طاعة سيده في ليله ونهاره وفي سائر أحواله، وأنه من المحبوبين عنده، لأن السيد لا يدعو لبيته إلا من يحب، وأن نبيه، صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم ومجد وعظم، دعاه ليشفع له عند ربه ويتحفه تحفة الكرام لمن زارهم مما لا قدر أن يعبر عنه اللسان، ولا كريم أكرم منه، صلى الله عليه وسلم، صَبَرَ صَبْرَ الكرام في ماله وفي تحسين أخلاقه مع الناس وعلى طاعة الله وعن معصيته، وهكذا حتى يتم الغرض إن شاء الله على أكمل حال، ويفوز به بما فاز به الفائزون، وإلا ربما تسخط وفسدت نيته

⁸²⁵ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الصغرى، ج1، المصدر السابق ص105.

⁸²⁶ - نفسه. ص 491 .

⁸²⁷ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الصغرى، ص106.

⁸²⁸ - أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي ، المصدر السابق ، ص02.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

واستحوذ عليه الشيطان، وخسر هنالك المبطلون، لا سيما من استهون بأمور الدين في الحرمين الشريفين.⁸²⁹

خدمة تجهيز الطرق للحجاج، وبناء مرافق بها: في مقابل الصورة القاتمة لحكام مصر التي قدمتها عنهم الرحلة الحجية المغاربية في أكثر من موضوع من مواضيع الاهتمام بحجاج بيت الله، حَاوَلْتُ إنصافهم بعض الشيء فيما تعلق بإصلاح المسالك التي كانوا يعبرونها نحو مكة المكرمة. فلقد انتبه الولاة إلى أهمية وضع العلامات أو «الإشارات» أو «المصانع» كما سماها حجاج المغارب في طريق الحاج خصوصاً في درب الحجاز على طريق ركب الحاج المصري، والمصانع عبارة عن سوازي مبنية في سبخة لا يظهر فيها أثر الطريق، فجعلوا تلك الأعلام المبنية دليلاً عليها وجعلوا في رؤوس الأبنية حجراً طويلاً إلى ناحية الطريق ليستدل به على الماشي ليلاً، ولربما علقوا على بعض الأعلام مصابيح بليل، وبين كل علم وعلم فرسخ أو أقل، حتى انتهوا به إلى رأس وادي الرمل. وتسمى هذه الأعلام اليوم النواظر⁸³⁰. ومن مظاهر المجهود المبذول من قبل ولاية مصر في هذا الصدد أن الطريق من أيلة إلى الحجاز التي كانت زمن رحلة الهشتوكي عام 1121 هـ / 1709 صعبة المرور بدليل أنه اقتفى طريق البحر و هي⁸³¹ ... طريق ضيقة جداً والإبل مقطورة ولم تجد البغال والإبل أين تسير... وكابدنا في ذلك - يقول الهشتوكي " مشقة عظيمة"⁸³²، وهذه الطريق هي نفسها التي أخبرنا الزبادي من بعد الهشتوكي أنها " نحتت وسويت وحافتها المخوفة ببناء متقن قد بنيت"⁸³³.

⁸²⁹ - الطيب بن كيران ، المصدر السابق ، ص 08.

⁸³⁰ - عبد المجيد الزبادي المنالي، المصدر السابق ، ص ص 55-56.

⁸³¹ - أحمد الهشتوكي .المصدر السابق ، ص 252

⁸³² - نفسه . ص 253.

⁸³³ - أكدت مصادر أخرى في مناسبات محددة من القرن 18م اهتمام المصريين بمنازل الحجاج، عبر تمويلها بالمؤن الكافية التي كانت تصل إلى مؤن سنة بكاملها، وأشتهر الأمير إسماعيل بيك بن إيواظ بتموين البنادر وتركه في بندر

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

ويبقى المجهود المصري في أداء هذه الخدمة نسبياً في نظر ابن ناصر الدرعي، ودليله قوله وهو يعبر مضيق العقبة الكبرى بعد « حصن عجرود » الذي يقع بين البحر والجبل،⁸³⁴ و لا يمر به إلا جمل إثر جمل كأنه متالصراط⁸³⁵.

أما بالنسبة لعلاقة حكام تونس بهذا الموضوع، نتوفق مرة أخرى عند إشارة لابن ناصر الدرعي لسنة 1121هـ / 1709م ومفادها وجود سبحة خطيرة ربما تهلك فيها الرواحل عند عبورها بعد بلدة توزر في الذهاب، و نقل لنا الدرعي كلاماً من رحلة أبي سالم العياشي المؤرخة بـ 1661-1663م بأن هذه السبحة ابتلعت رواحل في بعض الأماكن منها، ولم يحدثنا الدرعي في زمانه عن تغيير وضع هذه السبحة في عهده⁸³⁶.

السويس والمويلح والينبع، خلال سنة ، للمزيد ينظر :الجبرتي، عجائب الآثار، ج01، مصدر سابق، صص211-212.

⁸³⁴ - أحمد بن ناصر الدرعي ، الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ج01 ، ص160

⁸³⁵ - نفسه ص 162.

⁸³⁶ - نفسه ، ص 53.

المبحث الثاني: موارد ركب الحج المغربي:

0101- الموارد الرسمية: دعم الحكومات المغربية للحج

02- الموارد غير الرسمية: وتتركز أساسا في:

01-01- الأماك الوقفية: يعتبر الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية. فهو أساسا يعبر عن إرادة الخير في الإنسان المسلم وعن إحساسه العميق بالتضامن مع المجتمع الإسلامي. وهو بهذا المعنى شرعة اتبعها المسلمون منذ أوائل الإسلام، ولكن بتطور الزمن تكاثر وتعددت أوجهه وأغراضه⁸³⁷.

01-02 - أصل الوقف ومرجعياته:

أ- الحبس: هو منع الإنسان نفسه من التصرف في عين ماله بتفويت، كالبيع ونحوه، وإقامة منافعه إما لخصوص المحبس عليهم من الأولاد ونحوهم، وهي (أحباس خاصة)، وإما لقصد وجه من البر أو مصلحة عامة من: إقامة مدارس، ومكاتب، وكتب، ودروس، وجوامع، ومساجد، وتكايا، إلى غير ذلك من المصالح العامة. وهذه الأحباس تسمى (أحباسا عا لفظ الحبس يقال على الشيء المحبس ويقال على المعنى المصدري⁸³⁸، وهو إعطاء منفعة شيء، مدة وجوده، لازما بقاءه في ملك معطيها⁸³⁹.

⁸³⁷ - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الأول ، المرجع السابق ، ص 277

⁸³⁸ - للمزيد ينظر : الخرخشي ، الخرخشي على سيدي خليل ، ج07 ص77، وكذلك العدوي : حاشية العدوي ، ج02 ، ص341

⁸³⁹ - هذا تعريف السادة المالكية للحبس . للمزيد انظر الخرخشي ، الخرخشي : على سيدي خليل ، ج08 ، ص 78 ، عlish : منح الجليل ، ج04 ، ص34 ، الخطاب : مواهب الجليل ، ج06 ، ص18 ، ولشرح مفردات التعريف يقول : "إن قوله عطاء منفعة " قد احترز به عن إعطاء الذات كالهبة ، فالواهب يعطي ذات العين الموهوبة للموهوب له . وقوله : ((شيء)) دون منفعة مال أو متمول ، لأن الشيء أعم إلا أنه خصصه بما جاء في التعريف من بقاء ملكه . وفي قوله "مدة وجوده" قيد

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

وأركانها⁸⁴⁰ أربعة وهي: مالك محبس، ومملوك محبس، وجهة محبس عليها، وصيغة تحبیس، وشرطه حوز المحبس عليه.

الركن الأول: المحبس: لا بد ان يكون مالكا لرقبة الشيء الذي حبسه، وحيث إن الحبس في الشريعة: إعطاء منفعة الشيء مدة وجودها، فرقبة الشيء باقية على ملك المحبس، وورثته لهم منع المحبس عليهم من تغيير العين لو بالإصلاح⁸⁴¹.

الركن الثاني: الشيء المحبس إذا كان مملوكا: أما المنقولات، فإن كان دراهم موقوفة على السلف أو طعام كذلك جاز الحبس وصح. واختلف تحبیس الحيوان والعروض.

وأما غير المنقول من ريع وعقار، فلا خلاف في جواز تحبیسه وصحته، وكذلك الجزء المشاع من عقار يقبل القسمة.

ويصح تحبیس المرهون والمأجور على صيرورته للوقف بعد انقضاء الرهن والإجازة، وإلا فلا. ويصح التحبیس لأمد معين كسنة، ويصير بعدها ملكا.

احترز به عن الإعارة والعمرى . ذلك أن للمعير الحق في استرجاع العين المعارة متى شاء . والعمرى : الشيء المعمر - يرجع بعد موت المعمر له ملكا للمعمر أو لوارثه . وعلى هذا : فهذا القيد يفيد تأييد الوقف .

ويرى العدوي في "الحاشية" ج2: ص341.... أن قول: ((مدة وجوده)) ليس بقيد ، بل يجوز الوقف مدة معينة ولا يشترط التأييد. وفي قوله: "لازما بقاءه في ملك معطيها" قيد خرج به العبد المخدم حياته بموت قبل موت سيده، لأنه يلزم بقاءه في ملك مخدمه ، بل يجوز بيعه برضاه مع معطاه . للمزيد ينظر: الخرشي ، الخرشي على سيدي خليل، ج07، ص:78، وكذلك: عليش : منح الجليل ، ج04، ص34.

⁸⁴⁰ - الركن : بضم الراء . لغة : الجانب الأقوى ، وركن الشيء جانبه الذي يسكن إليه . فيكون عينه . انظر ، الفيروز آبادي ، القاموس المحيط، مادة ركن . أما الاصطلاح : فهو ما يكون به قوام الشيء ، بحيث يعد جزءا داخلا في ماهيته . انظر خلاف ، علم أصول الفقه ، ص:119.

⁸⁴¹ - جاء في ((منح الجليل)) ج04، ص78..(لفه) أي الواقف (ولوارثه) أي الواقف الذي انتقل له ملك الوقف دون منافعه(منع من) أي شخص (يريد إصلاحه) . اي : الوقف المحتاج للإصلاح .. ووجهه ابن عبد السلام بان الحبس مملوك لمحبيه ، وكل مملوك لايجوز لغير مالكة تصرفه فيه بدون إذن مالكة.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

الركن الثالث: الموقوف عليه بحيث يكون اهلا للتملك حقيقة كالأولاد الفقراء، أو حكما كالمساجد والجسور، ويصح الحبس على الرشيد والصبي والجنين. ومن سيوجد من الأبناء وغيرهم، ولفظ: الأولاد والأبناء والعقب، والنسل في نصوص المحبس لا يشمل أولاد البنات إلا إذا ذكرت بعد ذكر البنات.

الوقف لغة الحبس، فيقال يقف الدار على فلان أي حبسها، والحبس معناه المنع أي منع العين من أن تكون ملكا، وفي الاصطلاح الفقهي عرفه الفقهاء بتعريفات عديدة منها: حبس العين وتصدق بالثمرة، حبس الأصل وتسبيل الثمرة، أي حبس المال وصرف منافعه في سبيل الله، والوقف والتحبيس والسبيل معنى واحد⁸⁴². والوقف مطلقا عبارة عين حبس العين من أن تكون مملوكة لأحد من الناس وجعل منفعتها عائدة إلى أمور عامة أو لأشخاص معينين بالذات والصفات⁸⁴³.

والوقف نظام إسلامي محض استمد شرعيته من الحديث الشريف القائل "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو إليه"⁸⁴⁴ رواه مسلم وأبو داود والترمذي و النسائي عن أبي هريرة.

فالوقف من خصائص الإسلام ومعظم أحكامه ثابتة باجتهاد الفقهاء والاعتماد في أصول فقهم على الاستحسان والاستصلاح والعرف. وتؤكد المرجعية الدينية التي شرعت الأوقاف على أن الدافع الأساسي لعملية التحبيس هو الحصول على الثواب واستمراره ودوامه بدوام الشيء المحبس الذي هو صدقة جارية⁸⁴⁵.

⁸⁴² - وهبة الزحيلي . الوصايا في الفقه الإسلامي ، دار الفكر ، دمشق ، ط01، 1987، ص 153

⁸⁴³ - السيد سابق . فقه السنة ، المجلد 03، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط03، 1397هـ/1977م ، ص 515

⁸⁴⁴ - نفسه ، ص 515

⁸⁴⁵ - محمد السنوسي . الروض الزاهر في إسناد الحبس للإسلام الباهر ، المصدر السابق ، ص 13

02 - أركان الوقف وانعقاده و ما يصح فيه الوقف: يكون الوقف في كل ما يجوز بيعه والانتفاع به مع بقاء عينه سواء كان ذلك عقارا أو منقولا ولا يجوز وقف ما يسرع إليه الفساد وما لا يجوز بيعه كالمرهون وسائر السباع والكلاب وجوارح الطير التي لا تصلح للصيد.

ولا يصح الوقف إلا على معين أو جهة برّ كالولد والأقارب وبناء المساجد والقناطر وحتى الجماد والحيوان و لايجوز الوقف على مجهول أو معصية⁸⁴⁶.

ويقوم الوقف على وجود أربعة أركان هي: المحبس، والمحبس، والجهة المحبّس عليها، وصيغة الحبس.

ويشترط في المحبّس أن يكون مالكا لرقبة الشيء الذي حبسه وله أهلية التبرع بما يملك، ويكون مسلما فلا حبس من ذمي.

ويشترط في الركن الثاني وهو الشيء المحبس عقارا كان أو منقولا أن يكون مملوكا للمحبس.

. ويشترط في الموقوف عليه أن يكون أهلا للتملك حقيقة كالأولاد و الفقراء أو حكما كالمساجد والجسور، ويصح الحبس على الرشيد والصبي والجنين ومن سيولد على الأبناء وغيرها.

. أما صيغة التحبّيس وهي الركن الرابع فتصدر عن المحبس المالك لعين الشيء وهي قوله: حبست أو وقفت. ومعناها التأبّد⁸⁴⁷، أو يقول تصدقت صدقة مؤبّدة، أو يجعله صدقة على جهة لا تنقطع كالعلماء والمساجد والفقراء مع تقييم الصدقة بعدم البيع.

⁸⁴⁶ - السيد سابق ، المصدر السابق ، ص 516

⁸⁴⁷ - ابن راشد البكري القفصي المالكي ، لباب اللباب -المطبوع في تونس- 1346هـ، دون تحقيق ، ص 273

03 - أنواع الوقف: تدور الأوقاف في الأساس حول نوعين هما العام والخاص. غير أن بعض الباحثين جعل له فروعاً أخرى تبعا لاعتبارات متعددة وجاءت على النحو التالي:

. باعتبار الموقوف عليهم إلى: -خيري وأهلي

- عام وخاص

- معين وغير معين.

باعتبار المحل ينقسم إلى: عقار وهو محل اتفاق بين العلماء
منقول.

. باعتبار مشروعيته ينقسم إلى: -الوقف الصحيح: وهو الذي اكتملت شروط صحته.

-غير صحيح: الذي كان غير موافق لأحكام الشريعة.

باعتبار لزومه ينقسم إلى: -الوقف اللازم: هو الذي لايجوز الرجوع عنه كوقف المسجد والوقوف كلها لازمة عند جمهور الفقهاء إلا عند أبي حنيفة فهو يجيز الرجوع فيه.

-غير اللازم: هو مايمكن الرجوع عنه في حياة الواقف باعتباره من عقود التبرعات فهو جائز وغير لازم⁸⁴⁸.

وهذا التنوع ناتج عن آراء المذاهب السنية واختلافها⁸⁴⁹.

وكانت الأوقاف العامة منذ نشأتها تدار من أصحابها. ولكن تطور الحياة الاجتماعية جعل وجود أجهزة معينة للإشراف عليها أمراً ضرورياً. فكان القضاة هم المخولين للإشراف على الأوقاف فكونوا نظم المحاسبة لولاة الوقف. حماية للوقف من التبدد ورعاية لحقوق

⁸⁴⁸ - الشيباني بن بلغيث ، المرجع السابق ، ص 16

⁸⁴⁹ - ابن راشد القفصي ، المصدر السابق، ص274

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

الموقوف عليهم. وتحت إشراف القاضي وضع سجل تسجل فيه حقوق المستحقين وشيئا فشيئا تكونت هياكل تنظيمية للوقف وإدارته بعد ازدياد عمليات الوقف واتساعه خلال العهد العثماني. وأدى اتساع الوقف وتنوع مجالاته وكثرة الموقوفات إلى تدخل الدولة في الإشراف على الأوقاف من خلال سلطة القضاة فأنشأت هيئات إدارية تهتم بشؤونهم. فاصدرت قوانين وأنظمة متعددة لتنظيم إدارة الوقف في كامل الأقاليم. فنظمت سجلات الأوقاف وكيفية الاستثمار لمال الوقف⁸⁵⁰.

و لهذا ظلت الأوقاف، أو الأحباس كما تعرف في أقطار المغرب العربي، باعتبارها تقليدا إسلاميا عريقا تشكل إحدى مظاهر الحضارة العربية الإسلامية التي تميز بها العهد العثماني بالجزائر، وتأثرت بها أوضاع البلاد الجزائرية إثر تعرضها للغزو الفرنسي عام 1830م.⁸⁵¹ فالوقف باعتباره عقد عمل لعمل خيري ذي صبغة دينية، يقوم على توفر الواقف الذي له أهلية التبرع بما يملك من ذات أو منفعة، وعلى وجود الموقوف وهو المنفعة، التي تصرف على سبيل الحبس، فضلا على توفر الموقوف عليه، وهو المستحق لصرف تلك الذات أو المنفعة ولو كانت مصلحة عامة كالمسجد والمدرسة والزاوية وغيرها، هذا مع اشتراط صيغة الوقف، ولو كانت الصيغة تتعلق بمسجد أو مؤسسة خيرية.

فبفضل هذه الأسس والأركان كما تعرف فقها. يأخذ الوقف مفهومه الشرعي ويصنف حسب الغرض من صرف المنافع المترتبة عليه، فمنها ما هو وقف عام يعود أساسا على المصلحة العامة التي حبس من أجلها، ومنها ما هو وقف خاص لا يتحول صرف منفعته على المصلحة العامة التي حبس على أساسها إلا بعد انقراض العقب أو انقطاع نسل

⁸⁵⁰ - الإمام كمال الدين محمد ، المصدر السابق ، ص 162

⁸⁵¹ - ناصر الدين سعيدوني ، الوقف ، المرجع السابق ، ص 57

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

صاحب الحبس أي الواقف، وهذا الصنف الخير من الوقف يعرف بالوقف الذري أو العائلي أو الأهلي وهو الشائع في أغلب أقاليم الإمبراطورية العثمانية⁸⁵².

-مؤسسة الحرمين الشريفين:-

أ-في إيالة الجزائر تعد هذه المؤسسة من أهم مؤسسات الوقف، من حيث عدد أوقافها و مداخيلها، فهي تحتل المرتبة الأولى إذ كان يبلغ تنفيذها في أواخر العهد العثماني ثلاثة أرباع الأوقاف الموجودة آنذاك⁸⁵³،

وقد أنشأت بغية مساعدة الجزائريين في وقف ممتلكاتهم، سواء داخل المدينة وخارجها، مما جعلها في صدارة المؤسسات الخيرية من حيث عدد الأملاك التي تعود إليها أو الأعمال الخيرية التي كانت تقوم بها، فكانت تقدم الإعانات لقاصدي الحرمين الشريفين أو المارين بالجزائر، وتتكفل هذه المؤسسة بإرسال حصة من الأموال والحاجات الضرورية إلى الفقراء في دورة دورية كل سنتين عن طريق مبعوث مكة أو عن طريق أمير ركب الحج⁸⁵⁴

وتظهر أهمية الوقف في الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية. فهو مصدر العيش للزوايا والأضرحة وغيرها من المؤسسات الدينية. كما أنه مصدر الحياة والنمو للمساجد والمدارس والكتاتيب ومعيشة العلماء والطلبة. ومن جهة أخرى لعب الوقف دورا بارزا في الحياة الاجتماعية بتضامن المجتمع وترابطه وتوزيع ثرواته على فقرائه والعجزة منه، كما

⁸⁵² - ناصر الدين سعيدوني ، الوقف ، المرجع السابق ، ص ص 57-58

⁸⁵⁴ - أبو بكر حبوسة ، دور الوقف في دعم المؤسسات الخيرية بالجزائر ، مجلة الإجتهد للدراسات القانونية والاقتصادية ، مجلد 07، عدد 04، جامعة سطيف ، الجزائر ، 2018، ص 509

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

أظهر تضامن فئات معينة كالإشراف وأهل الأندلس. وكان الوقف، بالإضافة إلى ذلك، يلعب دورا في التأثير الديني والسياسي خارج الحدود كإرسال النقود سنويا إلى فقراء مكة والمدينة مع ركب الحج⁸⁵⁵. وقد لخص بعضهم الأوجه الاجتماعية والدينية لخدمات مؤسسة الوقف على النحو التالي:- ما يذهب ريعه للتخفيف على الفقراء بتوزيع النقود والمواد الغذائية يوم الخميس والجمعة.

- ما يستعمل لصيانة المؤسسات الدينية في مكة والمدينة بالذات، وهو الريع الذي يصل غلى شيخ الإسلام في مكة سنويا.

- الريع الذي يستعمل لاقتداء أسرى المسلمين عند النصارى (وهذا كان قبل الاحتلال)

- ما يعود ريعه إلى صيانة المساجد والمباني الدينية على العموم

- مصاريف وأجور القائمين على المساجد وغيرها كالأئمة والعلماء والطلبة والحزابين والوكلاء⁸⁵⁶.

يتشكل التنظيم الإداري لمؤسسة الحرمين الشريفين في إيالة الجزائر:

بالإضافة إلى أهمية الأملاك الوقفية التابعة لها، وارتفاع مستوى عائداتها فإن مكانة مؤسسة الحرمين الشريفين ودورها في حياة المجتمع تبرز من خلال تنظيمها ونشاطها ومهامها.

فقد عرف التنظيم الإداري لمؤسسة الحرمين الشريفين تطورا انتهى بتشكيل جهاز إداري محكم التنظيم يتوفر على هيئة رقابية وموظفين مؤهلين ومقارن للاستقبال، وقد ضمت هذه المؤسسة عددا من الموظفين أوكلت لهم مهام مختلفة وكانوا يخضعون لتنظيم متسلسل، وهم:

⁸⁵⁵ - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الأول ، المرجع السابق ، ص 231

⁸⁵⁶ - نفسه ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الخامس ، المرجع السابق ، ص 158

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

01 - الشيخ الناظر: يعتبر المسير الرئيسي للمؤسسة، ويرد في الوثائق تحت تسمية المتولي أو وكيل الحرمين ففي إيالة الجزائر يختاره الديوان من بين كبار الموظفين الأتراك المشهود لهم بحسن سيرتهم وولائهم، ويعينه في منصبه الباشا (الداي) برضى الديوان. ونادرا ما يكون هذا المنصب وراثيا، ورغم أن الشيخ الناظر⁸⁵⁷ معرض للخلع من منصبه إلا أنه لا يخضع للرقابة ولا يخشى سوى رأي العلماء أو الشائعات التي قد تنتشر في شأنه وقد تؤدي إلى إنهاء مهامه⁸⁵⁸.

02 - وكلاء الحرمين: وهم موظفون يختارهم الديوان ويعينهم في مناصبهم الشيخ الناظر، وحسب الأستاذ ناصر الدين سعيدوني فإن أغلب الوكلاء يتم إختيارهم من بين الأغوات الأتراك وأعيان الأندلسيين⁸⁵⁹.

03- بيت المالجي⁸⁶⁰: يعتبر المسؤول عن أملاك الدولة (البايك) مما جعل منه المشرف على استخلاص حقوق الخزينة العامة في تركات المسلمين الشاغرة اي التي ليس لها وارث أو تلك التي منحت الشريعة الإسلامية قسطا منها للدولة، هذا وباعتباره ممثل الديوان ومندب الداى في البقاع الإسلامية المقدسة فقد كان بيت المالجي يشارك الحجاج رحلتهم إلى الحجاز ويحمل بهذه المناسبة هدية مؤسسة الحرمين المسماة ((الصرة))⁸⁶¹. وبصفته

⁸⁵⁷ - يخول منصب المسؤول عن أموال الحرمين أي منصب الشيخ الناظر لصاحبه بالإضافة لوظيفته الرئيسية مهمة حفظ مدخرات ومجوهرات الخواص ، كما أنه كان مسؤولا على نظار الحرمين العاملين في المدن الثانوية كالبليدة و القليعة وشرشال والمدية و مليانة وبجاية وقسنطينة وعنابة ووهران وتلمسان و مازونة و معسكرومستغانم ، والذين كان يتوجب عليهم تقديم تقرير سنوي عن نشاطهم للشيخ الناظر. للمزيد أنظر ، سعيدوني ناصر الدين ، الوقف ، المرجع السابق ، ص 160

⁸⁵⁸ - ناصر الدين سعيدوني ، الوقف ، المرجع السابق ، ص 159-160.

⁸⁵⁹ - نفسه ، ص 163

⁸⁶⁰ - يعد بيت المالجي من بين كبار الموظفين الذين يختارهم الديوان ويعينهم الداى ، وهو من المسؤولين الرئيسيين عن

مؤسسة الحرمين الشريفين . للمزيد أنظر : سعيدوني ناصر الدين ، الوقف ، المرجع السابق ، ص 164

⁸⁶¹ - ناصر الدين سعيدوني ، الوقف ، المرجع السابق ، ص 166

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

مسؤولا عن الرحلة، كان بيت المالجي مكلفا بحفظ وإرجاع تركات الحجاج الذين يتوفون خلال رحلة الحج⁸⁶².

04- قاضي الحرمين: يعين من طرف الهيئات القضائية وكان يخضع لسلطة المفتي. يحضر العمليات المتعلقة بالأموال الوقفية ويصادق على عقود الوقف التي يحررها الوكلاء

05- العدول: هم معاونو القاضي المنتدبون لدى وكلاء الحرمين الشريفين، ففي كل عملية تخص الوقف كان الشيخ الناظر يعين اثنين منهم حتى يتم إضفاء طابع الشرعية على العملية والتأكد من احترام القرارات المتخذة بشأن الوقف.

06- الباشا شاوش: هو المسؤول على أعوان المؤسسة أو الشواش وهم الشاوش وهم الموظفون المستخدمون في مؤسسة الحرمين لحراسة البنايات وأعمال الصيانة المختلفة وبعض الخدمات اليومية في أماكن العبادة ومكاتب المؤسسة.

07- الصايحي: هو أمين سر المؤسسة وأمين صندوقها الرئيسي. وكان يعتبر موظفا ثانويا يشرف على المعاملات المالية ويراقب العمليات التي يقوم بها العدول بشأن الأموال الوقفية ويحتفظ بدفاتر المؤسسة.

08- المجلس العلمي: تقوم هذه المؤسسة بمراقبة التسيير الإداري لمؤسسات الوقف وعلى وجه الخصوص مؤسسة الحرمين. يرأسها المفتي الكبر والقاضي الرئيسي الحنفيان، ويساعدهما المفتي المالكي وقاضيان أحدهما مالكي والآخر حنفي، وأعضاؤه الآخرون من الأعيان وهم: أمين الأمناء وشيخ البلد وبالضرورة الناظر ووكلاء الحرمين⁸⁶³.

كان لعواصم الأقاليم أيضا أوقاف خاصة بأموال مكة والمدينة على غرار ما كان في مدينة الجزائر. وكان ركب حجيج كل إقليم يحاول أن يتفوق على نظرائه في الثروة والجاه. ومن

⁸⁶² - نفسه ، ص 164

⁸⁶³ - devoulx a , note historique sur les mosquées..op.cit ; pp24-25.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

أشهر من حمل صدقة مكة والمدينة من قسنطينة، بعد عبد الكريم الفكون، القاضي أحمد العباسي. وقد اشتهر الباي محمد الكبير بحبه للجاه والسمعة فكان يهادي علماء المشرق، ولاسيما علماء مكة والمدينة، عن طريق ركب الحج الذي كان ينطلق من عاصمته معسكر ثم وهران⁸⁶⁴.

وما يمكن قوله هو أن مؤسسات الحرمين الشريفين نالت أهم قسط من العقارات الموقوفة حسب الإحصائيات، وكانت هذه المؤسسة تشرف على ثلاثة أرباع العقارات المحبوسة في مدينة الجزائر، وكان لمؤسسة مكة والمدينة أهمية سياسية أيضا، فقد كانت تمثل وجه الجزائر في العالم الإسلامي وكان ركب الحج الجزائري يحمل كل سنة كمية هائلة من النقود والذهب والفضة و الألبسة وغيرها إلى فقراء مكة والمدينة وخدام الحرمين الشريفين⁸⁶⁵.

ب- في إيالة تونس:

لقد شهدت البلاد التونسية الوقف منذ فترة مبكرة، وانتشر وزاد مع كثرة الحواضر وخاصة بناء المساجد بداخلها حيث أوقفت عليها العقارات، ولذا فقد ارتبط الوقف بالعقار أكثر من أي شيء آخر. ورغم إلحاق البلاد التونسية بالعثمانيين سنة 1574م، إلا أن مذهبهم الحنفي شجع على إقامة الأوقاف، بل تتفق المصادر أن المذهب المالكي كان أكثر مرونة من المذهب الحنفي في عقود الأوقاف، وهذا ما جعل الأوقاف تنتشر بشكل كبير جدا بتونس، وكان لزاما على السلطة أن تغير الكثير من أساليبها لبسط نفوذها على العقارات قصد تحويلها إلى أوقاف، وخاصة مع قيام النظام الوراثي العائلي أولا بدولة المراديين (1631-1705م)، وثانيا النظام الحسيني خاصة خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

لمحة عن الوقف في العهد المرادي: ساهم المراديون بأوقاف كبرى كانت أقطاب تعمير، منها القصر الذي حبسه الباي "مراد الأول" (1613-1631) على ذريته ن والمعروف

⁸⁶⁴ - سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الأول ، المرجع السابق ، ص 239

⁸⁶⁵ - نفسه ، ص 240

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

بتسميته الوقفية بالدار الكبرى أو مايعرف ايضا بدار الباي، وكذلك الجامع الذي أنشأه الباي "حمودة باشا المرادي" 1655م، والحق به ميسأة والتربة التي دفن بها أفراد العائلة المرادية، وحبس عليهم حوانيت وحمامات وفنادق، وفي الثلث الأخير من القرن السابع عشر أنشا الباي "مراد الثاني" سنة 1674م المدرسة المرادية قرب جامع الزيتونة وحبس بعض حوانيت السوق المحيطة بها على المدرسة والطلاب المقيمين بها، وفي نهاية القرن السابع عشر شيد الباي "محمد" جامع الكبير بحي باب السويقة مع إعادة تشكيل المجال الحضري للحي والأحياء القريبة منه ⁸⁶⁶.

أنواع الوقف في إيالة تونس: الأوقاف في الأساس مؤسسة مستقلة عرفيا تحت سلطة القضاء الشرعي، ونظر الوكلاء بإشراف القضاة حيث تدون صيغة الوقف وتحفظ رسومه. ولا تتدخل الدولة في شؤون الأوقاف إلا بالإشراف العام وتولية الوكلاء والمحاسبين، حيث تكلف محتسبا لمحاسبة الوكلاء ⁸⁶⁷. وتتوزع الأوقاف التي وجدت في تونس إلى نوعين:

01-الأوقاف المنقولة: وتشمل الأثاث وماهو معد للاستعمال كآلات النحاس والفخار ويشمل آلات الصناعة وآلات الحرب والسلاح والكتب وماشابه ذلك.

02- الأوقاف غير المنقولة: وهي العقارات والرياح وهي تشمل أغلب الأقباس في تونس وتضم حتى بعض الشواطئ البحرية والثروة السمكية، وهي توجد خاصة في شواطئ بنزرت و جربة.

وتتوزع هذه الموقوفات المنقولة وغير المنقولة على ثلاث جهات: الوقف العام: وهذا الوقف هو العائد على مشاريع دينية واجتماعية وخيرية.

⁸⁶⁶ - احمد السعداوي ، تونس في القرن السابع عشر وثائق في الأوقاف في عهد الدايات والبايات المراديين ، كلية الآداب والفنون والعلوم الإنسانية ، منوبة ، وحدة البحث في المدن التاريخية التونسية والمتوسطية ، تونس ، 2011، ص

⁸⁶⁷ - الشيباني بن بلغيث ، المرجع السابق ، ص 27

. **الوقف الخاص:** وهو الذي يكون على الأحفاد والقارب أو أفراد

. **الوقف المشترك:** وهو المشترك بين الاعتبارين العام والخاص كالزوايا لضيافة أبناء السبيل والتعليم وفاضل ريعها يرجع إلى الأحفاد⁸⁶⁸.

وهذه الجهات الثلاث تتردد عليها أغلب الأوقاف في تونس.

وقد قام الوقف لعام بدوره في حماية الشعائر الدينية والعلمية ووسائل الإسعاف ولوازم الري وحتى الدفاع حينما كانت الدولة غير مستقرة أو غير مهتمة بالمشاريع العامة.

وكانت صلاحيات الوقف المشترك المتمثلة في الزوايا بمثابة محطات لربط الصلة بين المدن والقرى لحماية السابلة وإيواء المسافرين فضلا عن التعليم وإطعام ذوي الحاجة. ويثبت السجل التاريخي لنظام الوقف في المجتمع التونسي أنه كان دعامة صلبة في بناء المؤسسات الاجتماعية ودعم مرافق الخدمات العامة. ومن ثم ارتبط هذا النظام عبر الممارسة على طول تاريخه بمجموعة كبيرة من الأنشطة والمؤسسات و المشروعات التي عملت في صميم البناء الاجتماعي الحضاري وغذت نسيج العلاقات الانسانية بين الأفراد في جهات مختلفة.

خطط الأوقاف في تونس العثمانية: "التنظيم الهيكلي": جرت العادة في إيالة تونس أن الدولة تختار لولاية الأحباس "أهل العلم والصلاح، أو من تقاعد به الزمن من أهل البيوت و المروءات، أو من ضاع أطيب عمره في الخدمة الجندية⁸⁶⁹.

ويقوم على إدارة الأوقاف وتسيير خدماتها هيكل رسمي قائم الذات يدير ممتلكات متنوعة وموزعة على عدة جهات ويتمثل هذا الهيكل في عدد من الوظائف الموجودة خلال الفترة التي هي على النحو التالي:

⁸⁶⁸ - الشيباني بن بلغيث ، المرجع السابق ، 24

⁸⁶⁹ - ابن أبي الضياف ، المصدر السابق ، ج05، ص 100

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

الوكيل: وهو من يتولى النظر في الأوقاف قبضا وصرفا، ويطلق عليه أيضا ناظر الوقف، ويرد في امر توليته، وكيلا وناظرا، وهو الذي يتولى محاسبة نوابه ووكلائه من مختلف جهات البلاد. وللوكيل نواب يعينهم للإشراف على أماكن الأوقاف المتفرقة في البلاد. والنائي يمثل الوكيل في التعهد والصيانة والإصلاح والاستثمار إلى جانب ضبط ماتحت يده من الأوقاف دخلا وخرجا.

العدل: وهو المكلف بمعاينة مايتعلق بالأوقاف خاصة عند بيع غلتها حيث تتم عملية البيع بحضوره ويكتب في ذلك حجة عدلية يقع اعتمادها في المحاسبة وكذلك يقوم بالإشراف على اشغال الصيانة للأوقاف.

شاهد الوقف: هو من يشهد على تصرف الوكيل ويقيّد الدخل والخرج بدفتر الوكيل. حيث ينص على ماقبض بشهادته التي تعتمد كحجة شرعية على ما يتم من عمليات⁸⁷⁰.

المحتسب: هو غير الوكيل، وقد يكون وكيلا للأحباس التي لا وكيل لها، وتتمثل مهمته في ضبط حساب الوكلاء ومراقبة حساباتهم المالية، وعادة يكون من القضاة ورجال الشريعة⁸⁷¹.

وكانت العادة في إسناد خطط الأوقاف أن يقع التحري فيها، ويقع اختيار من يتوسم فيه الكفاءة والنزاهة لإجراء الأحباس على نص المحبس الذي هو كنص الشارع من حيث إتباع النص. ولكن الأمر لا يخلو دائما من راغب ومرغوب فيه، حيث تمنح الوكالة أحيانا لمجرد القرابة أو المعرفة الشخصية. وقد تمنح تفضلا من هذا الحاكم أو ذاك لهدف، وكثيرا ما كانت الوكالة تمنح كمصدر للرزق لا مصدر للأجر والثواب كما يفترض أن يظفر به

⁸⁷⁰ - الشيباني بن بلغيث ، المرجع السابق ، ص 25

⁸⁷¹ - نفسه ، ص ص: 25-26.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

الوكيل الأمين على ماكلف به. ومن العادة أن يتقاضى الوكيل اجرا يحدد عادة بخروبة على كل ريال من ريع الزيتون وكراء الهناشر الموقوفة⁸⁷².

04-علاقة مؤسسة الحرمين الشريفين بالبقاع المقدسة: تتجسد من خلال "صرة الحرمين"

الصّرة الهمايونية وصلتها بالأوقاف:

شرع السلاطين العثمانيون في إرسال الصّرة الشريفة⁸⁷³. إلى الحجاز اعتبارًا من تاريخ انتقال خدمة الحرمين الشريفين إليهم. واستمر ذلك أكثر من قرن من الزمان. وكان يرسل مع الصّرة مرسوم يوضح كيفية توزيعها على المستحقين⁸⁷⁴. وكانت الصّرة تُرسل في موكب خاص يدعى محمل الصّرة، يكلف به موظف خاص هو أمين الصّرة⁸⁷⁵. وهو موظف مكلف من قبل السلطان بتوزيع الهدايا النقدية والعينية التي يرسلها العثمانيون⁸⁷⁶، حيث يسجل مستحقوها في دفاتر خاصة⁸⁷⁷، هذا؛ وقد مرت عملية إرسال الصّرة العثمانية المخصصة إلى الحرمين الشريفين بمرحلتين:

المرحلة الأولى من عام (1389 إلى 1517): منذ قيام الدولة العثمانية وقبل انضمام الحجاز إليها اهتم سلاطينها بإرسال الصّرة إلى الحرمين الشريفين. وكان أول ظهور للصّرة

⁸⁷² - الشيباني بن بلغيث ، المرجع السابق ، ص:26.

⁸⁷³ - الصّرة لغة هي من صر أي الكيس الذي توضع فيه الدراهم والدنانير. وقد أخذ اسمها من فعل "صر" بمعنى شدّ وربط. وأطلقت في الفترة العثمانية على المال الذي يرسل من دار الخلافة بإستانبول لصيانة الحرمين الشريفين وإعانة أهلها. وكانت توزع على القبائل البدوية مقابل حماية قافلة الحج. انظر: فاعور إبراهيم الشرعة: "موقف القبائل البدوية من قافلة الحج الشامي والخط الحديدي الحجازي في القرن 19 وبداية القرن 20 ، مجلة الدارة مجلة فصلية محكمة تصدر من دار الملك عبد العزيز العدد 4 الرياض 1426هـ، ص 35

⁸⁷⁴ - عارف أحمد عبد الغني . تاريخ أمراء المدينة المنورة، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق (دت)، ص23

⁸⁷⁵ - الحزماوي محمد "الصّرة السلطانية لعلماء القدس الشريف وفقائها في العهد العثماني، 1111 - 1317 / 1770

- 1900م ، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 4، العدد (4) 2010، z10

⁸⁷⁶ - صبان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، مطبوعات الملك فهد الوطنية، الرياض

2000، ص144.

⁸⁷⁷ - مخلوف ماجدة صلاح . الخدمات والمرافق العامة في مكة المكرمة في العهد العثماني 923-1235هـ / 1517-

1916م، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية 1426هـ، كلية الآداب، جامعة عين الشمس، صص154، 155.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

في عهد السلطان الرابع بايزيد الأول (792هـ / 805هـ - 1390م / 1402م)⁸⁷⁸، الذي أرسل الصّرة من أدرنة مقدارها 8.000 قطعة ذهبية⁸⁷⁹. كما أرسل ابنه السلطان محمد جلبي الغازي (810هـ / 823هـ - 1413م / 1422م)⁸⁸⁰ الصّرة السنوية لتوزيعها على أمراء مكة وأشرف الحجاز والعلماء والفقراء في الحرمين الشريفين ومقدارها 14.000 قطعة ذهبية⁸⁸¹. واستمر هذا التقليد السياسة ثابتة لدى بقية السلاطين العثمانيين⁸⁸².

المرحلة الثانية من سنة 923هـ / 1517م إلى نهاية عصر الدولة العثمانية: بعد القضاء على دولة المماليك وإلحاق الحجاز سلمياً بالدولة العثمانية، تميزت الصّرة في هذه الفترة بانتظامها والرفع من مقدارها. حيث أرسل السلطان سليم الأول (918هـ / 926هـ - 1512م) 60.000 دينار ذهبي كصّرة سنوية مع موسم الحج بالإضافة إلى خلعة فاخرة أرسلها إلى أمير مكة⁸⁸³. وفي عصر سليمان القانوني أبقى إرسال الصّرة وضاعفها بالإضافة إلى مخصصات أخرى ترسل إلى العلماء والفقراء. هذا؛ وقد أصبح إرسال الصّرة يدخل ضمن مسؤوليات الباشا العثماني الذي كان يعاقب إذا قصر إرسالها.

ومع مرور الزمن، أصبحت ترسل صرر آخر غير الصّرة الشريف وكانت هذه الصرر تختلف باختلاف الجهات التي كانت ترسل إليها فقد كانت هناك صرة تُرسل إلى كل واحد من الشرفاء، وصرة موجهة لكل عالم من علماء الحرمين الشريفين، وصرة تُرسل إلى كل فرد من أعيان المدينة، بينما ترسل صرة أخرى إلى فقراء مكة وخارجها⁸⁸⁴ وكانت أموال

⁸⁷⁸ - السلطان بايزيد المعروف يلدرم ابن السلطان مراد خان، ولد سنة 1345/725م بأدرنة، اعتلى العرش في السنة المذكورة أعلاه، فتح بلاد كثيرة فسمي بالصاعقة نظراً لحركته السريعة بجيوشه، من مخلفاته الجامع الكبير ببوروسا، توفي سنة 1403، ودفن بجامعه، فهم بيومي، المرجع السابق، ص 183 - 192

⁸⁷⁹ - الحزماوي محمد. المرجع السابق، ص 71.

⁸⁸⁰ - السلطان الخامس محمد بن يلدرم المعروف بكاتب جلبي ولد سنة 1390/790م ببورصة، اعتلى العرش في السنة المذكورة أعلاه، عرف عهده الذي دام 19 سنة بالحروب الداخلية لإرجاع الإمارات السلجوقية، توفي سنة 1421م بأدرنة ودفن بجامعه، سميرة فهمي، المرجع السابق، ص 193-202.

⁸⁸¹ - المكي إبراهيم، المرجع السابق، ص 29.

⁸⁸² - نفسه، ص ص 29-30.

⁸⁸³ - الحزماوي محمد، ص 72.

⁸⁸⁴ - شافعي لمياء أحمد عبد الله. "الصّرة العثمانية الموجهة إلى مكة المكرمة 974-791هـ / 1389-1566م"، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 54، مكة المكرمة محرم 1433هـ ص ص 121، 131

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

الصّرة تختص مواردها من أوقاف الحرمين الشريف بمصر، وتسمى قرى الدشيشة⁸⁸⁵. كما أخذت من جزية غير المسلمين⁸⁸⁶. ولما جاء السلطان مراد الثالث (982 1003 هـ) (1574 - 1595م) أضاف الصدقة المعروفة بالرومية الجديدة التي تخرج من إستانبول، وضمت مرتبات الأئمة ومقادير من القمح لمكة والمدينة؛ بينما بقيت الصّرة القديمة تخرج من مصر⁸⁸⁷. وفي عصر السلطان عبد الحميد الثاني (1293-1327 هـ / 1876م - 1909م)⁸⁸⁸، تم تقديم مبلغ 264000 قرش منحة لأهالي الحرمين الشريفين لدفع القحط الذي أصابهم سنة 1301 هـ - 1884م. و تقديم مبلغ 1000 ليرة عثمانية من أموال السلطان الخاصة منحة إلى فقراء حجاج المحيط الهندي والتبرع بمبلغ 264.022 قرشا كدفعة الله إلى البدو وأهالي الحرمين الشريفين لدفع القحط ومنح معونة نقدية إلى أهالي الحرمين قيمتها 264.022 قرشا ترسل كل عام مع الصّرة السلطانية⁸⁸⁹.

إن الأموال التي كانت مخصصة للحرمين الشريفين كانت ترسل في رجب من كل عام⁸⁹⁰. ثم أصبحت ترسل في أواخر شعبان اعتباراً من القرن 19. وحتى سنة 1126 هـ / 1714م كانت الصّرة ترسل من مصر لإشهاد شرعي أثناء تسليمها إلى أمينها بحضور كاتبها وصرافها⁸⁹¹. وبعد هذا التاريخ أمر بإرسالها من خزينة الحرمين الشريفين ببلاط السلطان. وكانت تحت مسؤولية أمين الصّرة⁸⁹². وعند إرسالها كانت تقام من أجلها احتفالات رسمية قبل خروجها من إستانبول وذلك في 12 رجب، بحضور كبار المسؤولين⁸⁹³ حيث كانت يتم

⁸⁸⁵ - الدشيشة : طعام رقيق يصنع من القمح، وتقع هذه الدشيشة التي يصلح فيها هذا الطعام بسوق المعلاة، المكي

ابراهيم، المرجع السابق، ص112.

⁸⁸⁶ - ابراهيم رفعت باشا. المصدر السابق، ج2، ص 310.

⁸⁸⁷ - احمد الرشيدى. المصدر السابق، ص 20

⁸⁸⁸ - السلطان عبد الحميد الثاني (1842 - 1918): من أشهر أعماله إصداره دستوراً للبلاد وافتتاح مجلس المبعوثان،

عزل من السلطة من طرف مجلس النواب بعد أن صدرت الفتوى بذلك سنة 1328 هـ / 1909م، ووضع بعدها في سراي

اللاتيني في سالونيك بعد أن صودرت جميع أملاكه، وبقي بها إلى سنة وفاته، ص 134 - 143.

⁸⁸⁹ - المكي ابراهيم، المرجع السابق، ص83.

⁸⁹⁰ - الحزماوي محمد. المرجع السابق، ص 75.

⁸⁹¹ - ابراهيم رفعت باشا. المصدر السابق، ج2، ص 152.

⁸⁹² - شافعي ليماء احمد عبد الله، المرجع السابق، ص125.

⁸⁹³ - الحزماوي محمد، المرجع السابق، ص88.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

التوقيع على دفاتر الصّرة من قبل آغا دار السعادة⁸⁹⁴ ومفتش الحرمين الشريفين، ليأتي بعدها السلطان وسط التهليل ليتم ذلك باجتماع السلطان بالديوان الهمايوني. حيث كانت أموال الصّرة تُحسب وتختتم حساباتها في دفاتر الصّرة، وتوضع في صناديق مخصصة لها. ويلبس آغا دار السعادة لأمين الصّرة الخلعة، ويسلمه كتاب السلطان والمحمل الشريف عليه صناديق الصّرة.

وبعد هذه المراسيم يخرج الموكب من الباب الهمايوني، متجهاً إلى الشام في حماية خاصة، مع تخصيص مبالغ مالية للقبائل البدوية المنتشرة عبر الطريق لحمايتها وضمان وصولها⁸⁹⁵. ومن هناك يلتحق الموكب بقافلة الحج الشامي المتجهة إلى الحجاز⁸⁹⁶.

هذا وقد كانت يتم إرسال الصّرة في بعض الأحيان بحراً من ميناء إستانبول إلى ميناء بيروت. وبعد انجاز السكة الحديدية أصبحت الصّرة ترسل عبر القطار⁸⁹⁷. وبعد وصول الموكب إلى مكة يُسلم أمين الصّرة الكتاب السلطاني المكتوب باللغة العربية⁸⁹⁸. إلى أمير مكة وفق مراسيم معيّنة، ليقرأه علناً مع خلعة مرسلّة من قبل السلطان⁸⁹⁹. ويتولى توزيع أموال الصّرة على أصحابها. وبعد انتهاء مناسك الحج يعود أمين الصّرة مع القافلة الشامية، حاملاً كتاب من أمير مكة رداً على الكتاب السلطاني، مع هدايا للسلطان والصدر الأعظم، مجدداً تبعيته وولاءه للدولة العلية⁹⁰⁰.

وبالإضافة إلى صرة الحرمين الشريفين كانت ترسل الدولة العثمانية معها صرة أخرى أهالي القدس التي تأتي مع أمين الصّرة. ولما يصل إلى دمشق الشام يرسلها مع أمين من

⁸⁹⁴ - هو كبير مشرفي قسم الحريم في سراي السلطان العثماني ويشار إليه كizlaragasi، وهو الموظف الرئيسي في القصر، المرجع نفسه، ص 74.

⁸⁹⁵ - لتوسع في نصيب القبائل من الصّرة العثمانية أنظر صابان سهيل . مخصصات القبائل العربية من واقع الصّرة العثمانية عام 1192 هـ 1778م، "مجلة كلية الآداب جامعة الملك فهد، العدد 20، 1429 / 2008، ص ص

⁸⁹⁶ - محمد الحزماوي، المرجع السابق ، ص 176

⁸⁹⁷ - سهيل صابان . مخصصات القبائل العربية ، المرجع السابق ، ص 76.

⁸⁹⁸ - للاطلاع على فرمان السلطاني باللغة العربية :أنظر رفعت باشا. المصدر السابق ، ج 1 ، ص 51.

⁸⁹⁹ - نفسه، ج 1، ص 49، 50.

⁹⁰⁰ - سهيل صابان . مخصصات القبائل العربية ، المرجع السابق ، ص 80.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

طرفه إلى القدس، ويجري توزيعها على مستحقيها في المحكمة الشرعية بحضور القاضي الشرعي⁹⁰¹.

صرة الحرمين الشريفين ببلدان المغرب العربي: أطلق اسم "صرة الحرمين" على الصرة التي ترسل من بشاوات الإيالات المغاربية الثلاث نيابة عن السلطان.

فبالنسبة لإيالة الجزائر اكتست "الصرة" التي ارتبطت بقافلة الحجيج - طابعين اثنين - أحدهما ديني والآخر اجتماعي بما أنها كانت موجهة اسمياً للحجاج، على أنه في واقع الأمر لم يكن للحجاج الجزائريين حق في الأموال المخصصة لمكة المكرمة والمدينة المنورة، ولم يكونوا يحصلون على إعانات من أموال "الصرة". ويذكر أبو القاسم سعد الله أن أمير الركب كان هو الذي يحمل (صرة) ما وفرته أوقاف مكة والمدينة⁹⁰².

ومنذ القرن الثامن عشر جرت العادة على إرسال "الصرة" مرة كل سنتين، على أن إرسالها لم يكن منتظماً بسبب الظروف الأمنية والصحية أو تلك المتعلقة بوسائل النقل، مما قد يؤدي إلى تأخر إرسال "الصرة" سنوات عديدة كما حدث لصرة عام 1113 هـ التي لم ترسل إلا في عام 1119 هـ.

بصفته ممثلاً للديوان يضطلع بيت المالجي بمهمة المنتدب الرسمي لباشا الجزائر (الداي) إلى مكة المكرمة وحامل "الصرة"، ويحمل معه لتسهيل مهمته إجازة مرور توضح صلاحياته وواجباته⁹⁰³.

وبالإضافة إلى (الصرة) يحمل بيت المالجي معه قائمة بأسماء المستفيدين منها.

تتجلى أهمية مؤسسة الحرمين الشريفين في تسديد نفقات طلبة العلم والعلماء وصيانة وبناء المساجد والزوايا والكتاتيب، وكذلك توفير الدعم المادي للقائمين على إدارة هذه

⁹⁰¹ - للتوسع أنظر: محمد الحزماوي، المرجع السابق، ص 121.

⁹⁰² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع، المرجع السابق، ص 403.

⁹⁰³ - ناصر الدين سعيدوني، الوقف في الجزائر أثناء العهد العثماني، المرجع السابق، ص: 176.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

المؤسسات سواء كانوا في مدينة الجزائر أو في مناطق الحجاز، فكانت لهذه الأنواع من الأوقاف دورا هاما في الحياة الثقافية والدينية المتبادلة بين الجزائر وبلاد الحجاز⁹⁰⁴. إذ كان يتم إنفاق الكثير من الأموال الوقفية على المراكز العلمية والثقافية والدينية، مما أدى إلى التقارب بين المذهب المالكي المنتشر في مناطق الحجاز، كما ساهم في نمو الحركات العلمية بينهم، من خلال إقامة المناظرات واللقاءات العلمية والدينية، والتي كانت تتم من خلال رعاية الحاكم الأتراك والأهالي وأمراء ركب الحج الجزائري⁹⁰⁵

أما في إيالة تونس فقد كانت هناك أحباس خاصة بالحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وتجمع أموالها وترسل إلى مستحقها في مكة والمدينة كل سنة في موسم الحج وتدعى بالصرة، ويصرف جانب من هذه الأموال في تونس على الوافدين على البلاد من أهل مكة والمدينة، وعلى من يستقر منهم في تونس جرايات شهرية من أوقاف الحرمين. ولهذه الأوقاف خصوصية عن غيرها ولم تضم إلى الجمعية إلا سنة 1895م. وتنتشر أحباس كثيرة في جنوب البلاد تركزت في الواحات الجنوبية وعلى طريق القوافل التي يسلكها الحجاج عبر الصحراء⁹⁰⁶.

- دور صرة الحرمين في تمتين العلاقة بين الجزائريين والحرمين الشريفين:

كان لصرة الحرمين الشريفين وكذا مؤسسة الحرمين الشريفين الوقفية بالجزائر دورا مهما في ربط العلاقات بين الجزائر العثمانية والحرمين الشريفين، فإ إنشاء الأوقاف لفائدة الحرمين الشريفين يعد تعبيراً صادقا عن انتماء الجزائر العثمانية للأمة الإسلامية ودليل على التعلق الروحي للجزائريين بالبقاع المقدسة.

⁹⁰⁴ - فاطمة الزهراء قشي . مؤسسة الأوقاف في قسنطينة في العصر الحديث ، المرجع السابق ، ص90

⁹⁰⁵ - عائشة غطاس . الوثائق المتعلقة بالحرمين الشريفين ، المرجع السابق ، ص141.

⁹⁰⁶ - الشيباني بنبلغيث . المرجع السابق ، ص 22..

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

ويعود أقدم دفتر يتعلق بإرسال هذه الصرة في أرشيف المحكمة الشرعية بالجزائر إلى عام (1132هـ/1720م)، وتشمل المصدر الأساس لتلك الأموال في الأوقاف التي كان يوقفها أهل الجزائر على المدينتين الشريفيتين، وكانت كثرة في العهد العثماني، إذ قدرت نسبتها بأكثر من الثلثين من مجمل الأوقاف (73%)⁹⁰⁷.

لقد كانت قيمة "الصرة" المرسلّة إلى مكة والمدينة تشكل ثروة معتبرة في تلك الفترة، حيث بلغت قيمة الصرة في عهد الداوي عمر باشا حوالي 24000 محبوب سلطاني، والذي كلف البيت مالجي محمد شاوش سيرزلي بنقلها في سنة 1230هـ/1815م، فهذه القيمة المالية الكبيرة تدل على الإهتمام الكبير من طرف الجزائريين بالبقاع المقدسة، كما أنها أضفت طابع الشرعية والقوة المعنوية بحكم البايك بها أنها تجسد قبوله من طرف السكان

- أهمية الصرة في تأمين ركب الحج: لقد ساهمت الصرة الصرة السلطانية في تكملة العجز الذي كانت تعاني منه منطقة الحجاز، والتي تقع في أرض جافة جدداء، فالواقع الاقتصادي في مكة المكرمة يتطابق مع ما ورد في الآية القرآنية الكريمة مصداقا لقوله تعالى: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم.ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون". سورة ابراهيم: الآية 37. لقد بينت هذه الآية الكريمة بأن بلاد الحجاز كانت منطقة عقيمة لا تقوم على إنتاج زراعي ولا صناعي، وإنما يجلب إليها من كل الثمرات، فهي إذا تحتاج غلى ضخ أموال الصرر لفتح أبواب التعامل التجاري، ولحماية المجتمع من الأزمات الاقتصادية، التي ان حدثت فستكون سببا في اضطرابات اجتماعية خطيرة يتعرض لها الموسم والسكان والواردون، مما يؤدي الى مشاكل لا تحمد عقباها.

⁹⁰⁷ - خليفة حماش . صرة الحرمين ، المرجع السابق ، ص04.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

وبالإضافة إلى نقص الموارد الطبيعية، فقد كان هناك نقص وجود منافذ للعمل وطلب الرزق في تلك الحقبة. ولهذا كانت الصرة العثمانية تسد نفقات المعاش لأهل مكة من العام إلى العام

فالصرر الواردة. تمثل جانبا مهما من الميزانية التي تحرك الاقتصاد في المدينتين المقدستين، وتستجيب لما يتطلبه هذا التجمع، فتشمل حكام البلاد وأهلها، والواردين عليهم من الحجيج والزوار والمعتمرين والمجاورين. ففي موسم الحج تتزايد الطلبات والحاجيات، بتزايد عدد الواردين الذين لم يكونوا جميعا ذوي إمكانيات مالية كافية، ففيهم الأغنياء ذو القدرة والاستطاعة، كما كان فيهم الفقراء الذين تدفعهم الأشواق الدينية إلى المغامرة والوصول إلى الحرمين الشريفين، اعتمادا على التعاون الإسلامي من الصدقات الخاصة، أو من الصرر التي لم تكن مخصصة لأهل مكة فقط، وإنما كان جانبا منها يخصص ويصرف إلى الواردين من الحجيج والمعتمرين والمجاورين⁹⁰⁸.

فالصرة إذا كانت تهدف إلى إيصال الرسالة السلطانية إلى الحجيج الذين ينتظرون قضاء العيد في منى، بعد أن أتموا أداء الركن من الحج، وهو الوقوف بعرفة ن لأن السلطان آنذاك كان يرغب في مشاركة فرحة العيد مع جميع مسلمي العالم.⁹⁰⁹ كما ساعدت الصرة السلطانية على استقرار الحياة الاقتصادية هناك، مما وفر لحكام البلاد وأهلها وخاصة الواردين عليهم من الحجيج، فتح بذلك مناخا من الهدوء والسكينة بحيث ساعدهم على الاتجاه نحو التعليم والعلم. طالما أن النفقات التي يحتاج إليها الحجازيون من الإدارة والأهالي في متناول أيديهم في كل موسم للحج من كل عام، وهو ما كان له أثره البارز على الحياة العلمية، ليس على أبناء الحجاز وحسب، بل على أبناء العالم الإسلامي الذين جاؤوا الحرمين الشريفين، ونزلوا مدن الحجاز وتولوا التدريس في معاهدها العلمية المختلفة،

⁹⁰⁸ - ربيعة قريظة . المرجع السابق ، ص 254.

⁹⁰⁹ - يوسف جغلار وصلاح كولن . المرجع السابق ، ص 10.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

وحصلوا جراء ذلك على رواتب مالية وعينية تغنيهم عن الحاجة أو العمل الشاق الذي يشغلهم عن التعلم، ويساعدهم على الاستقرار في الحجاز أطول فترة ممكنة⁹¹⁰.

بالإضافة إلى ذلك ساهمت الصرة السلطانية في دفع مرتبات الموظفين المصريين في الحجاز، ومرتبات ومؤون الحامية العثمانية الموجودة بالحجاز، بالإضافة إلى مخصصات الفقراء المجاورين، وتوزيعها على الأيتام والمتقاعدين والمجاورين، والفراشين وموظفي المساجد من المؤذنين والأئمة والعلماء وطلاب العلم في المدارس والأربطة⁹¹¹. هذا بالإضافة إلى الصرف على التكايا⁹¹²، كما خصص عدد من الواقفين إضافة إلى أموال بعض السلع العينية كالزيت والقناديل وغيرها للحرمين⁹¹³.

ويذكر أحد الباحثين: "أن من منافع الصرة السلطانية أنها منعت قطاع الطرق من التعرض لقوافل الحجيج، وذلك حينما كانت تتفق الأموال على قطاع الطرق على طول طريق قوافل الحجيج، وهذا ماكان كفيلا بتحقيق أمن وسلامة ومرور قوافل الحجيج عدة قرون".⁹¹⁴

وكان العربان ينتظرون قوافل الحجيج التي كانت تمثل المنبع الاقتصادي المنعش لها، بحيث توفر لهم معيشتهم السنوية، وفي مقابل ذلك يوفرون الأمن والماء وبعض المواد

⁹¹⁰ - محمد علي فهم بيومي . دور مصر في الحياة العلمية ، المرجع السابق ، ص86.

⁹¹¹ - الحلواني سعيد بدر . العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن ال19م ، دار الكتب المصرية ، مصر ، 1999م، ص310.

⁹¹² - لقب مرادف للمحظرة عندنا ويقصد بها المدارس القرآنية .

⁹¹³ - حسام محمد عبد المعطي . العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ، القاهرة ، ط0 ، 1999 ، ص ص:270-271.

⁹¹⁴ - يوسف جغلار وصالح كولن . المرجع السابق ، ص :15.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

الغذائية للحجاج، وكذلك توفير الإبل التي كانت وسيلة نقل للحجاج وبضائعهم، وهذا ما أكسب الدولة العثمانية خبرة في التعامل مع العربان طيلة فترة الحكم العثماني⁹¹⁵.

نظرا لمكانة صرة الحرمين الشريفين، فقد أولى حكام الجزائر عناية خاصة بها إذ تعتبر المصدر الأول للمساهمات المالية المرسلّة للحرمين الشريفين لتصرف في خدمة العلم والدين، وتوزع على الأعيان والفقراء. لذلك كانت تخضع لنظام خاص بها وتؤطرها مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين، حيث تضم عددا من الموظفين لهم مهام مختلفة وتنظيم متسلسل وهم:-الشيخ الناظر: يخضع لنظره وكلاء الأحباس من الوكلاء، ويتكفل بجمع مداخل الحج.

المبحث الثالث: تجليات التواصل بين الركب ومحيطه "التأثير والتأثر"

التواصل الثقافي:

01-01: الرحلة الحجية كعنوان للتواصل الثقافي: الرحلة لأداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام لم تكن لتتفصل عن الهدف العلمي الذي يسعى كل عالم لتحقيقه أينما حل وارتحل، ولذلك تجد العلماء - في وجهتهم للديار المقدسة - يَمرون على الأماكن التي برز فيها عالم في الفقه أو القراءات أو الحديث أو اللغة والنحو والأدب، وكم تكون الطريق ملتوية، أو محفوفة بالمخاطر، ولكنهم يأبون إلا أن يعرجوا على مواطن هؤلاء العلماء الثقات الذين يهون كل شيء في سبيل لقاءهم والاستماع إليهم⁹¹⁶. نافلة القول أن الرحلات الحجازية تقص علينا من حياة المجتمع المغربي، وأنباء ثقافته ومثقفيه. كما تروي لنا بعضا من عادات الشعوب الأخرى. إذ تطلعنا على نماذج من أنماط العيش وأنواع التغذية ووسائل التعلم والتعليم وطرائق النظر والتفكير، لدى تلك الأمم، مشكّلة بذلك جهدا

⁹¹⁵ - سهيل صابان . معجم مخصصات الحرمين ، المرجع السابق ، ص03

⁹¹⁶ - محمد الحجوي . المرجع السابق ، ص 214

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

يعد من أمتع النماذج الأدبية وأكثرها تميزا وثراء. كما تعتبر منبرا لعرض المعارف والعلوم، ومصدرا للعقائد وعلوم اللسان، ومألفا للفقه والتفسير، ومنتدى للحوار والجدال وملقى لأهل الجاه والسلطان، فهي إذن موسوعات ثقافية تشد الذهن و تنير الفكر وتتيح فرص الاستزادة والاستيعاب، وتمنح مناسبة للتعمق والتوسع في استكمال الدروس، عاملة على شد الربط بين المشرق والمغرب. مشعة من نورها على الحواضر الإسلامية، معربة عن تميز علماء القوم الذين آووا إلى ركن المعرفة⁹¹⁷. فهذه الرحلات إذن كانت مصدر الثقافة، ومقتنى الكتابة، ومستند السلاسل الصوفية، ومعتمد الأسانيد العلمية، ومرتكز الإجازات القرآنية والفقهية وغيرها، بل هي فوق ذلك سجل ثقافي استطاع أن يجمع في صفحاته معارف القوم ويدونها أحسن تدوين، فهي أشبه ما تكون بالمعادن والمناجم التي لا تتضب، بل تمثل وقود التواصل الإنساني وشريان الحياة البشرية حيث يتم عبرها الاحتكاك و التلاقح بين مختلف الأمم والشعوب.

02-آليات ومضامين التواصل الثقافي في الركب الحجي:

01-02-التصوف - المزارات، التبرك: إذا تتبعنا أخبار الركب ومعالمه الثقافية لمحنا وبجلاء عند الرحالة الذين دونوا رحلاتهم، ذلك التأثير الروحي بالفكر الصوفي وحب أهله ورواده، فقد حضر المضمون الصوفي بقوة في صياغة محتوى الرحلات. ونظرا لأهمية الرحلة الحجازية فقد كان يتم اختيار قادة الركب - سواء من طرف الحكام أو الجهة المنظمة - غالبا من العلماء أو أقطاب الصوفية. ومن بين الطوائف التي تصدر شيوخها لتنظيم ركب حاج خاص بهم، منذ 1070/1659-1660: الطائفة الناصرية⁹¹⁸ التي ينتمي إليها محمد بن عبد السلام الناصري (ت1239/1823م)، صاحب "الرحلة الناصرية الكبرى".

⁹¹⁷ - محين ولدالمحويبي . المرجع السابق ،ص365

⁹¹⁸ - أحمد عمالك . إسهام الزاوية الناصرية في ربط الصلات بين بلدان الشمال الإفريقي خلال القرنين

11و12هـ/17و18م ، مجلة دار النيابة ، العدد22 ، السنة 1989، ص 18

02-02: التواصل من خلال:"الزوايا والطرق الصوفية": بدأت الزوايا تتحرك بصفتها مؤسسات دينية واجتماعية واقتصادية قبل أن تظهر طموحاتها السياسية . وانتشرت هذه المؤسسات في كامل بلاد المغرب، والملاحظ أنها اضطلعت بوظائف مختلفة، واختلف الأولياء في سلوكهم⁹¹⁹، ومن بين مهامها اشرافها على تنظيم الحج وشؤونه ومن أبرز اعلامها نجد:

أ-الزاوية العياشية: يترأس اعلامها الشيخ أبو سالم العياشي والذي يعد فقيها عالما متبعا نهج التصوف، وهذا في الأساس يعود إلى نشأته الصوفية التي حصل عليها من " الزاوية العياشية ". وتقع هذه الزاوية أو زاوية سيدي حمزة كما تسمى اليوم على ضفاف أحد روافد نهر زير جنوب مدينة تيدلت بالمغرب الأقصى، أما طريقته فكانت شاذلية، وشيوخ محمد بن أبي بكر كلهم شاذليون، وقد تأصلت هذه المبادئ لدى أبناء الزاوية العياشية وعلى رأسهم ابوسالم الذي سار على نهج الزاوية في طريقته الصوفية ولم يحد عنها.

تتجلى شخصية أبي سالم العياشي المتصوفة في كونه كان حريصا على تنقية النفس والرقى بها إلى معالم الكمال والطهر، وأبو سالم " متصوف قوي الشخصية له نظرية خاصة في الحياة وفي السعي إلى المناصب العليا، وفي المال. وبعض هذه الإتجاهات واضح في سلوكه ومن خلال بعض رسائله ومؤلفاته، ويراعي العياشي في سلوكه الصوفي موافقة السنة رغبة منه في توحيد الرؤى حول الغاية من التصوف وجعل الكتاب والسنة مصدر

التشريع ومحل الاتفاق وعدم الاحتكام إلى الأهواء المختلفة.

ب-الزاوية الناصرية: إن الخصائص التي ميزت الزاوية الناصرية، ومن خلالها الطريقة الناصرية من بساطة ويسر وحرص شيوخها الأوائل على إتباع السنة ونبذ البدع، مع ماكانوا يتمتعون به من حيوية وابتعاد عن الخرافات، والخمول والانزواء، لمن شأنه أن يبوء

⁹¹⁹ - القدوري عبد المجيد. المرجع السابق ، ص 122

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

الزاوية الناصرية المكانة المرموقة التي كانت تحظى بها طيلة عدة قرون، حيث توسعت فروعها بمختلف مناطق المغرب. كما انتشرت خارجه حيث اضطلعت الرحلات الحجازية التي قام بها الناصريون بربط الصلات والجسور بين البلدان التي يمر بها ركب الحج وبين المشرق العربي، فذاع صيت الناصريين، واشتهروا بأنهم أصحاب طريقة جامعة بين الورع والمعرفة، الأمر الذي جعلهم موضع تعظيم وتقدير داخل بلادهم وخارجها، فقد أقام هؤلاء الشيوخ الزوايا، وتبارى مقدموهم وأتباعهم في استضافتهم وتمهيد الطرق أمامهم، فما مر الشيخ محمد بن ناصر⁹²⁰ بقرية أو بلدة إلا وتسابق أهلها بالهدايا والترحيب والإكرام. وأخذ عنه العهد و الورد⁹²¹ الجم الغفير من أهل تلك البلاد، وقدم عليهم النقباء واستتابهم في تلقين الأوراد⁹²²، فقد ذكر تلميذه الحسن اليوسي أن شيخه محمد بن ناصر قال له: "...قد قضيت العجب من المشاركة واعتنائهم بأمر السند. حتى أنني لما دخلت مصر كان كل من يأخذ عني عهد الشاذلية يكتب الورد والرواية والزمان والمكان الذي وقع فيه ذلك"⁹²³. فانتشرت بذلك طريقته بمختلف المراحل والمنازل التي يمر بها عبر الجزائر، وتونس، وطرابلس الغرب، ومصر. وصولا إلى مكة والمدينة، إذ تحفل كتب الرحلة الحجازية خاصة رحلة الشيخ أحمد بن ناصر والرحلة الناصرية الكبرى لمحمد بن عبد السلام الناصري بذكر أسماء البلدان والعلام الذين توثقت بينهم الصلة مع الناصريين، كما تطفح بالإشادة بمكارم البلدان

⁹²⁰ - كان الشيخ محمد بن ناصر المؤسس آية في مختلف العلوم ، يتفانى في طلب العلم ويحرص عليه قراءة و شراء ونسخا ، ارتحل للحج مرتين سنة 1070هـ وسنة 1076هـ . ولما أتم بناء الزاوية اسس "دار الكتب" لتكون مرجعا لطلاب العلم ورجال المعرفة ، واضعا بذلك البنات الأولى للخزانة الناصرية التي ستصبح أهم خزانة بالمغرب الحديث ضمتها زاوية مغربية . انظر الغالي المهدي ، الشيخ محمد بن ناصر وظروف تاسيس الزاوية الناصرية ضمن : منجزات جمعية علماء سوس ، الطبعة الأولى ، المملكة المغربية ، 2008/1428 ، ص28

⁹²¹ - العهد: قد يسبق الورد وهو التزام بالطريقة والورد . والورد - بكسر الواو - مايرتبه الإنسان على نفسه من الأذكار و أنواع العبادات ، وفي اصطلاح الصوفية يعني أذكار يومية يكلفها به الشيخ المربي أو شيخ الطريقة .

⁹²² - محمد الخليفة . الدرة الجلييلة في مناقب الخليفة ، تحقيق أحمد عمالك ، كلية الآداب ، ج02، الرباط ،

1986/1406 ، ص ص231-232.

⁹²³ - ابوالحسن اليوسي . المحاضرات ، أعدها للطبع محمد حجي ، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ، الرباط ، 1975

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

والقبائل التي أكرمت ركاب الحجاج. فشكّل أتباع الناصريين ومريدوهم أداة وصل بينهم وبين سكان تلك الجهات، وأصبحت زواياهم تتمتع بالحرمة في وسط ساد فيه العنف واللصوصية وقطع الطرق في كثير من الأحيان.

ويعدّ محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته زوايا وأتباع الناصريين المنتشرة على طول الطريق الحجية، كما يطلعنا في نفس الوقت على التراجع الذي عرفته الطريقة الناصرية في زمانه. فبالجزائر أوقفه "بعض طلبة زاوية سيدنا خالد، وهو آخذ العهد الناصري⁹²⁴. وبسيدي عقبة زاوية ناصرية قائمة يكثر بها أهل محبة الناصريين. وعند وصوله بلاد الزاب وجبال الأوراس يقول: "...لازال سيدي عبد الحفيظ، مريد الشيخ ابن ناصر ومحبيه وأهل زاويته - على ماحدثني به غير واحد منهم - يقرؤون، أثر الحزب " سيف النصر"⁹²⁵ صباحا ومساء على عادة الزاوية الناصرية بدرعة"⁹²⁶. في الوقت الذي كانوا يتلقون الركب الناصري بالحفاوة. يقول الشيخ أحمد بن ناصر: " ومررنا بأولاد جلال - إحدى قرى بلاد الزاب - تلقانا أحببتنا، وساروا معنا ميلا وودعناهم"⁹²⁷.

أما في تونس، أهم محطاتهم مدينة توزر، اشتهرت بتجذر الطريقة الناصرية بين أهلها وسكانها حتى صارت بمثابة المستودع الآمن للحجاج، ويشهد ابن عبد السلام في رحلته أن أهلها مايزالون على العهد الناصري، وقد تلقن بعضهم عنه الورد، يقول: " وهذه البلدة - حمة توزر - كثيرة الصالحين الموتى، وبها زاوية الولي الصالح آخذ بالعهد من الشيخ ابي العباس ابن ناصر، وخليفته في إعطاء الورد بهذه البلاد، سيدي عبد الله المجذوب دفين القيروان

⁹²⁴ - محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الناصرية الكبرى ، المصدر السابق ، ج01، ص343

⁹²⁵ - سيف النصر على كل ذي بغى ومكر للشيخ محمد بن ناصر . قصيدة من ثمانية وخمسين بيتا ، للمزيد أنظر ، الغالي

المهدي ، الشيخ محمد بن ناصر ، المرجع السابق ، ص30

⁹²⁶ - محمد بن عبد السلام الناصري ، الرحلة الكبرى ، ج01، ص223

⁹²⁷ - أحمد بن ناصر الدرعي ، المصدر السابق ، ص43

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

928" وللناصرين أتباع بكل من قابس و صفاقس "ومن جملة أحببتنا بقابس، الحاج عثمان والطالب الحاج عبد القادر بن علي بن عبد الله الرفيع، نسبة لزاوية بنقطة من أعمال صفاقس ."

وفي طرابلس أيضا كان أتباع الطريقة يهبون في جموع غفيرة لاستقبال الحاج الناصريين بفرح لامزيد عليه. ويحظى الركب الناصري بتشريف وتكريم بالجبل الأخضر، حيث اشتهر أولاد سيدي ناصر من أهل سيرت بإتباع الطريقة الناصرية، ونفس الشيء فيما بين برقة وطرابلس حيث يتعدد مقدموهم ومريدوهم، فمنهم من يكرم الركب كله، منهم من يهيء المنازل للاستراحة، ومنهم من يلتمس التبرك بالشيوخ، واخذ العهد⁹²⁹. ففي مصر يذكر الشيخ أحمد بن ناصر أن عددا كبيرا منهم قد اخذوا العهد أثناء حجته الأخيرة (1122هـ/1710م)، وعين مقدما جديدا هناك، وأذن له في تلقين الأوراد لمن أراد الانضمام في سلك الناصريين. قال: "ولما رأيت رغبة الناس بمصر في دخول زمرة أشياخنا، والانخراط في سلكهم اشتدت، وتلقن منا طائفة كبيرة الورد، قدمنا نقيبا على المريدين المنتسبين إلينا بمصر الشيخ محمد بن منصور السبطي، وأذنا له في تلقين الأوراد عنا لمن رغب في الانتظام في سلك أشياخنا، فإله يصلح ديننا ودين الجميع"⁹³⁰.

يقول محمد بن عبد السلام أثناء ترجمته للشيخ محمد بن محمد الأمير: "وكان بجوار صاحب الترجمة زاوية تنسب للإمام ابن ناصر، وقد هجرت الصلوات ومن تدريس العلم، وقد سكن أعلاها بعض الجنديين، فأخذت العهد⁹³¹ عليه أن يعمرها بالتدريس بين العشائين

928- محمد بن عبد السلام الناصري ، الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ج1، ص271

929- المهدي الغالي، تجليات التواصل ثقافي ، المرجع السابق ، ص32

930- أحمد بن ناصر الدرعي ، المصدر السابق ، 221

931- العهد جاء هنا بالمعنى الغوي أي الإتفاق الذي يبرمه شخص مع آخر . وقد شدد الإسلام على ضرورة الوفاء بالعهد

مصادقا لقوله تعالى : "وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا " . الإسراء ، للمزيد انظر الغالي المهدي ، الشيخ بن ناصر ،

المرجع السابق ، ص33

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

ففعّل، وعلى أن يتولى النظر فيها ويعاهدها، وأن يلحق الورد الناصري لمن طلبه بمصر إذ انقطع بها⁹³².

كما شوهّد الشيخ أبو يعقوب يوسف بن محمد الكبير - عم المؤلّف - وهو يلحق ورد الناصريين بمكة المكرمة، ويولي بعض النقباء، ويعزل البعض الآخر⁹³³، مما يدل على بعد صيت هذه الطائفة آنذاك.

يتضح من كل ما ذكر أن الطريقة الناصرية قد تحولت إلى " وشيعة قوية عملت على وصل جهات من العالم الإسلامي، لما نجح شيوخها في تنظيم ركب للحاج خاص بهم، ومن ثم أضحت تلاميذ الناصريين ومقدموهم عناصر أسهمت في تبادل العلوم و المسانيد، وانتقلت إلى المغرب عبرهم مفاهيم وكتب وعادات وتقاليدها... " ⁹³⁴.

كما أن انتشار طرق صوفية أخرى في الحجاز وبلاد المغرب قد عزز من الصلات بين اتباع تلك الطرق في البلدين.

يمكن الإشارة كذلك إلى أن تأسيس الطريقة السنوسية في الحجاز، وانتشار زواياها في منطقة المغرب العربي ومن بينها طرابلس وتونس قد ساعد على إيجاد تقارب بين أتباع الطريقة في البلدان التي انتشرت فيها.

ج-أما في بلاد شنقيط:فمثلا عند الحاج محمد البشير البرتلي يذكر ذلك بصريح القول بأنه أشعري العقيدة، وذلك حينما عرف بنفسه " المالكي مذهباً، الأشعري اعتقاداً " ⁹³⁵، ويثبت كذلك من خلال قوله في موضع آخر "... وأذكر في هذه الرحلة المباركة ما رزقني الله فيها

⁹³² - محمد بن عبد السلام الناصري ، الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ج2، ص776

⁹³³ - أحمد عمالك : جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية ، دار أبي لرقراق للطباعة والنشر ، الرباط ،

2006/1427، ج01، ص 142

⁹³⁴ - نفسه ، ص145

⁹³⁵ - محمد البشير البرتلي ، المصدر السابق ، ص 75

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

من ملاقة العلماء والصالحين وما وقفت عليه من قبورهم "...⁹³⁶ فلا يعلم بوجودهم في موضع إلا ويهب إليه كالرياح المرسلة، سواء كان أصحابه أحياء أو أموات، وهذا ما نجده في كثرة المزارات على طول الرحلة: انطلاقاً من بلدته ولاتة مروراً بأزواد، وفي كامل طريقهم ببلاد المغارب ومصر والحرمين، ولا ننسى أهم المزارات بالمدينة المنورة.

فإذا أردنا التماس العبارات الصوفية من جميع تلك المزارات المدونة في الرحلات وغيرها وجدنا ثلاث أو أربع كلمات متكررة نجملها في: قدس الله روحه، نفعا الله به، زرنا السادة المدفونين به إلى غير ذلك من مرادفات المعنى، وبها أدركنا الميول والتوجه الصوفي للرحالة، كما يعتبر هذا الفعل مؤشر قوي على عمق التأثير الصوفي على للمؤلفين.

03-03: الاهتمام بزيارة الصالحين والتماس بركاتهم، وزيارة المشاهد والأماكن

المباركة: يتضح من خلال حرص بعض افراد الركب وخاصة الرحالة الذين دونوا رحلاتهم. على زيارة قبور ومشاهد الأولياء، و الصلحاء والصحابه رضوان الله عليهم، أن ذلك كان بقصد الترحم على من بها أولاً، وبنية الدعاء عند قبورهم علّ دعاءهم يكون أقرب إلى الإجابة، فهم يؤمنون بأن مواطن استجابة الدعاء تختلف وتتفاضل فيما بينها، حيث يتجلى ذلك في مطلع رحلاتهم حينما ابتدأوها بزيارة الصلحاء.⁹³⁷

فكل الركاب كانت تزور الصالحين وتبرك بهم، حتى انه لا تكاد تخلو رحلة مدونة من ذكر مثل هؤلاء الصالحين.⁹³⁸

وكمثال عن تعلق الرحالة بالمضمون الصوفي ندرج رحلة الحاج البشير البرتلي الشنقيطي عن الركب الشنقيطي والتي نجدها طافحة بذكر الزيارات وطلب البركة وهذا ما نستشفه في أقواله "...ثم خرج الشريف مولاي عبد الله ذاهباً إلى تنبكت، وخرجت معه لزيارة

⁹³⁶ - نفسه ، ص 78

⁹³⁷ - المهدي الغالي . تجليات التواصل الثقافي ، المرجع السابق ، ص 73

⁹³⁸ - محمد الخليفتي . المرجع السابق ، ص 23

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

الصالحين المدفونين بها⁹³⁹... وزرت الشريف سيدي حم بن الحاج، ومن معه من قرابته، وزرت بابا أم أسر في جامع الجمعة، وسيدي يحي في جامع يسمى به عند منارته، والسيد الصالح سيدي أحمد بن عمر الركاد، والشيخ سيدي أحمد مسك بن الحاج أحمد ومحمود بن عمر...⁹⁴⁰، كما زار صالحى قرية المأمون التي عرجوا عليها بعد خروجهم من بوجبيهة، وفي قرية المبروك مكثوا خمس ليال زار فيها الصلحاء المدفونين في بيت قرب مسجد القرية.⁹⁴¹ وبعد قطعهم لمفازة تنزروفت في طريقهم إلى اتوات، نزلوا عند منهل عذب يسمى والن حيث زار الولي الشريف المدفون قربه سيدنا مولاي زيدان.⁹⁴²

ومن الصالحين الأحياء الذين زارهم المؤلف سيدي الحبيب⁹⁴³ بن الشيخ سيدي محمد بزواية الشيخ أبي نعامة⁹⁴⁴. ثم من زاوية الشيخ أبي نعامة⁹⁴⁵ توجه الركب نحو عين صالح والتي مافتى المؤلف يذكر أهلها بخير.

وفي قرى بلاد فزان⁹⁴⁶، والتي يثني عليها المؤلف في قوله "...وما رأيت منذ خرجت من بلادي إلى الحرمين بلادا مثل أهل فزان في الحرص على طلب البركة والدعاء

⁹³⁹ - الحاج محمد البشير البرتلي، المصدر السابق، ص80

⁹⁴⁰ - نفسه، ص:81.

⁹⁴¹ - نفسه، ص:83.

⁹⁴² - نفسه، ص:87.

⁹⁴³ - سيدي الحبيب بن محمد بن أبي نعامة الكنتي، ولد سنة 1122هـ بأزواد وتعلم على يد أبيه الشيخ محمد بن أبي نعامة، إلى أن صار عالما بكتاب الله وسنة رسوله، بعد وفاة والده تولى شؤون الزاوية التي كانت تصلح ذاتالبيين وتؤوي الفقراء والمحتاجين، توفي يوم الثلاثاء 19 جمادى الأولى سنة 1225هـ عن عمر ناهز 83 عاما للمزيد ينظر، عزيز عقباوي، النفحات البهية في أفنان الشجرة الكنتية، مطبعة عزي، الجزائر، 2015م، ص142

⁹⁴⁴ - نفسه ص89

⁹⁴⁵ - تأسست زاوية أبي نعامة على يد الشيخ أبي نعامة سنة 1130هـ/1718م، وبلغت أوج ازدهارها الحضاري خلال القرن الثالث عشر الهجري حيث كانت مجمع ركاب الحج القادمة من توات وشنقيط وبلاد التكرور، ويعد الشيخ سيدي محمد (فتحا) بن عبد الرحمن بن أبي نعامة الكنتي الهاملي بن أبي بكر (المتوفي بزواية أقبلي في 19 رمضان 1163هـ/ الموافق 22 أوت 1750م) هو صاحب مشيخة الركب عندما تصل الركاب إلى الزاوية، وإليه يعود الفضل في إحياء هذه العادة بعد أن قطعت مدة 25 سنة. للمزيد ينظر، الشيخ سيدي خليفة الكنتي، الرسالة الغلاوية، تحقيق حماد الله ولد سالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ص217

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

والتواضع وهضم النفس، ويحبون العلماء ويسألونهم عن المسائل المهمات من أحكام الشرع... حتى صبيانهم يذكر المؤلف رغبتهم في نيل البركة فيقول "والله إن صبيانهم ليأتي الواحد منهم إلينا، ويطأطئ رأسه، ويقول: اجعل يدك يا سيدي على رأسي طلبا للبركة، ويقبلون أيدينا، ولقد سمعت أن هكذا دأبهم مع كل من مر بهم من الحاج...⁹⁴⁷. كما زار قبور الصالحين بقرية أتساوة⁹⁴⁸ ومنهم سيدي الحاج صالح، وسيدي محمد بن عبد السلام ومحمد بن عبد الصمد، وسيدي أحمد الزيتون، كما زار كذلك قبر الولي الصالح سيدي الحاج أحمد⁹⁴⁹ بن الحاج الأمين التواتي. وفي زيارة الصالحين الأحياء بالمنطقة يذكر "... وزرت أيضا من أحياء الصالحين شيخا كبيرا مشتهرا بالصلاح في البلاد - نفعا الله به - اسمه سيدي يحيى بن المرابط محمد ابن المرابط سيدي يحيى، وطلبت منه الدعاء، فدعا لي والله الحمد...⁹⁵⁰. ومن ثم عرجوا على قرية صغيرة بها قبر لرجل صالح اسمه سيدي البشير فزاره المؤلف وطلب النفع منه، ومنها انتقلوا إلى قرية أترغن⁹⁵¹ حيث زاروا قبر الصالح

⁹⁴⁶ - فزان ، إقليم في ليبيا قرب الحدود الجزائرية ينحصر بين الحمادة الحمراء شمالا وبلاد السودان جنوبا ، ومن ناحية الشرق تحده مرتفعات الهروج الأسود ومرتفعات تبسي ، ومن الغرب مرتفعات التاسيلي ، يبعد هذا الإقليم عن طرابلس حوالي 980 كلم ومن أشهر مدنه : مرزق ، أوباري ، سبها ، غات ، وزويلة ، لعبت فزان دورا أساسيا في تاريخ الصحراء الكبرى سياسيا واقتصاديا وفكريا ، وكان يخرقها طريق الحج ، ينظر محمد سليمان أيوب ، مختصر تاريخ فزان ، ، المطبعة الليبية ، طرابلس ، 1967م ، ص 51

⁹⁴⁷ - نفسه ، ص 96

⁹⁴⁸ - وتعرف أحيانا بجرمة الصغرى وهي واحة من واحات وادي عتبة الواقعة وسط الصحراء الليبية بجنوب ليبيا

⁹⁴⁹ - الحاج أحمد بن الحاج الأمين التواتي ، العلامة الفقيه أبو العباس سيدي احمد بن الحاج الأمين القبلي ثم الغلاوي ، كان عالما فاضلا ، جوادا ، شجاعا ، مهابا ، ذا معرفة وحفظ لفروع الفقه مستحضرا لها ، جماعا للكتب ، وكان ليه صيت في بلاد القبلة و بلاد التكرور ، كان شيخا لركب الحاج الولاتي قبل أن يصل توات فيكون الأمر لأبي نعامة الكنتي ، حج مرتين وتوفي في ثانيهما بين قرية مرزق وأتساوة من بلاد فزان ودفن بأتساوة يوم الثلاثاء 19 جمادى الأولى

1157/1743م ، ينظر البرتلي ، فتح الشكور ، ص 95-96

⁹⁵⁰ - البرتلي ، فتح الشكور ، المصدر السابق، ص 99

⁹⁵¹ - أترغن أو تراغن قرية بين حميرة ومرزق ، وهي مقر راحة الحاج قديما ، وتقام فيها احتفالات رسمية لاستقبالهم

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

سيدي محمد بن أجميل⁹⁵². وفي قرية أزويل⁹⁵³ والتي تسمى قرية الشرفاء ذكر أنه توجد فيها قباب مبنية خارج القرية والتي يعتقد أهلها أنهم من الصحابة الذين فتحوا تلك البلاد وهو ثابت عندهم، حيث ذكر المؤلف أنه زارهم.⁹⁵⁴

وفي قرية وجلة⁹⁵⁵ زار المؤلف قبر الفاتح عبد الله بن أبي سرح⁹⁵⁶ رضي الله عنه والذي ذكر أن فوقه جامع مخصوص وبه سادات آخرون منهم محمد ابن خاشن وسيدي محمد الصالح الأوجلي كما زار جامع الشيخ سيدي أحمد زروق⁹⁵⁷ الذي يحتوي على بيت وخلوة الشيخ رحمه الله⁹⁵⁸، وهذا ما يحيلنا إلى البحث عن الطريقة التي يتبناها المؤلف فنستشف من كلامه أن شاذليا، وأن يكون أخذ الورد الشاذلي عن أبيه الطالب أبي بكر، أو عن جده الطالب محمد بن عمر الخطاط الذي كان قد أخذ سند الطريقة الصوفية الشاذلية عن

952 - لعله محمد بن جميل الذي وصفه ابن مليح بأنه السلطان الجليل الرئيس الأمثل الأمير محمد بن جميل وأثنى على سيرته وعدله ، ووصف طريقة استقباله لركب الحج ، انظر ، ابن مليح أبو عبد الله محمد بن احمد القيسي ، أنيس الساري و السارب ، تحقيق محمد الفاسي ، مطبعة محمد الخامس ، فاس ، 1968 ، ص33

953 - أزويل ، زويلة (بلسان أهل البلد) ، تعتبر من أهم قرى فزان ، وهي عاصمة الإقليم ، حكمها الأشراف من أولاد محمد وتخذوها عاصمة لهم ، تلتف حول المدينة بساتين النخيل ولسكانها اهتمام بالغ بالزراعة ، ولشرفائها عادات حسنة في إكرام الضيف وخاصة ركبان القوافل ، ينظر: هونرمان ، معجم القبائل اللبية ، ص77-78

954 - نفسه ، ص ص100-101

955 - وجلة ، أوجلة ، مدينة ليبية تبعد عن مدينة بنغازي حوالي 400 كلم ، وتعد من أعرق المناطق الليبية ، تمثل محطة مهمة لركاب الحاج

956 - عبد الله بن أبي سرح بن الحارث بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي القرشي العامري ، يكنى أبا يحيى ، وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاغة ، ووالي مصر في عهد خلافته ، وهو فاتح إفريقية ، توفي سنة 36 أو 37 هجرية

957 - أحمد بن أحمد بن عيسى البرنسي ، الفاسي ، الشهير بزروق ، الإمام العالم الفقيه المحدث الصوفي الولي الصالح والعارف بالله الرحلة ، ذو التصانيف العديدة والمناقب الحميدة ، ولد يوم الخميس 28 محرم 846هـ من شيوخه عبد الرحمن الثعالبي وإبراهيم التازي وأحمد الحباك والإمام السنوسي والنور السنهوري والحافظ السخاوي وأبو العباس الحضرمي ، له شرحان على "الرسالة" وشرح على غرشد ابن عسكر وشرح مختصر خليل وشرح الوغليسية ، وشرحان على حزب البحر لأبي الحسن الشاذلي ، وهو آخر أئمة التصوف المحققين ، حج مرات عديدة وكانت رحلته الثانية سنة 873هـ إلى مصر ، مكث فيها عاما كاملا ، توفي في صفر سنة 899هـ ودفن بمدينة دكيان بمصراتة

958 - نفسه ، ص109

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

شيخه سيدي أحمد التواتي⁹⁵⁹، وتوجد في الرحلة إشارة لطيفة يفهم منها ذلك حيث يقول: "وتوفي شاب قارئ من مريدي أبي الحسن (أي الشاذلي) عند آبار سيدنا علي.."⁹⁶⁰، حيث يبدو أبو الحسن الشاذلي كمن لا يحتاج إلى التعريف به، لأنه بالنسبة إليه في مقام الغني عن ذلك، مما يرجح كونه شاذلياً.

نافلة القول أن تصوف أهل الركب - كتصوف أغلب أهل بلادهم - يقوم على محبة فطرية للنبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته لا تشيع فيها، ومحبة صادقة للصحابة رضوان الله عليهم، ومحبة للصالحين وحرص على زيارتهم والتماس بركتهم، لاتقديس فيها ولا غلو⁹⁶¹، وتصديق - عن حسن ظن - لكل ما يذكر عنهم من صلاح و تقى، مما يكون مظنة لحصول الخير للحاج⁹⁶²، فرحلاتهم طافحة بالرغبة إلى الله في حصول الخير، والحرص على عدم تفويت أي فرصة لتحصيل الأجر وطلب الدعاء، وحصول التيسير.

03-03-:الإجازات - المساءلات - النوازل - تبادل الرسائل - شراء الكتب

واستنساخها- المقتنيات:لم تكن الرحلة إلى المشرق تتوخى - دائماً - التلمذة والدرس والطلب، وإنما كانت من أجل أهداف وغايات أخرى؛ كزيارة المراكز الثقافية، وجلب الكتب، ولقاء العلماء ومجالستهم، والحصول على الإجازات، وبناء الشخصية العلمية.

⁹⁵⁹ - سيدي احمد بن محمد بن عمر التواتي ، المتوفى بتيشيت 1138هـ/1726م .أحد المتصوفة العارفين بالله ، البرتلي

، فتح الشكور ، ص ص 83-84

⁹⁶⁰ - الحاج محمد البشير البرتلي ، المصدر السابق ، ص 30

⁹⁶¹ - نفسه ، ص33

⁹⁶² - مثل ما ذكره من أن البعض يقول إن سبب تسمية مكان "الدركين" بهذا الاسم هو " لإدراك كل من الأولياء ، وأولياء المغرب وأولياء المشرق عند هذا المكان ، يتلقون الأركاب ويشيعونهم . " فيردف بقوله "نفعا الله ببركتهم " ، ويلتمس فيه ما يأمل أن يكون خصوصية للحاج المغربي "فعلى هذا لم يجتمع أولياء المشرق وأولياء المغرب ، لأن هذا المكان المذكور لايمر به حاج قادم من جهة من الجهات الأخر ، و الحمد لله على هذا الفضل العظيم ."

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

04-03-الإجازة كعنوان للتواصل الثقافي: لفظ الإجازة⁹⁶³ في كلام العرب مأخوذ من جواز الماء الذي يسقاه المرء من الماشية والحرث، يقال منه إستجزت فلان فأجازني إذا استقاك ماء لأرضك أو ماشيتك⁹⁶⁴. كذلك طالب العلم يسأل العالم أن يجيزه علمه أي يجيز إليه علمه فيجيزه إياه، وهي من مصطلحات المحدثين يعدونها في الدرجة الثالثة من طرق تحمل الحديث الثمانية: السماع أي سماع لفظ الشيخ من حفظه أو كتابه، والرواية أو العرض أي قراءة الطالب على الشيخ وعرضه الحديث عليه كما يعرض القرآن على المقرئ، الإجازة، والمناولة، والمكاتبة، وإعلام الشيخ للطالب بأن هذه الكتب روايته، والوصية، و الوجدادة (ما أخذ من العلم من صحيفة من غير سماع ولا إجازة ولا مناولة).

والإجازة تعني أن يجيز عدل ضابط لغيره أن يروي عنه كتابه أو كتابا أخذه عن طريق السند إلى صاحبه. وقد توسع المتأخرون من علماء المسلمين في الإجازة، فأطلقوها على كل أنواع الرواية، وجعلوها غير قاصرة على الحديث، بل شاملة لسائر العلوم النقلية والعقلية، وهذا يعطي أهمية كبيرة للإجازة إذ لا تخلو مضامينها من معلومات مساعدة للباحث فهي تحمل غالبا معلومات عن التواريخ والأماكن، وتدقيق في أسماء الرواة ليس لنصوص الحديث فقط، بل للفقه والتفسير وعلم النحو واللغة والفقه بل حتى الكتابات الأدبية سواء كانت شعرا أو نثرا⁹⁶⁵.

⁹⁶³ - الإجازة في اللغة هي الإذن ، قال الفيروز آبادي في القاموس واستجاز : طلب الاجازة : أي الإذن للمزيد ينظر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، تحقيق مكتبة تحقيق التراث ، إشراف محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، ط8 ، مادة (جوز) ، 2005، ص507

⁹⁶⁴ - أبي الحسين أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر ، 1999، مادة (جوز) ، الجزء 01، ص491

⁹⁶⁵ -encyclopédie de l'islam ; nouvelle édition ,leiden e.j.brill,pays bas ,1971 ,tom3,

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

وبتتبعنا للإجازات التي تضمنتها الرحلات الحجية من خلال ترجمة المؤلفين لشيخوهم - نجدها تضمنت العديد من هذه الأنواع، والتي تبقى الأكثر تعبيرا عن التواصل بين المغرب المشرق الإسلاميين، ندرج مقتطفات منها:

قام أبو سالم العياشي بدور إيجابي في الحركة الفكرية بين المغرب والمشرق، ويتضح ذلك من خلال حرصه على معرفة كل إنتاج جديد في ميدان التأليف. فكان أول من أدخل كتاب (نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض) إلى المغرب بعد أن وعد المثقفين والمهتمين ببلاؤه بإحضاره⁹⁶⁶.^{١١}

أ-الإجازات ودورها في التواصل الحضاري:

كان من اهتمامات أبي سالم العياشي أن يحصل على أكبر قدر من الإجازات من العلماء المشاركة والمغاربة، وقد خصص لها كتابا خاصا سماه "إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء"⁹⁶⁷. ومن أهم هذه الإجازات:- نذكر من الشيوخ المشاركة الذين أجازوا أبا سالم الشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري، وكان له اهتمام بالغ بالرواية وحفظ الأسانيد واستجاز محمد بن رسول الشهرزوري من أئمة الفقه المالكي بالمدينة المنورة. كما أخذ عن "أحمد بابا التتبكتي". حيث ذكر أنه "لقيه ببسكرة ولقنه الذكر وأجازه"⁹⁶⁸. كما أجازه الشيخ ياسين بن محمد بن غرس الدين الشافعي الأنصاري الخليلي من المدينة المنورة. وعمر بن عبد القادر المشرقي وغيرهم. وأجاز العياشي العديد من من طلبة العلم خاصة في المدينة ومصر.

⁹⁶⁶- أبو سالم العياشي ، إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء ، المصدر السابق ، ص ص 68-69

⁹⁶⁷- نفسه. ص70

⁹⁶⁸- نفسه . ص72

وخصص اليوسي حيزا من تأليفه للحديث عن بعض الأعلام الذين التقاهم من أهل العلم والصلاح، ففي طرابلس جالس محمد بن أحمد المكني الذي طلب الإجازة من الحسن اليوسي له ولبعض اصحابه، فأجازهم بخطه، وفي موضع الكيران قرب مسرارة، التقى بسيدي بوتركية البالغ من العمر 125 سنة آنذاك والذي سبق وأن التقى بأبي سالم العياشي ومحمد بن ناصر وابنه أحمد، وفي مصر جالس الخرشي في رحلته الذهاب، وأجازة اليوسي بصحبي البخاري، أما في طريق العودة فكان اللقاء مع أحمد الشرفي التونسي خليفة الخرشي يف التدريس بعد وفاة هذا الأخير. كما اشار إلى جماعة من أولاد وافي بالزعران الذين أخذوا العلم عن والده⁹⁶⁹

- ب- ترجمة مرتضى الزبيدي: كان الحافظ محمد مرتضى الزبيدي أعظم من لقي الحبيب المغاربة بالمشرق. كان كثير من حجاج الركب المغربي يفضلون حين عودتهم من الحج الإقامة في مصر لعدة شهور أو سنوات بغرض التجارة والمعرفة والإفادة العلمية، وهناك العديد من الأمثلة للعلماء المغاربة الذين ارتحلوا مرارا في سبيل طلب العلم والجمع وكانوا في حرص على زيارة الشيخ محمد بن عبد الرزاق الشهير بالمرتضى الزبيدي الحسيني (1145هـ/1732م - 1205هـ/1791م).⁹⁷⁰

إجازته لمحمد بن عبد السلام الناصري: حظي الناصري بإجازة الشيخ مرتضى الزبيدي، وأجازة إجازة طويلة نظما ونثرا، أدرجها في رحلته، ليستفيد منها القارئ و يعي سعة اطلاعه وطول باعه، ولاسيما في علوم الحديث والفقه والأدب، استهلها بابيات شعرية حوالي 45 بيتا منها: (من الرجز)

وقد سألت ربنا سبحانه له على ما قصد الإعانة

حتى يصير حافظ الزمان وعالما بعلمه الرباني

⁹⁶⁹ - ابو الحسن اليوسي . المصدر السابق ، ص:38.

⁹⁷⁰ - المهدي الغالي . تجليات التواصل ، المرجع السابق ، ص43

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

قال في آخرها مرتضى الزبيدي: "قد أجزت سيدنا المشار إليه ومن سمي معه في هذه المجلة إجازة مطلقة خاصة عامة، وكذا أجزت كل من تأهل بحمل هذا الفن من طلبة العلم الشريف بالزاوية المباركة الناصرية... قاله بفمه ورقمه بقلمه، الفقير إلى مولاه الشاكر على ما أولاه أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الواسطي العراقي الأصل الزبيدي، نزيل مصر وخادم علم الحديث بها، غفر الله له زلله واصلح خله وتقبل عمله وبلغه أمله ؛ انتهى ليلة الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين ومائة وألف، أحسن الله تمامها وأسعد عامها وقدر لي ختامها، ومولدي في العشر الأول من محرم سنة خمس وأربعين ومائة وألف، حامدا لله ومصليا ومسلما على نبيه وآله ومحسبلا ومستغفرا" ⁹⁷¹.

كما أجازة في الطريقة النقشبندية⁹⁷²، قال الناصري: "ومما أخذت عن صاحب الترجمة الطريقة النقشبندية، مع اني بحمد الله شاذلي الطريقة، لكن القصد العظم هو التبرك بها وبأصحابها، وأجازني فيها" ⁹⁷³.

وممن أجاز الناصري كذلك: محمد بن محمد الجوهرى الخالدي الشافعي (ت1801/1215)، أجازة يوم الخميس 16 ربيع الثاني سنة 1197 / 20 مارس 1782. ترجم له في الرحلة قال: "وممن لقيته وأخذت عنه، فارس المعقول والمنقول، الجامع بين

⁹⁷¹ - محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ج2، ص685

⁹⁷² - الطريقة النقشبندية : نسبتها إلى نقشبند بهاء الدين محمد الأويسى البخاري ولد في محرم عام 715هـ في قصر عرفان من أعمال بخارى ، وتوفي فيها في ربيع الأول عام 791هـ ، ومعنى نقشبند ربط النقش ، وهو صورة الكمال الحقيقي بقلب المريد ، والنقش هو صورة الطابع الطابع إذا طبع به على شمع ونحوه ، وربطه بقاءه من غير محو فصار من كمال نقشته منهم يسمى نقشبند اي لازم النقش ومربوط النقش ، عن هذه الطريقة أنظر : يسن ابراهيم السنهوري ، الأنوار القدسية في مناقب السادة النقشبندية ، مطبعة الساعدة ، مصر ، سنة 1344هـ، ص53

⁹⁷³ - محمد بن عبد السلام الناصري ، الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ج2، ص 685

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

التفسير والحديث والصول، المتوج بتاج العرفان، ولا تأخذه في الله لومة لائم من كل إنسان، الشيخ محمد بن محمد الجوهرى الخالدي، من ذرية خالد بن الوليد⁹⁷⁴.

إجازة ابو داود سليمان الجميل المصري الشافعي الخلوتي، ترجم له في الرحلة الكبرى. فقال: " وممن لقيته الشيخ الإمام البركة الزاهد الورع الصوام القوام سيدي وسندي، ومن على الله ثم عليه إعتماذي الشيخ ابو داود سليمان الجمل - به لقب - الشافعي مذهبا الخلوتي طريقة⁹⁷⁵. كتب له إجازتين: إجازة في علم الحديث وغيره، وإجازة في الطريقة الخلوتية⁹⁷⁶.

إجازته لابن الطيب الشرقي الصميلي والتي اوردها في مدوناته ورحلته.⁹⁷⁷

إجازته الحاج محمد البشير البرتلي:

أما أشياخه من خارج ولاتة، فقد ذكر المؤلف في رحلته ما يؤكد الذي أورده مؤلف "فتح الشكور" من أنه أخذ الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم عن الفقيه المحدث محمد الأمين بن الطالب سيدي احمد السوقي، وأجازه به، حيث يقول في ذلك: ". وطلبت الإجازة من شيخنا سيدي محمد بن الشيخ الطالب سيدي أحمد الكلسوكي في حديث "الشفا"، وأجازنيه بقرائتي له كله عليه من أوله إلى آخره، وكتبها لي أخذا عن والده مسلسلة بالمناولة من شيخ إلى شيخ إلى المؤلف القاضي عياض جزاه الله عنا خيرا بأحسن الجزاء.⁹⁷⁸ كما أنه لقي في رحلته العلماء والصالحين و استجاز بعضهم فأجازوه، ومنهم العلامة محمد بن محمد الزبيدي الحسيني المعروف بالشريف المرتضى، الذي لقيه في مصر وأجازه، حيث يذكر ذلك في قوله "... ومكثنا في مصر آخر صفر وربيع النبوي،

⁹⁷⁴ - نفسه ، ج2 ، ص : 709.

⁹⁷⁵ - نفسه ، ج2 ، ص: 692.

⁹⁷⁶ - المهدي الغالي ، تجليات التواصل ، المرجع السابق ، ص: 55.

⁹⁷⁷ - محمد بن الطيب الشرقي الصميلي ، المصدر السابق ، ص 183

⁹⁷⁸ - الحاج محمد البشير البرتلي ، المصدر السابق ، ص ص 83-84

وأول ربيع الثاني، وفي هذه المدة طلبت الإجازة من شيخنا، وسيدنا الشريف الحسيني⁹⁷⁹ الفقيه العالم الورع في صحيح البخاري والشفاء للقاضي عياض أعطاها لي، وكتبها لي سلسلة عن أشياخه إلى البخاري والقاضي عياض . جزاه الله عنا خيرا آمين ...⁹⁸⁰، وزاد بأنه أخذ علم السر⁹⁸¹ عن الفقيه عمر بن مودي حمد غع الفلاني السيوي، مع أنه من المفترض أنه كان عالما مشاركا، آخذا من كل فن بنصيب، إلا أنه يبدو أن تخصصه كان في الحديث الشريف، حيث استجاز فيه وأجاز⁹⁸².

06-03- ركب الحج والواقع العلمي: يعتبر طلب العلم ولقاء العلماء والجلوس إلى حلقاتهم، والاستفادة منهم دراية ورواية، من ابرز الدوافع المحركة للرحلة العلمية، التي كما ذكرنا سابقا لم تكن لتنفصل عن الهدف العلمي الذي يسعى كل عالم لتحقيقه أينما تنقل أو حطت به الرحال⁹⁸³. لذا نجد الرحالة العياشي أو الناصري أو اليوسفي أو الورثيلاني أو الحاج محمد البشير البرتلي حرصوا منذ المقدمة على إبلاغ القارئ على بواعث التأليف. فهذا الرحالة أبو سالم العياشي.

أما الحضيكي⁹⁸⁴ فقد استهل تأليف رحلته بتحديد الهدف من تدوينها بقوله: " فالمراد ذكر جماعة ممن لقيناهم من العلماء في الحضر والسفر، رجاء من الله تعالى عظيم البركة،

981 - علم السر : المقصود به هنا هو علم سر الحرف الذي يتعلق باستخدام خواص الحروف وطبائعها والعلاقة التناسبية بينها وبين الأعداد عن طريق الجداول و الأوفاق والطلاسم للتصرف في الأشياء ، وكان من العلوم المنتشرة في الصحراء ، يستخدمه العارفون به لأغراض مختلفة في العلاجات وفي بعض الأمور الحياتية ، كما شكل سلاحا في يد العزل من السلاح ، للمزيد انظر ، الحاج محمد البشير البرتلي ، المصدر السابق ، ص73

982 - الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي ، فتح الشكور ، المصدر السابق ، ص83

983 - الحجوي محمد ، المرجع السابق ، ص 213

984 - محمد بن أحمد الحضيكي ، المصدر السابق ، ص40

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

وشمول الرحمة عند ذكرهم وانخراطا في سلوكهم، لوفور محبتي لهم، ولعظيم شوقي لذكرهم - فالمرء مع من أحب - تأنيسا لنفسي وتأسيا بهم وإسعافا لمن أحب.⁹⁸⁵

- أما محمد بن عبد السلام الناصري فحرص منذ المقدمة على إبلاغ القارئ على بواعث التأليف حيث قال: " الحمد لله رب العالمين...وبعد فإني قاصد بعد استخارة الحق سبحانه إلى تقييد ما عن لي في سفري للحرمين الشريفين من وصف المراحل والبلدان والمياه، وذكر من لقيته من الفضلاء، وما أجبت به عن سؤال بعض النبلاء، أو من سائر الجفلاء، وبيان مازرته من الأحياء والأموات، وغير ذلك من الحوادث والنوادر والأخبار، متكلا في ذلك على الواحد الأحد الغفار. والباعث على ذلك، وإن كنت لا من أولئك ولا ممن يليق أن يسلك تلت المسالك، خدمة للعلم الشريف والتعرض لنفحات الجنب النبوي المنيف "⁹⁸⁶.

كما بين أن الكتاب أراد أن يكون "ديوان علم وسمر " لأن "وجود الأمران " أدعى لنشاط الناظر:

لا يصلح النفس إن كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال.

يرسم محمد بن عبد السلام الناصري صورة غير مُشرقة عن العلم بالمغرب والمشرق العربيين نهاية القرن الثامن عشر، وهو ما يمكن أن نرصده عبر مسار الرحلة

فبعد مغادرة الناصري سجلماسة قادما إليها من بلدته تمقروت، في اتجاه القنادسة فأبي سمغون (ببلاد الجزائر) يقول: " ورد علينا هاهنا - أي بابي سمغون - رجل ينتمي للعلم والصلاح، من شرفاء عين ماضي اسمه سيدي أحمد التجاني⁹⁸⁷، وقدومه الآن كان من

⁹⁸⁵ - نفسه. ص44

⁹⁸⁶ - محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ج2، ص: 753

⁹⁸⁷ - أحمد التجاني مؤسس الطريقة التجانية ، دفين فاس سنة 1814/1239، أنظر ترجمته في : طبقات الشاذلية الكبرى

(المسمى بجامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية) للكوهن ، دار الكتب العلمية ، ط01، سنة 2001/1422،

ص ص: 154-155.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

تلمسان مرغما من بعض أمراء الترك بها.. وتذاكرنا معه مسائل حتى انجرى الكلام للتأسف على قلة تعاطي العلم، وتدريسه وذهاب أهله، فقال: يحرم التدريس في هذا الزمان لفقد شرطه من الامتثال، وتطهير الباطن كالظاهر وتحسين النية. فقلت: لا والله لا يحرم، بل هو في هذا الزمان الذي عمت به سحائب أهل الجهل أوجب⁹⁸⁸.

ولم يفته أن يستنكر ما وصلت إليه مكة من خلوها من العلم والعلماء، معلقا بالقول: " اعلم وفقنا الله تعالى وإياك، أن مكة اليوم ليس بها من يرجع إليه في المعضلات. ولا من يصلح للتمثل بين يديه. ولم يقتصر أمر تدهور العلم على مكة وحدها، بل شمل حتى المدينة المنورة، التي قال عنها الشيخ: " وأما الآن فليس للمالكي ولا للحنبلي إمامة في سائر الصلوات الخمس، إلا في الجمعة، فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان. جريا على عادة تهم في الحرمين، حرصا على أكل الوقف، فيتوارثون ذلك عن ببائهم حتى أفضى بهم ذلك إلى إمامة من ليس بذلك في العلم والدين، بل ومما تولاهما بذلك حدث الأسنان

إذا التحق الأسافل بالأعالي فقد وجبت منادمة المنايا⁹⁸⁹.

لم يكن الواقع السياسي آنذاك ليوفر المناخ السليم لاستمرار محورية مكة والمدينة في التواصل الثقافي بين المسلمين، فقد صادف الناصري خلال حجته ما يعكس عدم الاستقرار السياسي آنذاك.

أكد أن شعلة العلم تخفت في ظل هذه الظروف غير المستقرة مما يفسح المجال لانتشار الجهل والتخلف، فالظاهرة أصبحت تتخر كيان المجتمع الإسلامي شرقا وغربا كما قال الناصري: " ضعف بالمشرق والمغرب الاشتغال بفن الحديث، حتى صار أهله كالشعرة البيضاء في الجلد الأسود. ما راينا اليوم بمصر ولا بالحرمين من يتعاطى من المالكية ولا من الشافعية ".

⁹⁸⁸ - محمد بن عبد السلام الناصري ، الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 393

⁹⁸⁹ - نفسه ، ج 02 ، ص 599

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

وخلص الإسحاقي إلى حقيقة مفادها: "وليتحقق المحقق، ويعتقد الصحيح الاعتقاد انه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة لابنيات لها، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية، فأهواء متشعبة وبدع وفرق ضالة وشيع إلا من عصمه الله من أهلها".⁹⁹⁰ فالإسحاقي كان شديد الحرص على لقاء العلماء والفقهاء في مختلف القرى والمدن التي يمر منها الركب لعله يلقى ما يشفي الغليل ويبرئ العليل، إلا أنه في كل مرة كان يصطدم بحقيقة مفادها: ". وبالجملة فالعلم بالبلاد المشرقية كغيرها، قد وقف على ثنية الوداع وهم مزنة بالإقلاع"، مستحضرا قول شيخه أبي علي الحسن اليوسي: "ما بقي بالبلاد المشرقية من تشد إليه الرحال في طلب العلم. ". فبعين ماضي لقي الإسحاقي فقيه تلك القرية، وجس نبض علمه فاكتشف أنه "قبر من قبور الجهل، لا يفرق بين الماضي والمستقبل". وبزاوية سدي ناجي لقي الإسحاقي بعض الطلبة، وكعادته دخل مهم في نقاشات فقهية وعلمية، فوجد بضاعتهم في العلم مجزاة، وأسئلهم تتم عن ضعف كبير في التكوين.

وبمدينة طرابلس لقي بعضا من الفقهاء والعلماء معظمهم من أصول مغربية أخرى كالفقيه محمد التونسي والفقيه محمد بن مكيل الطرابلس والفقيه محمد بوقلال المغربي وأخيه الفقيه أحمد بوقلال والفقيه محمد الشريف الفرجاني، ولعل تأكيده على هؤلاء الأجانب، كان تمهيدا لإبراز انحطاط الحياة الثقافية والعلمية بتلك المدينة، التي أضحت في رايه "للجهل مأثم ومالعلم بها عرس".

وبمصر كان للإسحاقي وقفة متأنية على أحوال العم والثقافة بأرض الكنانة، فقد تمكن من حضور العديد من حلقات الدرس التي تلقى بالجامع الأزهر، والتواصل مع الكثير من العلماء والفقهاء، ومعرفة طبيعة الدروس التي يتعاطونها، فلاحظ حركة دائبة ونشاطا كبيرا " والجامع المذكور لا يزال غاصا بالناس ليلا ونهار ما بين قارئ ومطالع لكتاب ومصل وذاكر كأنما هي سوق عامرة، والمجالس الدراسية به متظافرة متزاحمة"، ومما أنكره على المصريين

⁹⁹⁰ - محمد بن الشرقي الإسحاقي . المصدر السابق ، ص 145

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

انكبابهم على دراسة علم المنطق وانشغالهم به عن المعقول والمنقول، وعاب عليهم اتخاذهم العلم وسيلة للتسول والإسترزاق".⁹⁹¹

وبعدما صال وجال في مجالس العلم والدرس بمصر، خلص إلى نتيجة مفادها فقدان الرغبة في طلب العلم حيث لخص ذلك بقوله: "وحضرنا مجالس بالجامع المذكور، فما راينا مايشفي الغلي ولا مايبرئ العليل"، فهو لم يقتنع البتة بمستوى العلم بالديار المصرية، والدليل على ذلك أنه لم يسأل أياً من علمائها وفقهائها الإجازة في فرع من فروع العلوم التي يتقنها، كما فعل بمكة المكرمة، حيث حصل على عدة إجازات في رواية الحديث.⁹⁹²

أما الحاج محمد البشير البرتلي الولاتي : "وبعد: فيقول فقير مولاه.الراجي عفو مولاه . الغني به عن سواه. محمد البشير ابن الحاج أبي بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي نسبا الولاتي دارا ومسكنا، ومنشأ ووطنا، المالكي مذهباً. الأشعري اعتقاداً. هذه رحلة مباركة أذكر فيها إن شاء الله مراحل مسافة طريق الحج من بلاد اتوات إلى الحرمين، وكيفيتها في الوعر والسهولة..... وأذكر إن شاء الله تعالى في هذه الرحلة المباركة ما رزقني الله تعالى فيها من ملاقات العلماء والصالحين وما وقفت عليه من قبورهم، وأنبه على طريق المياه العذب منها والمالح، ومواضع الحذر من الطريق والخوف، ومافيه من الأمن من أهل البلاد...."⁹⁹³.

بعد المقدمة وذكر أسباب ودواعي الرحلة إلى الحج.ينتقل الحاج محمد البشير البرتلي إلى تفصيل الحديث عن خروجه من بلده ولاته يوم 25 صفر سنة 1402هـ/ الموافق ل14 نوفمبر 1789م ،موليا وجهته نحو الحرمين الشريفين .مسجلا مختلف الأحداث والوقائع التي عرضت له أثناء رحلته، واصفا البلاد وعادات أهلها ومزاراتها، ولقاء العلماء

⁹⁹¹ - محمد بن الشرقي الإسحاقي .المصدر السابق ، ص155

992

⁹⁹³ - الحاج محمد البشير البرتلي . المصدر السابق ، ص 78

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

والشيوخ ورجال التصوف والوجهاء، لذلك نجده الحاج يحرص على بعض التفاصيل سواء في الوقوف على المراحل أو الأماكن أو ما يعترض الحاج من عوارض، لكنه لا يرسم أي صورة عن العلم ماعدا ما ذكره عن أهل "فزان" من مدح لخصالهم.⁹⁹⁴

لم يخصص البرتلي أي فصل لذكر مسائل فقهية أو علمية يقع السؤال عنها عادة خلال الرحلة إلى الحج مثل ما لاحظناه عند العياشي أو الناصري أو الورثاني بحكم أن هذه الأسئلة هي من تمثل الوجه الحقيقي لأوجه التواصل الثقافي

07-03- شراء الكتب واستنساخها:

- حرص أبو سالم العياشي على معرفة كل إنتاج أدبي جديد في ميدان التأليف، فكان أول من ادخل كتاب "تسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض". بعد أن وعد المثقفين والمهتمين المغاربة بإحضاره وسهر بنفسه على استنساخه. ونقل عددا من رسائل الشيخ إبراهيم الكوراني في مسألة الكسب. والتي اثارت مناقشات طويلة بين علماء فاس والمدينة المنورة.⁹⁹⁵

لقد كان اهتمام محمد بن عبد السلام الناصري بالكتب كبيرا وحرصه على اقتنائها شديدا، رحل إلى المشرق مرتين بقصد الحج ولقاء العلماء والبحث عن الكتب النفيسة فهو "رحالة لايبالي بالتعب"⁹⁹⁶، عرف بشغفه بالكتب - كدأب شيوخ الناصريين الأوائل - يقول: "ولقد كنت في وجهتي للحرمين مرتين، ولاحرمتنا الله من العود، أبحث كل البحث عن الكتب بالحرمين ومصر وطرابلس وتونس...".⁹⁹⁷ فكان يتردد على أسواقها، بحثا عن أنفس الكتب. يدل على ذلك عشرات المخطوطات التي وقف عليها أو اشتراها أو استنسخها أو

⁹⁹⁴ - نفسه، ص 82

⁹⁹⁵ - أبو سالم العياشي. ماء الموائد، المصدر السابق، ص 172

⁹⁹⁶ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، ج 02، ص 661

⁹⁹⁷ - نفسه، ص 443

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

وصفها أو ذكرها في هذه الرحلة، فعلى سبيل المثال ماوقف عليه بمكة حيث خصص لذلك فصلا عنوانه ب"فصل في ذكر مشاهدت بمكة من الكتب مما لم أكن رأيته إلا نادرا في خصوص خزانتنا".⁹⁹⁸ ويقول في موضع آخر: "وقفت بهذه البلدة - سجلماسة - على اختصار نوازل الفقيه ابي عبد الله بن الحاج، ولم أكن رأيت الأصل فيما سلف من عمري، ولا هو بالخزانة الناصرية، وقد اشتدت رغبتي وطلبي له، فلم أقف إلا على هذا الاختصار وهو لأبي زيد عبد الرحمان بن زيد بن الخطيب أبي القاسم بن شعيب، نحو تسع كرايس من الكبير إلى الناهية في التحرير، محتو على غرائب من الأحكام والنوازل، مطروا بأبحاث، مبدؤه بالطهارة وغيرها من القواعد وما ينضاف إليها من الأحكام، وختم بمسائل مفردة وأحاديث ومسائل من التفسير واللغة ومسائل جامعة".⁹⁹⁹ وكان كلما وقف على كتاب إلا ودعا الله أن يمن على خزانة تمقروت بمثله، فقد قال لما وقف على نسخة كاملة من تقييد أبي الحسن الصغير على تهذيب البرادعي للمدونة "وليس في الخزانة الناصرية من تقييد الشيخ أبي الحسن هذا إلا جزآن، نسأل الله تعالى أن يكمله لنا فنعم الكتاب".¹⁰⁰⁰

ومما وقف عليه كذلك:- شرح أبي الحسن علي بن ابراهيم بن إدريس بن يعقوب الأنطاكي على البردة في اجزاء ضخام.¹⁰⁰¹

- بشائر أهل الإيمان، بفتوح آل عثمان

- الحلل السندسية في الأخبار التونسية لمؤلفها محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن مصطفى الوزير. قال: "ألفه في سن الأربعين من قرننا هذا في ثلاثة اسفار من الكبير، وهو كتاب جليل في بابيه".¹⁰⁰²

⁹⁹⁸ - المهدي الغالي ، الشيخ محمد بن ناصر ، المرجع السابق ، ص230

⁹⁹⁹ - محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ج1، 322، 01

¹⁰⁰⁰ - نفسه ، ص350

¹⁰⁰¹ - المهدي الغالي. تجليات التواصل الثقافي ، المرجع لسابق ، ص44

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

وفي رحلته الثانية لما انتهى إلى طرابلس عثر على كتب نفسة منها نسخة من صحيح البخاري بخط الحافظ أبي علي الصديقي، وهي نسخة فريدة -حسب قوله - عرض على مالکها کل ما يستطيع من ثمن دون أن يظفر بها. قال: "وممن بقي بقيد الحياة ممن كنت اجتمعت عليه في الرحلة الأولى الشاب الأريضي أبو العباس أحمد أبو الطفل به عرف... ومن الكنوز التي وقفت عليها عند أبي الطفل المذكور نسخة من صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في مجلد بخط الحافظ أبي علي الصديقي شيخ شيخ القاضي عياض، قال اشتراها بثمان بخرس في عدة كتب بمدينة اسطنبول وراودته على بيعها عازما على إعطائه مائة دينار ذهباً فامتنع وأبى... وعليها من سماعات العلماء عياض فمن دونه إلى ابن حجر العجب..".¹⁰⁰³، وقد أكد ذلك في كتابه المزياب بقوله: "ولقد بذلت لمن اشتراه من أهل طرابلس الغرب باسطنبول - بثمان تافه - صرة ذهب فأبى من بيعه وبقي ضائعاً في ذلك القطر، فلا حول ولا قوة إلا بالله ".¹⁰⁰⁴ وهذا إن دل على شيء إنما يدل على اهتمام محمد بن عبد السلام الناصري بالكتب العلمية وحرصه الشديد على اقتنائها، بل اعتبر عدم العناية بها من البدع التي أحدثت بالزاوية الناصرية.¹⁰⁰⁵

اما الرحالة **محمد بن أحمد الحُصَيْيكي** فما ساعده على إغناء مكتبته، أنه كان يتعاطى إلى نسخ المخطوطات بيده دون الإعتماد على أحد غيره، وذلك حبا في الكتاب، وحرصا منه على ضبط منسوخاته، فكان رحمه الله: ((كثير النسخ للكتب، نسخ كتباً عديدة بيده، بحيث لايفتر ليلاً ونهاراً، متى أمكنته فرصة حتى إنه إذا لم يكن له إدام القنديل ليلاً، ندب امرأته تشعل له النار بسعف النخل وتأخذها بيدها وتضيء له إلى آخر الليل، وهو يكتب وينسخ

¹⁰⁰² - محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ج1، ص360

¹⁰⁰³ - نفسه ، ص 445

¹⁰⁰⁴ - نفسه ، ص460

¹⁰⁰⁵ - المهدي الغالي . الشيخ محمد بن ناصر ، المرجع السابق ، ص230

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

ويقيد¹⁰⁰⁶. وتتوعد معارفه فشملت الحديث والفقه والسيرة والتاريخ والنحو واللغة وطبقات الرجال ومن مؤلفاته: مناقب الحضيكي، شرح الرسالة القيروانية، مصابيح الإصاغة في تعريف الصحابة، شرح الهمزية، شرح الشفا، طبقات علماء سوس، شرح البخاري، مجموعة أجوبة فقهية، مجموعة اصول في الطريقة الصوفية، شرح الطرفة في اصطلاح الحديث، رحلته الحجازية.¹⁰⁰⁷

المقتنيات الفقهية والعلمية التي كان يصطحبها معهم حجيج المغرب: تتوعد وتعددت المؤلفات الفقهية التي كان يقتنيها حجاج المغرب العربي خلال تلك الفترة ولكي يتسنى لنا الوقوف على هذه الحقيقة نختار نموذجاً من هؤلاء الرحالة الا وهو محمد بن عبد السلام الناصري الذي جلب معهم عناوين عدة خلال عودته من الحج ومن ابرزها:

نسخة نفيسة ونادرة من كتاب الكمال في أسماء الرجال للحافظ عبد الغني المقدسي (ت 1204/600)

02- اختصار نوازل الفقيه المشارك أبي عبد الله بن الحاج لأبي زيد عبد الرحمان بن زيد بن الخطيب أبي القاسم بن شعيب، نحو تسع كراريس

03- الأحاديث المختارة للضياء أبي الحسن المقدسي على مسند الإمام أحمد في ثلاثة أجزاء.

04- مسند الإمام أحمد. قال في الرحلة الكبرى: " اشتريت الثلث الوسط منه بالمسجد الحرام، وأكملة الله لي بعد بمصر ".¹⁰⁰⁸

- المستنسخات التي كان يتم اقتنائها :

¹⁰⁰⁶- محمد بن أحمد الحُصَيْيكي . رحلته ، المصدر السابق ، ص 15

¹⁰⁰⁷- نفسه . طبقات الحضيكي ، المصدر السابق ، ص 220

¹⁰⁰⁸- محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الكبرى ، ج 02، ص 771

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

ذكر محمد بن عبد السلام الناصري في الرحلة الكبرى أن مصطفى بن قاسم الحنفي المعروف بخوجة استنسخ له عدة مؤلفات¹⁰⁰⁹ وهي على التوالي :

- حاشية ابن الشاط على فروق القرافي.

- تعليق الوانوشي على المدونة.

- شرح زروق على البخاري.¹⁰¹⁰

- شرح عبد الغني النابلسي على اضاءة الدجنة.

- حواشي الشيخ يعيش على التحفة لميارة.

- تكملة التقييد وتحليل التقييد لابن غازي (من النكاح إلى آخره).

- حواشي عبد الرحمان العرف على البخاري

- شرح ابن زكري على النصيحة. والكتب الأربعة الخيرة أرسلها له إلى تامقروت، لأنه لم يكتمل استنساخها له في مصر.

. كما حضر استنساخ البيان والتحصيل لابن رشد من ثمانية عشر جزء برسم خزانة الزاوية الناصرية بطلب من شيخها يوسف الناصري للسلطان محمد بن عبد الله. قال: "حضرت استنساخه له أواخر السبعين فبعثته محبسا له هنا. تقبل الله منه".¹⁰¹¹ وشرح أبي علي بن رجال في أربعة عشر جزء بعث رحمه الله ورضي عنه نسخة منه ومالا، نحو أربعمئة مثقال، حتى استنسخه هنا فحبسه واسترجع الاصل شكر الله سعيه.

¹⁰⁰⁹ - المهديالغالي . المرجع السابق ، ص240

¹⁰¹⁰ - محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ج02، 776

¹⁰¹¹ - نفسه ، ص800

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

ماوهب للحجيج من مؤلفات فقهية وعلمية: في غياب مصادر مهمة نظطر لوضع نماذج عن بعض الرحالة الذين ذكروا في مدوناتهم، بعض المؤلفات التي وهبت لهم، ومنهم على سبيل الذكر لا الحصر.

01 - أربعين حديثا في ترك الظلم: وهبها له مؤلفها محمد بن محمد الجوهري الخالدي الشافعي، وقد شرحها المترجم بطلب من مؤلفها. قال في مقدمته: "لما قفلت من الحرمين الشريفين سنة سبع وتسعين ومائة وألف (1782/1783)، وكان من جملة من لقيته وأخذت عنه العلم، بمحروسة مصر، العالم العلامة الجليل، سيدنا ابو عبد الله محمد بن محمد الجوهري.. ندبني إلى شرح أربعين حديثا له في الحث على ترك الظلم.. ووهب لنا منها نسخة وكتب بخطه على ظهرها: أجزتكم بها وأرجو أن تشرحوها إذا وصلتكم، مع ذكر سندها وبيان رتبها، والاقتصار على بيان المعاني".¹⁰¹²

02 - التعليقة الجلييلة بمسلسلات ابن عقيلة: ناولها له شيخه الحافظ مرتضى الزبيدي في السادس من ربيع الأول سنة 1197 (08 فبراير 1783).

03 - كما وهب له الحافظ مرتضى الزبيدي عدة اسفار نادرة اخرجها من مكتبته وأعطاهها له.¹⁰¹³

يقول في ترجمته للزبيدي: "وقد عزمت عن السفر وما بايدي له من الكتب عارية، وبقي لدى عوارف المعارف لأبي النجاء السهروردي ومسلسلات ابن عقيلة. انشدته بالبديهة معرضا بتمليكها لي إذ لم يبق من الزمان ما استسخما فيه ولا وجدتهما بشراء (من مجزوء الرجز):

لم يبق باليد سوى عوارف المعارف

¹⁰¹² - محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ، ج01، ص33

¹⁰¹³ - المهدي الغالي. الشيخ محمد بن ناصر ، المرجع السابق ، ص245

أبقيتها تقاؤلا جوهرة في صدف

ومعها سلسلة ابن عقيل العارف

نزلت بحرا فائضا بوابل وواكف¹⁰¹⁴

فقال بمجرد الفراغ من إنشاد الأبيات: أما المسلسلات فخذها، وهي وإن لم تكن لي فهي لملاطف لي أعوضه بأخرى، وأما العوارف فهي عارية عندي لبعض الجنديين، ونسال الله تعالى أن يأتيني بغيرها.

الشيخ الحسين الورثيلاني: برع الشيخ الحسين الورثيلاني في الكثير من العلوم كالفقه والتوحيد، التصوف والنحو والبلاغة، ويعود ذلك إلى حرصه في طلب العلوم، وهو من أسرة اشتهرت بالعلم فأبوه "محمد السعيد الورثيلاني وجده الحسين بن محمد الشريف الورثيلاني كانا من علماء الشريعة في زمانهم، كما أنه اكتسب تجربة معرفية خلال رحلاته الكثيرة داخل الوطن وخارجه، حيث زار العديد من البلدان كتونس وطرابلس ومصر والحجاز، وهو ما سمح له بتكوين علاقات مع الكثير من العلماء، فحضر مجالسهم وحلقاتهم مثل العالم محمد الحفناوي وأحمد الجوهري والشيخ البليدي وعلي الفيومي وعبد الوهاب العفيفي، ونظرا لهذه المسيرة الحافلة بروح العلم ترك الشيخ الحسين الورثيلاني الكثير من الآثار التأليفية وأغلبها عبارة عن شروح من أبرزها - كراس في وصف برقة بليبيا - راسلة في شرح لغز صوفي للشيخ أحمد بن يوسف الملياني بعث به إلى سلطان فاس - شرح على الصغرى للشيخ السنوسي التلمساني - شرح على وظيفة يحيى العيدلي وبعض كراماته في التصوف - شرح النورية في التوحيد - شرح على وسطى في التوحيد - شرح على محصل المقاصد لأحمد بن زكريا التلمساني - حاشية على صغير الخرشي - حاشية على كتاب المرادي - شوارق الأنوار في

¹⁰¹⁴ - نفسه . تجليات التواصل الثقافي ، المرجع السابق ، ص46

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

تحرير معاني الأذكار - شرح الرسالة السمرقندية - شرح المنظومة القدسية - قصيدة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام من 500 بيت... الخ¹⁰¹⁵

أما الرحالة الحاج محمد البشير البرتلي فيعتبر استثناء ففيما يخص شراء الكتب واستنساخها: لم يذكر المؤلف أي عنوان اقتناه، أو استنسخ له¹⁰¹⁶، رغم لقائه بعدة علماء في طريقه وأجازتهم له، كما أنه لم يذكر أي عناوين وقف عليها خلال رحلته كعادة الرحالة في زمنه الذين كانوا يحرصون حرصا شديدا على اقتناء الكتب النفيسة، وينفقون عليها أموالا باهضة لاقتنائها، حتى انه لم يذكر أن أحدا وهب له مؤلفا، رغم أنه من عادة العلماء في زمنه إهداء المؤلفات لبعضهم.

وهكذا أدى ركب الحج دورا مهما في دعم الروابط الثقافية بين تونس والحجاز، فاستفاد أهالي الحجاز ومجاوروه من علماء المغارب، كما استفاد علماء المغارب من وجودهم في الحجاز فترة حهم.

03-التواصل الاجتماعي: لقد حرص المغاربة على وصف المجتمعات والعمائر التي يمروا عبرها، ويتم التعرف كذلك على عاداتهم وتقاليدهم وتعاملهم مع ركب الحاج المار بأراضيهم، كما أن الرحلات الحجازية كانت تمثل تواصل اجتماعي بين المشرق والمغرب¹⁰¹⁷. فالرحالة المغربي لا يسافر وحده بل في جماعة، كما تصبح الجماعة ظاهرة اجتماعية حيوية، ويكون الركب أو القافلة تتعاون في السراء والضراء أثناء الرحلة، وكانت الأحوال الاجتماعية للحجاز شبه مستقرة خاصة في المناطق التي توجد بها الينابيع والأراضي الزراعية وتربية

¹⁰¹⁵ - حميد قريتي ، الأهمية التاريخية للرحلة الحجازية "رحلة الحسين الورتيلاني -أ نموذجاً- " ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد 01 ، المجلد 10 ، الجزائر ، 1443هـ/2022م ، ص ص: 329-330.

¹⁰¹⁶ - الحاج محمد البشير البرتلي .المصدر السابق ، ص88

¹⁰¹⁷ - شرف موسى ، أخبار العلم والعلماء بأرض الحجاز من خلال الرحلات المغربية : رحلة أبي سالم العياشي وابن الطبيب الشرقي والهاللي نموذجا ، مجلة قضايا تاريخية ، المركز الجامعي نور البشير ، البيض ، العدد 07 ، 2018 ،

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

الماشية، كما يظهر طابع الاستقرار في المدن الرئيسية في الحجاز خاصة في مكة والمدينة كما وصفها عديد من الرحالة خاصة أبي سالم العياشي.¹⁰¹⁸

فقد كان للملمح الاجتماعي في الرحلة العياشية النصيب الأكبر بحكم معايشة العياشي لسكان المشرق وأهل الحجاز خصوصاً. ويرد خصائص بعض المجتمعات من خلال معانيته لها. فيقول عن المجتمع المصري ". وبالجمل فمصر أم البلاد شرقاً وغرباً لا تستغرب شيئاً مما يحكى منها من خير أو شر ومصدق ذلك ماحدثني به بعض اصحابنا من التجار في سنة اربعة وستين قال: ". لما دخلت مصر في حدود الخمسين سكنت بعض الوكائل، وكان من قدر الله ان اجتمعنا في محل واحد جماعة من فلان وفلان تاجر وفلان طالب علم وفلان ممن يليق إلى طريق الفقر، وفلان ممن يميل إلى المجون... فيقول التاجر: مارأينا مثل هذا البلد في التجارة فأهلها كلهم تاجر. ويحكي خلال ذلك حكاية ما شاهد. "ويقول الفقيه مثل ذلك والفقير مثل ذلك وذو المجون مثل ذلك. وما ذلك إلا لكثرة أجناس الناس فيها. فمن طلب جنساً وجد منه فوق ما يظن. فيظن أن أهل البلد كلهم كذلك." ¹⁰¹⁹. وقد مكث في الحجاز لفترة لابس بها، وقد كان حريصاً على الإشارة إلى الخلل الذي يعاينه حتى لو كان بسيطاً، وقد أورد بعض العادات المستحبة لسكانه كقوله: ". مما أنعم الله به على أهل الحجاز هذا البن لأنهم ضعفاء فقراء في الغالب، والناس يقدمون عليهم من الافاق والإنسان لا بد له من طعام يقدمه لمن دخل عليه، ولا قدرة لهم على تكلف ذلك لكل جديد يدخل عليهم " ¹⁰²⁰، ويتحدث العياشي عن المرأة المدنية وميولها نحو البذخ والترف فيقول: "ولقد أخبرت أن للنساء عليهم عادة يسمونها الشخصخة وهو ما تشتري به المرأة ماتشتهيه من الأزهار فربما بلغ ذلك رياء لأكل يوم"، وهو يعيب عليها إسرافها في الزينة والشكليات ¹⁰²¹.

¹⁰¹⁸ - نفسه ، ص 85

¹⁰¹⁹ - أبو سالم العياشي . ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج01، ص 222

¹⁰²⁰ - نفسه ، ص122.

¹⁰²¹ - نفسه ، ص 22

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

ومن الآفات الاجتماعية الخطيرة التي سجلها العياشي نذكر آفة الرشوة التي سادت خلال القرن الحادي عشر، والتي مست جميع الميادين بالبلاد الشرقية حجازا ومصرًا وشاما. من إمامة و آذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة" إنما تنال بالشرء من الولاة ¹⁰²².

منذ انطلاق ركب الحج من الأراضي الجزائرية يتشكل مجتمع جزائري مصغر متنقل، يسوسه شيخ الركب، وتسوده المودة والتعاون والتشاور. وتتجسد صفة التشاور فيما بين أفراد الركب بخصوص المستجدات الحاصلة في طريق الحج. من ذلك - مثلا - أن بعض البدو طلبوا من الركب النزول للتسوق معهم في إحدى المحطات، فوافق بعض الحجاج على ذلك بنية مساعدتهم، بينما امتنع الكثيرون عن النزول لضيق الوقت. فتم تغليب رأي الأغلبية الممتنعين. ¹⁰²³

رغم كثرة حجاج الركب الجزائري وتنوع أصولهم وقبائلهم وعاداتهم، إلا أنهم جعلوا الركب كالجسد الواحد، يشد بعضه بعضا، وتتجلى فيه صور التضامن والإيثار والأنفاق. مثلما فعل بعض الحجاج الجزائريين حينما قاموا بتوزيع كميات كبيرة جدا من التمر على من في الركب، كانت قد أهديت لهم من قبل أقاربهم وأصدقائهم بإحدى المدن الليبية، فكل من في الركب أخذ نصيبه وفرح بذلك فرحا شديدا ¹⁰²⁴.

كانت صفات الصلاح في نظر الحالة المغاربة تتمثل في الولاية والكرم والترحيب بالغريب، خاصة من طرف أهالي المناطق التي مر بها الركب، مثل ماتميز به صاحب الزاوية الشيخ عبد الحفيظ بطرابلس الذي يشهد له بالصلاح والولاية من أهل التصوف ¹⁰²⁵، وهو صاحب الزاوية التي كانت لوالده الشيخ محمد الصيد ¹⁰²⁶، أين كان يستقبل مريديه

¹⁰²² - نفسه ، ص 282

¹⁰²³ - الحسين الورثياني . المصدر السابق ، ج 02 ، ص 12

¹⁰²⁴ - نفسه ، الجزء 03 ، ص 249

¹⁰²⁵ - المجاجي . المصدر السابق ، ص 121

¹⁰²⁶ - أبو سالم العياشي. ماء الموائد ، ، المصدر السابق ، ج 02، ص: 205

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

والأتباع والضيوف على العموم، فأهل هذه المدينة جبلوا على الكرم كما قال الدرعي¹⁰²⁷:
"... من كي الأوصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، لاتكاد تسمع من أحد من أهلها لغوا إلا
سلاما، سيما الحجاج الواردين، ومن انتسب إلى الخير، من الفقراء العابدين فإنهم يبالغون
في إكرامهم...". وقد سبقه في هذا التقدير بعض الرحالة فقالوا عنها: "...بان لهم مروءة
ظاهرة، وعشرة حسنة وصحة نية ومعاملة محمودة جميلة، ورباطات كثيرة ومحبة للغريب
أثيرة ذائعة ولهم في الخير مذهب... لايدانيهم أهل بلد" ¹⁰²⁸ أين كان يستقبل مريديه والأتباع
والضيوف فيكرمهم وأهل المدينة كذلك، حيث وصفهم العديد من الرحالة بالمروءة وحسن العشرة
والمعاملة الحسنة ومحبتهم للغريب وغيرها من الأوصاف الطيبة، لتلك الأسباب كان ركب
الحج يقيم بها نحو تسعة أيام. يزيدهم خلالها الشيخ عبد الحفيظ من الفضائل ويؤمن لهم من
طعام وتمر وسمن وغيرها، ثم يرافقهم مسيرة شهر، ويساعده في تلك المهام أهل تلك المناطق
بحيث يتسارعون لإكرام الشيخ وإكرام كل أفراد الركب، ويرافقهم مع تأمين الطريق من
طرابلس حتى قرية بوذريف.

يذكر المجاجي أن مالفت اتباعه بطرابلس هو كرم أهلها خاصة مع شيخها عبد
الحفيظ، والتي خصها بوصف مختلف نلمح فيه الطابع الاجتماعي في قوله:

طرابلس المعلوم بالجود أهلها وفيها رجل مشهور بالولاية ¹⁰²⁹

وأهلها أيضا ضيفوا الركب كله وقد ابذلوا مجهودهم بالكفاية

وقد شاركه في ها الوصف العياشي، ولكن بأكثر شمولية في قوله: "...وكان عادة
الركب إذا دخل هذه المدينة، سيما في الذهاب، أين يقيموا بها نحو من شهرين يستعدون

¹⁰²⁷ - أحمد بن ناصر الدرعي ، المصدر السابق ، ص288

¹⁰²⁸ - ابو سالم العياشي . ماء الموائد ، المصدر السابق ، ص 135

¹⁰²⁹ - يذكر العياشي عند حجته 1653/1064م .أنه مر على طرابلس ، ووجد الشيخ عبد الحفيظ قد اعتزل السلطة

وبقي ملازما لداره ومسجده للتدريس ، ينظر : ابو سالم العياشي .ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج01، ص64

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

فيها لدخول المفازة، والتي قل نظيرها وهي مفازة برقة، ومن هذه المدينة يشتري الحجاج من الإبل والقرب، ويتخذون زادا نحو من ثلاثة أشهر إلى مصر، إن كان الوقت شتاء، وإن كان صيفا فنحو من شهرين...¹⁰³⁰. هذا عند الذهاب أما الإياب فيكون مشابها له. ولأن أهل هذه المدينة كانوا قد رأوا بركة الحجاج، في أمر معاشهم فقد يصل بها نحو خمسة أو ستة من الركائب الداهبين والآيبين، ومع هذا لايزيد السفر على المعتاد، فإذا اجتمع الركائب كثر بها الزحام على الأراحي. ولولا سماحة أهلها وكرم أخلاقهم، لما تهيأ الحجاج لاتخاذ الزاد منها لصغرها وكثرة الواردين عليها¹⁰³¹.

وأما الحسين الورثيلاني فقد تطرق في رحلته إلى الكثير من الخصال التي تميز بها المجتمع آنذاك مثل العمل على إصلاح ذات البين والكرم والجود والتآزر، وانتشرت تلك الفضائل في كل منطقة زارها ومر بها الرحالة، وكان يلقي ذلك منذ بداية رحلته، وإلى غاية عودته إلى دياره. فعندما وصل مع مرافقيه إلى بني عباس وباتوا هناك استقبلهم أهلها بحفاوة وفرحوا بهم كثيرا، ولقوا نفس الضيافة عندما زاروا سيدي أحمد بن عمر بتادلس.

ونفس الكرم لقيه الركب عند وصوله بسكرة ومدينة حمزة لدى قبيلة بني موسى الساكنة بالقرب من مدينة الجزائر حيث مدحهم المجابي على ذلك، وأثنى عليهم ودعى لهم بالخير، ومن مظاهر التعاون و الايثار ضمن ركب الحج الجزائري أن بعض الحجاج قاموا في أحد المواسم بالبحث عن مسكن يكترونه لأحد المرضى الحجاج، وذلك بعد أن اشتد عليه المرض، ولما حان وقت السداد قام أحدهم ببيع كسائه لتوفير مبلغ الكراء."

ونظرا لكون ركب الحج مداوما في سفره على القيام والنزول، فقد اعتادت مجموعة من الحجاج المتطوعين فاعلي الخير على امتطاء البغال والسير خلف الركب، فيكونون آخر من يصل من الحجاج إذا نزل في موضع ما، وذلك لأجل جمع الرحل (المتاع) المنسي من

¹⁰³⁰ - العياشي، المصدر السابق، ج1، صص135، 136

¹⁰³¹ - أبي اسحاق الفارسي المعروف بالإصطخري، كتاب الأقاليم، د.ط، ص20

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

طرف بعض الحجاج، أو الساقط من على ظهور الإبل أثناء سيرها وإعادتها لأصحابها. كما كان ركب الحج يتمهل في سيره أحيانا لانتظار بعض الحجاج المتخلفين من أجل السقاية في بعض المنابع¹⁰³².

-01-03: تواصل الركب الاجتماعي الانساني مع مجاله:

أ- في البوادي والبنادر: تعتبر البوادي والبنادر المعدة لنزول ركب الحج إحدى المواطن الأساسية التي ترتادها قبائل العرب (البدو الرحل) باستمرار، حيث تلقى الخير الكثير بنزول الركب بإزائها. فالأسواق التي يقيمها الركب مع "الأعراب" بيعة وشراء هي المجال الرئيس للالتقاء الطرفين وحدث التواصل بينهما، سواء في بعده التجاري أو في بعده الإنساني. ورغم أن الحجاج تكررت شكواهم من إذاية بعض البدو للركب، إلا أنهم لم يجدوا بدا من مخالطتهم، فهم سلاح ذو حدين كما بين الرحالة السجلماسي في الحالة التالية المرتبطة بأعراب بلد الزاب "...وكسدت سلع الحجاج التي جلبوا من سجلماسة بقصد البيع هنا، لغيبة الأعراب، ولكننا حمدنا الله على ذلك، لأن مضرتهم أكبر من نفعهم، فانهم تكثر إذايتهم للركب، ويهمون بنهبه..."¹⁰³³.

كما أبدى الحجاج إعجابهم الكبير بقرية "سيوى" على الحدود مع مصر، ذات التمر الجيد، وبصفة اخص بأهلها الذين أخبروا الحجاج بأنهم يولون أمرهم للاثني عشر شيخا من اجلاء شيوخهم، لهم سياسة وشهامة. فلا يجسر عليهم احد من الأعراب ولا من غيرهم¹⁰³⁴، وهي تجربة بدوية رائدة في مجال الحكم والإدارة والسياسة.

ب- في المدن والحوضر: ذكر الكثير من الرحالة في مدوناتهم طرق تواصلهم مع محيطهم في أي محطة يدخلونها، أو ينصرفون عنها، أو يتحاشونها فهذا اليوسي: أبدى اهتماما

¹⁰³² - الحسين الورثيلاني، المصدر السابق، ج2، ص170

¹⁰³³ - الهاللي السجلماسي، المصدر السابق، ص79

¹⁰³⁴ - عبد الرحمن التلاني، المصدر السابق، و 14.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

بوصف بعض المدن والقرى والمعالم، ووصف السكان الذين التقاهم بدوا كانوا أو حضرا. فمن الناس الذين أطنب في مدحهم أهل المدينة المنورة الذين يغلب عليهم الترحم وحب الغريب ومساواتهم والإحسان إليهم."

كما يرصد لنا الحُصَيِّكِيُّ بعض الظواهر الاجتماعية والعادات والتقاليد التي شاهدها خلال مراحل رحلته منها، خروج نساء منطقة عين ماضي إلى الأسواق، والاختلاط بالرجال للتجارة لأنه: " لا يبيع ولا يشتري في تلك البلاد غالبا إلا النساء، ولقد افتتن بهن عامة الحاج، إذا نزلنا بها والعياذ بالله من فتنة الأهواء واتباع الشهوات، ولبعض أهلها نوع من مخالطة العلم"¹⁰³⁵. كما نبه المؤلف إلى المخاطر التي تواجه الحاج في طريقه من طرف السراق وقطاع الطرق، كما هو الحال في وادي الناموس حيث: " يكمن فيه السراق، وأعراب تلك البلاد سراق قطاع ينهبون الحاج كثيرا ويقطعون عليهم"¹⁰³⁶. ونبه كذلك الحاج إلى مايقع له من الابتزاز والاستغلال المادي في سفره من طرف الخدام والجمالين، فهم "...يحرصون على استخراج أدنى شيء منك..ولا تتعاط معهم المساوي، فإنهم أشحاء على الخير، وألسنتهم حداد، ووف إليهم كراءهم، ثم احسن إليهم، ولو بقليل من طعامك، تفز بالأجر من الله وبالرحمة منه، وألن جانبك ولا تغلظ..¹⁰³⁷".

أما أليوسي فقد ذم أهل بسكرة الذين لم يجد من بينهم "من يقرأ ولا يقرئ، ومن يضيف ولا يضيف."¹⁰³⁸،

تعتبر المحطة المصرية أهم المحطات الحضرية في طريق ركب الحج، نظرا لميزتها من جهة، وطول فترة الإقامة بها في الذهاب وفي الإياب من جهة أخرى. فمصر (القاهرة في القصد) في ينظر المغاربة هي "أم البلاد شرقا وغربا، الجامعة بين الخير والشر، لأن

¹⁰³⁵ - الحضيكي . المصدر السابق ، ص:84.

¹⁰³⁶ - الحضيكي ، المصدر السابق ، ص:86.

¹⁰³⁷ - نفسه . صص89-90

¹⁰³⁸ - ابوالحسن اليوسي . رحلته ، المصدر السابق ، ص89

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

مجتمعها متنوع الأجناس، وقاصدها يجد فيها رغبتة ومناه، فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن، فيعتقد ان غالب اهل البلد كذلك ". كما يجد بعض الحجاج ضالتهم في معالمها الشهيرة، كالأزهر والقلعة والفسطاط ومشهد الإمام وجامع ابن طولون والأهرام والسوق الشعبية وزوايا أهل العلم والأدب والأخبار...

والقاهرة كما وصفها أحد الحجا ". مدينة آهلة بالمساجد والجوامع، يصل عددها زهاء خمسة آلاف مسجد، وفي معظمها توجد نبار تزودها بالمياه، وثمة رجال معينون يجلسون عند نوافذ المساجد لتقديم الماء لكل عابر، وتزين مآذن المساجد وشرفاتها عند حلول شهر رمضان بمصابيح كثيرة مبهرة في جمالها. ويشجع الحجاج على زيارة أحياء القاهرة والتواصل مع مجتمعها وجود عائلات جزائرية من قسنطينة والجزائر وتلمسان ووهران، استقرت في مدينتي القاهرة والاسكندرية منذ مطلع القرن الـ10هـ/16م، منها عائلات: قسنطيني وابن منديل وابن قريش والقرموني وبوزيان وبونهار والصباحي والحفناوي والوهراني والصباغ والسايح والتمراني وشعلان.

إن وجود تلك العائلات وتواصل بعض الحجاج الجزائريين معها، بالإضافة الى "اجتماعية" البعض الآخر من الحجاج، ومبادراتهم الشخصية، كلها مثلت ظروفًا مثالية لإقامة الركب بارتياح، وتحفيز افراده على التواصل بمحيطه المؤقت، فيزور الحجاج مسليات المدن المصرية، ويشاهدون عجائبها المتعددة. ومن عجائب مصر - والعالم بأسره - التي اصر بعض الحجاج على رؤيتها -أهرامات الجيزة -، حيث اندهشوا من شكلها وضخامتها.

شكلت "الملاقية" التي كانت قام لأركاب الحج عند عقبة ايلة في الدرب الحجازي فضاء من فضاءات اجتماع الحجاج بالسكان الحضر من أهل الشام وغزة ومصر، وتتصب أثنائها سوق كبيرة بين الحجاج ومستقبليهم . أما سكان مدينة القاهرة فإنهم كانوا يستقبلون الحجاج بالقول والدقيق وأصناف الطعام الأخرى، فيخرجون إلى بركة الحاج لملاقاة الركب المصري

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

والجزائري وغيرهما، والتبرك بمقابلة الحجاج العائدين من الحرمين الشريفين، لأن الأركاب تصل إلى البركة تباعا، فتمتلئ الطريق منها إلى القاهرة بالأخبية والخيام والأسواق¹⁰³⁹.

ولا يلقي ركب الحج المغربي عامة والجزائري خاصة من الود والضيافة في سائر المدن التي يحل بها مثل الذي يلقاه في مدينة طرابلس الليبية، حيث يفرح الفضلاء والأعيان من ساكنة المدينة ونواحيها بمقدم الركب، ويكرمون وفادتهم، وينافسهم في ذلك عامة أهلها، ذلك ما شد انتباه الرحالة

حيث يقول عنهم أحمد الهشتوكي: (من الكامل):

إخوان صدق في طرابلس سعوا للمجد بالإدلاج والإسعاد
أرزوا إلى فعل الكرام وأوسعوا وفد الحجيح من النعيم الباد.

وأعجب بهم المجاجي في حجته، فقال فيهم :

طرابلس المعلوم بالجود أهلها وفيها رجل مشهور بالولاية
وأهلها أيضا ضيفوا الركب كله وقد أبذلوا مجهودهم بالكفاية¹⁰⁴⁰

فالكثيرون من الحجاج في ذلك الزمان كانوا يكبرون في أهل طرابلس شغفهم برؤية ركب الحج، وإتيانه أفواجا، فهم في نظر الحجاج الجزائريين أهل إعتقاد ومحبة، يتبركون بالحجاج، ويطلبون منهم الدعاء. وقد ألفوا مرة الحجاج الجزائريين جائعين نهمين للأكل، بسبب الجفاف وطول السفر ونفاذ الزاد، فأطعموهم اللحم والخبز والتمر والفطير¹⁰⁴¹.

¹⁰³⁹ - أبو القاسم الزياني . الترجمانة ، المصدر السابق ، ص35

¹⁰⁴⁰ - عبد الرحمن المجاجي . المصدر السابق ، و05

¹⁰⁴¹ - الحسين الورثيلاني . المصدر السابق ، ج03 ، ص249

ومما قاله الحضيكي في وصف اهل مكة أنهم " .. أهل كرم وجود، وجوهم مسفرة ضاحكة مستبشرة، وألوانهم إلى الأدمة ناضرة، ظهرت فيهم سمة المجاورة وغطتهم محاسن الكعبة..¹⁰⁴² .

04-- التوصل الاقتصادي:

التجارة كانت مرتبطة بالحج، حيث كانت القوافل باعتبارها الوسيلة الأساسية للنقل والتنقل عبر الطرق البرية تجوب الرقعة الإسلامية شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وشكل ركب الحج سوقا متنقلة، وتشتمل الرحلات الحجية المدونة على أمثلة كثيرة منها حديث العياشي عن سجلماسة بقوله: " وسبب اقامتنا في هذه البلاد هذه المدة أن كثيرا من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلالت، أخروا الصرف إلى توات، فإن الذهب فيها أرخص، وكذلك سعر القوت من الزرع ومن التمر. وهذه البلدة هي مجمع لقوافل الآتية من بلاد تنبكت ومن بلاد أكيدز من أطراف السودان، ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك شيء كثير، والسلع التي تجلب من الغرب مما هو خارج من لسان... فإذا قدم الركب إليها، كان فيها سوق حافل.¹⁰⁴³ .

ويضيف قوله عن طرق القوافل التجارية القادمة من السودان المحملة بالذهب والمتوجهة نحو توات أنه: " لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخروا الصرف إلى توات فإن الذهب فيها أرخص... وهي مجمع القوافل القادمة من تنبكت. " أعطى العياشي صورة واضحة عن دور منطقة اتوات تجاريا، فهي مركز تجاري مهم في الصحراء الجزائرية، وهي

¹⁰⁴² - الحضيكي . المصدر السابق ، ص :105.

¹⁰⁴³ - ابو سالم العياشي .ماء الموائد المصدر السابق ، ج2، ص335

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

ملتقى لعدد كبير من القوافل التجارية القادمة من السودان حيث يقول عن توات: "... وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من تنبكت، يوجد فيها البضائع والسلع التي تجلب من هناك في كبر... فإذا قدم الركب إليها كان سوقا حافلا."، وهذا ما يوحي بأن توات كانت من أهم المراكز في الصحراء الكبرى. أما مدينة ورقلة، والتي تعتبر محطة رئيسية للقوافل وملتقى التجار والحجاج القادمين إليها من مختلف الأقاليم سواء من جهة الجريد أو السودان الغربي، فالمدينة كانت سوقا نشطا، توجد بها مختلف السلع والبضائع فيذكرها العياشي بقوله: "فدخلنا وركلة قبل غروب الشمس... وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولهم دخول قافلة من الأعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع واشترى الناس ما احتاجوا إليه بأرخص الأثمان، وقدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك أو أكثر، فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن، واشترى الحجاج غنما كثيرة حتى كأن تلك الليالي الثلاث التي أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم".¹⁰⁴⁴. كما أظهر اليوسي اهتماما خاصا بالأسواق التي يمر عليها ركب الحج، ونوعية السلع المتداولة بها. كما نستشف من معطيات الرحلة ما ذكرناه آنفا أن الركب كان سوقا متنقلة في حد ذاته، فالحجاج كانوا يحملون معهم سلعا لبيعها في الطريق أو لمقايضتها بسلع أخرى، فعند مرورهم بتراب قبيلة العمور، لخص المؤلف صورة المبادلات بينهم حيث كان الحجاج يشترون الغنم والسمن واللبن ويبيعون الثياب والشرك أو يقايضون بها. ويشير المؤلف إلى صنفين من الأسواق: أسواق قارة تتركز بالمدن والقرى الكبرى ويبضع منها الحجاج حاجتهم الأساسية مثل أسواق بسكرة، توزر، طرابلس، تاجورا، مسرارة، التميمي، القاهرة، مر الظهران، ومكة. ثم نجد الأسواق الظرفية التي تنتصب بمناسبة مرور قافلة الحج في مواضع معلومة حيث تأتي الملاقاة من المدن القريبة خصيصا للتجار مع الحجيج، مثل ما تم في مواضع ثل سلوك، عجرود، بندر النخيل بسيناء، بندر عقبة إيليا،

¹⁰⁴⁴ - نفسه، ص 114

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

بندر المويلح، وأحيانا تقام الأسواق لتنظيم المبادلات مع قبائل المكان مثل ما حصل مع العمور ومع أعراب مصر بكداسة وكذلك بجرجوب وجردس.¹⁰⁴⁵

في هذا الإطار، ساق المؤلف بعض المعلومات المفيدة والنصائح للراغبين في الحج بعده، مثل تعريفهم بالنقود المتداولة ومقدار صرفها وأفضلها صيرفة، وتوجيههم إلى المرافطة الشرعية التي يجهلها أهل الحجاز ومصر. كما عرف بأثمان بعض السلع الحيوية كالماء، وأشار إلى بعض الحيل مثل اغتنام وجود الغنمي السمين لعمل ل القديد والخليع، وعرف أيضا بالسلع الرخيصة وذات الجودة المعتبرة مثل: العنب والتفاح و الدلاع بمر الظهران، وزبيب غزة الأحمر في بندر عقبة إيليا، ودلاع الشام الحلو والتفاح في محطة النخيل بسيناء، وتمر سيوة بجرجوب، والسمن و الغنمي السمين بجردس، والثمار والزرع بتوزر.¹⁰⁴⁶

تطرق الحضيكي في رحلته إلى بعض الملامح الاقتصادية التي أثارت انتباهه كقضية العملة المحلية وضرورة تحويلها إلى ذهب، وبعض السلع المروجة القابلة للتبادل والمقايضة، وفي ذلك يقول: ".. ولك أن تصرف دراهمك بالذهب، فإنه أرخص تبرا ومسكوكا، مما استقبلته إلى بلاد الشرق، وفيه فائدتان يروج في كل بلد أمامك وتصيب به غرضك، حيث كنت وكيف شئت، بخلاف هذه الدراهم الإسماعيلية، فرواجها في عمالة المغرب، إذا خرجت منها، فلا تروج إلا ببخس، والفائدة الثانية أنك إذا صرفتها ذهبا تبرا كان أو مسكوكا خف عليك حملة.. ولك أيضا أن تشتري العطرية والكحل والشبة والكبريت.."¹⁰⁴⁷. وأشار إلى بعض السلع المعروضة في الأسواق التي مر عليها كالكحل، والشب، والعطرية، والكبريت، والمشط، والمرآة، والجلود المدبوغة، والنعال، واللحم، والخضر، والفواكه وهو حين يستعرض هذه السلع فإنه ينبه إلى ضابط يراه مهما في المجال الإقتصادي وهو: " فلا تباع شيئا من ذلك للنساء المفتتات، واحذر ما تفعله عامة الحجاج وسفلتهم من مخالطتهم مع

¹⁰⁴⁵ - أبو الحسن اليوسي . اليوسي ، الرحلة ، المصدر السابق ، ص 35

¹⁰⁴⁶ - نفسه ، ص 36

¹⁰⁴⁷ - الحضيكي ، المصدر السابق ، ص ص 80-81.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

نساء العرب، ومعاملتهم لهن، واختلائهم بهن، ومضاحكتهم إياهن، إياك! وارتقب الشاهد ربك..¹⁰⁴⁸. فالضابط الاقتصادي الذي نبه إليه فهو أن لا يكون هدف الربح المادي على حساب قيمتي العفة والحياء، وللأسف هذا الضابط هو مايفتقد إليه التجار في غالب الأزمنة حيث يهتمون بالجانب المادي على حساب الخلاق ودون مراعاة مل واثار بضائعهم.

أما مدينة بسكرة فكانت هي أيضا حاضرة ومحل إقامة وتسوق للحجاج¹⁰⁴⁹، حيث انها محطة تزود واسعارها رخيصة¹⁰⁵⁰. فيقول العياشي عنها: "فإذا وصلتكم بسكرة، فجددوا ماتحتاجون من زاد، لأن أرحية الماء ليست إلا هناك، وهي بلدة رخيصة في الغالب."¹⁰⁵¹ فيقول عنها المجاجي:

إلا أن في بنائها بعض رقة لكون البناء كله باللبننة

ولميرنا فيها دار وملكه هناك وماحتويه وغلة

من النخيل والأشجار تينا وغيرها مع ما انضم إليها من الزراعة

من أرض ومال عند كل قبيلة سوى ماله في غيرها من حوائط

وفيهما من الزيتون والنخل مالاقد يحيط به في العد صاحب فطنة¹⁰⁵². وقد وافقه

السابقون واللاحقون من الرحالة في هذا الوصف فقيل عنها مدينة كبيرة حواليتها حصون

¹⁰⁴⁸ - نفسه. ص: 81.

¹⁰⁵⁰ - أبو الهلالي السجلماسي. المصدر السابق. ال، ص: 176.

¹⁰⁵¹ - أبو سالم العياشي. الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ص: 307.

¹⁰⁵² - المجاجي، المصدر السابق، البيت رقم (250 إلى 253، 297 إلى 301)، و6، و8 و

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

كثيرة وقرى عامرة وهي قاعدتها، كما أنها مدينة مسورة عليها فندق وبها جامع مساجد كثير وحمامات، من قراها طولقة وجمونة، وبنطوس¹⁰⁵³.

لقد كانت الصحراء لجزائرية سوقا مكتظة بالقوافل التجارية والحجازية التي كانت متنفسا للكثير من الرحلات الحجازية، فالركب المغربي كان يمدهم بمنتجات مغربية ويأخذ منهم منتجات محلية وصناعات يدوية، ومن المنتجات التي لقيت رواجا بين أوساط الحجاج مادة السمن، وهو يقدم مع جل الأغذية والوجبات لأنه يقوي الجسم ويساعده على تحمل مشاق السفر خصوصا في فصل الشتاء¹⁰⁵⁴،

وأما مدينة قفصة فيبرز المجاجي طابعها الاقتصادي في كونها مدينة زراعية فيقول:

وفيها مياه يعجز الوصف عنها إذ دخلناها لنزور بعض الأيمة

وفيها من الزيتون أمر معجب فواكهها لا تحصى أيضا بكثرة

فمدينة قفصة: "... قاعدة مشهورة بالنخيل والفسق لايكاد يوجد بالغرب إلا فيها، وبها من الفواكه، والمشمومات خواص كثيرة، ومنها يجلب دهن البنفسج، وخل العنصر..."، وقد كانت قفصة أعظم بلاد إفريقية منظرا، لما فيها من الشجار والنخيل والزيتون وجميع الثمار. أما عن مياهها فقد فاقت الوصف، فيها من العيون والأنهار والآبار شيء عجاب، ففي داخلها عيون كثيرة، منها عينان كبيرتان ليس لهما نظير في العذوبة والكثرة، مبنية بالصخور، سعتها نحو أربعين ذراعا، وفوقها عين اصغر منها تسمى رأس العين، والعين الأخرى تحت قفصة تسمى بالطرميد، كما لديهم ماء يخرج من المدينة يسقي نصف جناتهم،

¹⁰⁵³ - ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري . المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، بيروت ، دار صادرة ، ط: 196

¹⁰⁵⁴ - محمد الكبير الفقيحي ، الدور الاجتماعي والإقتصادي للقوافل التجارية الحبية بالصحراء الجزائرية أثناء الفترة الحديثة ، مجلة دراسات ، جامعة بشار ، مجلد 04، العدد 02، ديسمبر 2015، ص: 192.

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

ولهم عين أخرى تسمى عين المنستير، وهي بجانب النهر الكبير المسمى بوادي بايش وهو نهر يأتي من جبال شرقي قفصة فيشق غابتها.¹⁰⁵⁵

وعن مدينة جربة يقول العياشي: "وإن أردتم المشي إلى جزيرة جربة فمن هناك (أي من قابس) تصلون إليها، وبها بيعوا ماوجدتم قيمته من دوابكم فإنهم يرغبون في اشتراء الدواب أكثر من غيرهم وكل ماوجدتم من الإبل الرخيصة من بسكرة إلى طرابلس فاشترؤهم، واشتروا من جربة ماتحتاجون من زبيب وزيت، وأكثروا من شراء الثياب من هناك فإنكم تحتاجون إليها كثيرا."¹⁰⁵⁶

وأما الحضيكي فيقول عنها: "فارتحلنا وسرنا ساحل البحر، ومدينة جربة على يسارنا ن وسط البحر لايعبر إلا بالسفن، وهي ذات نخيل وفواكه ومياه كثيرة..ونزلنا بعد ايام قرى بها نخيل يقال لها: الزورات الغربيات إلى ناحية الغرب، والشرقيات إلى ناحية الشرق، وهي مبدا عمالة طرابلس، وقابس وتوزر من عمالة تونس، وبسكرة من عمالة الجزائر..ثم نزلنا طرابلس، مدينة كبيرة تشتمل على اسواق ومساجد وجوامع."¹⁰⁵⁷

تعتبر الحواضر والمدن الصحراوية مراكز عبور حيوية لمختلف القوافل المارة بها، هذه الخيرة كانت عبارة عن سوق مفتوح لتبادل السلع والبضائع،

كذلك مما قاله المجاجي عن أمير الركب عند شرائه لنوع من الإبل تسمى بالعلجة تقدر ب"مائتين وخمسين دينار فضي"، وهم بمدينة بولاق بمصر:

قضى فيها مايجتاجه من شؤونه ومن جملة المقضي شراه لعلجة

وقيمتها راء ونون تجمعت كبيرة ضرب سكة الوقت فضة

¹⁰⁵⁵ - الاستبصار ، المصدر السابق ، ص: 152، 154، محمود مقيدش ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ،

تح: علي الزواوي - محمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 01 ، 1988م ، ص105

¹⁰⁵⁶ - ابو سالم العياشي . الرحلة الصغرى ، المصدر السابق ، ص307.

¹⁰⁵⁷ - الحضيكي . المصدر السابق ، ص 88

الأسواق بمصر:

وأسواق مصر لا يحاط بعدها ولا يعرفها إلا أهل الصناعة

وفيها عجائب وسحر وغيره ودب وقرد يلعبون بحيلة

وثعبان واصطناع تمر معجلا وغير يدور في المحافل دورة

عجائبها لا تنقضي بكتابة ولا يحصيها إلا فطين مثبت

فسبحان من أبقى فيها سحر كله من الأمم الماضين من كل شريعة.

أما المجاجي حاله كحال كل من دخل مصر وتكلم عن أسواقها، أمثال العياشي والورثيلاني وابو القاسم الزباني، فقد اشتركوا في وصف سوق الرميطة، في سحرها والحيوانات التي يلاعبونها في حلق السوق: "كالقروء والدببة، والكلاب، والحمير، والتيوس"، وغيرها، وكلهم مسبحين بإعجاب في ذلك ب"سبحان من خلق لابن آدم ما في الأرض جميعا".¹⁰⁵⁸

والشيء نفسه يقال عن بقية أسواق مصر العديدة، ذات الزحام العارم، كما قال عنها الدرعي "فكل وق دخلته تقول هذا أكثرهم زحاما، فإذا خرجت منه لآخر وجدته مثله أو أشد، فالناس فيها يققون هنيئة، لا يقدر أحد منهم أن يتحرك يمينا ولا شمالا من غير أن يكون له حصار من الزحام، وربما رفع بعضهم صوته بالتكبير حتى يظهر فيهم بعض تحرك فيدفعون مثل السيل إذا اجتمع في مكان ضيق، ليدفع بعضه بعضا حتى يتفجر من جهة".¹⁰⁵⁹

¹⁰⁵⁸ - ليجعلنا نعتقد في الخبر وكأنهم أخذوا عن مصدر واحد، قد يكون البكري للمزيد انظر: أبو سالم العياشي. ماء الموائد، المصدر السابق، ج1، ص155، الحسين الورثيلاني. المصدر السابق، ص265، أبو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى، المصدر السابق، ص211.

¹⁰⁵⁹ - أحمد بن ناصر الدرعي. المصدر السابق، ص71

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

أما السلع الرائجة بين أوساط الحجاج في الصحراء فيمكن ترتيبها حسب أهميتها عند الحجاج كمايلي:

- أعلاف الدواب:خصوصا الزرع، وعليها تتوقف استمرارية الرحلة.
- الدقيق: الذي يمثل الغذاء الضروري للحجاج والمسافرين وعليه تتوقف حياتهم
- السمن أو الدهان: وهو أحد مشتقات الحليب، يستخدم مع معظم الأغذية والوجبات، وهذا المنتج الحيواني يستقدمه الأعراب والرعاة إلى القصور، ويدر على أصحابه أرباحا طائلة
- الحيوانات أو الدواب: تشمل الإبل والحمير والبغال والخيول، باعتبارها وسيلة النقل الوحيدة في ذلك العصر .
- الأكسية والبرانس: كان الحجاج يشترونها من القصور، خصوصا إذا تزامنت الرحلة مع فصل الشتاء، لأنها تتميز بالجودة والمتانة1060.
- الأسعار والنقود المتداولة: شكلت التجارة بين القوافل الحجية المارة بالصحراء وبسكان الصحراء نوعين من المعاملات في إطار المبادلات، فاختلفت بين حاضرة وأخرى، فالصحراء هي مركز تجاري بسيط، حيث تتعدد أشكال المبادلات بين المقايضة التي تقام بين قوافل الحجيج مع أعراب البوادي فأبو العباس الهلالي يذكر المقايضة في مناطق القصور الشمالية من الصحراء الجزائرية بقوله: ". وقد شهدت بصدق أقوالهم وشاهدة أحوالهم، فإنهم يبيعون جلد البقرة بالخبزة.. وقد مررنا بهم عجالي، ولو وقفنا معهم لبيع لربح الناس معهم.. وقد اشترى منهم رجل ناقة بجلود غنم مدبوغة.. وليس عندهم دينار ولا درهم..1061"

¹⁰⁶⁰ - محمد الكبير فقيحي ، المرجع السابق، ص 192

¹⁰⁶¹ - أبو العباس الهلالي السجلماسي ، المصدر السابق ، ص177

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

أما الحواضر الصحراوية الكبرى فتتعامل بعملات نقدية، فحاضرة توات كانت مركز مهم في الصحراء الكبرى لصرافة الذهب، حيث يكثر بها وهو رخيس، أما حاضرة ورقلة فيتعاملون بعملة محلية حسب ما ذكره العياشي أنه كثر بها النحاس فبلغ أربعة وعشرون مقابل ريال. ولأمر ينطبق على تقرت التي يتم النبادل فيها محليا بنقود نحاسية بما أنها كانت تحت حكم إمارة بني جلاب حيث وصف العياشي عملتهم: ". أما دراهمهم فقاريط صغيرة اثنان وثلاثون منها ربع ريال." 1062.

وترى الباحثة لوسات فالنسي أن حركة تجارة القوافل في بلاد المغرب عامة كانت رديئة خاصة من جهة رداءة الأساليب التجارية المستعملة، نظرا لعدم شيوع التعامل بالورق النقدية وقلة استخدام العملة كوسيلة دفع 1063، ولعل مايؤكد هذا تعطل السوق الموسمي في حج 1211هـ/1797م مع اولاد نايل بسبب عدم وجود عملة الحكومة العثمانية. ويقول كاريت أن معظم المعاملات في افريقيا كانت تتم بالمقايضة، إلا أنه يقول إن النقود التونسية كانت هي الأكثر رواجاً، بالإضافة إلى قطع صغيرة تسمى "البسيطة" التي تستعمل في واحة الزيبان وحوض الحضنة 1064، وفي نفس السياق يحدثنا العياشي عن عملة نقدية تدعى الزباني ينحصر نطاق استعمالها بين فغيغ و بوسمغون، أما العملة الأكثر أهمية فيسميها "الريال" ويقول أنه نافق في كل بلدة 1065. وقد شكلت التجارة لدى القوافل الحجية أهم عنصر لدى الحجاج بعد فرصة الحج، وكثيرا مايصور لنا الرحالة المبادلات التجارية والسلع والبضائع المتبادلة بين الركب والأعراب، أو أهل الحواضر، حيث كان لهم دورا بارزا في إدخال الكثير من العملات النقدية في الحواضر الصحراوية وخاصة المغربية التي لاقت

1062 - ابو سالم العياشي . ماء الموائد ، ج01، ص79

1063 - لوسات فالنسي . المرجع السابق ، ص75

1064 - كاريت ، الإستكشاف العلمي للجزائر خلال أعوام 1840-1841-1842، أبحاث حول الجغرافيا والتجارة في

الجزائر الجنوبية ، ترجمة حمزة المين يحيوي ن ط01، دار المعرفة ، الجزائر ، 2016، ج06، ص154

المرجع السابق ، ص 177

1065 - ابو سالم العياشي . ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج01 ، ص 60

الفصل الثالث: الحضور السياسي والاقتصادي للسلطة في تجهيز الركب والإشراف عليه

رواجا في بعض المناطق من الجزائر والمغرب، وانتقلت إلى أقطار أخرى، فإذا خرجت هذه العملات من هذه الأقطار تفقد قيمتها ولا تصرف إلا ببخس، أما العملة الإسبانية فإنها كانت نافذة في كل المحطات والطلب عليها كبير لرواجها¹⁰⁶⁶.

¹⁰⁶⁶ - محمد الكبير فقيقي ، المرجع السابق ، ص:192.

الفصل الرابع: أنشطة الـركب "الأثار والمعوقات"

الفصل الرابع: أنشطة الركب "الأثار والمعوقات"

المبحث الأول: معوقات ركب الحج المغاربي: لانتخو الرحلات الحجية من

المصاعب والمخاطر خلال الرحلة، حيث ردد الكثير من الرحالة هذه المصاعب

فهذا اليوسي ينبه إلى أن الحج يستوجب صحتين: "الزودة والبدن" لما فيه من مشقة، وأن المراحل الصعبة هي التي تلي مصر، فالحج كله من مصر حسب قوله، وأكد على ضرورة تسليح الحاج (بالصبر الكامل والحزم والعزم) حتى يستطيع اقتحام المسالك، والتجلى للمهالك.¹

01-الصعوبات الطبيعية: ثمة مجموعة من العوامل الطبيعية تتحكم في مسار القوافل عبر الصحراء، مثل اتجاه الأودية ومواطن الماء، هذا فضلا عن ابتعادها قدر المستطاع عن المناطق الجبلية والصخرية، التي تعرقل سلاسة حركة الإبل، ونتيجة لذلك فإن مسار القوافل يخضع للتوفيق بين عدة عناصر، أهمها البحث عن اقر الطرق من جهة ن والحاجة الماسة إلى التزود بالماء، في حين أن هناك عوامل أخرى تتعلق بالنفوذ السياسي، وتجنب المسالك غير الآمنة، ولعبت هذه العوامل دورا مهما في توجيه سار القوافل وضبط محطاتها.²

01-01-طبيعة التضاريس والطريق:

أ- تقلبات الطقس والمناخ "الأمطار - الثلوج - الزوابع الرملية": أعاق تقلبات الطقس والمناخ تقدم الركب في كثير من المرات، منها درجات الحرارة القصوى والدنيا.

¹ - أبو الحسن اليوسي . المصدر السابق ، ص 30

² - أحمد مولود ولد ايده ، المرجع السابق ، ص:18.

فأما الرياح العاتية فكانت أيضا من معوقات الرحلة ففي السطح قرب جبل عنتر، تحدث اليوسي¹ عن "رياح عاصفة شديدة قاصفة، حتى غير الرحال ومثل بالرجال ". وعند عبور السبخة شرق توزر، أشار إلى "رياح صدع الرؤوس وأتعب النفوس، ومارايت ريحا اقوى منه، حتى إنه يقلع الثوب عن صاحبه ويذهب به كرها، وكثير من الناس بلغ الدار عريانا، وظل في هذه الرياح من الحجاج خمسة وعشرون رجلا"، واضاف أن الرياح هناك تحول الملح إلى ثلج "فإذا أصاب عين الرجل سقط على وجهه حتى يحول الرمل بينه وبين الرفقة، فلا يدري اين يذهب وتأكله الفيفاء". كما تحدث عن نفخ الرياح المضرة بمقطع الكبريت حيث "مات من الناس ومرض منهم الكثير".²

أما بالتميمي، فأشار إلى ريح تواصل يومين "احرق الفؤاد ومرق الأكباد، وترى الرجل يشرب الماء كأنه يرميه إلى خلف "

وفي بندر المويلح، تحدث عن ريح "تخرج من البحر كريح الفرن"، وفي وادي النار بعد النبط، أشار إلى "رياح كالنار فترى الرجل يمشي ويتكلم ويطلب الماء، فإذا عنقه ملتوية وليس ذلك من العطش ولا من الجوع".

وفي رحلة العودة، اشار في بولاق إلى "البرد والرياح المختلفة المترادفة إذ وافيناه في فصل الشتاء"، وقد اصاب الركب بمقطع الكبريت "رياح شرقي يوما أذهب الماء ونشف القرب "

و في مليّة، ذكر "رياح مارئي مثله في وادي النار ولا في غيره، ومات من الناس يومئذ كثير وكذلك الإبل...ما رأيت اضر منه قط ولا اقوى "

¹ ابو الحسن اليوسي . رحلته، المصدر السابق، ص: 31.

² - نفسه، ص 35

عرقلة الأمطار أيضا سير الـركب ' ففي سيدي بويـدو، اضطر الـركب للتوقف أربعة ايام بسبب تهاطل الأمطار. وفي الطريق إلى مطمطة، تحدث عن "مطر غزير ووحل كثير". وفي الطريق من بسكرة إلى مقام سيدي عقبة، اشار إلى " مطر حتى عجزت الإبل عن المسير لأن أرضها سبخة، فلما أصابها الماء صارت كالغاسول فتري الإبل يتساقط بعضها على بعض والناس كذلك ".وفي النخيل بسيـناء.اشتكى المؤلف من "رعود وبرق وبرد ومطر حتى اضر بالناس كثيرا"

02-الصحاري والمفاوز:

وصف اليوسي مفازة مقطع الكبريت بأنها:"من أقبح مفاوز هذه الطريق لخشونة أرضها"¹

أما مفازة التميمي فوصفها بأنها:"مافي برقة مثلها، بل وفي الدرب، وأرضها ذات حجارة"² صحراء تنزروفت: لم تشر المصادر الرحلية العربية الى هذه المفازة في مصنفاتها، لكننا لم نعدم حلا بوجود مصنف فريد أشار لها وهو الرحلة المباركة للحاج محمد البشير البرتلي.

لعل من وجوه تميز رحلة الحاج محمد البشير البرتلي هو انفرادها بالوصف الدقيق لـصحراء تنزروفت الموحشة، حيث تعد رحلة البرتلي المصدر العربي الوحيد الذي وصف هذه الصحراء، التي هي عبارة عن صحراء شاسعة رمالها حصوية بيضاء اللون، تمتد وسط الصحراء الكبرى إلى غاية المناطق الخصبة، وكل طرقها تؤدي إلى السودان الغربي وإفريقيا جنوب الصحراء عامة، يحدها شمالا إقليم توات، ومن الغرب عرق الشاش، ومن الشرق منطقة الهقار ومنطقة آهنت، ومن الجنوب بلاد الأزواد، وتتميز منطقة تنزروفت بأنها جافة قاحلة، وبمناخها الصحراوي الحار صيفا والبارد شتاء مع شبه انعدام للتساقطات المطرية،

¹ - أبو الحسن اليوسي . المصدر السابق ، ص73

² - نفسه .ص88

وغياب للغطاء النباتي¹. لقد تطرق البرتلي إلى صعوبة صحراء تنزروفت، فوصف هذه المفازة وصفا مصحوبا بكثير من الدهشة، ووصفها بالشدة و الإيحاش

وقلة مظاهر الحياة. وبقل دخولها تمر الأركاب عبر طريق سالكة وهي معروفة لديها، معلومة الآبار والمحطات، حيث من عادة الركب أنه يمر عبر بئر اشوراط وبئر تنضضين، وهو آخر المناهل قبل الدخول إلى صحراء تنزروفت في الصحراء الجزائرية، وهي من أخطر المراحل في الطريق مابين اتوات الجزائرية ومنطقة أزواد في شمال مالي²، ووصف البرتلي لهذه الصحراء على بساطته وسطحيتها أحيانا، يظل المصدر العربي الوحيد كما ذكرنا آنفا الذي تناول هذه الصحراء بالوصف، لاسيما معاناة لركب بعد دخوله هذه المفازة، فتنزروفت حسب المؤلف مفازة عظيمة لا تسلكها القوافل إلا نادرا، لانعدام الماء بها، خصوصا في فصل الصيف الحار، أرضها حصوية خشنة مستوية لا شجر فيها ولا نبات ولا حيوان. يقول عنها البرتلي ". وأما مادون اتوات من المسافة فمعلوم عندنا. فلا نحتاج إلى ذكره لكثرة قدوم أهلها إلى بلادنا، سوى **مفازة تنزروفت** - ذكرتها لشدة أمرها -...³ ودخلنا في مفازة عظيمة الخطر شديدة الحذر، قليل ماتسلكها قافلة إلا ووقع بها ضرر من العطش، ولا سيما غن كان في شدة حر الصيف، وما ذلك إلا لعدم وجود الماء فيها قطعا، وأحيانا عدم وجود النبات فيها للدواب، أرض صلبة خشنة غاية، متسعة غاية منتشرة، وحتى لو رايت شيئا أمامك لا تدري أهو جماد أم حيوان، اسكن هو أم متحرك، امقبل أم مدبر، إلا بعد حين، ثم تظهر لك حقيقته، حتى لو راى شيئا أمامك تحسب انك تصله بسرعة، فغذا أنت لا تصله إلا بعد جهد، وكأنه يتنحى عنك ليزداد في البعد منك، ماذا إلا لنموها على الماشي فيها، مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، لا شجر فيها ولا نبات. كأن السماء اختلط على الأرض. يحار فيها منظر الناظر فيها، كلما نظر إلى جهة من الجهات كلها كالماشي على

¹ - حوتية محمد الصالح . آل كنتة ، المرجع السابق ، ص. 315-316.

² - حوتية محمد الصالح . توات والأزواد . مرجع سابق ، ج1، ص173

³ - الحاج محمد البشير البرتلي . مصدر سابق ، ص43

وجه البحر ليلا، وحتى لو أنك رأيت عودا من نبات قائم أو روثة دابة ملقاة على وجه الأرض، أو حجر صغير تحسب لأنه إنسان قائم أو راكب على جمل ن وحتى الطيور لا ترى فيها ولا وحش ولا خشاش أرض، ولا نملة، ولا حيوان ما. وهذا كله مما يفزع السالك بها، ويروعه، فسبحان من خص ماشاء من أرضه بما شاء، وكيف شاء. تسمى: تنزروفت.¹ وقد قطع الركب هذه المرحلة الصعبة في مدة أسبوع كامل، ليصل إلى أول منبع مائي عذب مشرف على بلاد اتوات وهو « بئر والن » أو أيوالان، حيث يقول الرحالة ". دخلنا فيها يوم الخميس فبتنا فيها ست ليال، وخرجنا منها في اليوم السابع بعد مغرب الخميس الذي يلي خميس دخولنا فيها، ونزلنا على منهل طيب الماء وعذبه، يا له من ماء ما أحسنه وما أطيبه، يسمى والن.² حيث باتوا عنده مدة ثلاثة أيام اغتتم فيها المؤلف الفرصة لزيارة مزار هناك للشريف مولاي زيدان دفين البئر.

03-السلاسل الجبلية: تخضع لطبيعة المسالك حسب طريق الذي يسلكه الركب.

جبال الهروج³ أو الهاروج الليبية: هي سلسلة جبال بركانية موحشة تمتد على مساحة اسعة بين فزان وطرابلس، وشكل تلالها مخروطي غير كامل، والتفاوت بين قممها ليس كبيرا، ويرتفع بعضها ما بين 08 إلى 12 قدما، وهي تنقسم إلى قسمين:.

- جبال بازلتية سوداء اللون تسمى الهاروج السود.⁴

¹ - نفسه ص.45

² - الحاج محمد البشير البرتلي . مصدر سابق : 86-87.

³ - تنطق الهروج بلسان اهل البلد ، الهاروج (harutsch) سلسلة جبال بركانية موحشة تمتد على مساحة واسعة بين فزان وطرابلس ، شكل تلالها مخروطي غير كامل . التفاوت بين قممها ليس كبيرا ن وتنقسم على قسمين جبال بازلتية سوداء اللون تسمى الهروج السود وتلال كلسية بيضاء اللون تسمى الهروج البيض تحتوي على حفريات متنوعة . فريديريك هورنمان ، الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان ، تعريب مصطفى محمد جودة ، مكتبة الفرجاني ، تونس ، ص.ص 70،73

⁴ - الهروج الأسود : تمتد هذه الجبال إلى منخفض الجفرة ثم إلى منطقة السيرير

- تلال كلسية: بيضاء اللون تسمى "الهروج الأبيض".

تحتوي هذه السلسلة على حفريات متحجرة لحيوانات مائية، وتنتظم جبال الهاروج الأسود والأبيض بشكل متناوب، وتتخللها عيون ماء ووديان وبرك تنتج عن مياه الأمطار¹، و يصلها الركب عادة انطلاقاً من قرية تمسة الليبية كما ذكره البرتلي²، وكان دأب الأركاب تخير الطريق سواء من جهة الهروج الأبيض أو الأسود بحسب توفر المياه، وطريق الهاروج الأسود حسب البرتلي غاية في الصعوبة، كثرة الحجارة والانحدار والارتفاع لكنها مليئة بالوديان التي كانت توفر كلاً الإبل ومورداً للسقيا.

حيث ذكر التلاني في رحلته أن ركبته أبلغ أن طريق الهاروج بها غدران ماء كثيرة، وقد اکتروا من يدلهم على الماء فيه، ويصف جبال الهاروج الأبيض بأنها قليلة الوعورة إلا عقبة واحدة، أما جبال الهاروج السود فهي في غاية الصعوبة، بها عقبات وأحجار والتواء وظلوع وهبوط³.

ويصف الحاج البشير البرتلي مرحلة قطع هذه السلسلة الجبلية بأنها من أشق المراحل وأعسرهما على الركب في وهاد ومنخفضات وارتفاعات ومنعطفات وعرة في أرض تكسوها الحجارة، مما يجعل الحركة بها شاقة، حيث يقول في ذلك "وظللنا سائرين حتى كان بعد العصر نزلنا قرية **تمسى**⁴، وهي القرية التي يشترون الحجاج منها التمر ليزاد إبلهم، وهي أقصى قرى بلاد فزان، وهي التي يختبرون الحجاج عندها أمر (مكان يقال له

¹ - فريديريك هورنمان . المصدر السابق ، ص 74

² - الحاج محمد البشير البرتلي . المصدر السابق ، ص 108

³ - عبد الرحمن التلاني . المصدر السابق ، ص 478-497

⁴ - تسمى بلسان أهل البلد **تمسة** ، وسماها التلاني قرية **تمس** . تقع تمسة بين إقليم الهروج وزويلة ، عرفت بأنها مكان تجمع الحجاج الذين يختارونها للراحة ، وسوقاً يتجمع فيه تجار القوافل أيضاً ، وتتميز برحابة صدر أهلها وحسن استقبالهم للحجاج . للمزيد انظر : عبد الرحمن التلاني . المصدر السابق ، ص 479

الهروج¹، وهو اثنان: الهروج الأبيض والهروج الأسود هل به ماء أم لا ؟. لأنه ربما يكون منه الماء من المطر إذا أصابه غادره السيل ثم، فإذا كان به ماء يرتحلون إليه من هذه القرية ويذهبون إليه، ونحن بلغنا أن الماء به، وارتحلنا إليه، وإن لم يكن به ماء يرتحلون آخذين ذات اليسار، مسافتها قصيرة.² وخلال المرور بطريق جبال الهاروج الأسود تزود الركب من المياه المتجمعة بشكل برك بوادي أهلال، ووادي أم البريوف، ووادي أم غريس، وانتهاء بوادي اشكار وهو واد كثير الأشجار والحشائش الملائمة لرعي الإبل، وفي ذلك يقول المؤلف: ". وسرنا في فسيح من الأرض منتشرا غاية، وهو أول الهروج الابيض متسعة أرضه، صلبة خشنة، حتى كان غروب الشمس. نزلنا مكانا يسمى: الحكف، وباتت هناك ابلنا لاعشاء لها سوى التمر، وارتحلنا صباحا قبل طلوع الشمس، وظللنا سائرين في شيء أخشن مما راينا أمس، من كثرة الحجارة. ونزلنا اصفرار في مكانا فيه حشيش وشجر السمر فبتنا فيه، يسمى واد لملاك، وهو أول الهروج السود. وارتحلنا منه قبل طلوه الشمس، وظللنا سائرين في تلك الخشونة من كثرة الحجارة حتى كان العصر نزلنا مكانا يقال له: واد الخطاب فيه الحشيش وأشجار السمر. فبتنا فيه وارتحلنا منه صباحا قبل طلوع الشمس، وسرنا حتى كانت القائلة نزلنا الماء الذي بلغنا امره في واد يسمى إهلال وبتنا عنده.³ ومن وادي اشكار بدأت التضاريس في الاعتدال وصولا إلى منهل يسمى (عين زلطن)، والتي تزود منها الركب رغم ملوحتها، لعدم وجود الماء بينها وبين قرية وجلة⁴

جبال وادي إسكاف: بعد تجاوز الركب قرية (أم الصغير) يسير إلى وادي (اسكاف) الذي يشرف على سلسلة جبلية شامخة وصفها البرتلي بأنها أوعار تعد اشد مارأى في طريقه،

¹ - أي يفاضل الحجاج عندها بين السير في الهروج الأبيض أم الأسود بناء على وجود الماء من عدمه.

² - الحاج محمد البشير البرتلي . المصدر السابق ، ص ص 102-103

³ - نفسه، ص.ص: 104-105. (ق9/و).

⁴ - نفسه ، المصدر السابق ، (ق10/ظ)

حيث كان الركب يلتوي معها شمالا ويمينا طالبا العبور، وتشرف هذه الجبال ايضا على سلسلة من الروابي الصعبة التي كان الركب يرتقيها وينحدر منها من العصر إلى العشاء

03-الهضاب والرباوي:

04-الأودية والأنهار:

ب- الصعوبات الأمنية: من المخاوف والهواجس التي كانت ترواد وتؤرق ركب الحجاج في مسالكهم خاصة الصحراوية منها هو الأمن والخوف عن النفس والمؤونة، وهذا مما يتلقاه عادة الحجاج ويجدونه من المخاطر في الطريق خاصة قطاع الطرق من بعض الأعراب الذين يسلبون الحجاج متاعهم ومؤنهم، ثم التحايل على الحجاج في الأسواق التي يدخلونها للتزود بحاجاتهم من بعض الباعة الذين باعوا آخرتهم بدنياهم، بالإضافة إلى خطر الأوبئة التي تجتاح من حين إلى آخر المناطق التي يمر منها الحجاج ومنها الطاعون الذي كان يفتك بالآلاف، وهو من الهواجس والمخاوف الكبرى التي كان الركب يخشاها ويحاول تجنب مناطقها.¹

تزدنا الرحلات الحبية بكثير من المخاطر التي كانت تعترض طريق الركب في سبيل أدائه لركن الحج، فقد اشار صاحب الرحلة الحبية المعروفة "بالرحلة العامرية" للشيخ أبو عبد الله محمد بن الحاج بن منصور العامري ثم التلمساني، في قصيدته النظمية التي قدم فيها النصائح للحجاج وزودهم بالضروريات والحاجات التي يجب عليهم أن يوفروها في هذه الرحلة الطويلة والشاقة، حتى يتمكنوا من الوصول في أمن وأمان إلى بيت الله الحرام، ومن هذه النصائح حتمية التزود بالسلاح، واتخاذ الرفيق الصالح، وعدم التخلف عن الركباو الإبتعاد عنه، حتى لا يتعرضون للهلاك من قطاع الطرق، حيث يقول في نظمه:

¹ - أحمد بوسعيد .مرجع سابق ، ص88

ثم لا تتفرد عن الركب لمحا إن ذاك يساق منه البلاء.¹

04-الحروب والصراعات:

أ-الصراعات السياسية الإقليمية والدولية :

تأثير الاضطرابات السياسية على الحجاج: كثيرا ما كان الحجاج يصادفون في المدن التي يدخلونها أو يمرون بها، اضطرابات سياسية عند أهلها، وقد يقحمون فيها عن قصد أو عن غير قصد، فيؤثر ذلك على الركب ويعرضه للخطر. وفي هذا الصدد يذكر العياشي الصراع السياسي بين اهل وادي ريغ وسلطان وركلا (ورقلة) حيث سرد ذلك بمايلي ". ثم ارتحلنا من وركلا يوم الاثنين، ونزلنا ببلدة قريبة منها على نصف مرحلة تسمى مكوسا، وهم من طاعة وادي ريغ لا من طاعة واركلا، فلما نزلنا منعوا الحجاج من الدخول واتهموهم أنهم اتفقوا مع سلطان واركلا، على أن يأتي اصحابه في وسط الحجاج، كي يدخلوا الباب خديعة، وزعموا أنهم اتفقوا معهم (الحجاج) على أن يأخذ هو الأموال، ويأخذ المغاربة البلد يسكنونها.²، ويبين العياشي أن السب الذي جعل اهل وادي ريغ يشكون ويتهمون الحجاج، هو أن بعضهم جلسوا عند السلطان وخدموا عنده، وأعطاهم السلاح، فبلغ اهل واد ريغ ذلك فظنوا ان الركب كله متفقون معه على ذلك.³

أما الناصري فيذكر: ".كان وصولنا لطرابلس ظهر يوم الحد، ونزلنا بغزاء الهنشير لأجل فتنة وقعت بين اهل طرابلس وباشاها (خليل)، كان ظلوما فجورا يقرب الكفرة من الروم على اهل الإسلام، ولم يجد مسلكا، فحاصر البلد مع جنده..ولما حاديناها، ورغب في النزول

¹ - محمد المنوني .مرجع سابق ، ص91

² أبو سالم العياشي .ماء الموائد، ج01، ص 119

³ - نفسه . ص 119

بإزائه..وامتنعنا...وتعرض لنا أهل الساحل بقضهم وقضيضهم، ولما عاينونا، وأيقنوا أن لهم سلم، وأن وفد الله زوار.¹

05- اللصوصية وقطاع الطرق:

01-05: سرقة الحجاج: وقد قال أبو سالم العياشي بشأن سرقة الحجاج مانصه: ". تمكن الحجاج، الين بيتون في الركب ويحرسون الإبل، والأمتعة، من سارق دخل عليهم ليلا في خباء وأوثقوه إلى الصباح، فجاء أصحاب الأمير فعرفوه، وأخذوه، وكان مشهورا بالتلصص عندهم.معروفا بالسرقة." ²، وعندما وصل ركب الحجاج مدينة طرابلس، أظهر العياشي، شدة الخوف التي تنتاب الحجاج عند وصولهم هذه المدينة، حيث قال مانصه ". واعرابها أعلم الناس باستعمال الحيل في ذلك...يبيت الحجاج فيها طول ليلهم في ضجيج وعجيج، وصياح ونباح، وإيقاد نار خارج المنازل، وضرب بالمكاحل، ومع ذلك قل ماسلمت لهم ليلة من سرقة شيء." ³

ذكر الناصري في رحلته، أنهم نزلوا في مكان يسمى أم جران، واستسقى الناس من مائها، لكن هواجس الخوف من المكان بقيت في نفوس الحجاج، لأنهم يعلمون أن المكان معلوم بالسرقة والاختلاس إلا من أخذ حذره، وعن السرقة خاصة في توزر التونسية، فقد ذكر الناصري كذلك ما نصه: ". أما النهب بالسرقة والاختلاس، فأحفظ مالك وما عليك من جميع الناس في جميع الأماكن، وخصوصا توزر، فإنها أكثر بلاد الله سرقة وخطفا...فإنهم يسرقون بالليل، ويخطفون بالنهار، قل ما سلم منهم الحجاج.خصوصا المغفلين الذين لاخبرة لهم بأحوالهم، فقد كانوا يتبايعون مع الناس، ويخطفون من أيديهم المبيع ويذهبون به، فقليل من يلحقهم، لكثرة الازدحام. فقد غسل الحجاج ثيابهم ونشروها وجلسوا عليها ليحفظونها، فإذا

¹ - محمد بن عبد السلام الناصري ، الرحلة الكبرى ، المصدر السابق ،ج01 ، ص 167

² - أبو سالم العياشي . ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج01، ص 177

³ - أبو سالم العياشي . ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج01، ص 177

رأى أحدهم غفلة من صاحبها، وثب عليه كالسنور فاخطفها ومر هاربا، وقع ذلك لكثير من الحجاج.¹

وفي مكان يسمى جنزور - هي مدينة ساحلية تقع غرب ليبيا - ذكر الناصري كذلك: "أن السراق هاجموا الحجاج، وأخذوا منهم بعض أموالهم، متاعهم، وتمكن الحجاج من إلقاء القبض على أحدهم وأوسعوه ضربا."²، وفي العقبة تحدث كذلك: "أن اللصوص سرقوا للحجاج ست من الإبل، واحد للسيد محمد بن علي الأريزي، واثنان للحاج محمد بن أبي زيان، وواحد للحاج عبد الله المولى، واثنان للبدوي، خطفهم اللصوص في السرح (المرعى)."³

ومما ذكره ابو عبد الله محمد الحضيكي في رحلته بخصوص تعرض الحجاج للسرقة قرب واد الناموس حيث قال: "ثم ارتحلنا وقطعنا واديا يقال له وادي الناموس. يكمن فيه السراق، ثم نزلنا واديا آخر يقال له عسران، وأعراب تلك البلاد سراق قطاع طرق. ينهبون الحجاج كثيرا ويقطعون عليهم."⁴.

02-05: غارات بعض الأعراب على الحجاج:

تعريف الأعراب: لا تطلق صفة الغارة والغدر على عمومها، فقد وجد الحجاج المارين على تلك النواحي من الكرم والخير العميم، ما يعجز المرء عن وصفه، وجاء مدح أولئك بالخير والثناء عند العديد من الرحالة الذين وثقوا رحلات الحج سواء النثرية منها أو النظامية

وقد ذكر ابو سالم العياشي عن أعراب السلالة وما فعلوه بالحجاج حيث قال: "سنة خمس وخمسين عارضوا (يقصد اعراب السلالة) الركب بين العقبتين، وأمير الحجاج يومئذ "الحاج عمران"، وعزموا على نهبهم، فلما علم الحجاج بذلك ونزلوا وباتوا، فلما كان طلوع

¹ - احمد بن ناصر الدرعي . المصدر السابق ، ص 86

² - احمد بن ناصر الدرعي . المصدر السابق ، ص 166

³ - نفسه ، ص.ص 250-251

⁴ - أحمد بن محمد الحضيكي . المصدر السابق ، ص 86

الشمس، جاؤوا بخيلهم واحاطوا بالركب، فصبر الحجاج صبر الكرام وقتلهم اشد القتال... وقتل الحجاج بعض خيل الأعراب، وجرح كثير من الفريقين ¹، وذكر كذلك أنهم عندما وصلوا إلى ماء يسمى زيرارة، ذكر ذلك بقوله: "ماء زيرارة حصلت للركب روعة (خوف ورعب)، لخبر اخبروه، أن بإزائهم قوم من العرب، يريدون الإغارة فشمروا الناس للقتال، وأخرجوا عدتهم، وهينوا آلة حربهم، وتبين بعد ذلك أن الخبر لا اصل له." ².

وذكر الناصري عن الأعراب وما لاقاه الركب من بطشهم حيث قال: "ثم بتنا الغيفك... ثم اعرابا هناك غدروا، بعدما أعطوا مواعيد موثيق، أن لا يؤذوا أحدا من أهل الركب، خرج بعض من أصحابنا بفرسين للزاوية ليسقيهما، ومرت طائفة من الأعراب النازلين بإزاء "سيدي خالد" فاخذوهما قهرا منه، وجاء مستغيثا، وتعدز الغوث فتبين أنهم حرب بعدما زعموا أنهم سلم." ³، ثم وصف أعرابا عند الوصول نواحي طرابلس بقوله: "ليس عندهم من الدين إلا اسمه، لا حرفة لهم بعد تنمية المواشي إلا النهب والغارة، قلما مر ركب فسلم من إنشأب الحرب بينهم وبينه، بسبب غدرهم، وفتكهم عند اشتغال الناس بالتسوق معهم، وقد وقع ذلك مرارا." ⁴، ولما نزل الركب العقبية ذكر الناصري كذلك أن أعراب السلالمة الذي تحدث عنهم العياشي. أغاروا على ابل الحجاج وهم في صلاة المغرب في الركعة الثانية، واتبعهم الحجاج لرد الإبل، لكنهم استطاعوا الإفلات ببعضها، ثم عاودت قبيلة السلالمة - وهي تستوطن الإسكندرية- الهجوم على مؤخرة ركب الحجاج لكن لم تسجل خسائر في الركب." ⁵.

¹ - ابو سالم العياشي ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج01، ص218

² - نفسه ، ج02، ص 544

³ - احمد بن ناصر الدرعي . المصدر السابق ، ص 134

⁴ - نفسه ، ص 243

⁵ - نفسه ، ص ص 252-253

وفي طريق العودة ذكر أبوسالم العياشي أنهم وصلوا إلى مكان يسمى الدويسة (قرب أولاد جلال)، تحدث عن الأعراب الذين حالوا اعتراض الركب بثلاثمائة فارس، بسبب الجوع الذي يعانون منه، وأخبرهم أهل البلاد أنهم لا يستطيعون مقاومتهم، وقتالهم، وأشاروا عليهم بتغيير مسار الطريق حتى يتفادونهم، أو العودة إلى وادي ريغ.¹ واسترسل الناصري في وصف غارات الأعراب على الحجيج أثناء رحلة العودة حيث قال ما نصه: "وقد شاهدنا ذلك (يقصد الغارات) في قوم كثير من أهل برقة، وإفريقية، والمغرب، ولولا فضل الله على الحجاج ورحمته بهم - بالانتقام مما رامهم - لتعطلت طريق الحج منذ أزمان، خصوصا الحجاج المغاربة، لضعفهم وقتلتهم، وبعد المشقة عليهم."

06- ترويع الركب البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط:

06-01 الحوض الغربي للمتوسط بين القرصنة والجهاد البحري: تعتبر القرصنة أو اقتناص السفن والسطو عليها من أبرز العوامل التي أثرت على الحركة التجارية في البحر الأبيض المتوسط منذ عصور قديمة، وانعكس ذلك على جوانب أخرى كالجانب السياسي والاقتصادي والديني وأدى إلى قطيعة تاريخية بين ضفتي المتوسط.

06-02 مقومات الوحدة الحضارية لحوض المتوسط: تختلف المجتمعات الحضارية في الزمان والمكان ولكل واحدة منها مظاهرها الحضارية التي تميزها عن غيرها، فالحيز المكاني هو الذي يتحكم في نوع النشاط الذي يمارسه الناس، أما الحيز الزماني فهو يلعب دورا بارزا في درجات هذا النشاط. فالمجتمعات الإنسانية الأولى نلاحظ فيها تأثير المكان واضحا على نشاط الإنسان حتى يمكن معه القول بجبرية الطبيعة الجغرافية، ولكن صراع الإنسان المستمر والدءوب ضد هذه الجبرية العنيدة جعله يتغلب عليها ويتكيف معها ويسخرها لصالحه². فالبهار ما هي إلا امتدادا لليابسة، حيث يشكل كلاهما معا العالم الذي يعيش فيه

¹ أبو سالم العياشي ماء الموائد . المصدر السابق ، ج02، ص 544

² - محمد خريسات وآخرون . تاريخ الحضارة الإنسانية ، دار الكندي للنشر والتوزيع ، ط01، الأردن ، 1999 م، ص 96

الإنسان على هذا الكوكب، ورغم اختلافهما في الخصائص والأدوار والأهمية وحتى المكان بالنسبة للبشر. إلا أنهما يتكاملان في نهاية المطاف لخدمته وتحقيق غاياته. وعلى الرغم من أن البحار تبدو كعائق يفصل بين اليابسة هنا وهناك، إلا أن الإنسان استطاع ومنذ أقدم العصور إلى جعلها أداة وصل لا فصل، فهي لا يقتصر دورها كونها وسيلة اتصال فحسب، بل ضرورة لا بد منها للسلم والتناحر، وللحاربة والتجارة وللعداوة والصداقة، ولإيقاع الضرر وتبادل المنافع.¹

03-06-القرصنة وتداعياتها في الحوض الغربي للمتوسط:

مفهوم القرصنة: أصل الكلمة إيطالي (corsa)، وتعني التسابق البحري والاعتداء على السفن وسواحل الدول الأجنبية، ومنها اشتقت كلمة قرصان، وقد استعمل الفرنسيون قبل القرن السادس عشر كلمة (attaque) أي الهجوم، وكلمة (écumeur)، بمعنى القرصان أي المهاجم، ومع بداية القرن السادس عشر بدأ تعميم كلمة corsaire في أوروبا.² فالمنتبع للمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة يجدها بعيدة نوعا ما عن المعنى الشائع حول مفهومها. فمعنى التسابق المصطلح اللغوي لهذه الكلمة يجعلها بعيدة كل البعد عن ما جاء حولها من معاني متعددة في مجال نشاطها كرياس البحر، أو القرصان، أو لصوص البحر.³ فالقرصنة ظاهرة كونية لا تتوقف على ضفة دون أخرى، أو على جنس دون آخر، أو على دين دون آخر، وأنها ضاربة في أعماق التاريخ.⁴

¹ - لويس آرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ترجمة محمد أحمد عيسى، يقدم محمد شفيق غريال، مكتبة النهضة المصرية، ص 14

² - le petit la rousse. France. matière corsaire ; grand format. Edition 2005 p297

³ - المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج 02 (القرصنة الأساطير والواقع)، دار القصة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص 05، 03

⁴ - عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا مابين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، ط 02، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2012، ص 348

القرصنة البحرية نوعان: 01 - القرصنة الرسمية: (Corsair) بالغة الانجليزية، و(corsaire) بالغة الفرنسية، وينسب قدماء المؤرخين هذا اللفظ إلى اسم جزيرة كورسيكا¹. لأن سكانها اشتهروا بالاستيلاء على ممتلكات غيرهم، ويرى آخرون أن أصل الكلمة تعود إلى الاسبانية وتعني كل عمل خاص يضر بسفن العدو التجارية مع تغاض واضح من السلطات².

02- القرصنة البحرية الخاصة (الحرّة): (piratrei) مشتقة من اللفظة اللاتينية pyra التي تفيد معنيين الغش والخداع، أو قد تكون مشتقة من اللفظة اللاتينية pirata واليونانية pirates، واللفظ الأصلي هو peiran³، ويقابله في الفرنسية لفظة essyer، وهو الأكثر منطقاً⁴، وهذه اللفظة تدل على البحارة المغامرين الذين يركبون البحر أيام السلم وأيام النهب و اللصوصية. لكن سرعان ما أصبحت لصيقة بالبحارة الذين يقومون بعملية اعتراض السفن ونهبها دون أن يكون لهم ترخيص من دول معينة⁵.

04-06: - الأبعاد والخلفيات الدينية لظاهرة القرصنة: يعتبر العامل الديني من أبرز العوامل المؤثرة في توجيه العلاقات الخارجية بين البلاد المغاربية ودول غرب أوروبا، حيث ساهم في بروز نشاط القرصنة بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط. فكان هذا النشاط

¹ - حسب الأب دان (le père dan) فإن لفظة "corsaire" منسوبة إلى "corse" التي تطلق على الشعوب المستقرة بكورسيكا. ينظر pierre dan .histoire de barbarie et des ses corsaire. récollet imp..du .paris.1636.p-p50-51

² - بشير عبد الرحمن، القرصنة غربي المتوسط القرن 02-05هـ/11-08م، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثانية والثلاثون، الكويت، 2012، ص. ص. 28-29

³ - حسن أميلي . الجهاد البحري بمصّب أبي الرقراق خلال القرن السابع عشر الميلادي ، ط01، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر ، الرباط ، المغرب ، 2006م، ص 66

⁴ - زكي مبارك . الجهاد البحري في الغرب الإسلامي "المفهوم الإسلامي والمفهوم المسيحي"، مجلة البحث العلمي، السنة الإحدى والثلاثون، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد 45، 1998م، ص: 23 .

⁵ - حسن أميلي، المرجع السابق، ص66

مصدر استنزاف مادي لكلا الطرفين طيلة العصر الحديث¹. فقد اعتبرت القرصنة في البحر المتوسط إحدى السبل المختصرة للحصول على الغنائم والثروات، والتي تساهم في شهرة وشرف وقيمة القرصان سواء كان شخصا أو باسم الدولة، والقرصنة البحرية أيضا لم تنفصل في ظاهر حركتها ونشاطها عن البعد الديني في مختلف صوره فالقرصنة الإسلامية استحدثت شرعيتها من مفهوم النص الديني لكلمة الجهاد"، واستندت مثلتها المسيحية إلى الحركة الصليبية و"حروبها المقدسة"². فالجغرافية الدينية فرضت وجود قطبين متصارعين. عالم إسلامي تزعمته الإمبراطورية العثمانية والعالم المسيحي الذي تقوده قوى أوروبا الغربية، وسيجمع كما سيفرق بينهما مبدأ "الثابت والمتحول". فالثابت لا يعدو أن يكون غير المتوسط كفضاء بحري محل نزاع قديم ومتواصل بين القوى التي تريد السيطرة على أسواقه ومراكزه التجارية، و"المتحول" هي ظاهرة القرصنة في تمرداها على الاعتبارات الدينية. لتتشأ بحركيتها وفعاليتها قطاعا ذا مآرب مالية عاجلة وأرباح هامة أغلبها يسير المكسب. مقترنة برباط وثيق بالنشاط التجاري المحلي والدولي على السواء³.

05-06-القرصنة بين ثنائية المفهوم الجهاد البحري ولصوصية البحر: يرى " جون فانثور

دو بارادي " أن الجهاد البحري كان مرادفا لعملية القرصنة⁴، بينما لا يميز برونشفيك بين المصطلحين. إذ غالبا ما يوردهما للدلالة على شيء واحد هو اعتراض السفن المارة بمنطقة

¹ - كمال مايدي . علاقات تونس مع دول أوروبا الغربية المتوسطية وتأثير البحرية فيها في عهد حمودة باشا من 1780 إلى 1814، مذكرة ماجستير ،جامعة غرداية ،الجزائر ،2012/2011، ص: 68 .

² - توفيق البشروش . جمهورية الدايات في تونس (1591-1675)، مجموعة أيام الناس ، تونس ، 1992 ، ص.ص 79-

³ - رضا بن رجب . يهود البلاط ويهود المال في تونس العثمانية 1685-1857، ط01، دار المدار الإسلامي ،بيروت

⁴ - Jean -Michèle venture de paradis. Tunis et Alger au XXVle siècle .mémoire et

observassions rassemblés et présenté par joseph couq. édition sindibad

.paris.1983.p.p234-235

ما¹، ويذهب عبد الله العروي إلى اعتبار الجهاد البحري عملية تقابلها عند الأوربيين عملية القرصنة²، أما زكي مبارك فيرى أن الأمر كان متعارفاً عليه، وكان متبادلاً بين المغاربة ونصارى فرنسا وإسبانيا وإيطاليا³. ومنه يجعلنا هذا التداخل أمام عدة معان عند تحديد مفهومها كنشاط وليس كمصطلح، والغالب في تحديد مصطلح القرصنة أنها قطع البحر و اللصوصية فيه، والقرصان من يقوم بها ويستعملها⁴.

07: واقع ومآلات الرحلات الحجية البحرية وتأثير تعاطي نشاط القرصنة في الحوض

الغرب للمتوسط:

07-01: الركب البحري ومخاطر البحر: إن تفضيل المغاربة الطريق البحري لا يعني أن البحر كان أكثر أمناً من الطريق البري، بقدر ما يدل على أن الخطورة متفاوتة بين الطريق البري والبحري، وحتى إذا ركبوا البحر فإنهم ينتظرون في كل لحظة أن يقعوا في قبضة العدو، ولعل الحالة النفسية التي عاشها ابن جبير وابن رشيد السبتي ومن حج بعدهم كأحمد المقرئ، وجوزيف بيتس والرافعي التطواني وغيرهم. على متن المراكب التي نقلتهم إلى الديار الحجازية خير دليل على ضعف الأمن في البحر المتوسط⁵، لكن هذا لم يمنع من بروز رحلات بحرية كرحلة جوزيف بيتس والرافعي التطواني وأبو القاسم الزياني وأبو عثمان المكناسي وأبو راس الناصري وغيرهم. حيث يبدو أن تكاليف السفر بحراً كانت أقل بكثير من

¹ - برنشفيك . تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13م إلى القرن 15م، ترجمة حماد الساحلي ، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1988 ، ص277

² - عبد الله العروي . مجمل تاريخ المغرب ، ط1، المركز الثقافي العربي ، بيروت، لبنان ، 1994، ص 226

³ - زكي مبارك ، المرجع السابق ، ص ص 16-17

⁴ - نور الدين فهمي . التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى العاشر الميلادي ، تعريب محمد قاسم عبده قاسم، دار الوحدة ، بيروت ، 1980، ص 127

⁵ - الطاهر قدوري . مسألة القرصنة أو الجهاد البحري في المغرب الإسلامي : دراسة مقارنة ، مجلة عصور الجديدة ، العدد 02، وهران ، الجزائر ، جوان 2020م، ص137.

تكاليف السفر برا. وقد لخص أبو القاسم الزياني ذلك بقوله (لضعفه)، أو (قلة ذات اليد)¹. ذلك أن السفر في البحر لم يكن يقتضي (السير ليلاً). كما هو الحال بالنسبة للسفر في البر. كما أن مدة الرحلة كانت اقصر كثيراً من المدة التي تستغرقها القافلة البرية، فمثلاً السفينة التي كانت تقلع من السويس تصل ميناء جدة بعشرين يوماً بعد إقلاعها، أي أن الرحلة عبر البحر تستغرق اقل من نصف مدة الرحلة بصحبة قافلة البر². أضف إلى ذلك أن الرحلة البحرية كانت في أغلب الأحوال أكثر أماناً من الرحلة البرية، صحيح أنه كانت هناك المخاطر الناتجة عن الشعاب المرجانية المشهورة في البحر الأحمر (القلزم كما كان يسمى آنئذ) غير أنه كان بالإمكان تجنب مثل هذه الأخطار في أغلب الأوقات³.

02-07:-القرصنة الأوربية وترويع الركب البحري: إن الخطر الداهم الذي ظل يحيق بمراكب الحجيج في الحوض الغربي للمتوسط تجلى في القرصنة الأوربية بمختلف انتماءاتها ؛ ففضلاً عن تصفهم المصادر بلصوص البحر من قراصنة أوربا، تعرضت سفن الحجيج لعدوان أشد من فرسان مالطا. وعليه فقد مثلت هذه الاعتداءات التي شاعت في هذا الحوض في تلك الفترة التحدي الصعب والأخطر الذي واجه الركب البحري. وعليه فإن رحلات الحجيج عبر هذا الفضاء كانت محفوفة أصلاً بمخاطر الغرق أو التيه أو ووعورة المسلك كما هو الحال بالنسبة للبحر الأحمر (القلزم) المليء بالشعاب المرجانية، والتي تستدعي كفاءة ودقة من أرباب السفن اجتيازها.

لذا فالمقدمون على هذه الرحلة كانوا عرضة لمخاطر جمة أوعصها القرصنة المسيحية خصوصاً من طرف فرسان مالطا⁴ المشهورين كذلك باسم فرسان القديس يوحنا. فمالطة

¹ - أبو القاسم الزياني . المصدر السابق ، ص 214.

² - يونان لبيب رزق ، محمد مزين . المرجع السابق ، ص 53.

³ - نفسه ، ص 54.

⁴ - أبو القاسم سعد الله . شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية ، ط 01، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،

لبنان 1986 م، ص 84.

القريبة من سواحل بلاد المغرب لم يكن في الأوروبيين من هو أضر منها على سفن المسلمين عامة وحجيج بلدان المغرب خاصة، لكونها تقع بمحاذاة طريق ركب الحج البحري. فهي كما وصفها ابن محلي السجلماسي "بين الغرب ومصر تأسر الحجاج وتلقفهم كالثعبان..¹، وقد سقط في قبضة الأعداء، وما أكثرهم عددا آنذاك وأشرسهم جماعات الحجيج. فرمت بهم الأقدار إلى سجون أوربا المسيحية، وتعود أسباب هذه المحن إلى سفرهم عبر البحر. حيث عرفت العديد من رحلات الحج عبر المتوسط انطلاقا من الموانئ المغربية. حدوث العديد من المآسي البحرية والتمثلة في أسر هذه الفئة المستضعفة والتي كانت تروم زيارة البيت الحرام وآداء الفريضة، حيث حفظت لنا المصادر التاريخية نماذج عن هذه الاعتداءات. مثل ما ذكره علي بن محمد التمكنوتي بعد عودته من رحلته إلى اسطنبول وحط الرحال في الجزائر. "من أن السفينتان التي جاء فيهما هو وجماعته لما رجعتا من الجزائر إلى اسطنبول حاملة الحجاج و التجار بأموالهم إضافة إلى أموالا كثيرة أخرى وجباية البلد وهدايا بأمثالها للسلطان، وضمت كذلك على القوم من الوزير والقبطان وغيرهم، وذخائر الجند، وغير ذلك، والتي سافر فيها كثير من المسلمين وقاضي البلد بنسائه وأولاده، أن نصارى السفينة دبروا حيلة مع النصارى المجدفين فقتلوا رياسها ومن قاوم من المسلمين، ولما أيقن المسلمين بالهلاك رمى البعض أنفسهم في البحر فنجا بعضهم بالسباحة وغرق البعض، وذهب النصارى بالسفينتين إلى بلادهم بما فيها من الأموال والنساء والصبيان، وخلفت هذه الحادثة مأتما عظيما في كل دار من ديار الجزائر حزنا على ما وقع للمسلمين من المصيبة في الأنفس والأموال..².

ومن المآسي كذلك وقوع العديد من أفراد ركب الحج المغربي في أسر قراصنة مسيحيين، حيث أسر مائة حاج مغربي سنة 1053هـ/1647م، وتم إطلاق سراحهم بالفداء،

¹ - عبد المجيد القدوري . ابن أبي محلي ، المصدر السابق ، ص83.

² - علي بن محمد التمكنوتي . النفحة المسكية في السفارة التركية (1589م)، تحقيق محمد الصالحي ، ط01، المغرب ،

2007م، ص161.

وفي سنة 1650م علم في جزيرة مالطا عن ركوب حجاج مغاربة في سفن انجليزية وخروجهم من تونس قاصدين مكة، وفي الحين أبحرت من الجزيرة سفنا شراعية كبيرة بقيادة الرئيس البحري « بالطانار ماندولس Balthazar mendoles »، وهو راهب يشتغل بالقرصنة ضد المسلمين، واعترض السفينة الانجليزية، وأسر من فيها من الحجاج، واقتادهم إلى مالطا¹، وفي سنة 1689م. تم خطف ثمانية حجاج جزائريين من طرف قرصنة فرنسيين، بحيث كانوا متوجهين إلى مكة على متن مركب انجليزي وذلك بعد خروجهم من تونس². وتجددت هذه الفواجع سنة 1168هـ/1762م . حيث غرق مائة حاج بعدما أقلعت بهم السفينة من الإسكندرية في اتجاه تونس والمغرب³،

ولعل بعض من أولئك الأسرى قد القي عليهم القبض بعد عودتهم من الحج مباشرة لأن السفن المقلدة للحجاج الجزائريين كانت تساهم أيضا في الجهاد البحري . ففي أحد المناسبات قامت سفينة حاملة للحجاج بتحرير أرقاء جزائريين واتراك من أيدي مختطفهم، الذين كانوا يرغبون في نقلهم إلى مدينة جنوة الإيطالية لبيعهم هناك⁴.

ووردت في المصادر الإسلامية نماذج عن حالات اعتداء قرصنة مالطا على ركب الحجيج مثل ما ذكره الشيخ أبو سالم العياشي أن الشيخ شهاب الدين أحمد بن التاج رئيس المؤقتين بالحرم الشريف وقع في الأسر بقوله: " فركب البحر من الإسكندرية. فحكم القدر بأسره في أيدي العدو، واستقر بمالطة دمر الله أهلها، وبذل في فدائه خمس عشرة مائة ريال." ⁵ ومنها ما ذكره كذلك أبو القاسم الزباني في "الترجمة" . حول قصة إبراهيم الدمياطي بقوله: " .

¹ - محمد بن عبد الوهاب ابن عثمان المكناسي . البدر السافر لهداية المسافرين إلى إفتكاك الأسارى من العدو الكافر ، تقديم وتعليق د. عبد الهادي التازي ، المجلة العربية ، الرياض، ط01، 1443/2012م، ص 51.

² - plantet plante Eugene .correspondance des deys d'Alger avec la cour de France 1579-1833.ti .ll. paris.1989,p252.et.p305.

³ - محمد مكمان . المرجع السابق ، ص ص144-149.

⁴ - جوزيف بتس .المصدر السابق ،ص 24.

⁵ - ابو سالم العياشي .ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج02 ، ص31.

ولقد أخبرني الشيخ إبراهيم الدمياطي وكان حج معنا: قال سافرت من بلدي دمياط بقصد جزيرة كندية في مركب للمسلمين، فلما قربنا من كندية وقع مركب للمالطية فأسرونا.¹

كما انضمت بعض الدول المسيحية إلى ذلك الحلف العدائي، وأصبحت تستهدف سفن الحجاج دون رادع أو مانع، فالتقارصة يتصرفون مثل فرسان مالطة، وأخذوا يهاجمون السفن المسلمة، ويتعرضون للحجاج والتجار، ومما يثبت القول رسالة الحاج محمود طوبجي إلى حسين باشا عام 1242هـ، والذي يقول فيها أنه لما ركب البحر للعودة إلى الجزائر من بلاد الحجاز بعد أداء فريضة الحج أسره اليونانيون وقادوه إلى جزيرة سوسام، حيث بقي أسيرا هناك مدة أربع سنوات²، كما أسر ثمانية حجاج جزائريين كانوا على متن سفينة انجليزية من قبل قراصنة فرنسيين³، وهناك مصدر آخر للرق يعتبر أكثر وقعا، وهو أن الضباط المسيحيين كانوا يحملون على سفنهم المسافرين المسلمين ربما كانوا حجاجا في طريقهم إلى مكة، أو مجرد مسافرين إلى إحدى موانئ المشرق، وبدلا أن ينزلوهم في الإسكندرية، يأخذونهم إلى سيراكوس أو مسينا أو صقلية أو غيرها من الموانئ المسيحية لبيعهم في أسواق العبيد⁴، وهو ما حدث مع البولوكرة بقيادة القبطان « برتول Cloud » bertou، في 1777م التي تعرضت إلى اعتداء من الفرقاطة الإسبانية vierge carmes، واقتيدت السفينة الفرنسية وعلى متنها حجاج جزائريون إلى قرطاجنة بدل ذهابها إلى الإسكندرية⁵، ولم تقتصر هذه الاعتداءات على دول الحوض الغربي للمتوسط بل تعدى ذلك إلى دول بعيدة مثل الإمبراطورية الروسية التي أظهرت عداا لكل ما يمت بصلة للدولة

¹ - أبو القاسم الزباني .الترجمة ، المصدر السابق ،ص 192.

² - خليفة حماش . المصادر الوطنية عن الأسرى الجزائريين في أوربا ،المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ،العدد 45-46،مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، تونس ،ديسمبر ،2012،ص 150.

³ - plante Eugene,op.cit.p263

⁴ - وولف بابتيست جون . الجزائر وأوربا 1500-1830،ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي ،ط02، لبنان ،2005، ص ص235-236

⁵ -Plantet E. correspondance...op cit.pp349-350

العثمانية ومن بينها الجزائر بحكم أنها كانت إحدى إيالاتها. فهاجمت سفينة روسية تحت قيادة القبطان الروسي أورلوف (orlofa) السفينة الفرنسية المقلدة للحجيج الجزائريين، وحاول هذا الأخير ضربها ما دفع بطاقم السفينة أن ينبهه إلى أن القيام بمثل هذا العمل سينتج عنه أحداث خطيرة بحكم رمزية الحج ومكانته عند سلاطين آل عثمان¹. وذكر "دوغرامون" حادثة سنة 1717م، والتي تم فيها قرصنة البولاكرة الفرنسية التي كانت تنقل الحجيج الجزائريين إلى مكة ما استدعى تدخل البلاط الفرنسي الذي أرسل مبعوثا إلى سان بيترسبورغ للتفاوض².

وفي سنة 1239هـ/1824م هاجم مجموعة من قرصنة انجلترا بالتحالف مع فرسان مالطا وغيرهم مركبا لحجيج إيالة الجزائر، واقتادوه إلى مالطا، واحتجز هنالك إلى غاية توقيع الصلح بين الجزائر وانجلترا³، وبالتأكيد كان البابا يرتل صلوات الشكر للسيد المسيح، وهو يستعرض الألآف من الأسرى المغاربة، الذين أسروا بعد عمليات الغزو التي تعرضت لها السواحل المغربية، أو الذين أسروا في البحر، وهم في طريقهم إلى الحج، ليتم بيعهم في أسواق الرقيق بإيطاليا. كما هو الحال في سوق القورنة أو روما أو نابولي، ومن كثرتهم أصبح بإمكان السفن البابوية والايطالية استبدال الجدافين دون صعوبة⁴. لكن لا يفوتنا أن نشير إلى أن تلقب الأسرى بالحاج يدل على أنهم وقعوا في الأسر وهم في طريق الأوبة من الحج إلى ديارهم ببلدان المغرب⁵، ولا غرو إن وجدنا أن عددا من الأسرى الجزائريين

¹ - عزيز سامح إلتز . الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ترجمة محمود علي عامر ، ط01، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1989م ، ص 571

² - Henri Dalmace DE GRAMMONT, histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830 Ernest Leroux. Editeur .paris.1887.P312

³ - أحمد الشريف الزهار .المصدر السابق ، ص 153.

⁴ - belhamissi mouley.Histoire de la marine algérienne 1518-1830.enal.alger.1986 -p21

⁵ - الأمدج بوزيد . الأسرى المغربية في أوروبا في الفترة 1772-1775م من خلال الأرشيف الوطني التونسي ، مجلة أسطور، العدد 06، قطر ،تموز/يوليو 2017، ص 55.

المحتجزين لدى الدول الأوروبية المعادية للجزائر كانوا يحملون لقب "الحاج" مثل النماذج التالية: الحاج محمد، الحاج مصطفى، الحاج حمودة¹.

- الأمراض والأوبئة: الحج ركن من أركان الإسلام وهو يقوم على القدرة والاستطاعة بصفته عبادة شاقة، ولكون الحج فيه اختلاط بين الناس بسبب توافد الحجاج من جميع أقطار العالم حدث هناك أحكام خاصة تحمكت في تسيير مواسم الحج، فقد تم تعطيل بعض المواسم لتنوع الأسباب والظروف وعلى رأسها المنع بسبب الوباء المنتشر في البلدان الإسلامية. ولأن الشريعة الإسلامية عנית بصحة المسلم، واهتمت بالأحكام المناسبة للحفاظ على صحة المسلمين ووقايتهم من الأمراض كي يتوقف انتشارها، وهذه الأهمية كون العبادة والصحة وسيلة للقيام بها على الوجه المطلوب، والحج يتطلب من المسلم الاستطاعة والقدرة على إتمام المناسك والسفر إذا كان المسلم من خارج مكة أو داخلها، وبسبب كثرة الأوبئة والأمراض المعدية وغير المعدية وكثرة عدد الحجاج معها مع مرور الزمن والاختلاط وارد لا مجال بينهم حدث هناك اجتهاد لاستصدار أحكام تمنع الحج عن المشتبه في عدوتهم، كون جميع هذه الأمراض تشكل خطورة بالغة على صحة الحجاج وعلى السير العادي لموسم الحج.

01 - أسباب المنع الوبائية: الراجح أنه إذا انتشر الوباء قطعاً بين الحجاج أو تحقق غلبة الظن - من خلال المختصين - أن الحجاج أغلبهم أو بعض منهم قد يصيبهم الوباء لأسباب منها الازدحام فيجوز منع الحج والعمرة مؤقتاً بمقدار الضرر حتى تدرأ المفسدة.

إن من تعاليم الإسلام الحنيف أن لن يسمح بدخول مكان موبوء، وذلك لعدم جواز التهلكة، وبذلك الدخول قد أهلك نفسه، وإضافة إلى ذلك عدم جواز مرافقة المرضى ومجاورتهم إلا بالضرورة من أجل أخذ العلاج مع الأخذ بجميع الأسباب ووسائل حماية نفسه طبياً ودليل لك (طاعون مكة).

¹ - خليفة حماش . الأسرى الجزائريون في أوروبا في العهد العثماني ، ص 23.

- الطاعون - الأمراض المعدية:

01-تعريف المرض واصطلاحا:

أولاً -المرض لغة: المرض السقم نقيض الصحة، والجمع مرضى ومرضى ومراضى ومراض.قوله: أمرض الرجل جعله مريضاً، ومرضه تمريضاً قام عليه ووليه في مرضه وداواه ليزول مرضه، وكل ماضعف فقد مرض¹

ثانياً: اصطلاحاً: هو ما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال الخاص²

02-تعريف الوباء لغة واصطلاحاً:

أولاً الوباء في اللغة: الوباء، مهموز: الطاعون، وهو أيضاً كل مرض عام، وأرض وبئة إذا كثر مرضها، وقد استوبئتها، وقد وبئت وباءة، إذا كثر أمراضها³.

ثانياً في الاصطلاح: وهو كل مرض عام⁴.

فلا فرق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، فالوباء نوعاً واحداً وهو مرض عام يصيب الأكثرية من البشر من جهة من جهات الأرض دون باقي الجهات، ويكون مخالفاً للمعتاد من الأمراض في الكثيرة منها، ويكون نوعاً واحداً.

¹- لسان العرب ، المصدر السابق ، الجزء 07، ص: 231.

²- علي ابن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (وفي سنة 816هـ)، كتاب التعريفات ، ضبطه وصححه جماعة من العلماء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط01، 1403هـ/1983م، ص: 211.

³-الفراهيدي أبو عبد الرحمن بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (ت.170هـ)، كتاب العين ، تقيق د.محمد المخزومي ، ود.ابراهيم السمراي ، دار ومكتبة الهلال ، الجزء 08، ص: 418.

⁴- الخرشى محمد بن عبد الله (ت.1101هـ)، شرح مختصر خليل للخرشي ، دار الفكر للطباعة ، بيروت ، لبنان ، ص: 133.

قال الحافظ ابن حجر: " تسمية الطاعون وباء لايلزم منه أن كل وباء طاعون، بل يدل على عكس ذلك، وهو أن كل طاعون وباء، لكن لما كان الوباء ينشأ عنه كثرة الموت، وكان الطاعون أيضا كذلك، أطلق عليه اسمه ¹."

أحكام منع المسلمين من أداء فريضة الحج:

01-حكم الحج للمريض مرضا معديا: الحج ركن من أركان الإسلام، وهو واجب مرة في العمر، وانه واجب على الفور وهذا قول جمهور العلماء. وان للمريض مرضا عديا حالتان

الأولى: اتفق الفقهاء لايجب عليه الحج من كان يريد أداء فريضة الحج وهو في حرج من عدم استطاعة لضعف حال أو مرض أو مشقة كون الحج عبادة بدنية، وعليه إذا كان مرضه يرجى منه الشافي لا يصح له أن يوكل غيره للحج في هذه الحالة لا يجزئ الحج عنه، أما ماذهب إليه الشافعية والجمهور على حد سواء ان الإنابة جائزة في الحج عن (الميت والعاجز الذي لا يستطيع ولايرجى شفائه، واليائس من بدنه)، واعتذر عن ذلك القاضي عياض من مخالفة المذهب للأحاديث الواردة في الصوم عن الميت والحج بالإنابة عنه، وقال هو عذر باطل ومضطرب، وقال: ليس في الحديث اضطراب وإنما اختلاف جمعنا بينهما.كما سبق لنا ذلك واحتج مسلم بذلك في صحيحه.

ثانيا: لايجوز لمريض أن يذهب لأداء فريضة الحج في أي حال من الأحوال، وفيه مرضا معديا وليس له علاج يشفيه في الحال، ويمكن لها أن تنتقل عن طريق منافذ الجسم المفتوحة والملامسة ولا يمكن منع انتشارها وإحرازها من أن تنقشى بين الحجاج "يمنع الحج"، وذلك لشدة الازدحام كما هو واقع في الحرم والسفر وغيره.قد يتسبب في أذية الحجاج.

لم يتعرض الحجاج في الأزمنة الماضية لخطر الغارات والسرقة فحسب، وإنما كانوا يخشون التعرض للوباء الفتاك (الطاعون)، الذي كان يضرب الكثير من المناطق، ويقضي

¹ - بذل الماعون في فضل الطاعون ، ص :104.

على الآلاف، ومن هذه المناطق مصر، والتي هي محطة رئيسية في طريق الحج نحو بيت الله الحرام.

حيث يعد الركب من ابرز العوامل المساهمة في تفشي الأوبئة

يعد من ابرز طرق انتقال الأوبئة ودخولها بلاد المغرب العربي احتكاك المغاربة بغريهم من المسلمين في موسم الحج، فهذا الإحتكاك المباشر بين حجاج المغرب العربي مع غيرهم من مختلف أقطار العالم في البقاع المقدسة كثيرا ما أدى الى انتقال العدوى الوبائية من فئة إلى فئات أخرى سواء كان من أهل المغارب او غيرهم.

ولا يقتصر الأمر على موسم الحج فقط وإنما يمتد الأمر ليشمل مايعرف حينها بركب الحج، إذ أنه من السبل الأساسية في نقل العدوى الوبائية من مكان ما عل محطات طريق الحج إلى داخل الإيالات المغربية خاصة ايالة الجزائر، تلك الطرق التي كانت تسلكها هذه المواكب عند عودتها الى مضاربها ؛ فنجد أن ركب الحج العائد من البقاع المقدسة باتجاه بلدان المغرب كثيرا ما احتك في طريق عودته مع قبائل مختلفة في أماكن شتى فالطريق البري من الإسكندرية إلى ايالة الجزائر مثلا قد يستغرق شهرا ونصف وتجتمع فيه حشودا كبيرة من حجاج طرابلس وتونس والجزائر والمغرب الأقصى¹، الأمر الذي جعل العديد من التقارير الطبية والنصوص الرحلية تؤكد بأن الأوبئة كانت تنتقل من الشرق الى الغرب دائما فتكون من مصر إلى طرابلس منها الى تونس ومن تونس إلى الجزائر ؛ لتصل إلى غاية المغرب الأقصى.

غير أن لا يعني أن الحجاج العائدون من البقاع كانوا دائما ما يصابون هناك، إذ ثبت في بعض الأحيان أنّ الوباء قد يُجْلَب أو يُحْمَل من الطريق خاصة عند النزول بالموانئ

¹ - لوسيت فالنسي .مرجع سابق ، ص ص59-60.

المصرية¹ فقد ذكر العياشي مثلاً: "أن الحجاج باتوا في خوف وشدة من الوباء، الذي حل بالإسكندرية بمصر، وظل شغلهم الشاغل، حيث قال: "وَأقام الناس بها يوماً لسقي الماء وشرب الإبل، وبات الحجاج ليلتهم وظلوا يومهم في أمر الوباء، لما تحققوه في الاسكندرية، وما بإزائها، وفي البحيرة، ورشيد، وتحير الناس في امره فمن شديد الفزع مظهر الهلع".²

فنقف أنه من بين أول الأوبئة التي كان مصدرها موانئ الإسكندرية خلال القرن الثامن عشر ووفدت إلى الجزائر وباء سنة (1130هـ/1718م). إذ ذُكر أن هذا الوباء وفد عن طريق سفينة انجليزية، الأمر نفسه نجده يحدث سنة (1153هـ/1740م)، حيث يذكر دوغرامون أن: هذا الوباء قديم على متن سفينة قادمة من الإسكندرية.

نفس الشي بالنسبة لوباء 1232هـ " أن السفينة التي كان على متنها الوباء هي سفينة تركية قادمة من الإسكندرية ورسّت بميناء عنابة، ومن خلالها ولج الوباء إلى المناطق الأخرى " ³. كما ذكر أيضاً بأن سفينة رست بميناء مدينة عنابة السنة التي بعدها، هي سفينة حجاج قادمة من مصر نزل منها خمسة وعشرون شخصاً كان معظمهم مصاباً بالطاعون. انتشروا في مختلف أرجاء المدينة ما تسبب لاحقاً في تفشي الوباء لباقي السكان.⁴

أما محمد بن عبد السلام الناصري فقد ذكر في الرحلة الصغرى: " أن الوباء حل ببسكرة وذلك بقوله: ". لما رجعت من الجاز في سنة ستين، وجدته قد توفي بالوباء الواقع في تلك السنة، وكان وباء مفراطاً، مات به ببسكرة على ما قيل لنا، نحو سبعين ألف نفس".⁵، وأورد الناصري كذلك خبراً عن أبي سالم العياشي أن الوباء وقع مرة بمصر، وكثر الموت .حتى

¹ - قد يُعترض بالقول: أن الوباء في مصر قد يكون بدوره قادم من الحجاج ، نعم قد يبدو هذا الاعتراض صحيح من حيث بنيته ، إلا أنه مردود بظهور العديد من الأوبئة في مصر مثلاً حتى بقل عودة الحجيج من جدة . كما أنه من المعلوم أن صعيد مصر كان أحد الروافد المشهورة للطاعون. للمزيد انظر

² - أبو سالم العياشي . ماء الموائد ، المصدر السابق ، ج01، ص:209.

³ - J-L-G. GUYON op,cit,p372.

⁴ -ibid.373

⁵ - الناصري ، الرحلة الصغرى ، المصدر السابق ، ص:140.

كان يدفن في اليوم حسب مازعم أربعين الف، فقرر الباشا وأتباعه الخروج من مصر والفرار لما شاهده من كثرة الموت¹. وقد تعرض محمد بن عثمان المكناسي في رحلته الحجية عن طريق البحر سنة 1785م إلى خطر الوباء، الذي كان يهدد حياة الحجاج سواء عن طريق البر أو مسلك البحر فقد صادفه انتشار الوباء في الشام- وهي إحدى طرق ركب الحجيج البحري حيث قال: "... وقد وقع في هذه السنة موت كثير بالشام، في مدة غيبتنا بمكة، فقد حكى أنهم كانوا يدفنون نحو خمسمائة في كل يوم..."²، وصادف أثناء عودته من الحج أن زار مدينة الجزائر، ووجد بها الوباء ومما قال: "... وقد وجدنا بهذه المدينة، (ويقصد الجزائر)، وأعمالها الطاعون، ومات بها خلق كثير..."³. وهذا عبد الرحمن المجاجي في رحلته النظامية يروي أن ابنة شيخه الذي لم يذكر اسمه قد توفيت في الطريق، واسمها "عويد"، وقد حمل الركب جثمانها مسيرة يومين على ماذكر لتدفن ليلاً بمقبرة البقيع مع نساء النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال في هذا الصدد:

وتم رحلنا ثم نزلنا في مكان يسمى في القديم جريدة

مدينة من مداين الدرب فيها مايفوته الحجاج وقت الإقامة

هناك توفت بنت شيخ شيوخنا بعين واو ثم دال وتأوها

فزال اسمها إذلال قلت عويده رحلنا بها يومين من بعد نحبها

وسرنا بها نحو الديار الشريفة دفناها ليلاً بالبقيع وحولها.

وأثناء العودة من رحلة الحج، وفي منطقة أولاد جلال، ذكر العياشي كذلك أن أحد الحجاج من الفلاليين من أولاد الإمام أهل سجلماسة، توفي في الطريق بالوباء (الطاعون)،

¹ - الناصري ، الرحلة الصغرى ، ص:263.

² - محمد بن عثمان المكناسي ، الإحراز ، المصدر السابق ، ص: 284.

³ - محمد بن عثمان المكناسي ، الإحراز ، المصدر السابق ، ص:331.

وقد اشاع بعض الناس أمر الوباء في الركب، فخاف أهل المدينة ومنعوا الحجاج من الدخول إليها، خوف العدو، وبلغ من الهلع منهم والخوف، أن أصبحوا يبيعون الخضر للحجاج بعد أن يضعوها في دلاء، ويقدمونها للحجاج من فوق السوار، ويأخذون امال ولا يلمسونه باليد إلا بعد غسله.¹

الكرنطينة وسياق تطبيقها (الحجر الصحي بالمفهوم الراهن):

تعريف الكرنطينة: هي عزل وقائي لمدد متغيرة (أربعون يوما في الاصل) يفرض على الأشخاص والبضائع²، وهي من المصطلحات الايطالية الأصل المعربة التي أخضعت لقواعد الصرف العربي، بإضافة لام التعريف، واشتق من هذا المصطلح الفعل الرباعي (كرتن /يكرتن)³. وقال الكرنطيلة وهي غرفة الحجر الصحي التي يمكث فيها الشخص أربعين يوما تحت المراقبة الصحية⁴، وترد في بعض المصادر للدلالة على فترة الحجر الصحي فيقال "حتى نقضي ايام الكرنطيلة"⁵ ويقال "كرطنا" بمعنى مكثنا في الكرنطيلة⁶.

¹ - العياشي ، المصدر السابق ، ج02، ص:546.

² - heinemann ;h ;quarantaine ;poèmes,preface de serge brindeau ;illustrations de gasqui ,m, heinemann ,h,p,7

³ - سواعي محمد ، أزمة المصطلح العربي في القرن التاسع عشر : مقدمة تاريخية عامة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط01، 1999 ص:129.

⁴ - أبو سالم العياشي. تعداد المنازل الحبية ، المصدر السابق ، ص 29

⁶ - نفسه ، ص:231.

الكرنتينة على الطريق حجي:

الكرنتينة في الحجاز: لقد حظي الحجاز نظرا لخصوصيته الدينية من جهة، وتهديد أشرافه وبدوه للسلطة العثمانية من جهة أخرى برعاية الدولة العثمانية وبشكل ملفت، بما يمكنها من تعزيز نفوذها وهيبتها في المنطقة، ذلك أن سلامة الحجاج كان مسؤولية الدولة العثمانية خاصة بعد موسم الحج الكبير لسنة 1865م، والذي نقل الكوليرا الى السو

المبحث الثاني: الجهود المبذولة لتأمين ركب الحج

أولا - محاربة قطاع الطرق والقرصنة:

01- فكاك الأسرى من بلاد المغرب: وفعلا لم يكن قراصنة مالطا يترددون في اختطاف مغاربة عائدين من الحج، فمراكبهم كانت ترصد سفن بلدان الشمال الإفريقي المتجهة إلى الإسكندرية، لكونها محطة يرجع عبرها الحجاج من مكة، حيث كانوا يتموقعون في أماكن إستراتيجية كتونس وجربة ورأس مصراتة ومناطق أخرى في سواحل ليبيا ودمياط وحتى الإسكندرية نفسها¹.

وفي هذا الإطار تذكر المصادر أن واحد وعشرين حاجا من بلدان المغرب وقعوا في أسر قراصنة مالطا خلال الفترة 1772-1775 من بينهم: المسمى " الحاج إبراهيم كدوسي" وابنه وامراته وأيضا محمد الحنفي الجزيري. فلا نندهش عندما نجد حجيجا ضمن الأسرى المغاربة في أوربا، وذلك أن أغلبهم يتصفون بعجز بدني يجعلهم يعدون ضمن أصناف قليلة الجودة من الرقيق. فحتى النساء لم يسلمن من الأسر فقد حدث سنة 1644م، معركة بحرية كبيرة دامت 07 ساعات من القتال الدامي، أسر على إثرها مركبا إسلاميا مشحون بالحجيج

¹ -anne brogini ; une activité sous contrôle l'esclavage a malte al époque moderne , cahier de la méditerranée , n87 , centre de le méditerranée moderne et contemporaine , 2013,p47

وغيرهم، حيث سجل من بين الأسرى سيدة من الحريم أرادت أن تحقق انجازا بتأدية واجبها الديني بالذهاب إلى مكة رفقة ابنها الشاب اليافع المسمى "ابن السيد الموقر إبراهيم"¹.

لكن من وراء أسر الأطفال والنساء والحجيج كانت القوى الأوروبية، والتي تسعى في الواقع للضغط على حكام المغارب وحملهم على مقايضة أسراهم بأسرى أوروبيين²، وفي هذا الصدد يخبرنا قنصل فرنسا بالجزائر أن الداوي أمر سنة 1761 بإطلاق سراح 59 من اليسوعيين خوفا من قيام قراصنة مالطا ومرسيليا بأعمال انتقامية ضد الحجيج الجزائريين³. لكن موقف داوي الجزائر يدل على أن الأطراف المتصارعة سواء القراصنة الأوروبيون أو المغاربة كانوا يتحاشون في بعض المرات أسر العجز ورجال الدين⁴، وقد حفظت لنا المراسلات الدبلوماسية من أعلى مستوى بعضا من تلك المشاكل. ففي رسالة من الداوي علي باشا شاوش (1710-1718م) إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر بتاريخ 15 مايو 1717م. تحدث فيها عن سابقة خطيرة كانت على وشك أن تخذش الثقة التي كانت للجزائريين في أرباب سفن النقل الفرنسيين. فقد حدث أن تم كراء إحدى السفن بحضور القنصل الفرنسي وجماعة من التجار. بهدف نقل بعض الحجاج مع أغراضهم في اتجاه مصر، وأثناء الإبحار توقف قائد السفينة بتونس حيث ركب تجار وأناس آخرون مع عائلاتهم كلهم من الحجاج، بحضور القنصل الفرنسي هناك، وعوض الاستمرار في طريقه إلى الوجهة الصحيحة. أتجه إلى صقلية حيث أنزل الجميع مع بعض الأمتعة، محتفظا لنفسه بأثمانها، ثم قفل عائدا إلى فرنسا، واعتبر الداوي أن ما حصل يتنافى مع الصداقة المتينة والعريقة بين فرنسا والجزائر، وطالب باستعادة الأمتعة وإرجاع الحجاج ومعاقبة الجاني⁵. ومن هذا المنطلق

¹ - vertot lalbé ,histoire des chevaliers de malte ,the new yourk public library,usa,1897,p.299.

² -الأمجد بوزيد . المرجع السابق ،ص52

³ -charle brouchier .correspondances des consuls de France à Alger (1642-1792).inventaire analytique des article .a.eb1/115à145.paris.2001.p521.904

⁴ -الأمجد بوزيد . المرجع السابق ،ص 52

⁵ -محمد أمين . الاختراق التجاري الفرنسي للجزائر ، المرجع السابق ،ص181

يمكن القول إن وقوع حجاج مسلمين بيد قراصنة أوربيين من شأنه أن يثير غضب العامة في بلدان المغرب، ويذكي لديهم مشاعر العداء الديني الموروثة عن أحقاد الحروب الصليبية¹. من جهة أخرى نفهم من سقوط حجاج وأطفال ومزارعين مغاربة في الأسر بيد قراصنة أوربيين أن الأنظمة السائدة في بلاد المغرب كانت عاجزة عن ضمان أمن رعاياها القاطنين بالجزر والمناطق الساحلية، وأيضا غير قادرة على توفير الحماية اللازمة لهم أثناء سفرهم بحرا. كل هذا يدل على تبدل موازين القوى في منطقة المتوسط في القرن الثامن عشر الميلادي، وتفوق أوربا عسكريا واقتصاديا على بلدان المغرب².

02- رد الفعل "موقف السلطة من الاعتداء على ركب الحجاج":

أ- الموقف الرسمي للسلطة العثمانية: لاشاحة أن الاعتداء على الحجاج وترويع ركائبهم من الممارسات الشنيعة والمستنكرة في الأوساط الإسلامية جمعاء، وهذا ما يدفع بإلقاء الجزء الأكبر من مسؤولية تأمين المسالك الواقعة في إقليم الدولة العثمانية على عاتق حكامها وولايتهم، فإلى سلطان العثماني باعتباره خادم الحرمين الشريفين هو حامي الحجاج الأول. ما دفع بسلاطين آل عثمان ومن جاء من عقبهم إلى إيلاء عناية خاصة لشؤون الحج، وذلك بتأمين دروبه وحماية المعابر المؤدية إلى الحرمين الشريفين، حتى أن موكب الصرة السلطانية الذي يحمل الأموال والهدايا القيمة التي كان يرسلها السلطان العثماني وشعبه إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة يبدو وكأنه يمثل شخصية خادم الحرمين الشريفين³، ومن نافلة القول انه فعلا كان العثمانيون بمثابة القوة الوحيدة التي تدافع على العالم الإسلامي ضد الاعتداءات الغربية. خاصة بعدما لقب السلطان سليم الأول "بملك البحرين، وكاسر الجيش

¹ - الأمد بوزيد . المرجع السابق ، ص 52

² - نفسه . ص 52

³ - يوسف جغلار وصالح كولن . المرجع السابق ، ص 15

وخادم الحرمين الشريفين" ¹، ومنذ ذلك الحين توجهت اهتمامات السلاطين العثمانيين إلى العناية بكل مايتعلق بالحرمين الشريفين. وأهمها التكفل بتنظيم وإدارة قوافل الحج المتوجهة إلى البقاع المقدسة من مختلف أنحاء المعمورة ².

والواقع أن هذا الحرص والاهتمام كان لا ينطوي على مجرد التعظيم للبيت الحرام فحسب ؛ بل كان له مغزى سياسي وديني عميقان. ولهذا تولت تنظيم قوافل الحج المتجهة إلى الديار الحجازية برا ومواكب السفن التي تنقل الحجاج بحرا. وأشرفت بنفسها عليه معتبرة ذلك من أوكد الواجبات التي عليها أن تقوم بها³. فمثلا حينما كان السلطان العثماني سليم الأول في القاهرة دخل أسطول برتغالي إلى مياه البحر الأحمر لمهاجمة مكة، فهرع أهل الحجاز إلى طلب العون والمساعدة من الأمير العثماني القبطان(سلمان رئيس) حتى لا يتركهم بمفردهم أمام هذا الخطر المحقق. فاستجاب (رئيس) إلى نجاتهم ودافع عن ميناء جدة الذي يعتبر مرفأ مكة المكرمة حتى استطاع أن يهزم البرتغاليين، كما أصدر السلطان سليم الأول أوامره بتجهيز أسطول ضخم في البحر الأحمر غير أسطول البحر البيض المتوسط وذلك لفرض هيمنة الدولة العثمانية على المنطقة⁴.

كما أمر بعد ضم مصر للباب العالي سنة 923هـ/1517م بأن ينتظم الحجاج كلهم - مصريون ومغاربة- في الدرب مع قافلة المحمل الرسمية المهيبة المنطلقة من القاهرة، ليتسنى لولاة مصر توفير الأمن والراحة لهم، وذلك بمرافقة فرق عسكرية تؤمن أركابهم، وذلك من خروجها من مصر إلى بركة الحاج، حيث توفر العسس غالبا في بنادر درب الحجاز.

¹ - حمل هذا اللقب بعد انتصاره على المماليك في معركة الريدانية سنة 918هـ/1517م حيث دعي له على رؤوس المنابر في خطبة الجمعة ولقبه الخطباء بهذا اللقب

² - أحمد الرشدي .المصدر السابق ، ص 13

³ - مريم بلال .المرجع السابق ، ص22

⁴ - يوسف جغلار وصالح كولن .، المرجع السابق ، ص14

وفي 05 نوفمبر 1564م، تحرك سليمان القانوني لصد عدوان المالطيين، ولتبرير حملته على هذه الجزر خطب أمام الحشود المجتمعين في المسجد من أصحاب السيادة المجيدة والانكشارية بقوله: "أصحاب المعالي وغيرهم، الذي يسعدنا أن نراه هو أن الحاج يزورون البيت المقدس مكة بسلام."، وهذا بعد شكاية الحجيج له بقطع الطريق البحري عليهم، وجهاز الحملة وحرّكها. لكن هذا لم يردع فرسان مالطا بالعكس توجهوا إلى خليج الإسكندرية واسروا سفينة كبيرة متجهة إلى مكة مملوءة بحشد كبير من الحاج. خاصة أنهم وجدوا الفرصة مواتية بتشجيع ملك اسبانيا لهم بعد حملته على جزيرة باديس¹.

حيث ورد في وثيقة يعود تاريخها لى 24 جمادى الثانية 972هـ الموافق ل01 فيفري 1565م، وهي عبارة عن أمر سلطاني من الباب العالي إلى حاكم الجزائر تضمن ضرورة الاستعداد لمواجهة فرسان مالطا في البحر المتوسط، كما تضمنت أيضا وصفا لأعمالهم ضد السفن المغاربية التجارية والدينية، وهذا مقتطف منها ".... هذا حكمنا الشريف إلى بيلرباي الجزائر حسن باشا...لقد تم إرسال هذه العريضة مع مصطفى باشا لإخباركم بحالة جزيرة مالطة والتي أصبحت معقلا للكفار الذين يلحقون خسائر كبيرة واضراراً بالغة بالحجاج القادمين من مصر. كما يعملون على قطع طرق التجارة العثمانية في المتوسط. فالواجب الديني يدعو إلى ضرب هؤلاء الأشرار، وقد عزمنا على الغزو وفتح معقل الكفار لتفادي هذا الضرر تماما على الديار الإسلامية.."².*

وعقب انتصار العثمانيين على المماليك في معركة مرج دابق سنة 922هـ/1517م، دعي للسلطان سليم الأول³ على رؤوس المنابر في خطب الجمعة، ولقبه الخطباء يومئذ

¹ -la vice- amirale jurien de la gravie, les chevaliers de malte et la marine de

philippe2, tome1, libraire plon, paris , 1887, p149.

² -الأرشيف الوطني التونسي ، دفتر مهمة 06، ص: 266.

³ -السلطان ياوز سليم خان الأول ابن السلطان بايزيد الثاني : هو تاسع السلاطين العثمانيين ، ولد بأماسية سنة 872هـ/1367م. ولى السلطنة سنة 918/1512م. من الحوادث التي عاصرها معركة تشالديران ضد الصفويين سنة

بأنه: "ملك البحرين، وكاسر الجيش، وخادم الحرمين"¹. ومنذ ذلك الحين توجهت اهتمامات السلاطين العثمانيين إلى العناية بكل ما يتعلق بالحرمين الشريفين. وأهمها التكفل بتنظيم وإدارة قوافل الحج المتوجهة إلى البقاع المقدسة من مختلف أنحاء المعمورة².

03- رد فعل العلماء "جدلية إسقاط ركن الحج": تجددت في بلاد المغرب الإسلامي من حين لآخر، ومن موسم حج لآخر، دعوات واجتهادات فقهية تدعو إلى إسقاط فريضة الحج، وذلك بسبب تحقق حدوث خطر الموت في الطريق، مع تشدد الدين الإسلامي في حرمة قتل النفس، أو الإلقاء بها إلى التهلكة. حتى أنه أفتى بعض علماء المغرب والأندلس بسقوط الحج عن أهل بلادهم، وذلك لانعدام الاستطاعة وخطر الطريق. فقد سئل ابن رشد عن لم يحج من أهل الأندلس في أيامه فمال إلى الترخيص والتجوز في ذلك مشيراً إلى انتفاء القدرة في زمانه. مما يسقط الحج ويجعله نفلاً مكروهاً، يقول: "...فرض الحج ساقط في زماننا عن أهل الأندلس لعدم الاستطاعة وهي القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال وإذا سقط الفرض صار النفل مكروهاً..."³، أما الإمام الطرطوشي⁴ فقد أفتى بحرمة الحج لأهل المغرب، يقول: "...ومن غرر وحج سقط فرضه لكنه آثم بما ارتكب من الغرر..."⁵، وقد رد الإمام المازري - على رجل رغب في الحج وأمسك عنه بسبب تعذر طريق البحر وخطر طريق البر - رداً جميلاً، مؤكداً أن رغبته مثل رغبة السائل إلا أن الحج في تلك الأيام ساقط

1516م، وفتحه للشام ومصر سنة 1517م، توفي بأدرنة سنة 1520م، للمزيد ينظر: عبد القادر العيدروس، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق محمد الأرنؤوط وأكرم البوشي، دار صادر، بيروت، 2001، ص 171.

¹ - ابن إياس، المصدر السابق، ج 05، ص 148.

² - أحمد الرشدي، المصدر السابق، ص 13.

³ - أحمد بن يحيى بن محمد أبو القاسم الونشريسي. المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج 01، وزارة الأوقاف للمملكة المغربية، المملكة المغربية، 1981، ص 419.

⁴ - هو أبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد الفهري الأندلسي نزيل الاسكندرية، أخذ عن أبي الوليد الباجي، ورجل إلى المشرق وسمع ببغداد من رزق الله التميمي وطبقته، صنف تعليقا في مسائل الخلاف وألف في اصول الفقه، توفي بالإسكندرية سنة 520هـ/999م. انظر ترجمته في نفح الطيب، ج 02، ص 278.

⁵ - الونشريسي. المصدر السابق، ج 01، ص 433.

وتجوز الاستعاضة منه بإخلاص النية وحسن الاعتقاد، يقول: "... ورغبتي مثل رغبتكم والدنيا قريب أمرها، وما ذكرته من أمر الحج قاصر حتى يظهر للطريق وجهه والله يأجرك على اعتقادك ويعظم لك الأجر وبالله أستعين..."¹.

وأشار الشيخ حسين بن بلقاسم بن باديس القسنطيني إلى ذلك قائلا: "...سمعت" الشيخ حسن الحلفاوي يقول: وقع الكلام بين يدي الفقيه الإمام أبي الحسن اللخمي في حكم السفر الى الحج مع فساد الطرق، وهل الأولى تركه احتياطا على النفس، أو الإستسلام في التوجه إليه...؟"².

أما الإمام ابن العربي المالكي فقد شدد على النكير على هؤلاء القوم في أسلوبه دعاه الى الدهشة وحمله على التعجب مشيرا الى أن خطر الطريق لم يمنع الناس يوما الخروج الى التجارة واكتساب المال فكيف يصدهم عن سبيل الله، يقول: "... والعجب ممن يقول إن الحج ساقط عن أهل المغرب وهو يسافر من قطر إلى قطر، ويخرق البحار في مقاصد دينية ودنيوية، والحال واحد في الخوف والأمن والحلال والحرام وإنفاق المال وإعطائه في الطريق لمن يرضى..."³.

ويقف الشيخ أحمد زروق الى جانب ابن العربي مبطلا رأي القائلين بسقوط الحج عن أهل المغرب مبديا ماتنطوي عليه هذه الكلمة من التجاسر وقلة الأدب، يقول: "... قول القائل الحج ساقط عن أهل المغرب قلة أدب وإن كان الأمر كذلك والأولى أن يقال إن الإستطاعة معدومة في المغرب ومن لا استطاعة له لاجح عليه، ورايت كتباً في الرد على هذه الكلمة..."⁴.

¹ - نفسه . ج 01، ص 435.

² - محمد العبدري . المصدر السابق ، ص 60.

³ - نفسه ج 02، ص 435.

⁴ - الخطاب ، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ، دار الفكر ، ط 03، ج 02، ص 497.

مواقف الشناقطة من الحج: لا شك أن الرأي السائد عند القوم هو فرضية الحج فهو أمر لازم وواجب مؤكد، لذلك تسابق بعض العلماء إلى أداء فريضته في ساعات العسرة متجشمين صعبا كثيرة في سبيله، وفيهم من دونوا رحلاتهم كما ذكرناه سابقا¹

لقد ذهب بعض العلماء إلى ترخيص ترك الحج معتمدين فتاوى المغاربة والأندلسيين، معتبرين أرضهم جزءا من الغرب الإسلامي الذي أفتى عدد من علمائه بإسقاط الحج وربما حرمة. ولهذا نصادف في شنقيط² العلامة محنض باب بن اعيد³ الذي قال في ترجمة باب الحج من كتابه "الميسر" بحرمة الحج على أهل المغرب لما فيه من الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، يقول: "... والأظهر حرمة على أهل المغرب لما فيه من التغيرير بالنفس والمال ووجوب حفظهما..."⁴، ويذهب الشيخ محمد المامي⁵ هذا المذهب نفسه رادا على الذين منعوا إسقاط الواجبات الشرعية في أسلوب من الجدل الأصولي مبين مقدما إسقاط الحج عن أهل المغرب مثلا عاما يشملهم وغيرهم من أهل الآفاق، يقول: "... فإن قلت كيف يسقط شيء إجماعي لمفسدة قلنا الحج إجماعي الوجوب وأسقطه الكثير من العلماء للمخاطرة بالنفوس عن أهل المغرب وقيل عن كل آفاقي..."⁶

وأكثر من ذلك يعزز الشيخ محمد المامي موقفه بآراء الفقهاء مستأنسا برؤية علي الأجهوري الذي أورد نصيحة مضمونها إجماع الحجاج من علماء المغرب ومصر على حرمة الحج، يقول: "... ففي علي الأجهوري قلت ذكر الراعي في كتابه فتح المنير في بعض

¹ - للتفصيل أكثر ينظر الفصل الأول أعلام الرحلة ببلدان المغرب العربي

² - أدرجنا عمدا آراء فقهاء الشناقطة لمكانتهم العلمية ، ولكون بلادهم كانت أكثر الأوطان سبية في بلدان المغرب العربي في تلك الفترة . مما حتم على هؤلاء العلماء الاجتهاد أكثر في هذه المسائل الخلافية .

³ - عالم موريتاني معاصر ووجه من وجوه الثقافة ، توفي سنة 1277هـ/1859، من أبرز مؤلفاته ، ميسر الجليل على مختصر خليل .

⁴ - ، محمد بن أحمد بن المحبوبي، المرجع السابق ، 53.

⁵ - الشيخ محمد المامي بن البخاري من قبيلة أهل بارك الله توفي في سنة 1282هـ/1865م ،عالم جليل وشاعر متصوف .شملت مؤلفاته مختلف العلوم ،ومن أبرز كتبه :كتاب البادية وجمان البادية ، بالإضافة الى ديوان شعري .

⁶ - محمد بن أحمد بن المحبوبي ، المرجع السابق ، ص55.

ما يحتاج عليه الفقير نصيحة: أجمع المحققون ممن حج من علماء المغاربة والمصريين أن السفر في هذا الزمان للحج لا يجوز لا لضرورة ولا لغيرها، وذلك لما يقع من تضييع للصلوات الخمس والمخاطرة بالنفس والأموال والفروج والله تعالى أعلم...¹، ونصادف عالما آخر اتبع هذين العلمين وهو العالم الشنقيطي محمد مولود بن أحمد فال² فقد ألف رسالة صغيرة في حكم الحج استفتحها بتبيين مرتبة هذه الفريضة من أركان الإسلام موضحا الموانع التي قد تسقط الحج وتحول دون وجوبه، يقول: "... أما بعد فلما كان الحج خامس مباني الإسلام أردت ما يسقط وجوبه كالمشاق العظام، ثم يأخذ في تسطير آراء العلماء.³ بادئا بابن زكري الذي نبه إلى ما يصاحب نية الحاج من الخواطر التي لا تخلو من العُجب والرياء وإتباع الهوى، يقول: "... ومن آفات الحج عدم تصحيح القصد فيه بتقدير سقوط وجوبه فإن تحركت النفس مع تقدير سقوطه فداعيته الهوى وإلا فالعكس...".⁴

وأوضح الرجل رأيه في عبارات موجزة صاغها على شاكلة مختصر خليل ((اشترط ضمنها لوجوب الحج شروطا منها: الأمن على النفس والمال وانتفاء المشقة العظيمة))، يقول: "...يجب الحج على حر أمن على نفسه من الأعداء والسباع ولم يشق مشقة تعظم..."، ثم يأخذ في شرح هذا الكلام مبينا حدود المشقة مشترطا السلامة من الصوص والأمن من بطش الغاصبين، إذ يقول: "...إلا غاصبا يأخذ مائل ولا ينكت عادة فإن جهل هل ينكت بلا خلاف..."، ويستطرد صاحبنا ليذكر أن ابن عرفة استدل على سقوط الحج بترك

¹ - نفسه ، ص 56.

² - هو العلامة الشهير محمد مولود الملقب بآد بن القاضي أحمد فال اليعقوبي الموسوي (13323هـ/1905م)، له مؤلفات عديدة ، وأحد أبرز الأوجه الثقافية المريتانية المعاصرة.

³ - هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري :فقيه مالكي من اهل فاس ، له حاشية على الجامع الصغير للبخاري ، والإمام والأعلام في صلاة القطب بن مشيش بن عبد السلام ، وله شرح النصيحة الكافية لأحمد زروق ، الزركلي ، الأعلام، ج06، ص197.

⁴ - محمد مولود بن أحمد فال ، مجموعة مؤلفات ، مطبعة النصر ، انواكشوط ، 1983 ، ص14.

بعض أعلام السلف له، يقول: "...ولذا لم يحج أكثر شيوخنا..."¹، كما استأنس بآراء الفقهاء بسبب ركوب البحر مؤكداً أن ذلك مخالف لروح العبادات؛ بل هو ميل مع الشهوات واتباع لشيطان الهوى، يقول: "...ومن علم من نفسه ترك الصلاة حرم ركوبه البحر وحجه شهوة نفسانية ونزعة شيطانية..."².

أما سيدي أحمد زروق³ فقد أورد قولته المشهورة: "صلاة واحدة افضل من الحج..."، ولم يفته التنبيه إلى مبالغة بعض العلماء في ذم الاستدانة للحج وخدمة السفلة والقاصرين ومسألة الفسقة والظالمين، يقول: "...ثم إن بعض العلماء بالغوا في ذم التداين للحج وخدمة أحد لتحج معه، وليس ذلك من شأنك، ومسألة الظلمة الذين مالهم حرام..."⁴، ويبلغ به الأمر إلى أن يشدد النكير على من ابتدأ الحج دون أن يجمع شروطه ويعد له من العدة ما 'كفي' وذلك حذراً مما قد "يعرض له من أذى شديد ومن تملق للناس وإيقاعهم في الإثم إن قصرُوا فيما لزمهم فيكون شركياً في إثمهم"⁵.

وبذلك يمكن القول إن بعض علمائنا اتخذ من الحج موقفاً يراعي خصوصية البلد وموقعه الجغرافي مستجيباً للواقع الذي يعرف يومئذ مخاطر في التوجه نحو الحج غير قليلة تتلخص في: اللصوص والأوبئة وبعد الشقة وانقطاع السبيل، مما قد يعرض حياة الحاج للهلاك، أو يحمله على تضييع بعض الصلوات. لذلك نوقشت هذه المسألة بشيء من المرونة ينطق من روح العصر ويتأرجح بين وجوب الحج وسقوطه، غير أن القاعدة التي ليها المعول وبها العمل "إنما هي وجوب الحج وفرضيته".

¹ - نفسه، ص15.

² - نفسه ، ص16..

³ - سبق ترجمته في المبحث الثال للفصل الثالث ضمن التواصل الثقافي من خلال الركب الشنقيطي .

⁴ - محمد بن أحمد بن المحبوبي ، المرجع السابق ، 51.

⁵ - نفسه ، ص52.

وننتقل لتقييم سياسة حكام الإيالات المغاربية في موضوع تأمينمسالك ركب الحج وتسهيل عبور الحجاج،ونبدأ بسياسة باشاوات الجزائر والتي لم تكن إيالة مستثناة عما سبقها في الاعتداء على ركاب الحج من قبل الأعراب. حيث ظلت حكوماتها عاجزة في كثير من المرات عن تأمين جميع الطرق والمسالك، بحكم محدودية سلطتها المركزية على بعض الأقاليم التابعة لها، أو ماسواها. وذلك ما أشار إليه العالم الجزائري أحمد بن القاسم البوني (ت1139هـ/1726م)، صاحب "الدرة المصونة"، لافتا أنظار الولاة العثمانيين إلى نقشي ظاهرة الظلم والخوف في البلاد وفي طرقها.قائلا:

وَالشَّرْعُ فِيهَا بَاطِلٌ وَالظُّلْمُ فِيهَا هَاطِلٌ

وَالخَوْفُ فِي سُبُلِهَا وَالقَحْطُ فِي سُنْبُلِهَا.¹

ولا أدلّ على ذلك الوضع السيء من أن قبيلة من "الأعراب" تجرأت -في إحدى المرات - على قطع الطريق أمام جيش باي الغرب الجزائري نفسه، وطلبت منه أجره المرور بأراضيها.فمابالك بما يقع للحجاج العُزّل المُسَالِمِينَ، الذين يقطعون أراضي عشرات القبائل مابين بلاد المغرب العربي والحجاز ؟.

ولكي نتوسع في هذا الإطار نُعَرِّج على ما رَوَّته لنا بعض الرحلات الحجية عن بلدات اشتهرت بعض قبائلها بسرقةالحجاج وترويعهم كحافة البهليل² و بعض مفاوز بسكرة³ وبلاد البيبان⁴ و بعض قبائل أهل دمد⁵ و بعض بلدات الأغواط⁶.

¹ - أحمد ابن قاسم البوني ، الدُرة المَصُونَة في عُلماء وُصُلحاء بونة ، تقديم وتحقيق أ.د سعد بوفلاقة ، منشورات بونة للبحوث والدراسات ، 2007/1428، ص 103.

² - أحمد الهشتوكي، المصدر السابق، ص 125.

³ - محمد بن عبدالسلام الناصري. الرحلة الصغرى، المصدر السابق ، ص 158.

⁴ - نفسه ، ص159.

⁵ - نفسه ، ص160.

⁶ - محمد بن الطيب الشرقي الصميلي ، المصدر السابق ، ص 62.

كما عَرَضَتْ لنا الرحلة أيضاً حالات اعتداء تعرض لها الركب المغربي في فترات مختلفة داخل داخل اقليم المغرب العربي في الذهاب أو الإياب.

حيث ذكر الرحالة المغربي الهشتوكي في العقد الأول من القرن 18م أن: "...أهل وادي نبي الله. سيدي خالد... كثرت فيهم السرقة وخصوصاً أعرابهم السلالة لا سلمهم الله أخذوا فرس الشيخ ابن ناصر، لأنهم يضرون بالحجيج على عادتهم¹. وأكد ذلك الشيخ بن ناصر الدرعي في رحلته²، وبعد هذه الواقعة بحوالي 90 سنة، عاد ابن عبدالسلام الناصري ليذكرنا بأذى أعراب هذه البلدة خاصة أعراب بني عكان³. وشمل الاعتداء أيضاً الاعتداء على الركب الذي كان ضمنه الهلاليعام 1738م بين بلدة أبي سمغون وموضع المخيلف، وأقر الرحالة عندها بعدم وجود الأمن بعد هذا الموضع في الذهاب وأن بباقي المراحل المقبلة توجد بعض الأقوام اتخذت من يمر بهم من ركاب الحج تجارة عظيمة⁴، ونقل لنا الهلالي كذلك مشهد الاعتداء على الركب في السنة السالفة لحجته من قبل أهل مليلي، قاتلوا الحجاج قبل عامنا وتبعوهم مقاتلين عامة النهار إلى أن حال بينهم الليل⁵، كما أضاف أن ركبه تجنب المرور بقرية دمد عن قصد لأن أهلها دأبوا على إذاية الحجاج سرقة واختلاصاً، حتى أنهم يختلسون القدر وهي تغلي⁶، وبعد تجاوز الركب بلدة بسكرة في الذهاب قامت قبيلة أولاد حولة باعتراضه تبحث عن متسترين داخله من تجار الزاب يطلبون منهم ما جرت عادتهم معهم من المغرم لهذه الطريق⁷.

¹ - أحمد بن محمد الهشتوكي، المصدر السابق، ص 125.

² - أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، ج 1، المصدر السابق، ص 34.

³ - أحمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ص 51.

⁴ - أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص ص 15-16.

⁵ - نفسه، ص 24.

⁶ - نفسه، ص 21.

⁷ - نفسه، ص 26.

وتعرض ركب أبي مدين الدرعي هو الآخر للنهب سنة 1752م في الذهاب بعد تجاوزه بلدة فقيق ودخوله في الأراضي الجزائرية¹. وتكرر السلوك ذاته حين وصوله لمدشر سيدي عقبة²، وفي موضع النعائم عند العودة³، وكان هذا الركب على استعداد لمواجهة الأعراب في قرية النخيل⁴، ورغم ذلك اعتدي عليه مرة أخرى في إحدى بلدات بسكرة⁵ وقريباً منها أيضاً عند عودته⁶. وكان الإسحاقى نبّه منذ سنة 1731م لخطر الأعراب بعد تجاوز ركبه هذه المدينة بمسافة قليلة في اتجاه الشرق⁷، وجاء ابن عبدالسلام الناصري في سنة 1196هـ / 1782م ليخبرنا أنه اعتدي على الركب المغربي بعد تجاوز عين ماضي⁸، وأن الحجاج دخلوا في مواجهة مع أعراب حميان⁹ عند رجوعهم من الحجاز ووصولهم إلى قرب خلوة الإمام الأخصري¹⁰، ونبه خطر أعراب بني علي في الحراة والاختلاس والسرقة¹¹. وفي مقابل هذه الصورة ذكر أبو مدين الدرعي عام 1152هـ / 1739م وهو بإيالة الجزائر أن الجيش الجزائري أمّن الركب لمسافة طويلة بعد بلدة بسكرة¹²، كما ذكر الناصري من جهته سنة 1211هـ / 1796م أن أمير البلاد حارب أعرابها المعتدين في سيدي خالد¹³ وأنه

¹ - أبو مدين الدرعي . المصدر السابق، ص 61.

² - نفسه ، ص 72.

³ - نفسه ، ص 213.

⁴ - نفسه ، ص 64.

⁵ - نفسه ، ص 71.

⁶ - نفسه، ص 241.

⁷ - الشرقي بن محمد الإسحاقى. المصدر السابق ، ص 87.

⁸ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، المصدر السابق ، ص 198.

⁹ - نفسه، ص 190-191.

¹⁰ - نفسه، ص 695 .

¹¹ - محمد بن عبد السلام الناصري ، الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ص 58.

¹² - أبو مدين الدرعي، ، المصدر السابق، ص 63.

¹³ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الصغرى، المصدر السابق ، ص 41.

حارب أيضاً قبيلة الأرباع الموجودة بين الأغواط و عين ماضي، ولم تعد لها القدرة على السرقة كما كان في السابق.¹

عموماً تبقى خدمة تأمين مسالك ركب الحج في القرن الثامن عشر داخل إيالة الجزائر برأي الحجاج المغاربة متواضعة جداً حتى خُيِّلَ لبعضهم أن باشا البلاد كان غير معني إطلاقاً بهذه الخدمة أو أن عماله كانوا متواطئين مع القبائل لاستهداف الركب.²

أما بشأن واقع حماية ركاب حجاج بيت الله بإيالة طرابلس، فأولى الإشارات التي وصلتنا من الرحلة الحبية في هذا الصدد هي إشارة الرحالة الهشتوكي عام 1121هـ / 1709م التي تقول إنه بعدما تجاوز حجاج الركب المغربي موضع مقرب في الذهاب بالأراضي الليبية، تعرضوا لاعتداء "... فاجتمع الركب كله بمدافعهم وعدتهم وأطلقوا البارود والرصاص فخافوا(أولاد علي)...³. كما تعرض الركب الجزائري وتحديداً في موضع السروال للاعتداء من قبل الأعراب عام 1197هـ / 1782م⁴، واعتدي أيضاً على الركب المغربي في موضع سلوك في العام ذاته⁵، ثم سرقته في موضع مقرب عام 1121هـ / 1709م من قبل لصوص قبيلة أولاد علي، الشيء الذي دفع أميره لإطلاق البارود لإخافتهم⁶، ثم حصل اعتداء آخر عليه عام 1152هـ / 1739م بعد تجاوزه موضع رأس الحصان في اتجاه مصر من قبل قبيلة السلامة التي طالبت الركب بأداء الواجبات، ولو أن أبو مدينالدرعي الذي نقل الخبر لم يحدثنا عن الصفة التي تم بها ذلك وحول ما إن كان هذا السلوك من قبيل تأمين الطريق أو على وجه السلب. وبافتراض الأمرين معاً، فالواقعة تعبر عن ضعف استتباب الأمن بالإيالة

¹ - نفسه ، ص 47.

² - نفسه ، ص 53

³ - أحمد بن محمد الهشتوكي، المصدر السابق ، ص 226.

⁴ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ج 02، ص 658.

⁵ - نفسه ، ص 660.

⁶ - نفسه ، ص 662 .

في هذه الطريق¹. ومثل هذه الأوضاع هي التي دفعت الهشتوكي عام 1121هـ / 1709م لإصدار فتوى في " مسألة قتال المعتدين على الركاب"²، ولذلك وجدنا ركبه متسلحاً بالبنادق لمواجهة المحاربين له في موضع الآبار السبعة.³

وعلى عكس هذه الصورة قدم لنا الناصري في رحلته الثانية لعام 1796م صورة مغايرة لحالة الأمن بإيالة طرابلس عن تلك التي قدمها قبل 15 سنة، فذكر أن الأمن يعم جميع إيالة يوسف بن علي أمير طرابلس، وأعطى نموذجاً بأمن المسافة الفاصلة بين «برج الملح» و«درنة»، وهي مسافة تعادل مسيرة شهرين، إذ أصبح الراحل يسلكها دون خوف⁴، وأضاف أن البلاد هي: "عكس ما كان على أيام والدي في حجتنا الأولى [يعني سنة 1781]، فلقد -والله- نجد الإبل وحدها في الفلوات من غير راع لا يتعرض لها أحد."⁵، خصوصاً بعد قبض أمير البلاد على عدد كبير من محاربي قبيلة - ورفلة - التابعة لسيف النصر المتمرد عليه، وإلزامهم بدفع أموال طائلة. كما أشاد الناصري عند العودة من الحجاز مرة أخرى بهذا المستوى من الأمن داخل الإيالة، وعزا ذلك لجريان أحكام الوالي وحزمه.⁶ ف «الزوارات الغربية» كانت مشهورة في السابق بسرقة الرجال وبيعهم للنصارى وبحرابة الركب⁷، «أما اليوم فهذه البلاد كلها مأمونة»⁸، وحتى الزوارات الشرقية لم تصدر منهم يقول الناصري - إذاية للركب هذه السنة 1112هـ / 1796م.⁹

¹ - أحمد بن محمد . الهشتوكي، المصدر السابق ، ص 226.

² - أبو مدين الدرعي. المصدر السابق ، ص 81.

³ - أحمد بن محمد الهشتوكي. المصدر السابق ، ص 226.

⁴ - نفسه، ص 227.

⁵ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الصغرى، المصدر السابق ، ص 80

⁶ - نفسه، ص: 116.

⁷ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ص: 685. (في العودة).

⁸ - الشرقي بن محمد الإسحاقى. المصدر السابق ، ص 80.

⁹ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ص 70.

وفي موضوع تأمين الحجاج بإيالة تونس، أخبرنا محمد بن عبدالسلام الناصري وهو يتنقل داخلها أن: "...اليوم (1781م) عز الأمان وشن الغارات في كل مكان، وأما إفريقية وأعرابها في زماننا فما هي إلا كما قال العبدري في رحلته: لا سلكها إلا مُحَاطِرٌ.. قد استوى لديهم الصالح والطالح.. واتخذوا أخذ الحجاج خلقاً وديناً...¹". وقدّم لنا الناصري أمثلة من ذلك وهو الاعتداء الذي تعرض له الركب المغربي من قبل أهل الزواوة في الذهاب² وتحزب أولاد يعقوب في توزر للاعتداء عليه أثناء العودة³. وهو سلوك عادي في نظر الرحالة المغربي لأن توزر مشهورة بالسرقة⁴، فقد أغارت على إبل الركب في المرعى في رحلة الناصري الثانية عند ذهاب⁵ الرحالة، وعند عودته من الحجاز. على أن الركب المغربي استعد لمواجهة الأعراب في هذه المدينة بعدد كبير من البنادق⁶، وسبق أن نبّه إلى ذلك أحمد بن ناصر الدرعي في مطلع القرن بأنها - أي توزر - أكثر بلاد الله سرقة وخطفاً.. فإنهم يسرقون بالليل ويخطفون بالنهار، قل من يسلم منهم من الحجاج⁷، من جهة أخرى أخبرنا الرحالة الناصري في رحلته الأولى أن اعتداءات طالت الركب المغربي في واد زريبة وأسفرت عن مواجهة فأصيب فيها صديقه⁸، كما تحدث عن تخريب أمير الركب السجلماسي في وقت سابق السيد الحفياني مدشر المخلي الذي اعتدي فيه على الركب⁹.

¹ - محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ج02 ، ص 237

² - نفسه ، ص 276.

³ - نفسه ، ص 689.

⁴ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ص 158.

⁵ - نفسه ، ص 69.

⁶ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ج02 ، ص 689.

⁷ - أحمد بن ناصر الدرعي. المصدر السابق ، ص ص53-54.

⁸ - هو الحاج عبد السلام الفاسي حسبما ذكره محمد بن عبد السلام الناصري في الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ج01،

ص86

⁹ - نفسه، الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ص194.

وعلى النقيض من هذه الصورة، فقد أشاد ابن ناصر الدرعي بالحالة الأمنية عند المرور بإيالة تونس عام 1709م، ووصفها بأنها: "في غاية ما يكون من الأمان من شن الغارات كما هي عادة الأعراب، ولا يقدر أحد أن يمد جهاراً على جهة التعدي، خوفاً من الفعل الواصل إليهم من الولاية¹، وكان الناصري في رحلته الأولى أبلغنا وهو بإيالة طرابلس بقيام أمير تونس بإجراءات عقابية ضد بعض القبائل المشاغبة في المناطق الحدودية كقبيلتي النمامشة والشائبة اللتين كانتا تسكنان واد غسران وكانتا تعتديان على الركب، فتمكن الحاكم التونسي من إجلائهما عن بلادهما²، كما عاقب التي سلبت الركب الفاسي في موضع الكبرى "فأخذهم على قيلة بني سعد فعلتهم وعاقبهم بالأموال وأخذ منهم جميع ما نهبوا"³.

لقد جمع حكام هذه المناطق بين جملة من المتناقضات، فمن جهة كانوا يتحدثون السلطة في إستانبول التي لم تكن تملك إلا إقرارهم حكماً في مناطقهم، ومن جهة ثانية كان بعضهم يُلْزَمُونَ ركب الحج بدفع مبالغ مالية عند المرور، ومن جهة أخرى كانوا يؤمنون مسيرته لمسافات طويلة، وفي مناسبات أخرى كانوا يعتدون عليه بالسلاح.

ومن ابرز مواقف حكام المغارب من مسألة الاعتداء على الحجيج: تنوعت مواقف السلطة المحلية الحاكمة وكذلك مواقف الباب العالي من هذه المسألة باختلاف الأزمنة والظروف الدولية. وأبرز من نافح عن الحجيج الأسرى هو "الداي شعبان" حاكم إيالة الجزائر فقد خصص للأسرى الجزائريين وخاصة الحجيج اهتماماً قل ما وجدناه عند غيره حيث وقع معاهدة سلم سنة 1689م، والتي من شروطها تحرير الأسرى الجزائريين سواء أتركا كانوا أم عرباً، ورغم المماثلة أثناء التبادل إلا أن ذلك لم يثبط من عزمته بل زادته حزماً. فقد حرص على أن يكون الحجاج الثمانية الذين وقعوا في الأسر قرب تونس وهم على مركب

¹ - استثنى «توزر» من ذلك: أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، ج1، المصدر السابق، ص 53 - 54.

² - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، ج1، المصدر السابق، ص 224.

³ - نفسه، ص 244.

انجليزي أن يكونوا ضمن صفقة التبادل التي ابرمها مع الملك الفرنسي والتي اشترط فيها إطلاق جميع الأسرى بما فيهم الحجيج.¹

أما حكام الإيالات المغاربية فقد تمايزت مواقفهم بشأن حماية الركب. فمثلا حاكم طرابلس الغرب كان يكرم وفادة الركب الجزائري ويخصه بمعاملة مميزة، حيث أقام جماعة مع عامله القائد يحرسون الركب ليلا من السراق، ومافعل ذلك قط بركب من الأركاب إلا حبا في الجزائريين ورغبة فيما لديهم من صالح الدعاء.² ويعلق الورتيلاني عن هذا الموقف بقوله ". وبالجمله فكان الإحسان من الأمير وعماله لنا ولإخواننا في الركب وللفقراء، ولكل مأسألناه وطلبناه منهم. إلا وجد بحب وكرامة رغبة في صالح الدعاء له ولذريته".³

أما داي الجزائر علي باشا شاوش فبعث برسالة إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر بتاريخ 15 مايو 1717م احتجاجا على عدم التزام الناقلين الفرنسيين للحجيج، نفس الموقف من سلطان المغرب محمد بن عبد الله الذي راسل ديوان جمهورية دوبرونفيك لحماية الحجيج من هذه الممارسات.⁴

صفوة القول إن الاعتداء على ركب الحجيج البحري يقدم لنا صورة سلبية عن تاريخ العلاقات بين أوروبا المسيحية وبلدان المغرب خاصة مالطا. فمن خلال عجز حكومات الإيالات العثمانية المغاربية ومعها المملكة العلوية بالمغرب الأقصى عن حماية ركب الحجيج البحري، والعجز كذلك حتى عن توفير سفن ومراكب لنقل الحجيج، ولجوؤها إلى اكتراء السفن والمراكب الأوربية لنقلهم إلى البقاء المقدسة، ينبئنا وبوضوح عن انقلاب موازين القوى في المتوسط خلال نهاية الفترة الحديثة لصالح الأوربيين بينما النشاطات البحرية في بلدان المغرب أخذت تتقهقر. ورغم كل هذه العراقيل والأخطار إلا أن ذلك لم يثن

¹ - مولاي بلحميسي . ارشاد الحيران ، المرجع السابق ، 73

² - الحسين بن محمد الورتيلاني ، المصدر السابق ، ص:169.

³ - نفسه ، ص:169.

⁴ - محمد أمين البزاز ، الاختراق التجاري للجزائر ، المرجع السابق ، ص181.

من عزيمة أهل المغارب في الرحلة إلى الحج وتفضيل المغامرة عبر الطريق البحري حتى صار مع مرور الوقت هو الركب الرسمي للدول المغاربية.

ثانياً - خدمة تأمين مسالك ركب الحج وتسهيل عبور الحجاج من مصر إلى الحجاز:

أقر الحجاج المغاربة الذين سلكوا الدرب الشامي بوجود قلاع توضع بها أنقال الحجاج ويقوم بحراستها فرق عسكرية¹، وأشار الذي سلك منهم الدرب المصري أن أصحاب الأمر بمصر قاموا بتأسيس مجموعة الحصون في طريق ركب الحج لتأمين مرور الركاب من أذى الأعراب، بدءاً من القاهرة، لكن ذلك لم يمنع هؤلاء من التعرض للحجاج.

وحول هذا الموضوع وفي علاقته بدرب الحجاج، ذكر الرحالة الزبائدي أنه: "لولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر لما قدر أحد على سلوك هذه الطريق، لكثرة مخاوفها وقلة مرافقها..."²، ثم أضاف: «تري الجند والعسكر يبكرون فيتقدمون إلى مضائقها ويعسكرون»³. ومن أسماء هذه الحصون نذكر حصن عجروود الذي كان به: "عسكر لا يفارقه أبداً... وفي كل سنة يأتي قوم فيذهب الذين كانوا فيه، ولهم فيه جراية من بيت المال"⁴، وهؤلاء الجند كانوا يتناوبون على ذلك، فلا يخرج منها عسكري حتى يخلفه غيره»⁵.

¹ - محمد بن عبد السلام الناصري ، الرحلة الصغرى، المصدر السابق ، ص 60.

ونفهم أيضاً من خلال إشارات الهاللي أن لركبه أسلحة نارية وهو يتحدث في حجته عن سرقة بندقية من الركب في أحد المواضع أحمد بن عبد العزيز الهاللي السجلماسي. المصدر السابق، ص 27.

² - القلاع التي أنشأتها أو جددتها إيالة مصر في العهد العثماني وبقيت مسؤولة عنها في القرن 18م هي:

قلعة السويس، وقلعة عجروود، وقلعة نخل، وقلعة العقبة، وقلعة المويلح، وقلعة الأزلم، وقلعة الوجه، وقلعة الينبع ، للمزيد ينظر : سميرة فهمي ، المرجع السابق، ص 291 إلى 295.

³ - عبد المجيد الزبائدي المنالي، المصدر السابق ، ص 55 .

⁴ - نفسه ، ص 60.

⁵ - نفسه، ص 55.

هكذا كان حال هذه الحصون والبنادر من موضع عجروود إلى الحجاز، بكل منها عسكر وأمير¹ منذ رحلة ابن ناصر الدرعي المؤرخة بعام 1121هـ / 1709م².

و محمد ابن عبد السلام الناصري وهويقطع المسافة الفاصلة بين موضع «عجروود» وبلدة البركة، أنه: "لا تمر ميلاً أو ميلين إلا وتجد جيشاً سلطانياً يمين الجادة وشمالها، يحرسون الخارج من مصر والداخل لها، وكذا دأبهم مع الحاج في الإياب"³، كما أضاف أنه اثناء تنقله بين موضع البركة والحجاز، أن لولا اتخاذ المصريين الجيش مرتباً في مواضع كثيرة من الطريق "لما أمكن لأحد ممن يأتي وراءهم الحج لطولها وخلائها"⁴.

وفضلاً عن مهمتها الأمنية، كانت الحصون والبنادر في طريق ركب الحج تعد مكاناً يخزن فيه الطعام ويترك به الحجاج ما استتقلوه في طريقهم⁵، وهذا ما شهد عليه حجاج المغارب في مناسبات مختلفة بكل من حصن عجروود وبندر المويلح وبندر الوجه وحصن اصطبل عنتر⁶ على طريق دربالحجاز، وقلعة قطرانة على طريق الدرب الشامي⁷، من جهة أخرى كانت هذه الأخيرة تعد محطات طرقية لدعم ركب الحج بالمؤن والعتاد وهو في طريقه من

¹ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ص 337.

² - أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ص 150.

³ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ص 335.

⁴ - نفسه، ص 336.

⁵ - ذكر الهشتوكي وهو في طريقه إلى مكة المكرمة أنهم خزنوا بموضع «المويلح» بعض الزوائد حتى العودة.

الهشتوكي. المصدر السابق، ص 252. والسلوك ذاته أشير إليه في رحلة عبد المجيد الزبادي المنالي بلوغ المرام، ص

55. وكذلك عند : عبدالله بن محمد بن عبد القادر العالم القبلي، الغصن الداني في حياة السيد عبدالرحمان بن عمر

التتلاني. المصدر السابق، ص 69.

⁶ - عبد المجيد الزبادي المنالي. المصدر السابق، ص 63-66، وأحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، ج 2،

ص 106.

⁷ - محمد بن أحمد الحضيكي السوسي، المصدر السابق، ص 95-176، و محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى،

المصدر السابق، ج 01، ص 338.

مصر إلى الحجاز¹، ومن المواضع التي أدت هذه الخدمة بشهادة الحجاج نذكر موضع الدار الحمراء². وموضع المغائر³.

هذه هي مجهودات أصحاب الأمر بمصر في موضوع تأمين مرور الحجاج ضد خطر الأعراب المنتشرة بدرب الحجاز، إلا أنها في الحقيقة لم تكن كافية وفعالة كما ينبغي، ودليله أن ركاب الحج لقيت صعوبة كبيرة في مواجهة هذه العناصر بهذا المسلك، لقد عانت الركاب في القرن 18م، من الاعتداء عليها وابتزازها وسرقة مؤنها المخزنة.

وحول معاناة الركاب من خطر الأعراب الذين نعتهم الناصري بالـ «الصعاليك والأنذل من الثعالب»⁴. كما صور لنا الهشتوكي عام 1121هـ / 1709م حالة الوضع الأمني بهذا الدرب أن «من دخله مفقود ومن خرج منه مولود، وقد صدقوا والله المعبود»⁵، ذلك أن الأعراب كانت تترصد الركاب العابرة له لابتزازها بأداء أموال طائلة ولاسيما ابتزاز الركب المصري⁶. ومن المواضع التي اشتهرت بهذه الاعتداءات نذكر موضع الجرف كما حدثنا بشأنه الرحالة الناصري في حجته الأولى عندما بعث أمير الركب المصري لأعراب قبيلة حرب "عشرة آلاف ريال مرتب سنة، فامتنعوا من قبولها وردوها... وقالوا لا نقبل شيئاً إلا إذا دفعت لنا مرتب أربع سنين السالفة»⁷. ووقف الهشتوكي بالقرب من موضع آخر يسمى موضع «النخيل» في العشرية الأولى من القرن 18م على حالة اعتداء لصوص به على عدد من الحجاج⁸.

¹ -يقول الزياتي بأنه وصل إلى قلعة قرطانة التي يترك بها الناس أقتالهم إلى الرجوع، وأن بها عسكرياً يحرسونها. للمزيد انظر : أبو القاسم الزياتي. الترجمانة ، المصدر السابق ، ص 186.

² -عبدالمجيد الزياتي المنالي، المصدر السابق ، ص 200.

³ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الصغرى، المصدر السابق ، ص 110.

⁴ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ص 493.

⁵ - نفسه . ص 336

⁶ - أحمد بن محمد الهشتوكي. المصدر السابق ، ص 242.

⁷ - منهم حاج أخذت منه 500 دينار حسبما ذكر أحمد بن محمد الهشتوكي، المصدر السابق ، ص 244.

⁸ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ج 02 ، ص 489 (عند العودة)

وكانت الأعراب تترصد المواضع الحساسة أيضا كالمضايق والعقبات لشن غارتها على الركاب أو تخويفها، مثل ما كان يحدث في عقبة «أيلة»¹ التي عرفت بسرقة الحجاج². فعنها يقول الإسحاقي زمن حجته أن الركب المصري تصالح مع عربها بمقابل على أساس عدم التعرض له³. ومن هذه المواضع أيضا هناك العقبة الكبرى التي كانت لا تخلو من لصوص معتدين على الركاب كما أورد الخبر ابن ناصر الدرعي⁴. ففيها أعتدي على الركب الجزائري عام 1212هـ / 1797م⁵. ومن جميل المصادفات أن معلومات حجاجنا المغاربة في موضوع الاعتداءات وجدنا لها تأكيداً واضحاً عند المؤرخ الجبرتي حول أكثر من موسم من مواسم الحج، ومنها حديثه عن موسم حج 1199هـ / 1785م عندما تعرضت الأعراب للحجاج المغاربة في سطح العقبة وحصروهم هناك ونهبوهم وقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا عشرة أنفار، كما يقول الجبرتي، أو ما حدث في شهر صفر من سنة 1208هـ / 1793م حين قُتل غالب الحجاج المغاربة بموضع مغاير شعيب وأخذت أحمالهم ودوابهم ونهبت أثقالهم⁶، بل تعرض حجاج مصر عند رجوعهم من موسم حج سنة 1200هـ / لما هو أبشع، فقد: "... نهبت جميع أحمال أمير الحاج.... وأسر العرب. جميع النساء بالأحمال... ثم إن الحجاج استغاثوا ب... أمير الحاج الشامي، فتكلم مع العرب في أمر النساء فأحضرهن عريانات ليس عليهن إلا القمصان.... وخرجت الناس أفواجا كل من وجد امرأته أو أخته أو أمه أو بنته وعرفها اشتراها ممن هي في أسره..⁷، كما وقعت حادثة أخرى شبيهة بهذه لهذا الركب في 24 رمضان 1202هـ / 28 يونيو 1788م⁸.

¹- عبد المجيد الزبادي المنالي، المصدر السابق، ص 60.

²- محمد بن عبد السلام الناصري الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ص 96.

³- الشرقي بن محمد الإسحاقي. المصدر السابق، ص 208.

⁴- أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي. المصدر السابق، ص 163.

⁵- محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ص 108.

⁶- الجبرتي. المصدر السابق، ج 02 ص ص 378-379.

⁷- نفسه، ج 02، ص 202.

⁸- نفسه ص 247.

ولم تسلم حتى القلاع بين مصر والحجاز رغم كونها محصنة بالجند من اعتداءات الأعراب بها على الحجاج. فب «العقبة السوداء» سجلت لنا الرحلة المغربية في أكثر من مناسبة خطر هؤلاء. ومن شواهد ما حصل سنة 1122هـ / 1710م عندما اعتدي على الركب التونسي¹. كما اعتدي على الركب الذي كان فيه ابن عبد السلام في حجته الثانية 1796م². وصرح أبو مدين الدرعي في حجته لعام 1152هـ / 1739م أن أخباراً وصلتته قبيل وصوله هذه العقبة بأن الأعراب اجتمعت بها بنية الاعتداء على الركب³. وأشار ابن ناصر الدرعي في مطلع القرن 18م أن مجموعات من اللصوص تتربص بندر المويلح⁴. وعاد الدرعي في مطلع أربعينيات هذا القرن ليصرح أن الأعراب اعتدت على مخزون الحجاج به⁵. وأخبرنا ابن عمر التواتي عام 1188هـ / 1774م، أن ركب الحج الذي كان به تعرض للسرقة بعد تجاوز حصن عجرود بقليل في الذهاب إلى الحجاز⁶.

أتساءل الآن بعد عرض المخاطر التي كانت تتعرض لها ركاب الحج بين مصر والحجاز، عن سياسة ولاية مصر في الحد منها. كيف وصل الحال بأعراب درب الحجاز إلى أن يفرضوا على الركب المصري أداء إتاوات دورية وصلت إلى تقديم حقوق طرف على طرف آخر، حقوق لا تتقادم بمرور موسم الحج بل تبقى في عهده إلى الموسم أو المواسم اللاحقة.

تشير إفادات عدد من الحجاج المغاربة في القرن 18م، أن ركب الحج المصري وبإسناد الركاب الأخرى، دافع عن نفسه واتخذ حيطة وحذره من أعراب درب الحجاز، وأنه أثنى في هؤلاء قتلاً وتشريداً وأسراً في كل مناسبة قدر فيها على ذلك.

¹ - أحمد بن ناصر الدرعي. المصدر السابق، ج 2، ص 108.

² - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ص 109.

³ - أبو مدين الدرعي. المصدر السابق، ص 205.

⁴ - أحمد بن ناصر الدرعي. المصدر السابق، ج 2، ص 107.

⁵ - أبو مدين الدرعي. المصدر السابق، ص 109.

⁶ - عبد الرحمان بن عمر التواتي. المصدر السابق، ص 67.

من مظاهر هذه المواجهات تلك التي حدثنا عنها الناصري في رحلته الأولى، وهو أن أمير الركب المصري - وهو يقترب من موضع بندر المويلحتمكن من قطع رؤوس عدد من المحاربين له¹، ونقل لنا المؤلف كذلك أخباراً حول واقعة واد العقيق عندما تعرضت أعراب حرب بالحجاز للحجاج في مضيق بين جبلين، " فاجتمعت الركاب المغربية مع المصري بعد أن تولى أمير مصر جمعها جبراً عليها، فقدم الطرابلسي لقوته ومنعته وشدته على الأعراب، والسجلماسي والتونسي والجزائري، وأما الركب الفاسي فقد دخل وسط المصري، فرتبت الجيوش وأخرجت الرماة وانعزل الركبان من خيل وبغالة وأخذ الناس أهبتهم للقتال"، كما حدثنا الناصري في رحلته الثانية أن أمير الركب المصري أيوب باي الغزي، قطع رؤوس جماعة وافرة من المحاربين في موضع السقيفة بعد بلدة الينبع في الذهاب². وأوصاف الناصري هذه تجد تأكيداً لصدقها مرة أخرى عند الجبرتي بقوله أنه من سنة 1174هـ/1760م وحتى سنة 1177هـ/1763م استطاع أمير ركب الحاج المصري إلحاق الهزيمة بأعراب الحجاز³.

الراجح إذن أن مجهودات أمير الركب المصري، رغم تفاوت أهميتها من موسم حج لآخر، هي التي ساهمت في رجوع الركب الفاسي المغربي إلى بلاده سالماً سنة 1149هـ / 1737م كما أشار إلى ذلك الإخباري المغربي القادري⁴، وساهمت كذلك في زيارة حجاج مصر للمدينة المنورة سنة 1201هـ / 1787م دون مشاكل كما قال الجبرتي⁵.

هذا بشأن سياسية حكام مصر في تأمين مسالك ركب الحج وتسهيل عبورالحجاج. ترى ما سياسة حاكم شِرافة الحجاز في هذا الموضوع؟.

¹ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ج2، ص 492.

² - نفسه، الرحلة الصغرى، المصدر السابق، ص 104.

³ - الجبرتي، المصدر السابق، ج 10، ص ص405، 407.

⁴ - نفسه، ج 2، ص 233.

⁵ - محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني، المصدر السابق، ص 398.

كانت سياسة شريف مكة محل تقييم بدورها من قبل الرحالة فيما يتعلق بتأمين عبور الحجاج، إن ما نقله هؤلاء بشأن حالة الأمن بمجال نفوذه يفيد بأنها لم تكن حسنة في أكثر فترات القرن 18م، وأن المصدر الأساسي في اضطرابها هم عناصر أعراب الحجاز، وأن حجاج بيت الله عانوا كثيراً فيمواطن هذا الشريف، كما أقر الرحالة في الوقت ذاته بالمجهودات التي قام بها شريف مكة في هذا الموضوع.

ومن شواهد الأذى الذي تعرضت له ركاب الحج في القرن 18م ببلاد الحجاز، الأخبار التي نقلها لنا ابن ناصر الدرعي سنة 1121هـ/1709م، وهي أن سنة المبيت بـ «منى» أميتت نتيجة غياب الأمن بهذا الموضوع¹. و ذكر ابن الطيب الفاسي بدوره أن الركب المغربي تعرض للسرقه ليلاً بهذا المكان عام 1139هـ / 1727م² وأن اللصوص كانت تنتشر وتكثر بينه وبين مكة³، ورغم أن الإسحاقى أخبرنا في رحلته عام 1731م أن الشريف عبد المعين حاكم ينبع قام باستعراض عسكري بهدف إرهاب أعراب البدو⁴، إلا أنه خلص في ظل هذه الوضعية إلى " قيام أسباب وقف الحج أو توجب التأخر عن الحج في هذه الأزمنة من عادية الأعراب"⁵. وحدثنا أبو مدين الدرعي بعد الإسحاقى عن الحرب التي وقعت بين الحجاج والأعراب عند الوقوف بعرفة في حجته الثانية، أي في عام 1153هـ / 1740م⁶، وأخبرنا عندما وصل ركبه موضع عسфан عن جموع من الأعراب تجمعت به للاعتداء على الركب المصري⁷، كما أخبرنا الرحالة بما حصل في جبل أحد عند حجته الثانية حين تعرضت الأعراب به للركب الشامي، فحاربهم وقتل عدة من أكابرهم وأسر عدة

¹ - أحمد بن ناصر الدرعي . المصدر السابق ، ج 01، ص192.

² - محمد بن الطيب الفاسي . المصدر السابق ، ص156.

³ - نفسه ، ص 165.

⁴ - الشرقي بن محمد الإسحاقى . المصدر السابق ، ص213.

⁵ - نفسه ، ص ص 249-250.

⁶ - أبو مدين الدرعي . المصدر السابق ، ص198.

⁷ - نفسه . ص138.

منهم¹. ومع مطلع العقد ما قبل الأخير من القرن 18م أصدر محمد ابن عبدالسلام الناصري حكماً سلبياً على أعراب الحجاز ككل، واصفاً إياهم بخروجهم عن الأحكام الشرعية² وخصوصاً عناصر قبيلة حرب منهم الذين كانوا ينتشرون من الدهناء إلى الطائف وإلى المدينة المنورة، والذين كان عددهم ينيف عن مئة ألف رجل، وكان هؤلاء «لا يقيمون وزناً لقبيلة من قبائل الحجاز أصلاً، ما مع هم عليه من الظلم والحراية والتوغلفي الفحش والجهل»³، ومثل هذه الوضعية الأمنية الهشة التي تسبب فيها الأعراب هي التي دفعت الرحالة إلى نظم قصيدة حول جواز سقوط فريضة الحج في هذه الظروف. يقول:

يارب فرض الحج قد تعذرا أداؤه بظلم أعراب جرا
لاسيما أهل الجريد والحجاز وأولي المكاييد يغير مجاز
لا العرض يبقون ولا الأموال والنفوس أولهم إذلال⁴

وأضاف في هذا الصدد عن مواجهات عديدة حصلت بين حكام هذه البلاد وبين الأعراب، ومنها المواجهة التي وقعت بين أمير مكة والمجاورين من هؤلاء للمدينة المنورة، وانتهت بانتصاره عليهم وإجلالهم عنها وتعيين أمير الركب الشامي حاكماً عليها⁵، وكلام الناصري هذا يتطابق مع كلام الجبرتي في أكثر من موضع من مؤلفه عند إشارته مثلاً أنه في سنة 1194هـ 1780م، وقف عربان الحجاز للركب المصري في الصفرة والجديدة وحاصروا الحجاج بين الجبال وحاربوهم نحو عشر ساعات ومات كثير من الناس والغز والأجناد ونهبت بضائع وأحمال كثيرة، وكذلك من الجمال والدواب⁶، كما أن الركب المصري

¹ - نفسه ، ص 202.

² - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، المصدر السابق ، ص 416.

³ - نفسه ، ص 373.

⁴ - نفسه ، ص 660.

⁵ - نفسه ص 416.

⁶ - الجبرتي. المصدر السابق ، ج 02، ص 84.

لم يزر المدينة المنورة في موسم حج 1199هـ / 1785م، « لمنع السبل»¹، لكن الجبرتي تحدث في مكان آخر عن أنه ورد لمصر بشارة من شريف مكة بنصرته على الأعراب بقتله نحو 3000 عنصر منهم.

وذكر ابن عثمان المكناسي الذي جاء بعد محمد بن عبد السلام الناصري أواخر العقد ما قبل الأخير من القرن 18م، عن قيام سلطان مكة «الشريف سرور» بتخريب قرية الجديدة لإذاية أهلها للحجاج على ما حكى له²، ولا يستبعد سلوكهم ذلك خصوصاً أن ابن ناصر الدرعي أشار سنة 1122هـ/1710م إلى اعتداء قبيلة حرب على الركب التونسي في هذا الموضع، ف وقعت بينهما مواجهة بالأحجار والبنادق³. كما عاين المكناسي فرار أهل رابع من بيوتاتهم خوفاً. من الشريف كذلك⁴، وقد يكون السبب هو ملاحقتهم لاعتدائهم علىركاب الحج كما حصل في حجة الناصري الأولى قبل حوالي أربع سنوات من حجة المكناسي، ويضيف الناصري أن قبيلة بني سعد اعتدت على الركب في هذا الموضع⁵. وفي عام 1202هـ/1787م خرب «السلطان سرور» حاكممكة بلدة قديد وهو في طريقه إلى المدينة المنورة⁶، وكان الناصري وصف هذه البلدة عام 1197هـ / 1781م/1782م بأن المحاربين يكثرون بها أيام الحج⁷، وحدثنا المؤلف ذاته في موضع الشرافة ودائماً بأرض بالحجاز في رحلته الصغرى لسنة 1796م، أنه اعتدي به على الركبين المغربي والمصري وهلك بسببه،رقاب، ونهبت أموال⁸. وفي المسافة الفاصلة بين بلدة الصفراء والجديدة كانت

¹ - نفسه ، ج 2، ص 182.

² - محمد بن عثمان المكناسي. إحرار المعلى، المصدر السابق ، ص 262.

³ - أحمد بن ناصر الدرعي. المصدر السابق ، ج2، ص 105

⁴ - محمد بن عثمان المكناسي. إحرار المعلى، المصدر السابق ، ص 263

⁵ - محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الكبرى، المصدر السابق ص 454-455.

⁶ - محمد بن عثمان المكناسي. إحرار المعلى، المصدر السابق ، ص 263.

⁷ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، المصدر السابق ، ج01، ص ص 454-455.

⁸ - نفسه ، الرحلة الصغرى، المصدر السابق ، ص108.

الأعراب الفجرة على حد قول الناصري تتعاطى النهب المستمر خلال السنة ذاتها¹. بل كشفت المعلومات الرحلية الأخرى أن هؤلاء كانت لهم سلطة موازية لسلطة الأمراء في كثير من المواضع بالحجاز، ومن ذلك أن عادة أعراب الجديدة والصفراء و حرب مع الركب المصري إن وصل في الرجعة بلدة رابغ أن يعطيهم عطاء هم المقرر لهم قديماً². كما أن أهل القفر من الحجاز بينهم وبين الركب المصري « عداوة شديدة، يزعمون أن لهم عليه إتاوة»³، فحين كان ركب محمد بن عبدالسلام الناصري في موضع البزواء في حجة عام 1196هـ / 1782م وصلت أخبار أن الركاب المغربية اقتتلوا مع أعراب ينبع ووقع بينهم موتى ونهب للحجاج ومنع لهم من التزود بالماء⁴، وكان الهشتوكي أخبرنا قبل الناصري منذ مطلع القرن 18م أن الأعراب اعتدت على من تأخر من الحجاج في ركبه عند الاقتراب من هذه البلدة عند توجههم لمكة المكرمة⁵، وجاء عبد الرحمان بن عمر في حجته لعام 1188هـ / 1774م ليخبرنا من جهته بما كانت تقوم به الأعراب بـ بدر، وذلك أن حجاج ركبه عند التقائهم بحجاج الركب المصري وجدوا أن أمير هذا الأخير كان متحيراً لأنه "بلغه أن أعراب بدر عزموا عليهم إلا أن يعطيهم ما ذكر من المال، ثم عزم على عدم المرور عليهم"⁶.

ورغم مشهد ضعف الأمن بالحجاز الذي أشار إليه الحجاج المغاربة في فترات مختلفة من القرن الثامن عشر، فقد لاحظت رغم ذلك إشادة بعضهم في مناسبات بالأمن المحقق، وهذا ما عبّر عنه أبو مدين الدرعي في المدينة المنورة لعام 1153هـ / 1740م⁷، وكان ابن ناصر الدرعي لمس قبله تحقق ذلك ببدر أيضاً في حجة عام 1121هـ / 1709م

¹ - نفسه ، ص 104.

² - محمد بن عبد السلام الناصري . الرحلة الكبرى، المصدر السابق ، ج01، ص 455.

³ - الشرقي بن محمد الإسحاقى. المصدر السابق ، ص206

⁴ - محمد بن عبد السلام الناصري. الرحلة الكبرى، المصدر السابق ، ص 387

⁵ - أحمد بن محمد الهشتوكي. المصدر السابق ، ص256

⁶ - عبد الرحمان بن عمر التواتي. المصدر السابق ، ص 69

⁷ - أبو مدين الدرعي. المصدر السابق ، ص 149

¹، وتحدث ابن عبدالسلام في حجته الأولى عام 1196هـ/1782م عن تحقق الأمن بالحجاز². أما ابن عمر فأخبرنا أن هذه السنة (1188هـ / 1774م) والحمد لله... لم يعرض لنا فيها أحد وكذلك في غيرها.. من سفرنا ذهاباً وإياباً، فإننا شاهدنا. من الأمم... لاسيما عرب الحجاز من ينبع إلى الحرمين، فإن أهل الركب يتفرقون ويرسلون إبلهم في المرعى ولا يعرض لهم أحد³.

المبحث الثالث: خط عودة الركب الى بلاد المغرب ومميزاته.

01: النشاط العلمي لحجاج المغرب في الحرمين:

01-01 الملزمة والمجاورة:

01-02 المجاورة⁴ كأحد وجوه استقرار المغاربة في الحجاز: كانت فكرة الإقامة بمكة

ومجاورة الحرم المكي تشكل مطمحا كبيرا بالنسبة لفئة من علماء المسلمين، وذلك لما تتيحه هذه الفرصة من ((تفرغ)) علمي وروحي يتمكن العالم من خلاله من لقاء أكابر علماء مكة وغيرهم من شيوخ المسلمين المجاورين الذين هاجروا أوطانهم، وآثروا الإقامة في مكة من أجل الحصول على العلم أو تقديم خدمات علمية تشمل التدريس والإفتاء وعقد المناظرات أ- مفهوم مجاورة الحرمين الشريفين:

المجاورة لغة: المجاورة كلمة مأخوذة من جاوره مُجاورة وجواراً أي مساكنه ولاصقه في المسكن. وأعطاه ذمة يكون بها جاره ويجيره. كما تعني الاعتكاف في المسجد، ويقال أيضا جاور المدينة أو مكة. والجار هو الذي يجاورك، ويقال: "جاور الرجل مجاورة وجواراً وجواراً

¹ - أحمد بن ناصر الدرعي. المصدر السابق ، ج01، ص233.

² - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، المصدر السابق ، ص 371.

³ - عبد الرحمان بن عمر التتلائي التواتي، المصدر السابق ، ص68

⁴ - رغم أهمية هذه الظاهرة الدينية العلمية ، فإنها لم تحظ لدى الدارسين بما تستحقه من عناية ، بل بعض الذين تناولوا الرحلات العلمية إلى مكة لم يدرسوها كإشكالية علمية مستقلة . للمزيد ينظر : عبد القادر بوتشيش ، ص:93.

والكسر أفصح والمجاورة هنا تعني الاعتكاف في المسجد، وفي السنة أن النبي كان يُجاوِرُ بحراء في العشر الأواخر من رمضان أي يعتكف.¹

وفي حديث عطاء: سئل عن المجاور يذهب للخلاء، يعني المعتكف بمكة والمدينة، فيراد بها المقام مطلقاً، غير ملتزم بشرائط الاعتكاف الشرعي.

واضح من هذا التعريف اللغوي الذي أورده ابن منظور أن المجاورة تشير إلى معنيين

-الأول: يعني الاعتكاف والعبادة داخل المسجد أو في مكان خال، بينما يشير المعنى الثاني الخاص بمكة والمدينة إلى الإقامة بهما دون شرط الاعتكاف.

ولعل هذا المعنى الثاني هو الذي يهمننا إذ نقصد بالعلماء المجاورين تلك "النخبة من علماء المسلمين الذين أقاموا بمكة لسنوات محدودة أو طيلة حياتهم " لطلب العلم وتقديم خدمات علمية تشمل التدريس ومنح الإجازات العلمية فضلاً عن الإفتاء والمناظرات الدينية.

ب- المجاورة اصطلاحاً: المجاورة في هذا الموضع تطلق على الإقامة في مكة أو المدينة المنورة مطلقاً في مكة والمدينة، فيقال لأهل مكة جيران البيت، ومتى حل الغريب بهذه الدار صار مجاوراً، إذ يراد بها "المقام مطلقاً غير ملتزم بشروط الاعتكاف الشرعي"، ولهذا فإن الجوار يعني أيضاً البقاء في مكة المكرمة والمدينة المنورة بجوار الحرمين حسبما يشاء المجاور، ويباشر حياته اليومية العادية دون مانع، وينتهي بخروجه من هاتين المدينتين أو بالوفاة. وعرفت المجاورة بهذا المصطلح منذ العهد الإسلامي الأول حيث كان المسلمون يجاورون في الحرمين رغبة في العبادة والاعتكاف فيهما.²

¹ - ابن منظور .المصدر السابق ، ج04، ص156

² - شادية عبد الرحمن البلوي . المجاورون في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة ، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية ، المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث ، ع03، مجلد01، سبتمبر 2017م، ص171

أما من ناحية المصطلحات أو الصيغ التعبيرية، فإن المصادر تستعمل إلى جانب مصطلح ((المجاورة)) صيغا أخرى مثل ((سكن الحرم))، أو تلمح إلى العالم المجاور بعبارة ((نزيلة مكة))، كما يعثر الباحث على صيغ تعبيرية أخرى مثل ((العلماء القادمين مكة))، كما ردف لمصطلح المجاورون¹. والحاصل أن مفهوم العلماء المجاورين، مصطلح أطلقته المصادر على العلماء الذين كانوا يتطوعون للبقاء بمكة بعد قضاء الحج لتقديم خدماتهم العلمية لمن يرغب في ذلك من المسلمين، سواء في موسم الحج أو بعد انتهائه².

وقد زد انتشار المجاورة في العهد المملوكي في أرض الحرمين الشريفين، وهو ما شجع على المضي قدما في المجاورة في العهد العثماني وذلك لتوافر الراحة والأمن والاستقرار في إقليم الحجاز في وقت أخذت فيه بعض البلاد الإسلامية وخاصة في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي تعاني من ضيق العيش وتكالب الأعداء.

02-دوافع الحوار "الهجرة بمكة": يشار في هذا الصدد إلى كثرة أعداد المجاورين من المغاربة في مكة والمدينة المنورة خلال العهد العثماني³، بالرغم من تفضيلهم المجاورة في المدينة المنورة، نظرا لانتماء الغالبية منهم للمذهب المالكي الذي يرى تفضيل المدينة المنورة على مكة المكرمة استنادا إلى ما ورد عن الرسول الله من أحاديث في فضل المدينة والدعاء لها بالبركة وطلب الشفاعة⁴، وسنذكر فيما يلي الأسباب التي دفعت بعدد كبير من المسلمين عامة والمغاربة على وجه الخصوص للمجاورة في بلاد الحرمين الشريفين :

¹ - إبراهيم القادري بوتشيش ، المرجع السابق ، ص :94

² - نفسه ، ص:95.

³ - اتسمت المجاورة في العهد العثماني بالكثير من السمات من أهمها دعم العثمانيين لهم ورعايتهم وتقديم التسهيلات الكبرى لهم من خلال الرواتب والصدقات التي ترسل لهم وكذا الأوقاف التي أوقفت عليهم . للمزيد انظر : محمد عبد اللطيف هريدي . شؤون الحرمين في العهد العثماني ، دار الزهراء القاهرة ، مصر ، 1990، ص73

⁴ - عبد القادر سليمان. المجاورون الجزائريون بالحرمين الشريفين في القرنين 08-09هـ/14-15م، الأدوار الاجتماعية والعلمية ، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ، المجلد 08، العدد03، جامعة وادي سوف ، الجزائر ، جوان 2023م، ص172

أ- الدافع الديني: فرض الله تعالى الحج على المسلمين بشرط القدرة على توفير الزاد والراحلة فقال تعالى: ﴿وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾. كما روي عن الرسول الله قوله في فضل مكة: ((من أدرك رمضان بمكة فصام وقام منه ما تيسر له كتب الله له مئة ألف شهر فيما سواها، وكتب الله له بكل يوم عتق رقبة وكل يوم حملاً فرس في سبيل الله، وفي كل يوم حسنة، ولي كل ليلة حسنة)). وتدعم ذلك الشوق بزيارة المدينة المنورة والروضة المطهرة وقبر النبي، وجاء في ذلك ما يرغب المسلمين عليه، فروي عنه له قوله في فضل المدينة: ((إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة)). كما روي عنه له قوله في فضل الصلاة بالمسجد النبوي الشريف: ((صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة أو كالألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا أن يكون المسجد الحرام)). وري عنه قوله: ((ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة)).

وتلبية لنداء الله عز وجل فقد تكبد المغاربة السفر الطويل والشاق حتى وصلوا إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام وزيارة النبي الكريم، فمنهم من جاور الموسم الحج ومنهم من جاور سنيينا عديدة، وبقي هذا الشعور يراود المغاربة وتعفو قلوبهم إليه .

ب- الدافع العلمي: يعتبر الدافع الأساسي لعلماء المغرب للمجاورة بمكة، إذ نقرأ في التراجم التي وردت بخصوص العلماء المجاورين أنهم سمعوا من شيوخ مكة أو روي عنهم، أو درسوا هناك، أو حملوا بعض الكتب.¹ وقد اقترن الحج بطلب العلم لدى العديد من النخب العلمية الذين قدموا إلى مكة المكرمة حيث تحقق التلازم الوثيق بين حج العلماء وطلب العلم، ودليل ذلك ما جاء في عدة عبارات دالة على ذلك مثل: " حج وطلب العلم " أو " جاور بمكة وجالس علماء الحرم " أو " حج ولقي مشائخ الحرمين واستفاد منهم "، وهذا كله راجع إلى ما تحظى

¹ - إبراهيم القادري بوتشيش ، المرجع السابق ، ص:99.

به المدينتان المقدستان من تجمع إسلامي كبير في المواسم الدينية وخصوصا فترة الحج، حيث التقى فيهما عدد كبير من العلماء الذين كانوا يتبادلون المناقشات العلمية ويلقون الدروس الدينية، ويقدمون الإجازات العلمية، كما يحصلون هم أيضا على إجازات من العلماء القادمين إليهما أو المجاورين بهما، ولهذا فقد حرص الكثير من علماء المسلمين على المجاورة بالحرمين الشريفين لتوافر المناخ العلمي الذي يعمل على إنعاش الحياة العلمية في العالم الإسلامي.¹ وقد رغب العلماء وطلبة العلم المغاربة في التوجه إلى مكة والمدينة المنورة والمجاورة بهما، وذلك للإطلاع على الاتجاهات العلمية والفكرية لدى علماء المدينة المنورة، نظرا لأن المذهب المالكي هو الرائج في بلدان المغرب، وهو مذهب أهل المدينة.² بالإضافة إلى الحصول على الإجازة العلمية من علماء المدينة المنورة، أو من عاشفيها من المجاورين، والاحتكاك بينهم وبين العلماء الذين يأتون من المشرق الإسلامي في مواسم الحج أو المجاورين منهم..

وإذا كان طلب العلم يشكل الدافع الأساسي لبعض العلماء للقيام بالمجاورة بمكة فإن بعض الزهاد والصلحاء كانوا يجدون في ذلك مايشفي غليلهم الروحي، حيث كانوا يرحلون إليها هروبا من الدنيا وملذاتها والانقطاع للعبادة والتبتل.³

ج -الدافع السياسي: لجأ الكثير من المسلمين إلى الحرمين الشريفين رغبة في البعد عن الفتن والخلافات السياسية التي مرت بها بلادهم⁴، ولذلك فإن العامل السياسي والأمني في بلاد المغاربة كان أهم دافع لهم للهجرة والاستقرار في مكة والمدينة المنورة - وخاصة العلماء

¹ - عبد العزيز بن راشد السنيدي .المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من 750-660هـ/1174-1261م)، بحث مقدم الى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية 1426هـ ، كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

، جامعة القصيم ، المملكة السعودية ، 2001م ، ص23

² - عبد القادر سليمان . مرجع سابق ، ص173

³ - ابراهيم القادري بوتشيش . المرجع السابق ، ص 100

⁴ - سعاد نبيل جمال أحمد . المجاورون في الحرمين الشريفين إبان العصر العثماني (1520-1603م)، رسالة ماجستير

تاريخ حديث ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، مصر ، 2023م ، ص13

منهم. بداية من أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، حين ما حدثت تغيرات عظيمة في شبه جزيرة إيبيريا مروراً بسقوط غرناطة واحتلال الإسبان والبرتغاليين لسواحل بلاد المغرب الأقصى، ووصولاً إلى احتلال الجزائر ثم تونس وطرابلس¹، ثم يتم احتلالها من طرف الاستعمار الأوربي الحديث خلال القرنين ثالث عشر والرابع عشر الهجري التاسع عشر والعشرين ميلاد، وهذا ما دفع بالمغاربة عموماً للهجرة إلى بلاد الحرمين الشريفين، حيث وجدوا فيها الأمن والاستقرار بعيداً عن المشكلات السياسية والأمنية التي كانت تعصف ببلادهم، ناهيك عن الصراعات الداخلية والصراع على السلطة خاصة في ظل وجود الأسر الحاكمة في المغرب الأقصى وتونس وطرابلس، وصراع الطبقة الحاكمة في الجزائر على السلطة.²

د-الدافع الاقتصادي :يعد هذا الدافع من العوامل المساعدة على الجوار في الحرمين الشريفين، ذلك أن منطقة الحرمين الشريفين كانت منطقة آمنة وسوقاً تجارياً كبيراً، نظراً لوجود أعداد كبيرة من المسلمين القادمين للحج، أو العمرة، حيث تعد التجارة فيها مكسباً يحقق للتاجر الكثير من الفائدة فراجت بضائع ومنتجات أهل المغرب من الطرابيش والملابس وغيرها من المنتجات التي يرغب المغاربة في تصريفها وتسويقها في بلاد المشرق عامة والحجاز خاصة، حيث أن عائدات التجارة تدر أرباحاً عظيمة.³ وقد حرصت بعض البلاد الإسلامية على إرسال إعانات وعائدات الأوقاف وأوقاف منقولة الفقراء الحرمين الشريفين والمجاورين بهما، مما شكل مورداً من موارد الرزق لهذه الفئات، وشجع عدداً من الطبقات المتوسطة والفقيرة على البقاء فترات مختلفة في جوار الحرمين الشريفين حيث يتوافر لهم السكن في الأربطة الموقوفة، إلى جانب الأموال التي تصلهم والتي تنفق في منطقة الحرمين

¹ - إبراهيم بن محمد المزني .رحلات المغاربة الى المشرق الإسلامي في عصر الحروب الصليبية ، ندوة بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق حتى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد "التاسع الهجري"، اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ،

1418هـ/1997م، ص337

² - سعاد نبيل جمال أحمد . مرجع سابق ، ص11

³ - عبد الرحمن المودن ، البوادي المغربية ، المرجع السابق ، ص93

الشريفيين، فتخفف على المجاورين فيهما أعباء المعيشة، خصوصا وأن بلدان المغرب قد شهدت مجاعات كانت سببا في رحيل المغاربة إلى المدينة المنورة على وجه التحديد.¹

-كم كانت تستغرق مدة المجاورة بمكة: إن الرغبة الجامحة التي كان يتميز بها العلماء المسلمون جعلتهم يهجرون أوطانهم ليقيموا مدة طويلة في مجاورة الحرم المكي، علما أن الإسلام جعل بناء الشخصية العلمية أمرا ملحا ومطلبا شرعيا، وهو ما تدل عليه النصوص القرآنية، والنصوص الحديثية التي جاءت مساهمة في تحسيس المسلم بضرورة السعي والضرب في الأرض لطلب العلم. لذلك لم يكن يضير المسلم الاغتراب عن وطنه لمدة طويلة، خاصة إذا كان مكان الرحلة يتعلق بمكة المكرمة التي كانت تشكل آنذاك عاصمة ثقافية للعالم.² وقد عرفت هذه الظاهرة منذ ظهور الإسلام³، حيث وفد إلى الحرمين الشريفين الكثير من التابعين وأتباعهم من السلف الصالح، ليقضوا فترة من عمرهم بجوار الحرمين.⁴

03 - دور العلماء المجاورين: الواقع أن ثمة مجموعة من المظاهر الثقافية التي حمل مشعلها العلماء المجاورون بمكة، والتي بوأت هذه الأخيرة مرتبة العاصمة الثقافية للعالم الإسلامي. ويمكن رسم خطوطها العريضة في التجليات التالية:

أ- شكلت المجاورة بمكة فرصة لتجمع نخبة العلماء المسلمين من كافة أنحاء العالم: من خلال تتبع أسماء العلماء المجاورين بمكة، يمكن استكشاف المناطق والأصقاع التي وفدوا منها، والتي تشمل حواضر الغرب الإسلامي ومصر والشام والعراق وإيران وباقي أنحاء

¹ - المهدي الغالي .المرجع السابق ، ص33

² - إبراهيم القادري بوتشيش ، المرجع السابق ، ص 100

³ - الطبري ، المصدر السابق ، ص334

⁴ - نفسه ، ص662

الجزيرة العربية، مما يدل على أن مكة شكلت مركز استقطاب لعلماء الذين كانوا يتجمعون فيها للاستفادة من بعضهم البعض.¹

ب- عقد حلقات دراسية ومناظرات: لم تنحصر رغبة العلماء المجاورين في الجانب الروحي المتمثل في مجاورة الحرم المكي للاعتكاف والزهد، بل كانت غاية العالم المجاور الاستفادة والاستفادة العلمية، ولاغرو فإن تصفح لائحة العلماء المجاورين بمكة تثبت أن معظمهم كان قد حصل على رصيد علمي محترم قبل رحلته إلى مكة، غير أنه كان يطمح إلى المزيد من البحر في مختلف العلوم، ويصبو في نفس الوقت إلى تقديم ما يستطيع من خدمات علمية للحجاج الوافدين على مكة.²

ج- منح الاجازات من طرف العلماء المجاورين بمكة: دأب العلماء المجاورون بمكة على منح طلبتهم إجازات علمية، اعترافا بانتهائهم من السماع وأخذ الدروس.³

د- حمل الكتب والمصنفات: إلى جانب السماع والرواية التي حفلت بها الحلقات الدراسية في مكة من طرف العلماء المجاورين، ثمة مظهر ثقافي آخر من مظاهر ((ثقافة المجاورة)) يتعلق الأمر بحمل الكتب من قبل طلاب العلم والمعرفة عن شيوخهم المجاورين.⁴

من البديهي أن تتمخض عن ظاهرة المجاورة بمكة مجموعة من النتائج يمكن أن نحصرها في استقرار بعض العلماء المجاورين بمكة نهائيا والمساهمة في اشعاعها الثقافي، فنظرا لطول مدة المجاورة بمكة عادة، أثر بعض العلماء المجاورين الاستقرار نهائيا في مكة،

¹ - المهدي الغالي . تجليات التواصل الثقافي ، المرجع السابق ، ص48

² - ابراهيم القادري بوتشيش ، المرجع السابق ، ص:102.

³ - فوزية لزغم . الإجازات ، المرجع السابق ، ص

⁴ - المهدي الغالي . تجليات التواصل الثقافي ، المرجع السابق ، ص49

واتخاذها موطناً إلى أن اخترمتهم المنية، وتثبت في كتب المشايخ والطبقات والتراجم أسماء العديد من العلماء ممن اختاروا الإقامة في مكة، فكان يشار إليهم باسم نزلاء مكة.¹

02- مشاعر فراق الحرمين أثناء التّأهب لرحلة العودة: كانت العادة المتأصلة أن ينادي حكام مكة المكرمة على اثر الفراغ من الحج مرددين "يا أهل الشام شامكم ويا أهل اليمن يمنكم.." داعين الحجاج جميعاً الى مغادرة مكة والعودة إلى بلدانهم². وقد علق على هذه العادة الشيخ ابن مليح السراج بقوله:

ولما بلغنا زيارة أحمد منانا ربنا وشكرناه

سمعنا له صوتاً بتشتيت شملنا فيا ما أمر الصوت حين سمعناه

وقمنا نؤم المصطفى لوداعه ولا دمع إلا للوداع صبيبناه.³

كما أنه في سنة 971هـ/1563م صدر (مثال)-مرسوم سلطاني- مضمونه أن لاتزيد إقامة الركب المصري و الأركاب المغاربية بمكة عن ثمانية عشر يوماً من ذي الحجة وأنالركب الشامي نهاية إقامته إلى الرابع والعشرين منه، ومن امتنع من الحجاج أخرجعنة⁴. أما بخصوص حجاج المغرب العربي، وفي ختام مناسك الحج كانوا يتبادلون التهاني ببلوغ المرام وإتيان الركن الأعظم، وفيهم حتى من كان يهنئ نفسه وينشد الأبيات مثل القادري الذي انشد أبياتا يهنئ فيها نفسه وأصحابه بالحجة المباركة، وبالفوز بهذا الفضل العظيم (بحر الطويل):

هنيئاً لنا فزنا بحج وعمره وحزنا جميع الخير في ظل أحمد

¹ - ابراهيم القادري بوتشيش . المرجع السابق ، ص106

² - أحمد السباعي . المرجع السابق ، ص 400

³ - ابن مليح السراج . المصدر السابق ، ص121

⁴ - عبد القادر الجزيري . المصدر السابق ، ج1، ص776

وزرنا ضريح الهاشمي محمد فيا فوز من أضحي نزيل محمد¹.

ليعتزموا بعد الفراغ من المناسك على شد الرحيل والآوبة نحو اوطانهم، حيث تختلط عليهم المشاعر فرحة وكمد بين مفارقة الحرمين والعودة الى الديار.

فقد وصف الرحالة المغربي ابن مليح السراج هذا بنوع من الحرقه على فراق الديار الحجازية بقوله: "... وودعنا الروضة المشرفة المكرمة، والتربة المقدسة المعظمة، يوم الاثنين السابع من المحرم من السنة المذكورة بعد صلاة الظهر. فياله من وداع ذابت له الأجساد، والتهبت به الأكباد وكاد يتصدع له الجماد.

قد فرق بيننا قضاء الباري فالقلب لذا معذب بالنار

يارب فجُدْ بجمع الشمل بهم ياسميع ياعليم بالأسرار².

وودعته وانصرفت كئيبا من الفراق، شديد الالتفات نحوه بالأسواق، وما ظنك بموقف يناجي بالتوديع، فيه سيد المرسلين، وخاتم النبيئين، ورسول رب العالمين، وخيرة خلق الله أجمعين. إنه لموقف تنتزع فيه الأرواح انتزاعا، وترى الخلق من هوله سراعاً، كل يقاسي مرارة مذاقه، ويبوح لربه بأسواقه، ولا طاقة لأحد على تجرع كأس فراقه، وأنشدوا:

ولقد ندمت على تفرق شملنا أسفا ففاض الدمع من أجفاني

ونذرت نذرا إن ظفرت بعودة لا عُذْتُ أذكر فرقة بلساني³.

فهذا الرحالة ابو سالم العياشي يصف حال خروجهم من المدينة وشد الرحال نحو اوطانهم بقوله: "... فكان خروجنا من المدينة بعد صلاة العصر، عل ساكنها أفضل الصلاة والسلام، عشية يوم الخميس الثاني من محرم فاتح سنة أربع وسبعين وألف... وودعنا النبي

¹ - القادري . نسمة الآس ، المصدر السابق ، ص 104

² - ابن مليح السراج . المصدر السابق ، ص 121

³ - نفسه . ص 122

صلى الله عليه وسلم، وخرجنا نعرثر في أذيال الحسرات، ونتبع الزفرات بالزفرات، وعطف الشوق علينا رجله وخيله، وكأننا لم نبت بطيبة إلا ليلة...¹ حيث أنشد يقول:

ماكان أحلاها ليالي قد مضت بالمكّنين وعينُ دهري غافلة

ماكنت أحسب من حياتي غيرها وأرى سواها من زماني نافلة

أيام جار الله كنت وجار من جمع المحامد والمزايا الكاملة

عُد لي بها يادهر بيعا واحتكم في غيرها تجدني بادلله

عليه صلى الله خير صلاته وأمدني بصلاته المتواصلة.²

أما أبو الحسن اليوسي فيصف حالهم عند الخروج من المدينة بقوله: "ويوم السبت خرجنا عشية النهار، والقلب في زفرات و أكرار..."، وأنشد في ذلك يقول:

بِعَيْنِي رَأَيْتُ الْمَوْتَ عِنْدَ التَّفَرُّقِ فلا عاش من سلى هواكم ولا بقي

وأبعدني من كان سؤلي ومنيّتي فيا ليت شعري هل نعود ونلتقي

بكت مقلتي يوم الفراق تأسفا ولكنها تبكي على حظي الشقي

شوقي إليك وإن نأيت شديد وهواك غض في الفؤاد جديد

طوبى لمن أمسى يراك بعينه وتراه عينك إنه لسعيد

ترى بعد هذا البعد عيني تراكم وتتظركم في عمرها مرة أخرى

ولو أن حيا صار قبراً لنائم لصيرت أحشائي لتربكم قبراً¹

¹ - أبوسالم العياشي . ماء الموائد، ج2، ص401

² - نفسه . ص383

والله ماستحسننت من بعد فرقتكم عيني سواكم ولا استمتعت بالنظر

إن كان في الأرض بعدكم شيء حسن فإن حبكم غطى على بصر

سلام عليكم إن قلبي يحبكم وصح حديثاً من يحب فيعلم

وها أنا قد أعلمتكم بمحبتتي وما القصد إلا أن تحنوا وترحموا.

والله تعالى يصلح النيات ويفرج الكربات².

و كان خروجنا من المدينة المشرفة اليوم الثالث من دخولنا إليها، وقلوبنا تزداد أسفا عليها بعدما ودهنا النبي صلى الله عليه وسلم، وأقبل القلب والقلب عليه، وما سلم، وفارقناه ونحن نعثر في أذيال الحسرات ونتبع الزفرات بالزفرات، وكيف نغالب شوقا جلب علينا رجله وخيله. وخرجنا وللقلوب التفاتاً ت إليه و للجسوم انثناء³

03- آداب العودة من الحج مميزات خط العودة العودة من المدينة المنورة إلى بلاد المغرب، وهي رحلة العودة عبر طريق الذهاب نفسها والملاحظ أن غالبية الرحلات عمدت في سردها الاختصار في وصف محطات طريق العودة، وهذا يعني أنهم كانوا مهتمين بالمحيط والمجال في مرحلة الذهاب، أكثر منه في مرحلة العودة، ولم يسجلوا الأحداث والوقائع المستجدة بتفصيل كبير كما في طريق الذهاب، عدا شذرات من مثال اقامتهم بمصر على طريق العودة، وماقاموا به من الانشطة، أو التوقف بالمحطات المعروفة عبر طريق الركب.

04- وصول ركائب الحج لبلاد المغرب العربي، وعادات استقبال الحجيج: إن زمن غياب ركب الحج عن وطنه كبير جداً، حتى أنهم قالوا عن أركاب الحج في أمثالهم

¹ - أبو الحسن اليوسي . المصدر السابق ، ص ص 154-155

² - نفسه . ص 156

³ - محمد بن الطيب الفاسي ، المصدر السابق ، ص 323

"غدوها عام ورواحها عام"، ونظرا لحجم المتاعب والمشقات التي كان الحجاج يعانون منها في سفرهم ذهابا وإيابا، وظروف رحلة الحج المحاطة بالمخاطر من كل جانب، فقد أصبح أهالي الحجاج يتلهفون لعودة إلى عودتهم سالمين، وكأنهم عائدون من دار حرب وقتال. فأحد الرحالة المغاربة يذكر ذلك صراحة بقوله: "...فالقادم من الحجاز إلى مصر كالمولود الذي خرج من بطن أمه إلى الوجود...".¹

إذ تقصر العبارة عن وصف مظاهر الفرح والنزهة والسرور بمن قدم من الحجاج سالما.² حيث يصف الرحالة ابن مليح السراج ذلك بقوله:

وأعظم مايكون الشوق يوما إذا دنت الخيام من الخيام.

ليضيف على لسان حال من أنشد حول ذلك بقولهم:

ورد البشير بقدومه فملتت من قول البشير سرورا

تالله لو قنع البشير بمهجتي لبذلتها ورأيت ذاك يسير

كأنني يعقوب من فرح به إذ عاد من شم القميص بصيرا.³

كما أن علامة وفاء الحجاج ودوام عهدهم كان يتمثل في: حنينهم إلى أهلهم وإخوانهم، وشوقهم إلى أوطانهم. وهذا ما جعلهم يتمسكون ببلدانهم، وغالبيتهم يفضلون العودة إلى الديار إلا ما ندر منهم فإنه كان يفضل "المجاورة"، فكما ذكرنا أن غالبية أعضاء الركب كانوا يحنون إلى أوطانهم ويأمنون بها ويعملون على الرفع من شأنها.⁴

¹ - أحمد القادري . المصدر السابق ، ص107

² - أحمد بوسعيد . المرجع السابق ، ص213

³ - ابن مليح السراج . المصدر السابق ، ص133

⁴ - عبد الرحمن المودن . مرجع سابق ، ص111

وقد شكلت "الملاقية " التي كانت تقام لأركاب الحج عند عقبة أيلة في الدرب الحجازي فضاء من فضاءات اجتماع السكان الحضر من أهل الشام وغزة ومصر، وتتصب أثنائها سوق كبيرة بين الحجاج ومستقبليهم.¹

أما سكان مدينة القاهرة فانهم كانوا يستقبلون الحجاج بالفول والدقيق وأصناف الطعام الأخرى، فيخرجون إلى بركة الحاج لملاقاة الركب المصري والجزائري غيرهما، والتبرك بمقابلة الحجاج العائدين من الحرمين الشريفين. لأن الأركاب تصل إلى البركة تباعاً. فتمتلئ الطريق منها إلى القاهرة بالأخبية والخيام والأسواق.

05-ظروف إقامة الركب بمصر: "خدمة حسن استقبال الركب": أقيمت خدمة حسن استقبال الركبيالة مصر وبشرافة الحجاز فقط، وذلك لخصوصيتهما بالنسبة للحجاج المغاربة.

فإذا كانت الأولى محطة رئيسة في الاستراحة وفي التزود بضرورات السفر والاستعداد لدرب الحجاز²، فإن الثانية هيالتي تحتضن الحرمين الشريفين، وعلى أرضها تؤدي المناسك لأيام، وفي مسالكها يتنقل الحجاج لمسافة طويلة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بهدف الزيارة.

- **معاملة حكام مصر للحجيج أثناء رحلة العودة:** جَمَعَ حُكَّامُ مصر في موضوع حسن استقبال حجاج بيت الله بين عدد من المتناقضات، فنحن أمام حكام يحتفلون غاية الاحتفال بخروج ركب حجهم وبالركاب الحجية الأخرى الوافدة عليهم، ونحن أمام مآس وقعت للحجاج ويتحمل هؤلاء مسؤوليتها، ويوضع في الاعتبار أن. كانت بالنسبة لعدد مصر من الركاب ومنها المغاربة محطة رئيسة في طريقها نحو الحجاز، ففيها كان القاصدون أداء فريضة الحج يأخذون قسطاً من الراحة قبل إتمام مسيرتهم، وفيها كانوا يبادلون دوابهم المتعبة أو

¹ - أبو القاسم الزباني . المصدر السابق ، ص193

² - أحمد يوسف ، المرجع السابق، ص 147

يتكونها تخلد للراحة أو يبيعونها ويشتررون أخرى¹، أكثر من ذلك أن عدداً كبيراً منهم كان يضطر إلى الانتظار فيها إلى موسم الحج القادم عند الوصول متأخراً. وكنت قد أشرت سالفاً أن الرحالة الناصري ذكر في رحلته الحجية الأولى أن زهاء 2000 مغربي لميحجوا وبقوا بهذا البلد لأنهم وصلوا متأخرين، كل هذه الأسباب جعلت مسؤولية الحاكم المصري اتجاه الحجاج مسؤولية كبيرة. واعترف حجاج المغرب العربي بجميل الحاكم المصري بحق شعيرة الحج عموماً في المناسبات التي لمسوا فيها ذلك، ومن صورة مستوى الترحيب الكبير الذي خص به حكام وأمراء الأجناد بالقاهرة، الركب القادم من الحجاز عام 1122هـ / 1708م ب موضع البركة بمصر، حيث نصبوا الأخبية وبنوا الخيام في سائر الطرقات²، وتكرر المشهد بعد حوالي 18 سنة مع قدوم ركب محمد ابن الطيب الفاسي³، بل ربما يمكن اعتبار الاحتفال بالركب بالقاهرة أو قريباً منها، من ثوابت ولاية مصر. فقد سبق وذكر ذلك الأسير الفرنسي «بيدرو الكاساكوني». « منذ أواخر القرن 18م عندما صرح أن باي القاهرة قدم للحجاج المغاربة المرطبات على العادة عند مرورهم بالأراضي المصرية عائدين منالحجاز⁴.

من جهة أخرى كانت مناسبة خروج «المحمل»⁵ وضمناً. خروج حجاج مصر، مناسبة كبيرة وعظيمة لدى حكام قلعة القاهرة⁶، وشاهده ما نقله لنا حجاج المغارب عند وجودهم بمصر قبيل الذهاب إلى الحجاز، وهم يصفون مراسيم خروج المحمل لقد ميزوا لنا

¹ - استغل الحجاج فرصة النزول في مصر لكراء الدواب: أبو مدين الدرعي. المصدر السابق ، ص83.

² - أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي. الرحلة الكبرى، المصدر السابق ، ج 02، ص 110.

³ - محمد بن الطيب الفاسي . المصدر السابق ، ص171

⁴ - جريمان مويط. رحلة الأسير مويط، ترجمة إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية، المملكة المغربية ، 1990 ، ص90

⁵ - المحمل: «قبة من خشب رائق الصنعة بخرط متقن وشبابيك ملونة بأنواع الأصباغ وعليها كسوة من رفيع الديباج المخصوص بالذهب، ورقبة الجمل وسائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم... ويتبعه جمل آخر مثل صفته، ثم الكسوة المشرفة ملفوفة قطعاً قطعاً». للمزيد انظر: ابوالقاسم الزباني، الترجمانة الكبرى، المصدر السابق ص 204-205

⁶ - القادري ، المصدر السابق ، ص93

في المشاهد بين الخروج الأول والخروج الكبير، فالخروج الأول هو الذي يكون في النصف الأول من شهر شوال «يوم يؤتى بكسوة الكعبة المشرفة من دار الصنعة، فتضرب سحابة على باب القلعة (مقر الحكم فيحضر الصناجق كلهم والولاة والأمراء والحكام والقاضي، كل أتباعه»¹، أما الخروج الكبير فيطابق يوم 26 من شوال ويعد يوماً من «من أيام الزينة، ويجتمع له الناس من أطراف البلد... ويجتمع الأمراء والصناجق والجند جميعاً على الهيئة المقدمة في الخروج الأول، إلا أن هذا أتم احتفالاً. فإذا تكامل جمع الأمراء على الوجه المتقدم.... يحضر ذلكم في الميدان، كل طائفة لها أمير متقدم عليها من الطباخين والفراشين... فإذا مر جميع ذلك بين يدي الباشا جاءت أرباب الطوائف... بشيخهم ولوائهم رافعين جميع أصواتهم بالذكر... ثم يمر بالمحمل وسائر الإبل والعسكر وسط المدينة والناس يشرفون من الديار والمساجد... ويتعطل غالب الأسواق في ذلك اليوم»²، ويتضمن خروج المحمل كذلك تعيين أمين الصرة الذي يخرج في مقدمة الركب و«معه الوزير والأمراء وأهل المناصب كلها وأعيان الناس وعامتهم، بطبول ومزامير وطربيات والخمسة والخمسين والهندقة»³.

جَوَّ احتفالي كبير رسمي وشعبي إذن كانت تعيشه مدينة القاهرة احتفالاً بالحجاج المصريين وركبهم عند الذهاب، لكن هذه الصورة الوردية للاحتفال تعكسها صور أخرى التصقت أيضاً بحاكم مصر في علاقته بهؤلاء، إنها صور حجاج قتلهم العطش أو قتلهم البرد وتركوا جثثهم متناثرة في الطرقات والدواب تدوسها وصور استخلاص المكوس منهم وسرقة أموالهم، وغيرها من المشاهد الفظيعة التي يتحمل أمير الركب المصري مسؤوليته عنها وضمنياً مسؤولية والي القاهرة، فهو من ألبس الأمير حلة إمارة الحج.

¹ - ملاحظات ا ابو القاسم الزباني أثناء وجوده بمصر عائداً من الحج للمزيد انظر: ابو القاسم الزباني، الترجمانة الكبرى،

المصدر السابق، ص 204

² - احمد بوسعيد، المرجع السابق، ص 209-210.

³ - المرجع السابق، ص 174.

وقد ذكر ابن ناصر الدرعي سنة 1711م أن ركبه -وهو يسير وراء الركب المصري وجد في الطريق رجلين من الركب المصري ميّتين بالبرد فواريناهما، يقول الدرعي¹، وأن حجاج الركب ذاته أخبروه عن حالهم مع البرد وأنه « قتل منهم واحداً أو اثنين ليلة العقبة، وقتل² قرب عجروما ينيف على الخمسين (50) نفساً³. وذكر كذلك الهشتوكي في السنة ذاتها عن حجاج بأعداد كبيرة توفوا عطشا وبقيت جثثهم ملقاة على جنبات طريق درب الحجاز، ولم يتم دفنها⁴. أما الإسحاقى فذكر عام 1731م عن أكوام من عظام الحجاج في «بندر الوجه» على جنبات الطريق⁵.

وهذا أبو مدين الدرعي يخبرنا عام 1154 هـ / 1741م عن مشهد مأساوي مشابه على الطريق بين موضع «الدركين» و«اصطبل عنتر»، حيث «عظام الموتى والإبل بأرحائها، لا تقدر ولا تحصى⁶، وبعده ذكر ابن عبد السلام الناصري في رحلته الثانية عام 1796م عن عدد كبير من الموتى في موضع «الأزم» ولا أحد اهتم بدفنهم⁷، بل يصبح المشهد فظيماً للغاية وهو يتحدث عن هياكل مشتتة لحجاج في بقية الطريق على جوانب الجادة، والبهاائم تدوسهم، حول ولا قوة إلا بالله عهدتهم - يقول الناصري - على الأمير وعلى كل منله طاقة⁸. ولم يكن عدم دفن جثث الحجاج هو وحده ما أخلف فيه المسؤولون المصريون واجبههم تجاه ضيوف الرحمان.

¹ - أحمد الدرعي، الرحلة الكبرى، ج 1، ص 149.

² - كلمة غير موجودة في النص الأصلي، وتمت إضافتها.

³ - أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، ج 1، ص 161.

⁴ - أحمد الهشتوكي، رحلة الهشتوكي، ص 245.

⁵ - الشرقي بن محمد الإسحاقى، رحلة الإسحاقى، ص 211.

⁶ - أبو مدين الدرعي، المصدر السابق، ص 205.

⁷ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الصغرى. المصدر السابق، ص 103.

⁸ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، المصدر السابق، ج 1، ص 360.

إن صفة حاج لم تشفع لعابر مصر أنيسدواجباً جبائياً للسلطة، لقد لاحظ ابن ناصر الدرعي عند دخوله البلاد في بداية القرن 18م ما كان يكابده الحجاج من المكاسين¹ وما لحقهم من ضرر منه²، ولاحظ الإسحاقي مرة أخرى بعده بحوالي 62 سنة أن المكس بمصر «هو على ما يباع وإن قل ثمنه وعامة المال الذي يجمعونه للسلطة وغيرها من المكوس³، وحاول المؤلف أن يرجع بنا إلى جذور هذه الظاهرة من خلال تذكيره لنا بما قاله العبدري قبله بخصوصها وما مورس على الرعية من ظلم جراءه⁴، وتناول الشاوي المزامزي الموضوع من ميناء الإسكندرية عندما اكتشف أن اليهود كانوا هم المسؤولين عن التفتيش واستخلاص الرسوم بالميناء، وحدثنا عن الظلم الذي لحقه هو شخصياً من ذلك، وأخبرنا أنه توجه إلى مفتي الإسكندرية لإنصافه من مظلمته⁵.

وظاهرة تكليف الذميين بقبض المكوس من الحجاج في مصر أثارت انتباه محمد بن عبدالسلام الناصري هو الآخر في أواخر القرن 18م، ففي سانية السويس عند العودة «قبض المكوس الموظفة على الحجاج، والمتولي القبض ذلك من المسلمين بعض الإفرنج من النصارى⁶.

وليست الجباية هي آخر ما عاناه الحجاج من ولادة الأمر بمصر، لقد حدثنا الرحالة المغاربة عن الظلم الذي كان يلحق بهؤلاء من الجنود المصريين وهم في طريقهم بين مصر والحجاز، لقد كان ابن الطيب الفاسي يتجرع ألماً شديداً وهو يصف اجتيازه المرحلة الفاصلة بين موضع «البويب» وموضع «المصانع» عند رجوعه من الحج بأنه: "يوم تقطر فيه

¹ - يقصد بالمكاسين الموظفين الذين يأخذون ضريبة المكس، وهي ضريبة كانت تفرض على أبواب الأسواق في المغرب.

² - أحمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ج 2، ص 110.

³ - الشرقي بن محمد الإسحاقي. لمصدر السابق، ص 172.

⁴ - أحمد بوسعيد، المرجع السابق، ص 112.

⁵ - عبد الرحمن المزامزي الشاوي، رحلة القاصدين، ص 17.

⁶ - محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الصغرى، ص 110.

الدموع ويطول فيه الوقوف والوقوف.. لشدة ما يحصل لها من جور الجنود.. فما من فقير إلا ويحتاج إلى غني يسعفه وإلى عادل من ظلامته ينصفه"¹، وهذه هي الأوصاف نفسها تقريباً التيوردت عند الزياني في وصف هذه المرحلة الجغرافية².

ولا يلقى ركب الحج المغاربي خصوصاً الجزائري من الود والضيافة في سائر المدن التي يحل بها مثل الذي يلقاه في مدينة طرابلس الليبية، حيث يفرح الفضلاء والأعيان من ساكنة المدينة ونواحيها بمقدم الركب وعودته، فيكرمونه وفادته وينافسهم في ذلك عامة أهلها، وهكذا ماشه به جُل الرحالة الذين دونوا رحلاتهم³.

فقال المجاجي (الطويل)

طرابلس المعلوم بالجدود أهلها وفيها رجل مشهور بالولاية

وأهلها ضيفوا الركب كله وقد أبذلوا مجهودهم بالكفاية⁴.

فالكثيرون من الحجاج في ذلك الزمان كانوا يكبرون في أهل طرابلس شغفهم برؤية ركب الحج، وإتيانه أفواجا، فهم في نظر الحجاج الجزائريين أهل اعتقاد ومحبة، يتبركون بالحجاج، ويطلبون منهم الدعاء، وقد ألقوا مرة الحجاج الجزائريين، جائعين نهمين للأكل بسبب الجفاف وطول السفر ونفاذ الزاد، فأطعموهم اللحم والخبز والتمر والفطير⁵.

كان أهل القرى والمدن الجزائرية يستقبلون الحجاج بالطبول والمزامير، وإقامة الولائم والأفراح، وتجديد واجهات المنازل وفرشها، لا فرق في ذلك بين أمير أو فقير⁶.

¹ - محمد بن الطيب الفاسي . المصدر السابق ، ص 184.

² - أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، ص218.

³ - أحمد بوسعيد ، المرجع السابق ، ص:207.

⁴ - عبد الرحمن المجاجي . المصدر السابق ، و 15

⁵ - الحسين الورثاني . المصدر السابق ، ج 03، ص249

⁶ - لوسيت فالنسي . المرجع السابق ، ص109

وحيثما حل الركب يلقي الضيافة والبشاشة من لدن سكان القرى والمدن التي تملأ طريقه، بدءا من مداخل البلاد الشرقية. فيزدحمون رغبة في الوصول إلى الحجاج إلى درجة "النهم والتقبيل والمعانقة" ¹.

ومن نماذج الكرم والقرى اللذين دأبا عليهما سكان المدن والقرى الجزائرية في ملاقة ركب الحج العائد. خروج أهل "الزربية" الواقعة على الطريق بين توزر و الزاب لإيقاف سير الركب، من أجل نزوله عندهم وإطعامه، والسلام على أمير الركب "بصفة ملحة" ².

فلم يكن بمقدور ركب الحج حينها أن يجد في السير داخل إقليم إيالة الجزائر، حيث يمتلئ الوعر والسهل بالناس البسطاء الذين يرغبون في رؤية الحجاج، واغتنام البركة، وطلب الدعاء منهم. لما ورد من أن دعاء الحاج مستجاب مادام في الطريق ولو طالت ³.

أما أهل "برج زمورة" من القبائل الصغرى فقد خرجوا عن بكرة أبيهم لاستقبال الحجاج ببنادقهم وغيرها من ألعاب الترفيه والفرح، ثم انقسموا على أنفسهم طوائف، كل طائفة تريد أن تطعم الحجاج، وتعرض عليهم المبيت عندها، حتى وصل تنافسهم إلى درجة الفتنة ولهج بسبب ذلك، ثم آل الأمر في الأخير إلى إحدى الطائفتين غلبة وقهرا ⁴.

كما كان "أهل القنادسة" البعيدين عن منافذ دخول الركب يستقبلون الحجاج الجزائريين الواصلين والمغاربة العابرين، بسباق الخيل وضرب البارود. اظهرا للفرح والسرور ⁵.

¹ - نفسه . ص110

² - عبد الرحمن المجاجي . المصدر السابق ، و07

³ - أحمد بوسعيد . المرجع السابق ، ص214

⁴ - الحسين الورثاني . المصدر السابق ، ج03، ص374

⁵ - احمد ابن ناصر الدرعي . المصدر السابق ، ص732

وتتماثل صور العادات في استقبال الحجاج، وتتشابه في كامل أرجاء البلاد من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، ضرب ولعب بالبارود، وذبح للأنعام، وضيافة للجميع.¹

ويطول أمد الضيافة واستقبال المهنيين بسلامة العودة من الحج إذا كان الحاج من علية قومه معروفا فيما جاورها.²

وعلى ذكر امد الضيافة فإنه قد يتجاوز المعتاد، فيتضاعف عدد الزوار والمهنيين أضعافا كثيرة.³ فهذا الرحالة المغربي ابن مليح السراج يروي عن انباء عودتهم انهم أقاموا ثلاثة أيام في ضيافة أهالي درعة بقوله: "فنزلنا بها منزلا رحب فنأؤه، متسع فضاءه، حسن المنظر، طيب المخبر، مياهه عذبة، ومراتعه خصبة..."⁴

وهذا الرحالة الورثلاني يصف أجواء التهنئة بالحج عند الجزائريين في النصف الثاني من القرن الـ12هـ/18م. قائلا: "تأتي إلينا الوفود من كل وطن، تبلغ تارة ألفا، وتارة أكثر من ذلك نحو ألف وأربعة مائة، ثم كذلك على حسب القلة والكثرة. إلى أن انقطعوا في مدة طويلة نحو الشهرين."⁵ وهي علامات تؤكد مدى ارتباط الجزائريين بركب الحج والحجاج.⁶

ويقول ابن مليح السراج عن طريقة استقبالهم: "فخرج أرباب البلد خاشعين، متضرعين باكين، من ألم الشوق، يتطارحون على أخفاف الإبل، ويطلبون من الركب الدعاء، ويتبركون بمصافحتهم، وتقيل الأيدي..."⁷.

¹ - أحمد بوسعيد . المرجع السابق ، ص214

² - نفسه ، ص208

³ - نفسه ، ص209

⁴ - يقصد مسكن بني حيون ، للمزيد ينظر : ابن مليح السراج ، المصدر السابق ، ص132

⁵ - الحسين الورثلاني . المصدر السابق ، ج03، ص385

⁶ - أحمد بوسعيد . المرجع السابق ، ص208

⁷ - ابن مليح السراج . المصدر السابق ، ص133

وكانت عادة الركب أن يوجهوا المبشرين والكتب لإعلام أهالي بقرب اطلالة الركب عليهم، حيث يقول السراج في ذلك "فوجهنا الكتب للبلاد مبشرات للأهل والأولاد، ومخبرات بقضاء الأوطار ونيل المراد، فالحمد لله مسبح النعم على العباد...".¹، ونفس الكلام يؤكد الرحالة أبو سالم العياشي حيث يذكر في رحلته أن الحجاج بعد قربهم من حدود أوطانهم يرسلون المبشرين لأهاليهم بقرب وصولهم. حيث يقول: "...ومن هناك بعث الحجاج المبشرين إلى بلادهم مراكش ومكناسة وفاس وتافيلالت، وبعث أصحابي معهم بكتاب إلى اخواننا واختصرته غاية، وكان في ضمنه بيتان وهما (الطويل)

حملت جنين الشوق في بطن مكة زمانا إلى أن آن منها انفصاله

فزاد نموفاستوى عندما غدا ثلاثين شهرا حمله وفصاله

ومن ضمن الكتاب أيضا بيتان آخران قد حازا من البلاغة مثل الذي قبلهما أو أوفر نصيبا وهما: (طويل):

ألا عم صباحا منزلي بين أطلال ودم ذا صفاء من تغير أحوال.²

كما أن أهالي الحجاج كانوا يردون على كتب الحجاج بنفس أسلوب الشوق والبهجة بلقياهم -وبعد تجاوزنا وادي درعة تلقنا كتب الأهل والأقارب، واستنشقنا منها أريج الحبايب، ولسان الحال يقول:

وافى الكتاب كان مسكا خطه والقلب من فرط الصباية يخفق

والياسمين حكتة قطعة صفحة بيدي روائحه إذ يستنشق

فقرأته ومدامعي منهمة واللفظ درقد حكاها المنطق

¹ - نفسه . ص 134

² - أبو سالم العياشي. ماء الموائد، المصدر السابق ، ج 02، ص 549

كانني حطام توقد صدره وكأنه مزن معين مغرق

ياكاتبا يشكو بكثرة شوقه أنا إلى لقياه منه أشوق

لاتجزعن من البعاد ووقعه فلكم بعيد بالتوصل يلحق

وغذا المقادير ساعدت لمقدر فله من الشيق التوسع.¹

-وخرج المبشرون صبيحة يوم العيد قبل طلوع الشمس، وبقينا بعدهم إلى أن صلينا مع أهل البلد.الذين جاؤوا من مراكش ومكناسة، وأخبرونا خبر الغرب..... ووجدنا المبشرين الذين بعثناهم...والتقنا غاشي بلادنا، ومن يخبرنا ببعض خبرها، ولم نلق قبل ذلك من عنده من يشفي من الخبر...²

وهناك جاءنا بعض "الملاقين" ووردت علينا رسائل أصحابنا تهنينا بما أمطرته من ودق الحج والزيارة غمام سحابنا، وتأملنا تلك الرسائل البديعة التي حازت حسن الخطاب و بديعه، واستغنينا عن الاستراحة بما وجدناه في أخبار الأحباب من الراحة..³. وقد أوسع كل واحد منا أطعمة الملاقاة جاره "⁴..

ويذكر ابن الطيب الفاسي أنهم قبل دخولهم إلى مدينة فاس أظعنوا بسهل بمكان يسمى القنطرة، حيث أغدق عليهم الملاقون بأنواع الأطعمة ليصف ذلك بقوله:"وظعنا يوم الاثنين الخامس من الشهر، فأصبحنا القنطرة، نتعم في المطاعم والمشارب...وجاءنا سيدي عبد الرحمن اليومي المذكور من أنواع الأطعمة فيها بما لا يزال عليه نفس المحمود

¹- ابن مليح السراج ، المصدر السابق ، ص ص134-135

²- أبو سالم العياشي . ماء الموائد، المصدر السابق ،ج2، ص530

³- محمد الطيب الفاسي ، المصدر السابق ، ص324

⁴- نفسه ، ص325

المشكور، وكذلك رفيقنا شيخ الإسلام أبو محمد عبد السلام فقد وافى بطعام يكفي حامله ما يقرب عام...¹.و كم كانت الفرحة عظيمة بقاء الأقباء والأحبة.

حيث يصف المجاجي ذلك بقوله:

ويجمع الله الشنتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وألفت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب مسافر.²

وحتى ممن تعذر عليهم الرحلة كانوا يستغربون من قدرة الحجيج على فراق الحرمين والأوبة إلى أوطانهم، فهذا شاعر يرسل أبياتا يعبر فيها عن شوقه إلى البيت الحرام، ويتعجب فيها من قدرة الأركاب على مغادرة الديار الحجازية

حيث قال أبو بكر بن بقي السلوي الواعظ:

كيف أنتم سمح الله لكم ؟ كيف ودعتم هناك الرسلا ؟

كيف لم تتضج قلوب حرقا ؟ كيف لم تجري عيوننا هملا ؟

ليت أني تربة الوادي إذا مرت العيس لثمت الأرجلا.³

لا يغفل الحاج هم كذلك عن إكرام أهاليهم ومستقبلهم بهداياهم

فالحجاج الجزائريين كانوا يكرمون مستقبلهم بهادايا تتمثل أساسا في "... ماء زمزم، الذي يجلبونه معهم في قوارير من صفيح أو نحس اصفر، فيتلقاه الناس باممتان كبير وفرح

¹ - نفسه ، ص 326

² - عبد الرحمن المجاجي . المصدر السابق ، ص 198.

³ - محمد المنوني . المرجع السابق ، ص 45.

غامر، ويرتشفون منه قليلا، ويمسحون ببقيته وجوههم رؤوسهم، ويرفعون ايديهم بالدعاء طالبين من -الله عزوجل- ان يتيح لهم فرصة الحج إلى بيته العتيق.¹

¹ - جوزيف بيتس . المصدر السابق ، ص52.

خاتمة

ختاما لهذه الدراسة توصلنا إلى جملة من الاستنتاجات يمكن أن نلخصها في النقاط

التالية "

يتبين لنا من خلال دراسة ركب الحج المغربي خلال القرنين ال17 وال18 الميلاديين، أن هذه الظاهرة كانت أكثر من مجرد رحلة دينية موسمية ؛بل كانت مؤسسة تاريخية متكاملة، مثلت حلقة وصل حقيقية في قلب الشبكة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمغرب العربي.

فمن الناحية السياسية جسد الركب تجسيدا عمليا لسيادة الدول المغربية وهيبتها.فتنظيم القافلة وتأمينها وتزويدها بالدعم الضروري كان عاملا سياديا يبرز قوة الدولة ويدعم شرعيتها الدينية في الداخل، ويظهر هيبتها أمام السلطنة العثمانية في المشرق والممالك الأوربية في الحوض الغربي للمتوسط.كما كان أفراد الركب بمثابة سفراء وأداة فعالة في ادارة العلاقات مع هذه الدول.

اقتصاديا: كان الركب شريانا تجاريا حيويا يربط المكعرب العربي بمصر والحجاز وحتى افريقيا جنوب الصحراء ؛بما أن القوافل لم تكن تحمل الحجاج فقط ؛ حمولات متنوعة من بضائع وسلع خاصة المشرقية منها، حيث وفرت هذه الرحلات المنظمة والأمنة أحيانا إطارا مؤسسيا آمنا كذلك للتجار.مما عز التكامل الاقتصادي وحقق أرباحا ساهمت في اغناء خزينة الدول

وعلى الصعيد الاجتماعي والثقافي كان الركب بمنزلة حاضنة للتبادل العلمي والثقافي.لقد سهل لقاء علماء المغرب العربي بنظرائهم في المشرق، ونقل الكتب والعلوم، وجدد المعارف، كما كان وسيلة لتقوية أواصر الانتماء إلى العالم الإسلامي الأوسع، حيث كان الحاج المغربي يعود إلى وطنه محملا ليس فقط بلقب "الحاج" ؛بل أيضا بأفكار جديدة واتصالات علمية وروحية ساهمت في تقوية النسيج الثقافي للمجتمعات المغربية.

تعددت التأثيرات الثقافية لركب الحج في بلاد المغرب العربي بتعدد البيئات التي تنتمي إليها الروافد الثقافية، وهذه الروافد هي التي غذت الحركة الفكرية في الحواضر التي يمر بها الركب، ومن أهمها رافد الاحتكاك والتقاء العلماء ببعضهم البعض، كما أن تداخل هذه الروافد ترك بصماته واضحة في الحياة الثقافية لهذه الحواضر. ما خلق دافعية وحركية ثقافية وعلمية، وذلك لوزنه الديني ووقعه في النفوس مقيما كان أو مرتحلا.

شكل الركب تراثا علميا حافلا بالمشاهدات والمناظرات، والمجالات العلمية، هذا فضلا عن جهد العلماء الذين كانوا يرحلون مع الركب، وكان نواة أساسية في بلورة التبادل الثقافي، وإذكاء توهجه في كل بقعة يحل بها أو يمر عبرها، ووطدت هذه الرحلات الحجية العلاقات العلمية ورسخت تقاليد ثقافية متميزة، باعتبارها كانت همزة وصل دائمة ومحورا أساسيا من محاور التفاعل الثقافي.

ما تضمنته الرحلات المدونة من معلومات وإجازات وتراجم تعبر على مستوى التواصل بين علماء العالم الإسلامي التي لم تنقطع حتى في فترات الضعف والتفكك السياسي؛ فالمطلع على هذه المدونات يتضح له جليا أن الباعث عليها إلى جانب تأدية فريضة الحج، هو خدمة العلم وليس فقط طلبه.

خلاصة القول: إن ركب الحج في المغرب العربي خلال هذه الفترة لم يكن مجرد رحل دينية؛ بل كان ظاهرة تاريخية شاملة، ومرآة عكست قوة دول المنطقة في عصرها الزاهر، وساهم في تكاملها الاقتصادي، وحيويتها الثقافية، وتحدياتها المجالية. وكان تراجع هذه الظاهرة لاحقا مؤشرا على تحولات عميقة شهدتها العالم الإسلامي عموما ومنطقة المغرب العربي بالخصوص.

الملاحق:

ملحق رقم 01: صورة قديمة للكعبة المشرفة

|

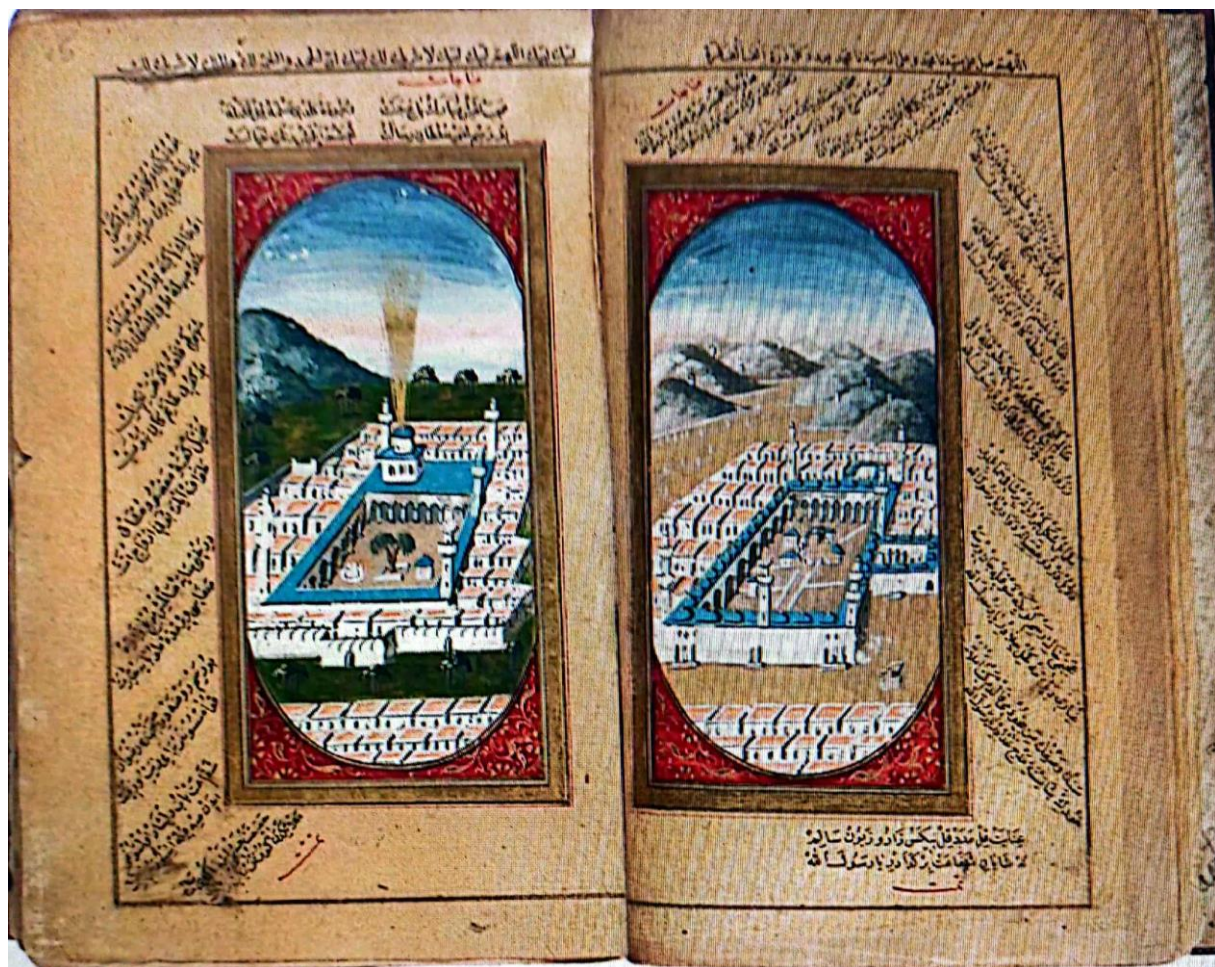


*SNOUCK HURGRONJE: BILDER AUS MEKKA, LEIDEN,
BRILL, 1889,*

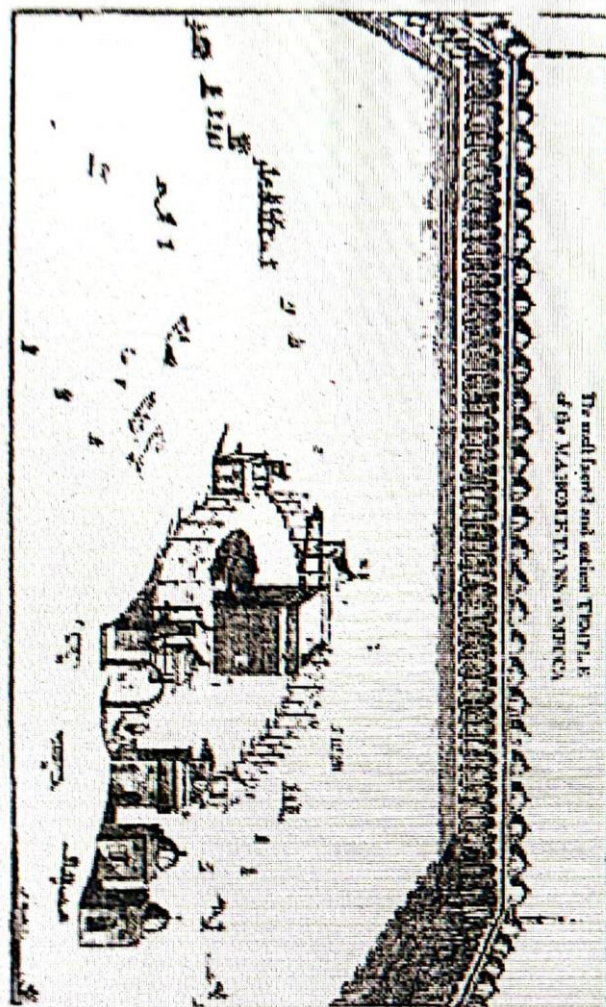
{197}

ملحق رقم 02: مخطط للحرمين الشريفين خلال القرن الـ18 الميلادي من كتاب دلائل

الخيرات



ملحق رقم 03: مخطط للمسجد الحرام سنة 1091هـ/1680م، بيد حاج جزائري

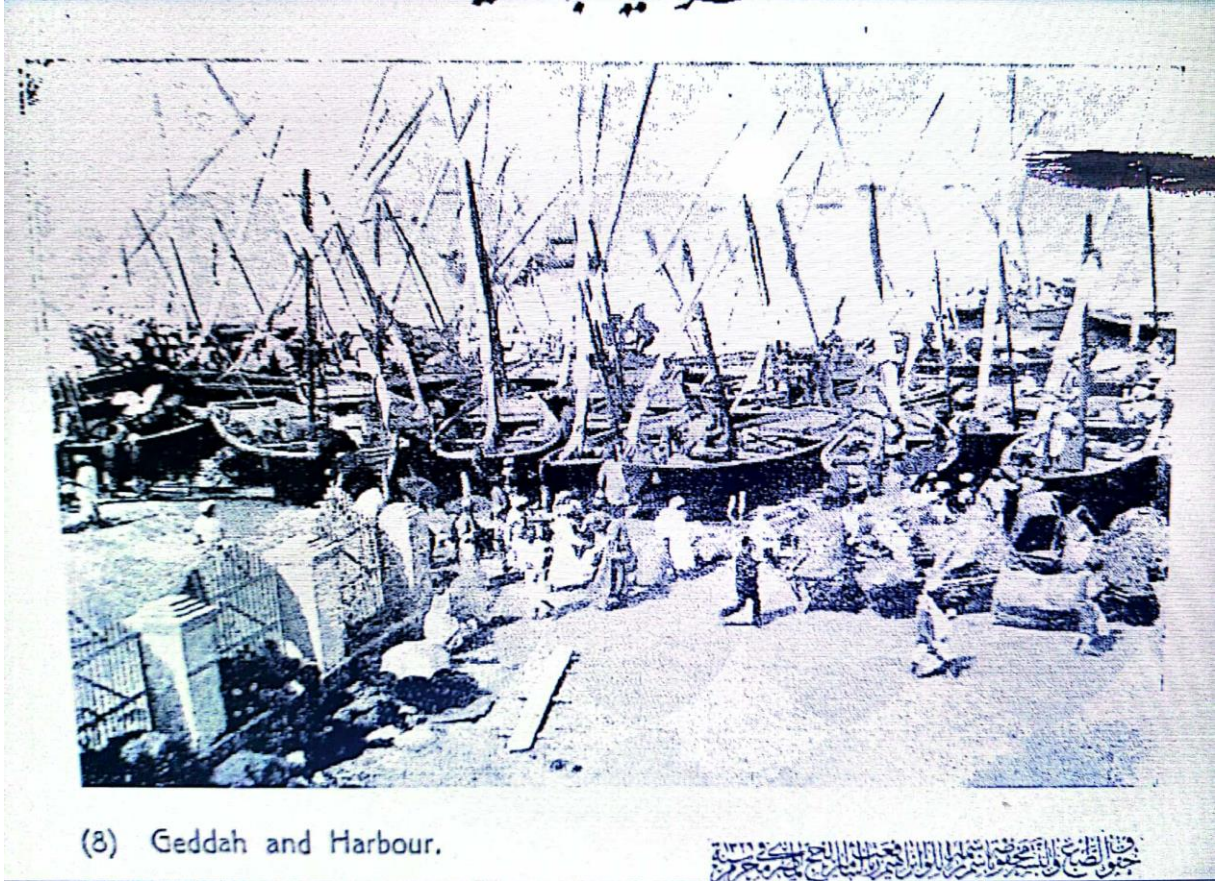


رسالة حذيفة - ١٧

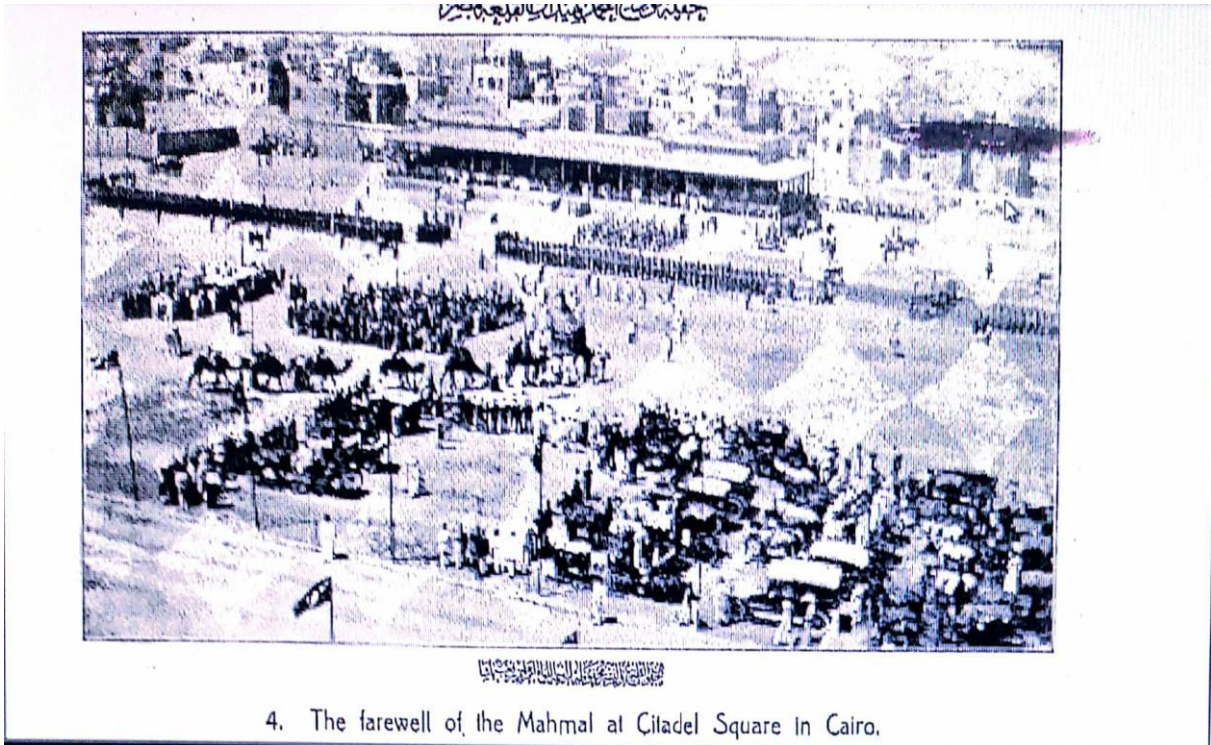
جوزيف بنس، المصدر السابق، ص 17.

[286]

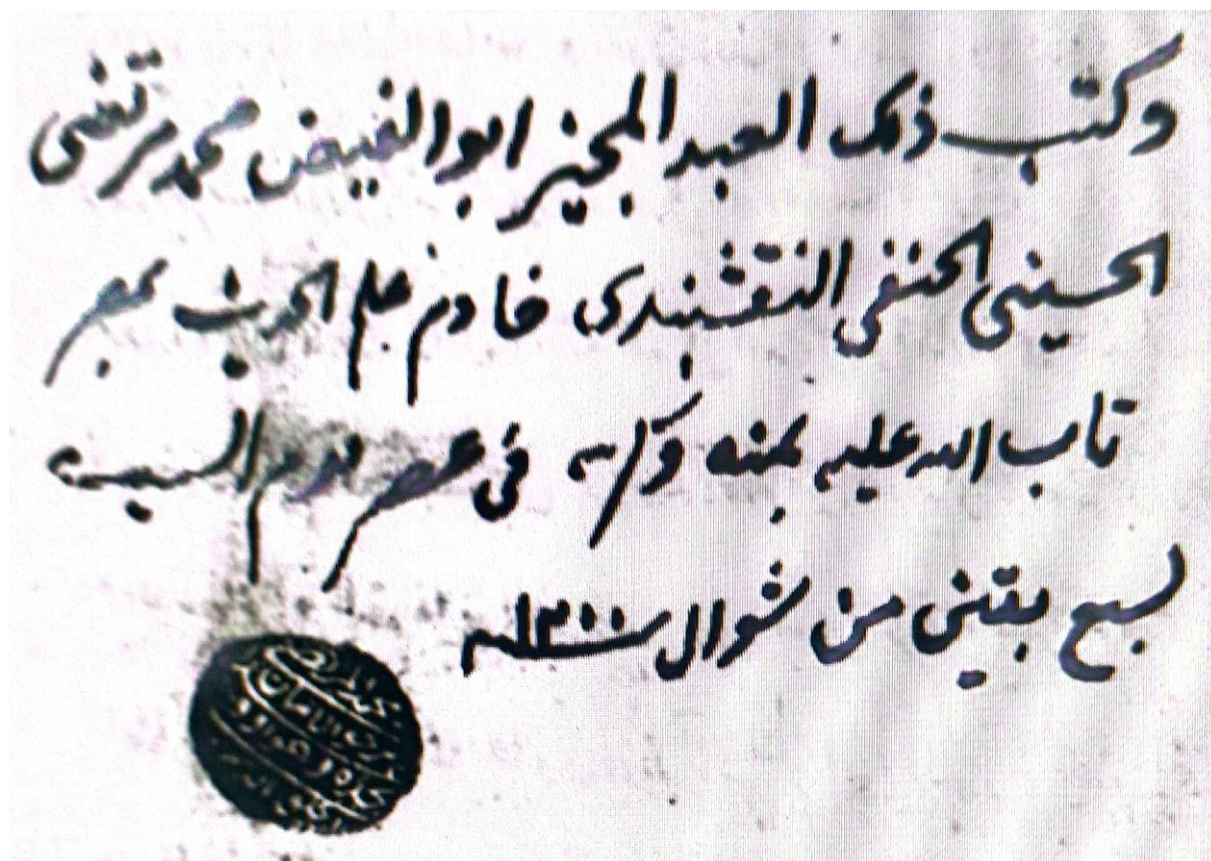
ملحق رقم 04: الركب البحري ينتظر الإقلاع من ميناء جدة



الملحق رقم 05: صورة للمحمل الشريف



الملحق رقم 07: نموذج لإجازة مرتضى الزبيدي لبعض العلماء



–الترقيم من: 653-691 لسنة 1810

[illegible]

الأرشفيف الوطنى التونسى)

الحول والفتنة والاسماع على ركن الله
صلواته عليه ومع

بما زاد هو مطلوب السبع كما جاز في فيه
بما عثر السبعواية على الله في العوا
الغنيض بياض اللوكب التوسيع
ببب الله الخ وزمارة في تبيسة
عليه اسكن به الف الف الف الف الف
الله تعالى وذلك مؤمنون وامن
معاليه وسعته اياهه ولياليه امين

ما اوله فمصور جئا

مع زوج اخيه

مع زوج ضا جو كخه في مامنها

مع فمكار في شمع للامان في الحسب

مع فمكار محاسن للفتاليه وعمي كسا

مع زوج مواكبه مؤنجل مع وجبت

في بصور كمرية للبا مابا في افس

وللبا مابا معي

مع اربعة ابغال

مع اربعة اراواح كوربو محبو بالجلو

الكوساله

مع عتي اذرع ملف مسمود

مع منكب في بعد

ونسوا كله في جاف الرسول

صلواته عليه ومع قليل وكبح في ذلك

الثواب للجسيم مواجبا ببح كثر

السننة مع انما كانت في زمنا سادنا

والله في بحكم وانتم الحول اعلموا ان

سواء الله تعالى في كذا القور كذا

مع اذ موسام ملثا به زمنا سبانا
رحم الله جميعكم مثل الحاج على اياه
على مؤل فرحوم بافتل كافت سبنا
الحوم تاصم اخذوا كذا في ذنا نفس
مع اذ كذا كيمت لسيما وقع ورمعة
لفر وكبح في ابي محمل وكبح في الوعاء
لصالح في كذا كذا في كذا وكذا
بما كذا وكذا في كذا وكذا
وكم كذا وكذا في كذا وكذا
٨٨



21

البيبلوغرافيا:

قائمة المصادر باللغة العربية:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

1. البُرْتُليّالولائيالحاج محمد البشير بنّابي بكر. الرحلة إلى الحرمين الشريفين (1204-1206هـ/1789-1791م) أقدم رحلة شنقيطيةمدونة "الرحلة المباركة"، تحقيق ودراسة عمرو عبد العزيز منير، دار بريل للنشر،ليدن،هولندا، 2021م
2. - الشنقيطي أحمد ابن الأمين. الوسيط في تراجم ادباء شنقيط، مكتبة الخانجي،القاهرة، 1989م .
3. الفراء الحنبلي أبو يعلى محمد بن الحسين . الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان، 1421هـ/2000م.
4. الهشتوكي أحمد. رحلة الهشتوكي، مخطوط المكتبة الوطنية رقم 147ق، المملكة المغربية.
5. ابن أبي الضيافأحمد .اتحفاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج02،تحقيق: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، والدار التونسية للنشر، 1977م.
6. - ابن حمادوش الجزائري عبد الرزاق.رحلته، تحقيق أبو القاسم سعد الله ، طبعة وزارة الثقافة،الجزائر، 2007م .
7. ابن خلدون عبد الرحمن. المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م
8. الإسحاقى أبو محمد الشرقي بن محمد . رحلة الوزير الاسحاقى الحجازية، دراسة وتحقيق محمد الأندلسي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1438هـ/2017م.
9. البغدادى محمد بن ابى بكر بن رشيد. القصيدة الذهبية في الحجّة المكية والزورة المحمدية، تحقيق محمد بن إسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع،القاهرة،ط03، 2006م.

10. التمكروتيعلي بن محمد . النفحة المسكية في السفارة التركية (1589م)، تحقيق محمد الصالحي، ط01، المغرب، 2007م.
11. التونسي محمد بن عمر. تشحيز الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل محمود عساكر ومصطفى مسعد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965م. - البرثليمحمد بن أبي بكر الصديق. فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ / 1981م .
12. الجزيري محمد بن عبد القادر. الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص
13. الجودي محمد بن محمد صالح . رحلة محمد الجودي (مفتي القيروان) إلى الحج- 1362هـ/1934م-، تحقيق المهدي عيد الرواضية، ط01، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مركز دراسة المخطوطات الإسلامية، تونس، 1441هـ/2021م.
14. الحضري أحمد بن محمد. مختصر حسن الصفا والابتهاج في ذكر من ولي إمارة الحج، تحقيق: محمد بن ناصر التماسحي، ط 1، مكتبة زهراء الشرق القاهرة 2006م.
15. الدرعي أحمد بن محمد بن ناصر. الرحلة الناصرية، حققها وقدم لها عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوالظبي، الإمارات العربية لمتحدة، 2008/2009م.
16. الرعيني القيرواني محمد ابن ابي دينار بن ابي القاسم. المؤنس في أخبار افريقية وتونس، دار المسيرة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط03، 1993م.
17. الريفي عبد الكريم بن موسى . زهر الأكم مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل دراسة وتحقيق آسية بتعدادة، الرباط، ط01، 1992.
18. الزهار أحمد الشريف. نقيب الأشراف، مذكرات نقيب الأشراف (1754-183)، تحقيق توفيق المدني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م.

19. الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1979م.
20. السنهوري يسن ابراهيم. الأنوار القدسية في مناقب السادة النقشبندية، مطبعة الساعدة، مصر، سنة 1344هـ.
21. الضعيف محمد بن عبد السلام. تاريخ الضعيف، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، دار المآثورات، المملكة المغربية، ط 01، 1985م.
22. العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد المالكي الفاسي. المدخل لابن الحاج، مكتبة دار التراث، القاهرة، ج 04، د.ط.
23. العياشي عبد الله بن محمد . ماء الموائد، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي، ط 01، الجزء الأول، أبوظبي، 2006م.
24. القيسي ابن مليح أبو عبد الله محمد بن احمد. أنيس الساري و السارب، تحقيق محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس، فاس، 1968 م.
25. الكنتي الشيخ سيديخليفة . الرسالة الغلاوية، تحقيق حماه الله ولد سالم، دار الكتب العلمية، بيروت،.
26. المكناسي محمد بن عبد الوهاب ابن عثمان . البدر السافر لهداية المسافر إلى إفتكاك الأسارى من العدو الكافر، تقديم وتعليق د. عبد الهادي التازي، المجلة العربية، الرياض، ط 01، 1443/2012م.
27. الورثي لانيال حسين بن محمد. نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة ببيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1326هـ/1908م.
28. بن ميمون الجزائري محمد . التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم الجزائري، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1981م.
29. شالرويليام، مذكرات ويليام شالر-قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1840، تقديم وتعريب: اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

30. كاثارت جيمس لياندر، مذكرات أسير الداى كاثارتقنصل أمريكا في المغرب، ترجمة اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
31. مقيدشمحمود. نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق على الزاوي ومحمد محفوظ، ج02، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988 م.
32. مويطجرمان، رحلة الأسير مويط، ترجمة إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، المملكة المغربية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1990م.
33. هونرمانفريديريك. الرحلة من القاهرة إلى مرزق عاصمة فزان عام 1797م، تعريب مصطفى محمد جودة، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1968م.
34. ابن حوقل، صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، هولندا، ط02، 1983م.
35. أبو حامد أحمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج02، دار الكتب العلمية، ط01، بيروت، 1986م.
36. الأغواطي الحاج بن الدين. رحلة الأغواطي، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
37. البوني أحمد ابن قاسم. الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تقديم وتحقيق أ.د سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عناية، الجزائر، 1428هـ/2007م
38. التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد . رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس..
39. الجبرتي عبد الرحمان. عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، ج02، جمهورية مصر العربية، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1997م.
40. الحُصَيْنِيأبو عبد الله محمد بن أحمد . الرحلة الحجازية، تحقيق وضبط عبد العالي لمدير،، الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط01، الرباط، المغرب الأقصى، 2011م..
41. الخرشي، الخرشي على سيدي خليل ج07.

42. - الديرمي كمال الدين. حياة الحيوان الكبرى، تحقيق محمد فاضلي، ط01، أبحاث للنشر والترجمة والتوزيع، ج01، الجزائر، 2007م.
43. السراج الوزير محمد. الحل السندسية في الأخبار التونسية، تح: محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970م.
44. السنوسي محمد، الروض الزاهر في إسناد الحبس للإسلام الباهر.
45. العدوي. حاشية العدوي، ج02.
46. العياشي أبو سالم. إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، تقديم وتحقيق محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 1999م.
47. العيدروس عبد القادر. النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق محمد الأرنؤوط وأكرم البوشي، دار صادر، بيروت، 2001م.
48. الغرناطي أبوحامد، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، الجزائر، 1989م.
49. الققصي ابن راشد البكري المالكي. لباب اللباب - المطبوع في تونس - 1346هـ، دون تحقيق.
50. القلقشندي أبو العباس، صبح الأعشى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، 1393هـ/1983م .
51. المسعودي محمد الباجي. الخلاصة النقية في أمراء افريقية، ط02، مطبعة بيكار، تونس، 1323هـ/
52. المكناسي محمد بن عبد الوهاب بن عثمان . الإكسير في فكاك الأسير،، تحقيق محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965م.
53. الناصري أحمد بن خالد. كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج07، دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1997.
54. اليسجني المصعبي إبراهيم بن باحمان الثميني، رحلة المصعبي، تحقيق يحي بن بهون حاج احمد، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م .
55. اليوسي ابوالحسن علي. المحاضرات، أعدها للطبع محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976م.

56. اليوسي محمد العياشي بن الحسن. رحلة اليوسي (1101-1102/1690-1690)، تحقيق أحمد الباهي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، تونس، 2018م.

57. بن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد. رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، 1407هـ/1987م.

58. عبد المجيد الزبادي المنالي. بلوغ المرام بالرحلة الى بيت الله الحرام، تحقيق محمد زينهم ومحمد عزب، القاهرة، 2006م.

59. -الخطاب، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع.

60. -الخرشي محمد بن عبد الله (ت.1101هـ)، شرح مختصر خليل للخرشي، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان.

61. -الونشريسي. المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف للمملكة المغربية، ج01.

قائمة المراجع باللغة العربية:

1. التازي عبد الهادي. جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري و الفكري، دار نشر المعرفة، الرباط، 2000م

2. الجاسر حمد. رحلات حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1400هـ / 1980م

3. سابق السيد. فقها السنة، المجلد 03، دار الفكر العربي، بيروت، 1403هـ/1983م

4. فهمي علي عمر سميرة. إمارة الحج في مصر العثمانية، جمهورية مصر العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م.

5. آرشيبالد لويس. القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ترجمة محمد أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية،

6. إترعيز سامح . الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ط01، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1989م
7. الجاسر حمد. مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد) لعبد الله بن محمد العياشي المتوفى سنة 1090هـ، دار الرفاعي، ط01، الرياض، السعودية، 1404هـ/1984م
8. الحامد نورة بنت معجب بن سعد. الصلات الحضارية بين تونس والحجاز "دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية (1256-1326هـ/1840-1908م)، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1426هـ/2005م
9. الخليفتي محمد. الدرة الجلية في مناقب الخليفة، تحقيق أحمد عمالك، كلية الآداب، ج02، الرباط، 1406/1983م
10. الشاهدي الحسن. أدب الرحلة في المغرب العصر المريني، منشورات دار عكاظ، 1990م
11. الشريف محمد الهادي. تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ الى الاستقلال، تعريب - محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط03، دار سيرا للنشر، تونس، 1993م
12. الصلابي علي محمد . المعجزة الخالدة (الاعجاز العلمي في القرآن الكريم)، براهين ساطعة وادلة قاطعة، دار المعرفة، بيروت، 2013م
13. العروي عبد الله. مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط01، 1994م
14. المودن عبد الرحمان. البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر منشورات كلية الآداب، الرباط، المملكة المغربية، 1995م
15. النحوي خليل. بلاد شنقيط المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987م
16. اندرلي جوليان شارل . تاريخ افريقيا الشمالية، تعريب محمد مزاين والبشير بوسلامة، ج02، ط03، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978م
17. أيوب محمد سليمان. مختصر تاريخ فزان، المطبعة الليبية، طرابلس، 1967م

18. بلحميسيمولاي. الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
19. بن المحبوبي محمد بن أحمد. أدب الرحلة في بلاد شنقيط خلال القرنين الثالث والرابع عشر الهجري (19-20)-مقاربة وتنتظير-، مطبعة المنار، نواقشوط، 2012م.
20. بن رجب رضا. يهود البلاط ويهود المال في تونس العثمانية 1685-185، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط01، 2010م
21. بن شقرون محمد بن أحمد. مظاهر الثقافة المغربية (دراسة في الأدب المغربي)، دار الثقافة، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1406هـ/1985م
22. بوكبوط محمد. السلاطين العلويون والأمازيغ، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط،
23. حبلوص مصطفى سالم عبد الله. أدب الرحلات عند العرب، نشأته وتطوره ابن بطوطة أنموذجاً، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية سلسلة الدراسات التاريخية (95)، الجماهيرية العربية الليبية، ط01، 2009م
24. حماش خليفة. صُرة الحرمين الشريفين الجزائريّة -أحد مظاهر إدارة المال العام وانتقاله بين الجزائر والجزيرة العربية في العهد العثماني، نسخة الكترونية بمناسبة عيد الطالب 19 ماي، جامعة المير عبد القادر للعلوم افسلامية، قسنطينة، الجزائر، 1442هـ/2021م
25. حماش خليفة. كشافوثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف الوطني التونسي، الجزء الأول، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة قسنطينة، الجزائر، 1437هـ/2016م
26. -خريسات محم وأخرون. تاريخ الحضارة الإنسانية، دار الكندي للنشر والتوزيع، ط01، الأردن، 1999 م
27. خلاف عبد الوهاب، علم أصول الفقه، مكتبة الدعوة الإسلامية، مصر، 1387هـ/1956م

28. داود محمد. تاريخ تطوان، مطبوعات معهد مولاي الحسن بتطوان، دار كريماس للطباعة، المجلد 02، المملكة المغربية، 1963م
29. سعد الله أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 1998م
30. عبد الغني أحمد. عارف تاريخ أمراء المدينة المنورة، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق (دت)
31. عبدالمعطي حسام محمد. العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط01، القاهرة، 1999م
32. عزي عبد الرحمن. التواصل القيمي في الرحلة الورثيانية، المؤتمر الدولي "ثقافة التواصل"، دار كنوز الحكمة، الجزائر، 2021م
33. عقباوي عزيز. النفحات البهية في أفنان الشجرة الكنتية، مطبعة عزي، الجزائر، 2015م
34. علوي حسن حافظي . دراسات صحراوية، الماء والإبل والتجارة، دار أبي الرقاق للطباعة والنشر، الرباط، 2014م
35. غطاس عائشة. الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م
- فاضل بن احمد محمد. تحقيق ديوان البشير بن امباركي، جامعة نواكشوط، 1990م.
36. فالنسي لوسيت. المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830، ترجمة الياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1980م.
37. فهمي نورالدين. التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى العاشر الميلادي، تعريب محمد قاسم عبده قاسم، دار الوحدة، بيروت، 1980م.
38. فهميم حسين محمد. أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت، 1989 م.
39. قشي فاطمة الزهراء. مؤسسة الأوقاف في قسنطينة في العصر الحديث.

40. هنية عبد الحميد. تونس العثمانية - بناء الدولة والمجال -، منشورات تبر الزمان، تونس، 2012م.
41. وولف بابتست جون. الجزائر وأوربا 1500-1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط2، لبنان، 2005 م
42. إروينزوبرت. الجمل "التاريخ الطبيعي والثقافي"، ترجمة: احمد محمود، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات، 2012 م .
43. آصاف عزتو يوسف بك. تاريخ السلاطين العثمانيين من أول نشأتهم حتى الآن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014 م.
44. لأنصاري ناصر. المجلد في تاريخ مصر: النظم السياسية والإدارية، ط2، مصر، دار الشروق القاهرة، 1997م
45. البزاز محمد امين. الاختراق التجاري الفرنسي للجزائر.
46. البزاز محمد الأمين . تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992م.
47. البشروش توفيق. جمهورية الدايات في تونس (1591-1675)، مجموعة أيام الناس، تونس، 1992 م.
48. البوعبدلي المهدي. التعريف بالكتب والمخطوطات.
49. الزحيلي وهبة. الوصايا في الفقه الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1987.
50. السباعي أحمد. تاريخ مكة - دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ج01، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، 1419هـ/1999م.
51. السعداوي أحمد. تونس في القرن السابع عشر، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، 2011م.
52. الشامي علي صلاح الدين. الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف، ط2، الاسكندرية، مصر، 1999م.

53. العربي إسماعيل. الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م .
54. القدوري عبدالمجيد. المغرب وأوربا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000م.
- المغرب وأوربامابين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، ط02، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2012م.
- المنوني محمد. ركب الحاج المغربي، مطبعة المخزن، تطوان، المغرب الأقصى، 1953م.
55. أميلي حسن. الجهاد البحري بمصب أبي الرقراق خلال القرن السابع عشر الميلادي، ط01، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2006م .
56. بن سودة عبد السلام. دليل مؤرخ المغرب الاقصى، دار الفكر للطباعة والنشر، الرباط المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 1997م.
57. جغلار يوسف . كولن صالح .المحمل الشريف ورحلته الى الحرمين الشريفين،ترجمةد.حازم سعيد منتصر وأحمد كمال،دارالنيل،ط01،القاهرة،مصر،2015م.
58. حوتية محمد الصالح. آل كنتة.
59. زيادة نقولا. الجغرافيا والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، 1987، بيروت،.
60. - سعد الله أبو القاسم. شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م.
61. ----- . تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م .
62. ----- . تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 1998م.
63. ----- . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج02.

64. ----- تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 01، 1998م.
65. سعيد الحلواني. العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن ال19م، دار الكتب المصرية، مصر، 1999م.
66. صلاح ماجدة مخلوف. الخدمات والمرافق العامة في مكة المكرمة في العهد العثماني 923-1235هـ / 1517-1916م، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية 1426هـ، كلية الآداب، جامعة عين شمس .
67. عمالك أحمد. جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية، دار أبي لرقراق للطباعة والنشر، ج01، الرباط، 1427/2006م.
68. فال محمد مولود بن أحمد. مجموعة مؤلفات، مطبعة النصر، انواكشوط، 1983م.
69. قطب سيد. في ظلال القرآن، ج06، ط17، دار الشروق، القاهرة، 1412هـ
70. كاريت. الإستكشاف العلمي للجزائر خلال أعوام 1840-1842، أبحاث حول الجغرافيا والتجارة في الجزائر الجنوبية، ترجمة حمزة المين .
71. مروش المنور. دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج02 (القرصنة الأساطير والواقع)، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر.
72. منجزات جمعية علماء سوس، الطبعة الأولى، المملكة المغربية، 2008/1428م.
73. نصار حسين محمد. أدب الرحلة. الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط01، مصر، 1999م.
74. ولد ايده أحمد مولود. الصحراء الكبرى مدن وقصور، الجزء الأول، دار المعرفة، الجزائر، 2009م .
75. -العجيلي التليلي. أوقاف بلاد الحرمين الشريفين بالبلاد التونسية، منشورات مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس، 2015م.

76. -برنشفيك. تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13م إلى القرن

ال15م، ترجمة حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م

77. -حركات إبراهيم، المغاربة والبحر، المندوبية العامة لقضاء المحاربين، المملكة

المغربية،

78. يعقوب بن محمدي، تحقيق ديوان عبد الودود بن محمد أحمد، المدرسة

العلياء لآستاذة، نواشوط، 1987م

قائمة المعاجم باللغة العربية:

1. أبادي مجد الدين الفيروز . القاموس المحيط، المجلد الأول، دار

المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط،

2. بن فارس أبي الحسين أحمد. معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار

الفكر، 1999، مادة (جوز)، الجزء 01

3. جبور عبد النور. المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، 1979،

4. أبادي محمد بن يعقوب الفيروز. القاموس المحيط، تحقيق مكتبة تحقيق التراث، إشراف

- العرقسوسي محمد نعيم. مؤسسة الرسالة، ط8، مادة (جوز)، 2005

5. ابن منظور جمال الدين محمد، لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف يوسف خياط،

دراسات لسان العرب، بيروت، لبنان، د.ط،

6. أنيس إبراهيم وجماعته، المعجم الوسيط، ج01، دار الفكر، د.ط،

7. قائمة المقالات والمداخلات العلمية باللغة العربية:

8. الأخضر محمد. الأدب المغربي على عهد الدولة العلوية، العصر الأول (1139 -

1171 هـ / 1727 - 1757م)، مجلة المناهل، الرباط، عدد السنة الأولى، نوفمبر

1974.

9. بن قايد عمر. هاجس البحث عن الماء في المسالك الجزائرية من خلال بعض كتب الرحلات المغربية خلال القرنين 11-12هـ/17-18م، مجلة روافد للبحوث والدراسات، العدد 09، جامعة غرداية، الجزائر، ديسمبر 2020م
10. بن قوما رجلول. هاجس الأمن عند ركب الحجاج المغاربة من خلال الرحلات الحجية (17-18م)، مجلة الحوار المتوسطي، مج 12-13، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ديسمبر 2017م
11. بوزيد الأمد. الأسرى المغاربة في أوروبا في الفترة 1772-1775م من خلال الأرشيف الوطني التونسي، مجلة أسطور، العدد 06، قطر، تموز/يوليو 2017
12. بوكبوط محمد. جوانب من تاريخ المغرب في القرن الثامن عشر: أزمة عبيد البخاري - أزمة المخزن والمجتمع (1727 - 1757م)، المجلة التاريخية المغربية، السنة 19، العدد 65 - 66، 1992،
13. حبوسة أبوبكر . دور الوقف في دعم المؤسسات الخيرية بالجزائر، مجلة الإجتهد للدراسات القانونية والاقتصادية، مجلد 07، عدد 04، جامعة سطيف، الجزائر، 2018
14. الحزماوي محمد. الصّرة السلطانية لعلماء القدس الشريف وفقرائها في العهد العثماني، 1111 - 1317 / 1770 - 1900م، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 04، العدد
15. حماش خليفة. المصادر الوطنية عن الأسرى الجزائريين في أوروبا، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 45-46، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات
16. ----- . دكان الحرمين الشريفين في مدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدارة، العدد 01، السنة 36، دارة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، محرم 1431هـ
17. دهان سليمان. تنظيم ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني بين تلبية المقدس والتواصل الحضاري، مجلة أفكار وآفاق، العدد 09، الجزائر، 2017

18. رولفس. رحلته إلى ليبيا، ترجمة محمد غانم، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، جانفي، 1989
19. شافعي لمياء أحمد عبد الله. "الصّرة العثمانية الموجهة إلى مكة المكرمة 974-791هـ / 1389-1566م، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 54 مكة المكرمة، محرم 1433هـ
20. الشرعة فاعور إبراهيم. موقف القبائل البدوية من قافلة الحج الشامي والخط الحديدي الحجازي في القرن 19 وبداية القرن 20، مجلة الدارة، دارة الملك عبد العزيز، العدد 04، الرياض، 1426هـ
21. شرف مموسى. أخبار العلم والعلماء بأرض الحجاز من خلال الرحلات المغربية: رحلة أبي سالم العياشي وابن الطيب الشرقي والهلالى نموذجاً، مجلة قضايا تاريخية، المركز الجامعي نور البشير، البيض، العدد 07، 2018،
22. صابان سهيل. مخصصات القبائل العربية من واقع الصّرة العثمانية عام 1192هـ 1778م، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك فهد، العدد 20، 1429..
23. عمالك أحمد. إسهام الزاوية الناصرية في ربط الصلات بين بلدان الشمال الإفريقي خلال القرنين 11 و12هـ/17 و18م، مجلة دار النيابة، العدد 22، السنة 1989
24. الغالي المهدي. تجليات التواصل،
25. الفاطمي محمد. الرحلة الحجية القورارية من خلال أنموذج قصيدة الشوق (مجهولة المؤلف)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد 06، العدد 03، جامعة الشهيد حمة لخضر، وادي سوف، الجزائر، 2020،
26. الفقيقي محمدالكبير. الدور الاجتماعي والاقتصادي للقوافل التجارية الحجية بالصحراء الجزائرية أثناء الفترة الحديثة، مجلة دراسات، جامعة بشار، مجلد 04، العدد 02، ديسمبر 2015
27. قدوري الطاهر. مسالة القرصنة أو الجهاد البحري في المغرب الإسلامي: دراسة مقارنة، مجلة عصور الجديدة، العدد 02، وهران، الجزائر، جوان 2020م

- a. قدوري الطاهر . مسالة القرصنة أو الجهاد البحري في المغرب الإسلامي:
دراسة مقارنة، مجلة عصور الجديدة، العدد 02، وهران، الجزائر، جوان
2020م
28. قريتلي حميد. الأهمية التاريخية للرحلة الحجازية "رحلة الحسين الورتيلاني -
أنموذجاً"، مجلة دراسات تاريخية، العدد 01، المجلد 10، الجزائر،
1443هـ/2022م
29. كاريت، الاستكشاف العلمي للجزائر خلال أعوام 1840-1842-1841، أبحاث
حول الجغرافيا والتجارة في الجزائر الجنوبية، ترجمة حمزة المين يحيوي، ط01، دار
المعرفة، الجزائر، 2016م
30. مبارك زكي . الجهاد البحري في الغرب الإسلامي "المفهوم الإسلامي والمفهوم
المسيحي، ثلا ب وءمجلة البحث العلمي، السنة الإحدى والثلاثون، جامعة محمد
الخامس، الرباط العدد45،،1998م
31. مجلة الفكر العربي، عدد خاص بالرحلات العربية والرحلات، العدد 51- محمد
الحجوي، الأهداف الدينية والعلمية لرحلة علماء الغرب الإسلامي إلى المشرق، مجلة
المناهل، العدد 85، المغرب الأقصى، 1998
32. -منير عبد العزيز و باعثمان محمد. طريق ركب الحج الشنقيطي من خلال
رحلة الحاج محمد البشير بن الحاج أبي بكر بن الطالب محمد بن الطالب عمر البُرْتُلي
المتوفي سنة 1214هـ/1800،
33. ولد الصفدن محمدالراضي. رحلات الحج و أثارهاالثقافية في بلاد الشناقطة
خلال القرنين 12و13هـ، رحلة سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم نموذجا، مجلة
الدراسات التاريخية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، نواكشوط، العدد 01،
سنة 2013م

قائمة المراجع باللغة الفرنسية:

1. SANAE EL OUARDRHI ET SORAYA SBIHI. littérature de voyage ou voyage de littérature ; revue languées ,cultures et sociétés , vol04,numéro 01 ;Maroc ; juin 2018,p58.
1. –COLLES LUC ,littérature comparée et reconnaissance interculturel, Bruxelles ,deboeck– dculot,1994.p:65.
2. – P.BOYER:introduction à une histoire intérieure de la régence d'Alger in r.h.n.478.puf.1966
3. 1 – P.BOYER: des pachas triennaux a la révolution d'ali khodja 1587–1571 ; in r.h.n.495
4. –WATBLED. PACHAS DEY.R.A.N
5. –THOMAS MAGGIL. NOUVEAU VOYAGE A TUNIS ?EDITEUR DE DICTIONNAIRE DES SCIENCES MEDICALES ?PARIS ?1815 ?P10.
6. 1– peyssoneel et despontaines: voyages dans la régences de tunis et d'Alger (1783–1786).présentations et note de lucette valensi. paris , publication centre national de lettre ,1987,p59.
7. –Braithwaite.J: Histoire des révolutions dans l'empire du Maroc depuis la mort du dernier empereur MuleyIsmael, pierre mortier Amsterdam, 1973:..
8. LuganBernard: Histoire du Maroc des origines a nos jours , Criterion, Paris, 1992, p.180Abi Michel Histoire du Maroc, éditions perrin, Paris 2009
9. 1–Brignon Jean et les autres. Histoire du Maroc, Hatier, Casablanca, 1967
10. *Caillé jaques petite histoire du Maroc code série de le mat de moulay Ismail – (1727–1850).snellus de librisie et édition alantique. Casa, 1992.7 12.
11. 1–De ohenier. M: Recherches historiques sur les maures et l'histoire de l'empire de Maroc, paris 1787 T 3

12. 1-LuganBermand: Histoire u Maroc des origines a nos yours.
Criterion, Paris, 1992
13. – De la Vérone Chantal: Vie de Moulay Ismail, roi de Fes et de
Muroc, d'après Joseph de León (1708–1728), étude et édition,
publication du centre d'études islamiques et banales d'histoire comparée
n° 206, librairiearia lisse Paul Gunther. paris , 1974,
14. 1 –André Raymon,Les provinces arabes du XVIe–XVIIIe et
Architecture des pays arabes à l'époque ottomane
15. in Histoire de l'empire ottoman, France, Fayard, 1989,
16. mauny(r) , tableau géographique
17. 1-puigadeau(o.du), arts et coutumes(ii,
18. – monod Théodore, méharées terres d'aventure, édition acte
sud France, France, 1999
19. 1-albert devoulx:notes histouriques sur les mosquées et autres
édificees religieux d'alger:n24–25:revue africain.
20. –encyclopédie de l'islam ; nouvelle édition ,leiden e.j.brill,pays
bas ,1971 ,tom3, p1046–
21. 1-le petit la rousse.France.matière corsaire ;grand format. Edition
2005
22. pierre dan .histoire de barbarie et des ses corsaire.récollet imp..du
Roy.seconde édition.paris.1636.
23. –jean –Michèle venture de paradis. Tunis et Alger au XXVIe
siècle.mémoire et observassions rassemblés et présenté par joseph
couq. édition sindibad.paris.1983
24. 1 –plantet plante Eugene.correspondance des deys d'Alger avec
la cour de France 1579–1833.ti.II. paris.1989
25. 1– Henri Dalmace DE GRAMMONT, histoire d'Alger sous la
domination turque1515–1830 Ernest Leroux. Editeur .paris.1887.
26. 1-belhamissi mouley.Histoire de la marine algérienne 1518–
1830.enal.alger.1986

27. – heinemann ;h ;quarantaine ;poèmes,preface de serge
brindeau ;illustrations de gasqui ,m, heinemann ,h
28. anne brogini ; une activité sous contrôle l’esclavage a malte al
époque moderne , cahier de la méditerranée , n87 , centre de le
méditerranée moderne et contemporaine , 2013
29. 1– vertot làlbé ,histoire des chevaliers de malte ,the new yourk
public library,usa,1897
30. 11–charle brouchier.correspondances des consuls de France à
Alger (1642–1792).inventaire analytique
31. des article.a.eb1/115à145.paris.2001.
32. 1–la vice– amirale jurien de la gravie,les chevaliers de malte et
la marine de philippe2,tome1,libraire plon,paris ,1887,p149.

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
01	مقدمة
11	الفصل الأول: ركب الحج المغاربي "رحلة النشأة ومسارات التطور
11	المبحث الأول: التقاطع المفاهيمي بين الركب والرحلة الحجية
38	المبحث الثاني: بلاد المغرب العربي الحديث بين التحديات والتحويلات "صراعات القوبالسياسية ومسارات البقاء
72	المبحث الثالث: الحركة العلمية والأدبية بين بلدان المغرب العربي وتأثيراتها على نشاط الركب
97	الفصل الثاني: ركب الحج المغاربي -البنيّة والتنظيم
97	المبحث الأول: إمارة الحج في بلدان المغرب العربي "التجهيز والتشكيل البشري
126	المبحث الثاني: أنواع الركب الحجي المغاربي ودروبه
155	المبحث الثالث: جهود السلطة المركزية في تنظيم وإدارة الحج
182	الفصل الثالث: أنشطة ركب الحج "الآثار والمعوقات
182	المبحث الأول: المنشآت والمرافق الخدمائية
215	المبحث الثاني:موارد ركب الحج
238	المبحث الثالث: تجليات التواصل بين الركب ومحيطه "التأثير والتأثر
286	الفصل الرابع: أنشطة الركب "الآثار والمعوقات
286	المبحث الأول:معوقات الركب الحجي المغاربي
314	المبحث الثاني:الجهود المبذولة لتأمين ركب الحجيج
341	المبحث الثالث: خط عودة الركب إلى بلاد المغرب العربي ومميزاته
367	خاتمة
370	الملاحق
380	الببليوغرافيا
400	فهرس المحتويات
403	ملخص الدراسة

ملخص الأطروحة

ملخص الأطروحة

الملخص:

إن الهدف من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على ركب الحج المغاربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. وذلك بالخوض في تاريخ تأسيس الركب الحجى المغاربي ، والعوامل المؤثرة في بُنْيَتِهِ وتركيبته ودروب سير هذا الركب ، كما سعيينا إلى تقصي دور السلطة المركزية في تنظيم ورعاية الركب ، ودور الرعية في تكوينه .كما عملنا على استقراء دور الركب في ربط بلاد المغرب بأرض المشرق بحكم أن موسم الحج يشكل مناسبة دينية ذات دلالة زمنية وموعد رسمي لالتقاء المسلمين في مكة مرة كل سنة.

الكلمات المفتاحية : ركب الحج – بلدان المغرب – القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين – الحرمين الشريفين.

Abstract :

The aim of this study is to shed light on the maghrebi pilgrimage caravan (rakb al-hajj)– during the seventeenth and eighteenth centuries CE. To this end , we delve into the history of the establishment of this caravan ,the factors influencing its structure; composition; and the routes it followed. We also sought to investigate the role of the central authority in organizing and overseeing the caravan ,as well as the role of the subjects in its formation.

Furthermore, we endeavored to examine the caravans role in connecting the Maghreb lands with the mashreq ,given that the pilgrimage season constitutes a religious occasion with significant temporal meaning, and an official annual rendezvous for Muslims to gather in Mecca.

Keywords:

Hajj caravan – Maghreb countries – the seventeenth and eighteenth centuries CE– the two holy mosques.

Résumé:

L'objectif de cette étude est de mettre en lumière la caravane du pèlerinage maghrébin (–rakb al –hajj–) aux xv^{le} et xviii^{le} siècle .pour ce faire ,nous abordons l'histoire de la fondation de cette caravane , les facteurs influençant sa structure , sa composition ainsi que les itinéraires qu' elle empruntait. Nous nous sommes également attachés à examiner le rôle de l'autorité centrale dans l'organisation et la supervision de la caravane ,ainsi que celui des sujets dans sa constitution .par ailleurs , nous nous sommes efforcés d'analyser le rôle de cette caravane dans l'établissement de liens entre les pays du Maghreb et le machrek , étant donné que la saison du pèlerinage constituer une occasion religieuse à portée temporelle significative ,et

un rendez –vous officielle annuel pour la rencontre des musulmans à la Mecque.

Mots-clés :

Caravane du pèlerinage(rakb al-hajj)– pays du Maghreb– xvllle et xvllle siècle– les deux saints mosquées(la Mecque et médine)–

